السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

(دروس وعبر)

تأليف
د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الأول

السيرة النبوية

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *}

مُقَدِّمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله.

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: ١٠٢] .

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *}[النساء: ١] .

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١] .

يا ربِّ! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك. لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرِّضا.

أمَّا بعد:

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهمِّيَّتها لكلِّ مسلمٍ ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ؛ من أهمِّها: الاقتداء برسول الله (ص) من خلال معرفة شخصيَّته (ص) ، وأعماله ، وأقواله ، وتقريراته ، وتكسب المسلم محبَّة الرَّسول (ص) ، وتُنمِّيها ، وتُباركها ، وتعرفه بحياة الصَّحابة الكرام ، الذين جاهدوا مع رسول الله (ص) ، فتدعوه تلك الدِّراسة لمحبَّتهم ، والسَّير على نهجهم ، واتباع سبيلهم ، كما أنَّ السِّيرة النَّبويَّة توضح للمسلم حياة الرسول (ص) بدقائقها ، وتفاصيلها منذ ولادته؛ وحتى موته ، مروراً بطفولته ، وشبابه ، ودعوته ، وجهاده ، وصبره ، وانتصاره على عدوِّه ، وتُظهِر بوضوحٍ: أنَّه كان زَوْجاً ، وأباً ، وقائداً ، ومحارباً ، وحاكماً ، وسياسيّاً ، ومُرَبِّياً ، وداعيةً ، وزاهداً ، وقاضياً ، وعلى هذا فكلُّ مسلم يجد بُغيته فيها[(١)].

فالدَّاعية يجد له في سيرة رسول الله (ص) أساليب الدَّعوة ، ومراحلها المتسلسلة ، ويتعرَّف على الوسائل المناسبة لكلِّ مرحلةٍ من مراحلها ، فيستفيد منها في اتصاله بالنَّاس ، ودعوتهم للإسلام ، ويستشعر

الجهد العظيم الَّذي بذله رسول الله (ص) من أجل إعلاء كلمة الله ، وكيفية التَّصرُّف أمام العوائق ، والعقبات ، والصعوبات ، وما هو الموقف الصَّحيح أمام الشَّدائد ، والفتن.

ويجد المربِّي في سيرته (ص) دروساً نبويَّةً في التَّربية ، والتأثير على النَّاس بشكلٍ عامٍّ ، وعلى أصحابه الَّذين ربَّاهم على يده ، وكلأهم بعنايته ، فأخرج منهم جيلاً قرانياً فريداً ، وكوَّن منهم أمَّةً هي خير أمةٍ أخرجت للنَّاس؛ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وأقام بهم دولةً نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها.

ويجد القائد المحارب في سيرته (ص) نظاماً محكماً ، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش ، والقبائل ، والشعوب ، والأمَّة ، فيجد نماذج في التخطيط واضحةً ، ودقَّة في التنفيذ بيِّنةً ، وحرصاً على تجسيد مبادىء العدل ، وإقامة قواعد الشُّورى بين الجند والأمراء ، والرَّاعي والرَّعيَّة.

ويتعلَّم منها السِّياسيُّ كيف كان (ص) يتعامل مع أشدِّ خصومه السياسيين المنحرفين ، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، الذي أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ، والبغض لرسول الله (ص) ، وكيف كان يحيك المؤامرات ، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله (ص) ؛ لإضعافه ، وتنفير النَّاس منه ، وكيف عامله رسول الله (ص) ، وصبر عليه ، وعلى حقده ، حتَّى ظهرت حقيقته للناس؛ فنبذوه جميعاً ، حتى أقرب الناس إليه ، وكرهوه ، والتفُّوا حول قيادة النبيِّ (ص) .

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى؛ لأنَّها هي المفسِّرة للقران الكريم في الجانب العملي ، ففيها أسباب النزول ، وتفسيرٌ لكثير من الايات ، فتعينهم على فهمها ، والاستنباط منها ، ومعايشة أحداثها ، فيستخرجون أحكامها الشَّرعيَّة ، وأصول السِّياسة الشَّرعيَّة ، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة ، وبها يدركون الناسخ ، والمنسوخ ، وغير ذلك من العلوم ، وبذلك يتذوَّقون روح الإسلام ، ومقاصده السامية. ويجد فيها الزُّهاد معاني الزُّهد ، وحقيقته ، ومقصده ، ويستقي منها التُّجار مقاصد التجارة ، وأنظمتها ، وطرقها ، ويتعلَّم منها المبتلوْن أسمى درجات الصَّبر والثَّبات ، فتقوى

عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام ، وتعظم ثقتهم بالله ـ عزَّ وجل ـ ويوقنون بأنَّ العاقبة لِلمتَّقين[(٢)].

وتتعلَّم منها الأمَّة الاداب الرَّفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السَّليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسموَّ الرُّوح ، وطهارة القلب ، وحبَّ الجهاد في سبيل الله ، وطلب الشهاد في سبيله ، ولهذا قال عليُّ بن

الحسن: «كنا نُعَلَّم مغازي النبي (ص) كما نُعَلَّم السُّورة من القران» ، وقال الواقديُّ: سمعت محمَّد بن عبد الله يقول: سمعت عمِّي الزُّهريَّ يقول: «في علم المغازي علم الاخرة والدُّنيا».

وقال إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله (ص) ، يعدُّها علينا ، ويقول: هذه ماثر ابائكم ، فلا تضيِّعوا ذكرها»[(٣)].

إنَّ دراسة الهدي النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزِّ الإسلام والمسلمين ، من خلال معرفة عوامل النهوض ، وأسباب السُّقوط ، ويتعرَّفون على فقه النَّبيِّ (ص) في تربية الأفراد ، وبناء الجماعة المسلمة ، وإحياء المجتمع ، وإقامة الدَّولة ، فيرى المسلم حركة النَّبيِّ (ص) في الدَّعوة ، والمراحل الَّتي مرَّ بها ، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة ، وتخطيطه الدَّقيق في الهجرة إلى الحبشة ، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدَّعوة ، وعرضه لها على القبائل في المواسم ، وتدرجه في دعوة الأنصار ، ثمَّ هجرته المباركة إلى المدينة.

إنَّ من تأمَّل حادثة الهجرة ، ورأى دقَّة التَّخطيط ، ودقَّة التنفيذ ، من ابتدائها إلى انتهائها ، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها ، يدرك أنَّ التخطيط المسدَّد بالوحي في حياة الرَّسول (ص) قائمٌ ، وأن التخطيط جزء من السُّنَّة ، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كلِّ ما طولب به المسْلمُ.

إنَّ المسلم يتعلَّم من المنهاج النبويِّ كلَّ فنون إدارة الصِّراع ، والبراعة في إدارة كل مرحلة ، وفي الانتقال من مستوى إلى اخر ، وكيف واجه القوى المضادَّة من اليهود ، والمنافقين ، والكفار ، والنَّصارى ، وكيف تغلَّب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى ، والالتزام بشروط النَّصر ، وأسبابه ، الَّتي أرشد إليها المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم.

إنَّ قناعتي راسخةٌ في أن التمكين لهذه الأمَّة ، وإعادة مجدها ، وعزَّتها ، وتحكيم شرع ربِّها منوطٌ بمتابعة الهدي النَّبويِّ. قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *} [النور: ٥٤] .

فقد بيَّنت الاية الكريمة: أنَّ طريق التَّمكين في متابعة النبيِّ (ص) ، فقد جاءت الايات الَّتي بعدها تتحدَّث عن التمكين ، وتوضِّح شروطه قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [النور: ٥٥ ، ٥٦] .

وقد قام رسول الله (ص) ، وأصحابه بتحقيق شروط التمكين ، فحقَّقوا الإيمان بكلِّ معانيه ، وجميع أركانه ، ومارسوا العمل الصَّالح بكلِّ أنواعه ، وحرصوا على كلِّ أنواع الخير ، وصنوف البرِّ ، وعبدوا الله عبوديةً شاملةً في كلِّ شؤون حياتهم ، وحاربوا الشِّرك بكلِّ أشكاله ، وأنواعه ، وخفاياه ، وأخذوا بأسباب التمكين المادِّيَّة والمعنوية على مستوى الأفراد والجماعة ، حتى أقاموا دولتهم في المدينة ، ومن ثَمَّ نشروا دين الله بين الشُّعوب والأمم.

إنَّ تأخُّر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض نتيجةٌ منطقيَّةٌ لقومٍ نَسوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأوهام في مجال العلم ، والعمل على حدٍّ سواءٍ ، وأهملوا السُّنن الرَّبَّانيَّة ، وظنُّوا أنَّ التَّمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام.

إنَّ هذا الضعف الإيماني ، والجفاف الروحي ، والتخبُّط الفكري ، والقلق النَّفسي ، والشَّتات الذِّهني ، والانحطاط الخلقي؛ الَّذي أصاب المسلمين سببه تلك الفجوة الكبيرة الَّتي حدثت بين الأمَّة ، والقران الكريم ، والهدي النبويِّ الشريف ، وعصر الخلفاء الراشدين ، والنقاط المشرقة المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدِّثين باسم الإسلام ، وهم بعيدون كلَّ البعد عن القران الكريم ، والهدي النبويِّ ، وسيرة الخلفاء الرَّاشدين ، وأدخلوا في خطابهم مصطلحات جديدة ، ومفاهيم مائعة؛ نتيجة الهزيمة النفسيَّة أمام الحضارة الغربيَّة ، وأصبحوا يتلاعبون بالألفاظ ، ويَلوونها ، ويتحدَّثون السَّاعات الطوال ، ويدبِّجون المقالات ، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة ، والكون ، والإنسان ، ومناهج التغيير ، ولا نكاد نلمس في حديثهم ، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التَّمكين ، وسنن الله في تغيير الشعوب ، وبناء الدول ، من خلال القران الكريم ، والمنهاج النبويِّ الشَّريف ، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم ، أو تقصِّياً لتاريخنا المجيد ، فيخرجون لنا عوامل النُّهوض عند نور الدِّين محمود ، أو صلاح الدِّين ، أو يوسف بن تاشفين ، أو محمود الغزنوي ، أو محمَّد الفاتح ، ممن ساروا على الهدي النبويِّ في تربية الأمة ، وإقامة الدَّولة ، بل يستدلُّون ببعض الساسة ، أو المفكرين ، والمثقفين من الشرق أو الغرب ممَّن هم أبعد الناس عن الوحي السَّماوي ، والمنهج الرَّبانِيِّ.

وأنا لست ممَّن يعارض الاستفادة من تجارب الشُّعوب والأمم؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن ، فهو أحق بها أنَّى وجدها ، ولكنِّي ضدُّ الَّذين يجهلون ، أو يتجاهلون المنهاج الرَّبانيَّ ، وينسون ذاكرة الأمَّة التَّاريخيَّة المليئة بالدُّروس ، والعبر ، والعظات ، ثمَّ بعد ذلك يحرصون على أن يتصدَّروا قيادة المسلمين بأهوائهم ، وارائهم البعيدة عن نور القران الكريم ، والهدي النَّبويِّ الشَّريف.

وما أجمل ما قاله ابنُ القيِّم رحمه الله:

واللهِ ما خوفي الذُّنوب فإنَّهالعلَى طريقِ العَفْوِ والغُفْرانِ

لكنَّما أخشى انسلاخ القَلْبِ عَنْتحكيم هذا الوَحْي والقُرْانِ

ورضاً باراء الرِّجال وَخَرْصِهَالا كان ذاك بمنَّةِ الرَّحمنِ

إنَّنا في أشدِّ الحاجة لمعرفة المنهاج النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، ومعرفة سنن الله في الشُّعوب ، والأمم ، والدُّول ، وكيف تعامل معها النَّبيُّ (ص) عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس ، حتَّى نتلمَّس من هديه (ص) الطريق الصَّحيح في دعوتنا ، والتمكين لديننا ، ونقيم بنياننا على منهجيَّةٍ سليمةٍ ، مستمدَّةٍ أصولها وفروعها من كتاب ربنا وسنَّة نبيِّنا (ص) قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *} [الأحزاب: ٢١] .

لقد كان فقه النَّبيِّ (ص) في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة شاملاً ، ومتكاملاً ، ومتوازناً ، وخاضعاً لسنن الله في المجتمعات ، وإحياء الشعوب ، وبناء الدُّول ، فتعامل (ص) مع هذه السُّنن في غاية الحكمة ، وقمَّة الذَّكاء ، كسنَّة التَّدرُّج ، والتَّدافع ، والابتلاء ، والأخذ بالأسباب ، وتغيير النفوس.

وغرسَ (ص) في نفوس أصحابه المنهج الرَّبَّانيِّ ، وما يحمله من مفاهيم ، وقيم ، وعقائد وتصوُّراتٍ صحيحةٍ عن الله ، والإنسان ، والكون ، والحياة ، والجنَّة ، والنَّار ، والقضاء ، والقدر ، وكان الصَّحابة رضي الله عنهم يتأثَّرون بمنهجه في التربية غاية التأثُّر ، ويحرصون كلَّ الحرص على الالتزام بتوجيهاته ، فكان الغائب إذا حضر من غيبته؛ يسأل أصحابه عمَّا رأوا من أحوال النَّبيِّ (ص) ، وعن تعليمه ، وإرشاده ، وعمَّا نزل من الوحي حال غيبته ، وكانوا يتَّبعون خُطَى الرَّسول (ص) ، في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم ، بل كانوا يلقِّنونه أبناءهم ، ومن حولهم.

ففي هذا الكتاب تقصٍّ لأحداث السِّيرة ، فيتحدَّث الباحث عن أحوال العالم قبل البعثة ، والحضارات السَّائدة ، والأحوال السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والخلقيَّة في زمن البعثة ، وعن الأحداث المهمَّة قبل المولد النَّبويِّ ، وعن نزول الوحي ، ومراحل الدَّعوة ، والبناء التَّصوُّريِّ ، والأخلاقيِّ ، والتَّعبُّديِّ في العهد المكِّيِّ ، وعن أساليب المشركين في

محاربة الدَّعوة ، وعن الهجرة إلى الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء والمعراج ، والطَّواف على القبائل ، ومواكب الخير ، وطلائع النُّور من أهل يثرب ، والهجرة النبوية ، ويقف الكتاب بالقارأى على الأحداث ، مستخرجاً منها الدُّروس ، والعبر ، والفوائد؛ لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر.

وتحدَّث الباحث عن حياة النَّبيِّ (ص) ، منذ دخوله المدينة إلى وفاته ، وبَيَّن فقه النَّبيِّ (ص) في إرساء دعائم المجتمع ، وتربيته ، ووسائله في بناء الدَّولة ، ومحاربة أعدائها في الدَّاخل ، والخارج ، فيقف الباحث على فقه النَّبيّ (ص) في سياسة المجتمع ، ومعاهدته مع أهل الكتاب التي سُجِّلت في الوثيقة ، وحركته الجهادية ، ومعالجته الاقتصادية ، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدِّين؛ الَّذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظَّلام ، وعبادة الأوثان ، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال.

وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السِّيرة النَّبويَّة في أذهان الكثير من أبناء الأمَّة ، ففي العقود الماضية ظهرت دراساتٌ رائعةٌ في مجال السيرة النَّبوية ، وكتب الله لها قبولاً ، وانتشاراً ، كالرَّحيق المختوم ، لصفي الدِّين المباركفوري ، وفقه السِّيرة للغزالي ، وفقه السيرة النبوية للبوطي ، والسِّيرة النبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، وكانت هذه الدراسات مختصرةً ، ولم تكن شاملةً لأحداث السِّيرة ، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب ، وظنَّ بعض طلاَّبها: أنَّ من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسِّيرة النَّبويَّة ، وهذا خطأٌ فادحٌ ، وخطيرٌ في حقِّ السِّيرة النَّبويَّة المشرَّفة ، وقد تسرَّب هذا الأمر إلى بعض أئمَّة المساجد ، وبعض قيادات الحركات الإسلاميَّة ، وانعكس ذلك على الأتباع ، فحدث تصوُّرٌ ناقصٌ للسِّيرة عند كثيرٍ من الناس ، وقد حذَّر الشَّيخ محمَّدُ الغزاليُّ من خطورة هذا التصوُّر في نهاية كتابه (فقه السِّيرة) ، فقال: قد تظنُّ: أنَّك درست حياة محمَّد (ص) إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأٌ بالغٌ. إنَّك لن تفقه السِّيرة حقّاً إلا إذا درست القرانَ الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيّ الإسلام (ص)[(٤)] .

ففي هذه الدِّراسة يجد القارأى تسليط الأضواء على البعد القرانيّ ، الَّذي له علاقةٌ بالسِّيرة النبويَّة ، كغزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني النَّضير ، وصلح الحديبية ، وغزوة تبوك ، فبيَّن الباحث الدُّروس ، والعبر ، وسنن الله في النَّصر ، والهزيمة ، وكيف عالج القران الكريم أمراض النُّفوس من خلال الأحداث والوقائع.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة تُعطي كلَّ جيلٍ ما يفيده في مسيرة الحياة ، وهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ومُصلحةٌ كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القران الكريم ، والسِّيرة النَّبويَّة ، فكانت من

أفضل أيَّام حياتي ، فنسيت أثناء البحث غربتي ، وهجرتي ، وتفاعلت مع الدُّرر ، والكنوز ، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر ، فعملت على جمعها ، وترتيبها ، وتنسيقها وتنظيمها ، حتى تكون

في متناول أبناء أُمَّتي العظيمة ، وقد لاحظت التَّفاوت في ذكر الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، والأحداث بين كُتَّاب السِّيرة قديماً ، وحديثاً ، فأحياناً يذكر ابن هشام ما لم يذكره الذَّهبيُّ ، ويذكر ابن كثيرٍ ما لم يذكره أصحاب السُّنن ، هذا قديماً.

أمَّا حديثاً ، فقد ذكر السِّباعي ما لم يذكره الغزاليُّ ، وذكر البوطيُّ ما لم يذكره الغضبان ، وهكذا وجدت في التَّفسير ، وشروح الحديث ، كفتح الباري ، وشرح النَّوويِّ ، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كُتَّابُ السِّيرة قديماً ، ولا حديثاً ، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، ونَظَمْتُها في عِقْدٍ جميلٍ يسهل الاطِّلاع عليه ، ويساعد القارأى على تناول تلك الثِّمار اليانعة بكلِّ سهولةٍ.

إنَّ في هذا الكتاب حصيلةً علميَّةً ، وأفكاراً عمليَّة جُمِعت من مئات المراجع ، والمصادر ، وقد أسهم في إخراج هذا الجهد إخوةٌ كثيرون من ليبيا ، واليمن ، والعراق ، ومصر ، والسُّودان ، والسُّعودية ، والإمارات ، وقطر ، وبلاد الشام بالحوار ، والنقاش ، والنَّدوات ، فأفاد بعضهم بالإشارة إلى بعض المراجع ، والمصادر النَّادرة ، وعمل على توفيرها ، والبعض الاخر أرشد إلى ضرورة التَّركيز على السُّنن ، والقوانين الَّتي تعامل معها النَّبيُّ (ص) في حركته المباركة كقانون الفرصة في فتح خيبر ، وفتح مكَّة ، وأشار البعض إلى أهمِّيَّة ربط السِّيرة التَّاريخية بالسِّيرة السُّلوكيَّة، والسِّيرة المعبَّر عنها بحديثٍ شريفٍ ، أو فعلٍ نبويٍّ ، والسِّيرة كما يقرِّرها القران الكريم ببعضها، ومزجها في منهجيَّةٍ متناسقةٍ تمدُّ أبناء الجيل بعلمٍ غزيرٍ، وفقهٍ عميقٍ ، وعاطفةٍ جيَّاشةٍ ، فهي غذاءٌ للرُّوح ، وتثقيفٌ للعقول ، وحياةٌ للقلوب ، وصفاء للنُّفوس.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في كلِّ جانبٍ من الجوانب التي تحتاج إليها مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فالنَّبيُّ (ص) لم يلتحق بالرَّفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرةً لمن يريد أن يقتدي به في الدَّعوة ، والتَّربية ، والثَّقافة ، والتَّعليم ، والجهاد ، وكلِّ شؤون الحياة ، كما أنَّ التعمُّق في سيرة الرَّسول (ص) يساعد القارأى على التَّعرُّف على الرَّصيد الخلقيِّ الكبير؛ الذي تميَّزَ به رسول الله (ص) عن كلِّ البشر ، والتَّعرُّف على صفاته الحميدة (ص) الَّتي عاش بها في دنيا النَّاس ، فيرى من خلال سيرته مصداق قول الشَّاعر:

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِيوَأَفْضَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍكَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

هذا ولا أدَّعي أنِّي أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، فشأن رسول الله (ص) كبيرٌ ، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفسٍ أرقَّ ، وفقهٍ أدقَّ ، وذكاءٍ أكبر ، وإيمانٍ أعمق ، كما أنَّني لا أدَّعي
لعملي هذا العصمة ، أو الكمال ، فهذا شأن الرُّسل ، والأنبياء ، ومن ظنَّ أنَّه قد أحاط بالعلم؛ فقد جهل نفسه ، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] .

فالعلم بحرٌ لا شاطأى له ، وما أصدقَ الشَّاعرَ؛ إذ يقول:

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

يقول الثَّعالبيُّ: لا يكتب أحد كتاباً فيبيت عنده ليلةً إلا أحبَّ في غيرها أن يزيد فيه ، أو ينقص منه ، هذا في ليلةٍ ، فكيف في سنين معدودةٍ؟!

وقال العماد الأصبهانيُّ: إنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا؛ لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا؛ لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا؛ لكان أفضل ، ولو ترك هذا؛ لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جملة البشر.

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني؛ الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب. قال الشاعر:

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ القَوْمِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِّلاً جَبْرَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ عِوَجِ

فَإِنْ لحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لربِّ السَّمَا في النَّاسِ مِنْ فَرَجِ

وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأَرضِ مُنْقَطِعاً فَمَا عَلَى عَرِجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

(سبحانك اللّهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك)

الفقير إلى عفو ربِّه ، ومغفرته ، ورضوانه

عليّ محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م

الفصل الأوَّل
أهمُّ الأحداث التَّاريخيَّة من قبل البعثة
حتَّى نزول الوحي

المبحث الأوَّل
الحضارات السَّائدة قبل البعثة ودياناتها

أوَّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة[(٥)]:

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ، وكانت تحكم هذه البلاد: اليونان ، والبلقان ، واسية ، وسورية ، وفلسطين ، وحوض البحر المتوسط بأسره ، ومصر ، وكلَّ إفريقية الشَّمالية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها ، وضاعفت عليها الضَّرائب ، وكثرت الاضطرابات ، والثَّورات ، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو ، واللَّعب ، والطَّرب ، والتَّرف.

أمَّا مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ ، والاستبداد السِّياسيِّ ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً ، يحسنون حلبها ، ويسيئون علفها.

وأمَّا سورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم ، والرَّقيق ، ولا يعتمدون في قيادة الشَّعب إلا على القوَّة ، والقهر الشَّديد ، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة ، وكان الحكم حكم الغرباء ، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة ، ولا يشعر بأيِّ عطفٍ على الشَّعب المحكوم ، وكثيراً ما كان السُّوريون يبيعون أبناءهم؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[(٦)].

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض ، والاضطراب ، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالاتي:

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم ، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشاغل بها ، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ ، ولكن نرى هؤلاء ـ في جانب اخر ـ حريصين أشدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع

اللَّهو ، واللعب ، والطَّرب ، والتَّرف ، فقد كانت هناك ميادينُ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتَّسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ ، يتفرَّجون فيها على مصارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً ، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضر ، لقد كانوا يحبُّون الجمال ، ويعشقون العنف ، والهمجيَّة ، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان ، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون ، والتَّرف ، والمؤامرات ، والمجاملات الزَّائدة ، والقبائح ، والعادات السَّيئة»[(٧)].

ثانياً: الإمبراطوريَّة الفارسيَّة:

كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسيَّة ، أو الكِسرويَّة ، وهي أكبر ، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّرقيَّة ، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة؛ كالزرادشتية ، والمانِيَّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي ، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شيءٍ ، ممَّا أدَّى إلى انتشار ثورات الفلاحين ، وتزايد النَّهابين للقصور ، فكانوا يقبضون ، أو يأسرون النِّساء ، ويستولون على الأملاك ، والعقارات ، فأصبحت الأرض ، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضعون أنفسهم فوق بني ادم؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم من نسل الالهة ، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك ، يتصرَّفون فيها ببذخٍ لا يُتصوَّر ، ويعيشون عيش البهائم ، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة ، والمعابد فراراً من الضَّرائب ، والخدمة العسكريَّة ، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت سنين طوالاً بين الفرس والرُّوم ، لا مصلحة للشُّعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ، ورغبات الملوك[(٨)].

ثالثاً: الهند:

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً ، وخُلقاً ، واجتماعاً ، وسياسةً ذلك

العهد الَّذي يبتدأى من مستهلِّ القرن السَّادس الميلادي ، فانتشرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصبحت مقدسةً!! وكانت المرأة لا قيمة لها ، ولا عصمة ، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها ، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّعب ، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ ، وأصبح هو القانون العامَّ في المجتمع ، ودستور حياتهم ، وكانت الهند في حالة فوضى ، وتمزُّقٍ ، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت

بينها الحروب الطَّاحنة ، وكانت بعيدةً عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضحةٍ ، يسيطر عليها التزمُّت ، والتَّطرُّف في العادات ، والتقاليد ، والتفاوت الطَّبقيُّ ، والتَّعصب الدَّمويُّ ، والسُّلاليُّ.

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ ـ أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند ـ عن عصرٍ سابق لدخول الإسلام في الهند ، فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط ، والتَّدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح ، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ ، والتَّصوير ، والفنون الجميلة الأخرى»[(٩)].

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً ، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات ، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ ، وأسرةٍ ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى ، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام ، والشراب ، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ، ومدينتهم»[(١٠)].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الكهنة ، ورجال الدِّين ، وهم «البراهمة».

٢ ـ رجال الحرب ، والجنديَّة ، وهم «شترى».

٣ ـ رجال الفلاحة ، والتجارة ، وهم «ويش».

٤ ـ رجال الخدمة ، وهم «شودر»وهم أحطُّ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون ـ كما يعتقدون ـ من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث ، وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ، ومكانةً لا يشاركهم فيها أحدٌ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه ، وأعماله ، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه، ولا يعاقب بالقتل

في حالٍ من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدَّخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمياً، أو يمسُّوه بيدهم، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[(١١)].

رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم ، تعيش مرحلةً من أحطِّ مراحل التَّاريخ البشريِّ في شؤونها الدِّينيَّة ، والاقتصاديَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، وتعاني فوضى عامَّةً في جميع شؤون حياتها ، وهيمن المنهج الجاهليُّ على العقائد ، والأفكار ، والتصوُّرات ، والنُّفوس ، وأصبح الجهل ، والهوى ،

والانحلال ، والفجور ، والتجبُّر ، والتعسُّف من أبرز ملامح المنهج الجاهليِّ المهيمن على دنيا النَّاس[(١٢)].

وضاع تأثير الدِّيانات السَّماوية على الحياة . أو كاد . بسبب ما أصابها من التَّبديل ، والتَّحريف ، والتَّغيير ، الَّذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه ، وانشغل أهلها بالصِّراعات العقديَّة النَّظريَّة التي كان سببها دخول الأفكار البشريَّة ، والتَّصوُّرات الفاسدة على هذه الأديان ، حتَّى أدَّى إلى الحروب الطَّاحنة بينهم ، ومَنْ بقي منهم لم يحرِّف ، ولم يبدِّل قليلٌ نادر ، واثر الابتعاد عن دنيا الناس ، ودخل في حياة الخلوة ، والعزلة طمعاً في النَّجاة بنفسه يأساً من الإصلاح ، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف ، والأجناس البشريَّة ، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء ، ففي الجانب الدِّينيِّ تجد النَّاس إمَّا أنَّهم ارتدُّوا عن الدِّين ، أو خرجوا منه ، أو لم يدخلوا فيه أصلاً ، أو وقعوا في تحريف الدِّيانات السَّماوية ، وتبديلها. وأمَّا في الجانب التَّشريعي ، فإنَّ النَّاس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريّاً ، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين ، وشرائع لم يأذن بها الله ، تصطدم مع العقل ، وتخالف الفطرة.

وتزعَّم هذا الفساد زعماءُ الشُّعوب ، والأمم من القادة ، والرُّهبان ، والقساوسة والدَّهاقين ، والملوك ، وأصبح العالم في ظلامٍ دامسٍ ، وليلٍ بهيمٍ ، وانحرافٍ عظيمٍ عن منهج الله سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعةً من الطُّقوس ، والتَّقاليد لا روح فيها ، ولا حياة ، وتأثَّرت بعقائد الأمم الَّتي جاورتها ، واحتكَّت بها ، والَّتي وقعت تحت سيطرتها ، فأخذت كثيراً من عاداتها ، وتقاليدها الوثنيَّة الجاهليَّة ، وقد اعترف بذلك مؤرِّخو اليهود[(١٣)]؛ فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إنَّ سخط الأنبياء ، وغضبهم على عبادة الأوثان تدلُّ على أنَّ عبادة

الأوثان ، والالهة كانت قد تسرَّبت إلى نفوس الإسرائيليين ، ولم تستأصل شأفتها إلى أيَّام رجوعهم من الجلاء ، والنَّفي في بابل ، وقد اعتقدوا معتقداتٍ خرافيَّة ، وشركيَّة. إنَّ التُّلمود أيضاً يشهد بأنَّ الوثنيَّة كانت فيها جاذبيةٌ خاصَّةٌ لليهود»[(١٤)].

إنَّ المجتمع اليهوديَّ قبل البعثة المحمَّدية ، قد وصل إلى الانحطاط العقليِّ ، وفساد الذَّوق الدِّينيِّ ، فإذا طالعت تلمود بابل؛ الذي يبالغ اليهود في تقديسه ، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السَّادس المسيحيِّ؛ فستجد فيه نماذج غريبةً من خفَّة العقل ، وسخف القول ، والاجتراء على الله ، والعبث بالحقائق ، والتَّلاعب بالدِّين ، والعقل[(١٥)].

أمَّا المسيحيَّة: فقد امتُحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، واختفى نور التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء السُّحب الكثيفة[(١٦)] ، واندلعت الحروب بين النَّصارى في الشَّام ، والعراق ، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح ، وطبيعته ، وتحوَّلت البيوت ، والمدارس ، والكنائس إلى معسكراتٍ متنافسةٍ ، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحيِّ في مظاهر مختلفةٍ ، وألوانٍ شتَّى ، فقد جاء في تاريخ المسيحيَّة في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنيَّة ، ولكنَّها لم تلق إبادةً كاملةً ، بل إنَّها تغلغلت في النُّفوس ، واستمرَّ كلُّ شيءٍ فيها باسم المسيحيَّة ، وفي ستارها؛ فالَّذين تجرَّدوا عن آلهتهم ، وأبطالهم ، وتخلَّوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ، ولقَّبوه بأوصاف الالهة ، ثمَّ صنعوا له تمثالاً ، وهكذا انتقل هذا الشِّرك ، وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشُّهداء المحلِّيِّين ، ولم ينته هذا القرن حتَّى عمَّت فيه عبادة الشُّهداء ، والأولياء ، وتكوَّنت عقيدةٌ جديدةٌ ، وهي: أنَّ الأولياء يحملون صفات الألوهيَّة ، وصار هؤلاء الأولياء والقدِّيسون خلقاً وسيطاً بين الله ، والإنسان ، يحمل صفة الألوهيَّة على أساس عقائد الأريسيين ، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى ، وورعها وطُهرها ، وغُيِّرت أسماء الأعياد الوثنيَّة بأسماء جديدةٍ ، حتَّى تحوَّل في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشَّمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»[(١٧)].

وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكيَّة الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركَّبٌ من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحيِّ ، وفكره منذ ربع القرن الرَّابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميَّةٍ مُسَلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيِّ ، ولم يُرفع السِّتار عن

تطوُّر عقيدة التَّثليث ، وسرِّها إلا في المنتصف الثَّاني للقرن التَّاسع عشر الميلادي»[(١٨)].

لقد اندلعت الحروب بين النَّصارى ، وكفَّر بعضُهم بعضاً ، وقتل بعضُهم بعضاً ، وانشغل النَّصارى ببعضهم عن محاربة الفساد ، وإصلاح الحال ، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشريَّة[(١٩)].

وأمَّا المجوس: فقد عُرفوا من قديم الزَّمان بعبادة العناصر الطَّبيعيَّة ، وأعظمها النَّار ، وانتشرت بيوت النَّار في طول البلاد وعرضها ، وعكفوا على عبادتها ، وبنوا لها معابد، وهياكل، وكانت لها اداب، وشرائع دقيقةٌ داخل المعابد ، أمَّا خارجها؛ فكان أتباعها أحراراً يسيرون على هواهم ، لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرِّخ الدَّنماركيُّ طبقة رؤساء الدِّين ، ووظائفهم عند المجوس في كتابه: «إيران في عهد السَّاسانيِّين» فيقول: «كان واجباً على هؤلاء الموظَّفين أن يعبدوا الشَّمس أربع مرَّات في اليوم ،

ويضاف إلى ذلك عبادة القمر ، والنَّار ، والماء ، وكانوا مكلَّفين بأدعيةٍ خاصَّةٍ ، عند النَّوم ، والانتباه ، والاغتسال ، ولبس الزنَّار ، والأكل ، والعطس ، وحلق الشَّعر ، وتقليم الأظفار ، وقضاء الحاجة ، وإيقاد السُّرج ، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النَّار تنطفأى ، وألا تمسَّ النَّار ، والماء بعضها بعضاً ، وألا يَدَعوا المعدن يصدأ؛ لأنَّ المعادن عندهم مقدَّسةٌ»[(٢٠)].

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النَّار ، وقد حلف «يزدجرد» . اخر ملوك السّاسانيين . بالشَّمس مرَّةً ، وقال: «أحلف بالشَّمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثَّنويَّة في كلِّ عصرٍ ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، فامنوا بإلهين اثنين: أحدهما: النُّور ، أو إله الخير ، والثاني: الظَّلام ، أو إله الشَّرِّ[(٢١)].

أمَّا البوذيَّة: في الهند واسية الوسطى: فقد تحوَّلت إلى وثنيةٍ تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت ، ونزلت[(٢٢)].

أمَّا البرهميَّة: دين الهند الأصليُّ ، فقد امتازت بكثرة المعبودات ، والالهة ، وقد بلغت أوْجها في القرن السَّادس الميلاديِّ ، ولاشكَّ: أنَّ الديانة الهندوكيَّة ، والبوذيَّة وثنيتان سواءٌ بسواءٍ.

لقد كانت الدُّنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقةً في الوثنيَّة ، وكأنما كانت المسيحيَّة ، واليهوديَّة ، والبوذيَّة ، والبرهميَّة ، تتسابق في تعظيم الأوثان ، وتقديسها ، وكانت كخيل رهانٍ تجري في حلبةٍ واحدةٍ.

وقد أشار النَّبيُّ (ص) إلى عموم هذا الفساد ، لجميع الأجناس ، وجميع المجالات بلا استثناء ، فقد قال (ص) ذات يومٍ في خطبته: «ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علَّمني يومي هذا؛ كلُّ مالٍ نَحَلْتُه[(٢٣)] عبداً حلالٌ ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء[(٢٤)] كلَّهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم[(٢٥)] ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لمْ أُنْزِلْ به سلطاناً ، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم: عربهم ، وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[(٢٦)].

والحديث يشير إلى انحراف البشريَّة في جوانب متعددةٍ ، كالشِّرك بالله ، ونبذ شريعته ، وفساد المصلحين من حملة الأديان السَّماويَّة ، وممالأتهم للقوم على ضلالهم[(٢٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسَّم المؤرِّخون أصول العرب ثلاثة أقسامٍ ، بحسب السُّلالات الَّتي انحدروا[(٢٨)] منها:

١ ـ العرب البائدة:

وهي قبائل عاد ، وثمود ، والعمالقة ، وطسم ، وجديس ، وأُمَيْم ، وجُرهم وحضرموت ، ومن يتَّصل بهم ، وهذه دَرَسَتْ معالمها ، واضمحلَّت من الوجود قبل الإسلام ، وكان لهم ملوكٌ امتدَّ ملكهم إلى الشَّام ، ومصر[(٢٩)].

٢ ـ العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان ، وتسمَّى بالعرب القحطانيَّة[(٣٠)] ، ويعرفون بعرب الجنوب[(٣١)] ، ومنهم ملوك اليمن ، ومملكة معين ، وسبأ ، وحِمْيَر[(٣٢)].

٣ ـ العرب العدنانيَّة:

نسبة إلى عدنان ، الَّذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ وهم المعروفون بالعرب المستعربة ، أي الَّذين دخل عليهم دمٌ ليس عربياً ، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدَّم وبين العرب ، وأصبحت اللُّغة العربيَّة لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال ، موطنهم الأصلي مكَّة ، وهم: إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة هم الذين تعلَّم منهم إسماعيل عليه السلام العربيَّة، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً

مثلهم ، ومن أهم ذرِّيَّة إسماعيل (عدنان) جدُّ النَّبيِّ (ص) الأعلى ، ومن عدنان كانت قبائل العرب ، وبطونها ، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدٌّ ، ثمَّ نزار ، ثمَّ جاء بعده ولداه مُضَر ، وربيعة.

أمَّا ربيعة بن نزار؛ فقد نزل مَنِ انحدر مِنْ صلبه شرقاً ، فقامت عبد القيس في البحرين ، وحنيفة في اليمامة ، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة ، وعبرت تَغْلب الفرات ، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكنت تميم في بادية البصرة[(٣٣)].

أمَّا فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة ، وأقامت ثقيف في الطائف ، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكَّة ، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة ، وسكنت ذُبيان ، وعبس من تيماء إلى حوران[(٣٤)]. وتقسيم العرب إلى عدنانية ، وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب ، وغيرهم من العلماء ، ومن العلماء مَنْ يرى: أنَّ العرب: عدنانيَّة ، وقحطانيَّة ، ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام[(٣٥)].

وقد ترجم البخاريُّ في صحيحه لذلك ، فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام ، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة ، قال: خرج رسول الله (ص) على قوم يتناضلون بالسِّهام ، فقال: «ارموا ، بني إسماعيل ، وأنا مع بني فلان» . لأحد الفريقين . فأمسكوا بأيديهم ، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: كيف نرمي؛ وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا ، وأنا معكم كلِّكم» [البخاري (٣٥٠٧)]. وفي بعض الرِّوايات: «ارموا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان رامياً» [البخاري (٢٨٩٩) وأحمد (٤/٥٠) وابن حبان (٤٦٩٣)] .

قال البخاريُّ: وأسلمُ بن أَفْصَى بن حارثةَ بن عمرو بن عامر من خُزَاعَةَ ، يعني: أنَّ خزاعة فرقةٌ ممَّن كان تمزَّقَ من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم[(٣٦)].

وَوُلِدَ الرَّسول (ص) من مُضَرَ ، وقد أخرج البخاريُّ عن كليب بن وائل قال: حدَّثتني ربيبة النَّبيِّ (ص) زينب بنت أبي سلمة ، قال: «قلت لها: أرأيت النَّبيَّ (ص) أكان من مضر؟ فقالت: فممَّن كان إلا مِنْ مُضَرَ؟ من بني النَّضر بن كنانة» [البخاري (٣٤٩١)].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة ، وانقسمت قريش إلى قبائل شتَّى ، من أشهرها: جمح ، وسهم ، وعديٌّ ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وبطون قصيِّ بن كلابٍ ، وهي عبد الدَّار بن قصيٍّ ، وأسد بن عبد العزَّى بن

قصيٍّ ، وعبد مناف بن قصيٍّ ، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ، ونوفل ، والمطَّلب ، وهاشم. وبيت هاشم هو الَّذي اصطفى الله منه سيِّدنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (ص) [(٣٧)].

قال (ص) : «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦) والترمذي (٣٦٠٥ و٣٦٠٦) وأحمد (١٠٧/٤)] .

ثانياً: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزَّمان ببلاد العرب حضاراتٌ أصيلةٌ ، ومدنيَّاتٌ عريقةٌ ، من أشهرها:

١ ـ حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القران الكريم إليها ، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار ، والسُّيول التي كانت تضيع في الرِّمال ، وتنحدر إلى البحار ، فأقاموا الخزَّانات ، والسُّدود بطرقٍ هندسيَّة متطوِّرةٍ ، وأشهر هذه السُّدود (سد مأرب) ، واستفادوا بمياهها في الزُّروع المتنوعة ، والحدائق ذات الأشجار الزَّكيَّة ، والثِّمار الشَّهيَّة ، قال عزَّ شأنه:

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ *فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ *ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ *} [سبأ: ١٥ ـ ١٧] .

ودلَّ القران الكريم على وجود قرىً متصلةٍ في الزَّمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز ، إلى بلاد الشام ، وأنَّ قوافل التِّجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشَّام ، فلا يعدمون ظلاً ، ولا ماءً ، ولا طعاماً. قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ *} [سبأ: ١٨ ـ ١٩] .

٢ ـ حضارة عاد بالأحقاف:

وكانت في شمال حضرموت ، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيَّه هوداً عليه السلام ، وكانوا أصحاب بيوت مشيَّدةٍ ، ومصانع متعدِّدةٍ ، وجناتٍ ، وزروعٍ ، وعيون[(٣٨)] قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ *أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ *وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *} [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٤] .

٣ . حضارة ثمود بالحجاز:

دلَّ القران الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر ، وأشار إلى ما كانوا يتمتَّعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال ، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيونٍ وبساتين ، وزروعٍ[(٣٩)] قال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ *إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ *} {صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ *فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ *وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *}[الشعراء: ١٤١ . ١٥٠].

وقال فيهم أيضاً: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *} [الأعراف: ٧٤].

لقد زال كلُّ ذلك من زمنٍ طويلٍ ، ولم يبقَ إلا اثارٌ ورسومٌ وأطلالٌ ، فقد اضمحلَّت القرى ، والمدن ، وخربت الدُّور ، والقصور ، ونضبت العيون ، وجفَّت الأشجار ، وأصبحت البساتين والزُّروع أرضاً جُرُزاً[(٤٠)].

* * *

المبحث الثَّالث

الأحوال الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة

والاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة عند العرب

أوَّلاً: الحالة الدِّينيَّة[(٤١)]:

ابتليت الأمَّة العربيَّة بتخلُّفٍ دينيٍّ شديدٍ ، ووثنيَّةٍ سخيفةٍ لا مثيل لها ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ ، واجتماعيَّةٍ ، وفوضى سياسيةٍ ، وتشريعيَّةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ قلَّ شأنهم ، وصاروا يعيشون على هامش التَّاريخ ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدَّولة الفارسيَّة أو الرُّومانيَّة ، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الاباء ، والأجداد ، واتِّباع ما كانوا عليه ، مهما يكن فيه من الزَّيغ ، والانحراف ، والضَّلال ، ومن ثَمَّ عبدوا الأصنام ، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ ، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع ، ولكلب: وَدٌّ ، ولمذحج: يَغوث ، ولخيوان: يَعوق ، ولحمير: نَسْر ، وكانت خزاعة ، وقريش تعبدان إسافاً ، ونائلة ، وكانت مناةُ على ساحل البحر ، تعظِّمها العرب كافَّةً ، والأوس ، والخزرج خاصَّةً ، وكانت الَّلات في ثقيف ، وكانت العُزَّى فوق ذات عِرْقٍ ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[(٤٢)].

وإلى جانب هذه الأصنام الرَّئيسة ، يوجد عددٌ لا يحصى كثرةً من الأصنام الصَّغيرة ، والَّتي يسهل نقلها في أسفارهم ، ووضعها في بيوتهم.

روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: «كُنَّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه ، وأخذنا الاخر ، فإذا لم نجد حجراً؛ جمعنا جُثْوَةً من ترابٍ ، ثمَّ جئنا بالشَّاة ، فحلبناه عليه ، ثم طفنا به!!!» [البخاري (٤٣٧٦)] .

وقد حالت هذه الوثنية السَّخيفة بين العرب ومعرفة الله تعالى ، وتعظيمه ، وتوقيره ، والإيمان به ، وباليوم الاخر ، وإن زعموا أنَّها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه الالهة المزعومة على قلوبهم ، وأعمالهم ، وتصرُّفاتهم ، وجميع جوانب

حياتهم ، وضَعُف توقيرُ الله في نفوسهم ، قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ *} [الأنعام: ٣٦] .

أمَّا البقيَّة الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التَّحريف ، والتَّغيير ، والتَّبديل ، فصار الحجُّ موسماً للمفاخرة والمنافرة ، والمباهاة ، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفيَّة عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات، والأساطير الشَّيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء ، الَّذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلَّق بها من الأحكام ، والنَّحائر ، وغيرها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة ، والدَّم ، وكان يقول:

أربَّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ؟أدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ؟

عَزَلْتُ الَّلاتَ والْعزَّى جميعاًكذلكَ يفعلُ الجلْدُ الصَّبورُ

فلا عُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْهاولا صَنَمي بني عَمْرٍو أزُورُ

ولا غنماً أدينُ وكان ربأًلنا في الدَّهر ، إذْ حُلْمي يسيرُ

ولكنْ أعبدُ الرَّحْمنَ ربِّيليَغْفِرَ ذَنْبي الرَّبُّ الغَفُورُ[(٤٣)]

وممَّن كان يدين بشريعة إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ قَسُّ بن ساعدة الإياديُّ: فقد كان خطيباً ، حكيماً ، عاقلاً ، له نباهةٌ ، وفضلٌ ، وكان يدعو إلى توحيد الله ، وعبادته ، وترك عبادة الأوثان ، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت ، وقد بَشَّر بالنَّبيِّ (ص) ، فقد روى أبو نُعَيْمٍ في دلائل النُّبوَّة [(١/١٠٤ ـ ١٠٥ برقم ٥٥)] عن ابن عباسٍ قال: «إنَّ قسَّ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عُكَاظ) فقال في خطبته: سَيُعلَمُ حَقٌّ من هذا الوجه ـ وأشار بيده إلى مكَّة ـ قالوا: وما هذا الحقُّ؟ قال: رجلٌ من ولد لؤيِّ بن غالبٍ يدعوكم إلى كلمة الإخلاص ، وعيش الأبد ، ونعيمٍ لا ينفد ، فإن دعاكم؛ فأجيبوه ، ولو علمتُ أنِّي أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أوَّلَ من يسعى إليه» ، وقد أدرك النَّبيَّ (ص) ، ومات قبل البعثة[(٤٤)].

وممَّا كان ينشده من شعره:

في الذَّاهبينَ الأوَّليـنَ مِنَ الْقُرونِ لنا بصائرْ

لما رأيتُ مواردأًلِلْمَوْتِ ليس لها مَصَادِرْ

ورأيتُ قومي نحوَهايمضي الأصَاغرُ والأكابِرْ

لا يَرْجِعُ الماضي إلـيَّ وَلا مِنَ الباقينَ غابِرْ

أيقنتُ أنِّي لا محالةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ[(٤٥)]

كان بعضُ العرب قد تنصَّر ، وبعضهم دخل في اليهوديَّة ، أمَّا الأغلبيَّة؛ فكانت تعبد الأوثان ، والأصنام.

ثانياً: الحالة السِّياسيَّة[(٤٦)]:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدوٍ، وحضر، وكان النِّظام السَّائد بينهم هو النظامَ القبليّ ، حتَّى في الممالك المتحضِّرة الَّتي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشَّمال الشَّرقيِّ، ومملكة الغساسنة في الشَّمال الغربيِّ ، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ ، وإنَّما ظلَّت القبائل وحداتٍ متماسكةً.

والقبيلة العربيَّة مجموعةٌ من الناس ، تربط بينها وحدة الدَّم (النَّسب) ، ووحدة الجماعة ، وفي ظلِّ هذه الرابطة نشأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّم العلاقات بين الفرد والجماعة ، على أساسٍ من التَّضامن بينهما في الحقوق والواجبات ، وهذا القانون العرفيُّ كانت تتمسَّك به القبيلة في نظامها السِّياسيِّ ، والاجتماعي[(٤٧)].

وزعيم القبيلة ترشِّحه للقيادة منزلته القبلية ، وصفاته ، وخصائصه من شجاعةٍ ومروءةٍ ، وكرمٍ ، ونحو ذلك ، ولرئيس القبيلة حقوقٌ أدبيَّةٌ ، ومادِّيَّةٌ ، فالأدبيَّة أهمُّها احترامه ، وتبجيله ، والاستجابة لأمره ، والنُّزول على حكمه ، وقضائه ، وأمَّا المادِّيَّة؛ فقد كان له في كل غنيمةٍ تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة ، و(الصَّفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، (والنَّشيطة) وهي ما أصيب من مال العدوِّ قبل اللِّقاء ، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة ، وقد أجمل الشاعر العربيُّ ذلك بقوله:

لك المرباعُ فينا ، والصَّفاياوحكمُك ، والنَّشيطةُ ، والفُضولُ[(٤٨)]

ومقابل هذه الحقوق واجباتٌ ومسؤوليَّاتٌ ، فهو في السِّلم جوادٌ كريمٌ ، وفي الحرب يتقدَّم الصُّفوف ، ويعقد الصُّلح ، والمعاهدات.

والنِّظام القبليُّ تسود فيه الحرِّيَّة ، فقد نشأ العربيُّ في جوٍّ طليقٍ ، وفي بيئةٍ طليقةٍ، ومن ثَمَّ كانت الحرية من أخصِّ خصائص العرب ، يعشقونها ، ويأبون الضَّيم والذُّلَّ، وكلُّ فردٍ في القبيلة ينتصر لها ، ويشيد بمفاخرها ، وأيَّامها ، وينتصر لكلِّ أفرادها مُحقاً ، أو مُبطلاً ، حتَّى

صار من مبادئهم: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» [البخاري (٢٤٤٣ و٢٤٤٤ و٦٩٥٢) وأحمد (٣/٩٩ و٢٠١)].

وكان شاعرهم يقول:

لا يسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْفي النَّائباتِ عَلَى ما قَالَ بُرْهَانا

والفرد في القبيلة تبعٌ للجماعة ، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة ، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها ، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة:

وَهَلْ أَنَا إلا مِنْ غَزِيَّة إِنْ غَوَتْغَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ[(٤٩)]

وكانت كلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيَّة لها شخصيتها السِّياسيَّة ، وهي بهذه الشَّخصيَّة كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى ، وبهذه الشَّخصيَّة أيضاً كانت تشنُّ الحرب عليها ، ولعلَّ من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربيَّة ، حلف الفضول (حلف المطيِّبين)[(٥٠)].

وكانت الحروب بين القبائل على قدمٍ وساقٍ ، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[(٥١)] ، وكانت ـ عدا هذه الحروب الكبرى ـ تقع إغاراتٌ فرديَّةٌ بين القبائل ، تكون أسبابها شخصيَّةً أحياناً ، أو طلب العيش أحياناً أخرى؛ إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سيوفها ، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعةٍ من ليلٍ ، أو نهارٍ؛ لتسلب أنعامها ، ومؤنها ، وتدع ديارها خاويةً كأن لم تُسكنْ بالأمس[(٥٢)].

ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة:

يغلب على الجزيرة العربيَّة الصَّحاري الواسعة الممتدَّة ، وهذا ما جعلها تخلو من الزِّراعة ، إلا في أطرافها ، وخاصَّةً اليمن ، والشَّام ، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة ، وكان يغلب على البادية رعي الإبل ، والغنم ، وكانت تنتقل القبائل بحثاً عن مواقع الكلأ ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلاّ في مضارب خيامهم.

وأمَّا الصِّناعة فكانوا أبعد الأمم عنها ، وكانوا يأنفون منها ، ويتركون العمل فيها للأعاجم ، والموالي ، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ استعانوا برجلٍ قبطيٍّ نجا من السَّفينة التي غرقت بجُدَّة ، ثمَّ أصبح مقيماً في مكَّة[(٥٣)].

وإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حُرمت من نِعْمَتَي الزِّراعة ، والصِّناعة؛ فإنَّ موقعها الاستراتيجيَّ بين إفريقية وشرق اسية جعلها مؤهَّلةً لأن تحتلَّ مركزاً متقدِّماً في التِّجارة الدَّوليَّة انذاك.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن ، ولا سيَّما أهل مكَّة ، فقد كان لهم مركزٌ متميِّزٌ في التِّجارة ، وكان لهم ـ بحكم كونهم أهل الحرم ـ منزلةٌ في نفوس العرب ، فلا يعرضون لهم ، ولا لتجارتهم بسوءٍ ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القران الكريم: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ *} [العنكبوت: ٦٧] ، وكان لقريشٍ رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشَّام ، يذهبون فيها امنين بينما الناس يُتَخطَّفون من حولهم ، هذا عدا الرِّحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام. قال تعالى:

{لإِ ِيلاَفِ قُرَيْشٍ *إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ *فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ *} [قريش: ١ ـ ٤] .

وكانت القوافل تحمل الطِّيب ، والبَخُور ، والصَّمغ ، واللُّبان ، والتَّوابل والتُّمور ، والرَّوائح العطريَّة ، والأخشاب ، والعاج ، والأبنوس ، والخرز ، والجلود ، والبرود اليمنيَّة ، والأنسجة الحريريَّة ، والأسلحة وغيرها ممَّا يوجد في شبه الجزيرة ، أو يكون مستورداً من خارجها ، ثم تذهب به إلى الشَّام وغيرها ، ثُمَّ تعود محمَّلةً بالقمح ، والحبوب ، والزَّبيب ، والزَّيتون ، والمنسوجات الشَّاميَّة ، وغيرها.

واشتهر اليمنيُّون بالتِّجارة ، وكان نشاطهم في البرِّ ، وفي البحار ، فسافروا إلى سواحل إفريقية ، وإلى الهند ، وإندونيسية ، وسومطرة ، وغيرها من بلاد اسية ، وجزر المحيط الهندي ، أو البحر العربي كما يُسمَّى ، وقد كان لهم فضلٌ كبيرٌ بعد اعتناقهم الإسلام ، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة ، ولعلَّ هذا الدَّاء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[(٥٤)] ، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم ، وكانت نسبة الرِّبا في بعض الأحيان إلى أكثر من مئةٍ في المئة[(٥٥)].

وكان للعرب أسواقٌ مشهورةٌ: هي عُكَاظ ، ومجنَّة ، وذو المجاز ، ويذكر بعض المؤلِّفين في أخبار مكَّة: أنَّ العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة ، ثمَّ يذهبون منه إلى مجنَّة بعد

مضي عشرين يوماً من ذي القعدة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة؛ ذهبوا إلى ذي المجاز ، فلبثوا فيها ثمانيَ ليالٍ ، ثمَّ يذهبون إلى عرفة ، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ، ولا أيَّام منى ، حتى جاء الإسلام ، فأباح لهم ذلك ، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ *} [البقرة: ١٩٨] .

وقد استمرَّت هذه الأسواق في الإسلام إلى حينٍ من الدَّهر ثمَّ دَرَست ، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب ، بل كانت أسواقاً للأدب ، والشِّعر ، والخَطَابة ، يجتمع فيها فحول الشُّعراء ، ومصاقع[(٥٦)] الخطباء ، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم ، ومفاخرهم ، وماثرهم ، وبذلك كانت ثروةً كبرى لِلُّغة والأدب ، إلى جانب كونها ثروةً تجاريَّةً[(٥٧)].

رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة:

هيمنت التَّقاليد ، والأعراف على حياة العرب ، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب ، والأنساب ، وعلاقة القبائل ببعضها ، والأفراد كذلك ، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي:

١ ـ الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب ، والأحساب ، والتفاخر بهما:
فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم ، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى ، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك ، وبيَّن لهم: أنَّ التفاضل إنَّما هو بالتَّقوى ، والعمل الصالح.
٢ ـ الاعتزاز بالكلمة ، وسلطانها ، لا سيَّما الشِّعر:
كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة ، والأسلوب البليغ ، وكان شعرهم سِجلَّ مفاخرهم ، وأحسابهم ، وأنسابهم ، وديوان معارفهم ، وعواطفهم ، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع ، والشُّعراء الفطاحل ، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة ، والبيت يخفضها ، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيءٍ فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة.
٣ ـ المرأة في المجتمع العربيِّ:
كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَقَط المتاع ، فقد كانت تورث ، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه ، أو يَعْضُلها عن النِّكاح ، حتى حَرَّم الإسلام
ذلك ، وكان الابن يتزوَّج امرأة أبيه[(٥٨)] ، فنزل قول الله تعالى: {وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً *} [النساء: ٢٢] .
وكانت العرب تُحرِّم نكاح الأصول كالأمَّهات ، والفروع كالبنات ، وفروع الأب كالأخوات ، والطَّبقة الأولى من فروع الجد كالخالات ، والعمَّات[(٥٩)].
وكانوا لا يورِّثون البنات ، ولا النساء ، ولا الصِّبيان ، ولا يورِّثون إلا من حاز الغنيمة ، وقاتل على ظهور الخيل ، وبقي حرمان النِّساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم ، إلى أن تُوفي أوس بن ثابت ـ في عهد رسول الله (ص) ـ وترك بنتين كانت بهما دمامةٌ ، وابناً صغيراً ، فجاء ابنا عمِّه: ـ وهما عصبته ـ فأخذا ميراثه كلَّه ، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين ، فأبيا ذلك لدمامتهما فأتت رسول الله (ص) ، فقالت: يا رسول الله ! تُوفِّي أوس ، وترك ابناً صغيراً ، وابنتين ، فجاء ابنا عمِّه: سويد ، وعرفطة فأخذا ميراثه ، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه ، فأبيا. فقال (ص) : «لا تُحرِّكَا من الميراث شيئاً» [الدر المنثور؛ للسيوطي (٢/٤٣٩)] ونزل قوله تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا *} [النساء: ٧][(٦٠)].
وكان العرب يعيِّرون بالبنات؛ لأنَّ البنت لا تخرج في الغزو ، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها ، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرِّجال ، وإذا ما سُبيت اتُّخذت للوطء ، تتداولها الأيدي لذلك ، بل ربما

أُكْرِهَتْ على احتراف البغاء؛ ليضمَّ سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ، وقد كانت العرب تبيح ذلك ، وقد كان هذا يورث الهمَّ ، والحزن ، والخجل للأب عندما تولد له بنتٌ ، وقد حدَّثنا القران الكريم عن حالة من تولد له بنت ، قال الله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *} [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] .

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التُّراب ، ووأدها حيَّةً ، ولا ذنب لها إلا أنَّها أنثى[(٦١)] ، ولذلك أنكر القران الكريم عليهم هذه الفعلة الشَّنيعة. قال تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ *} [التكوير: ٨ ـ ٩] .

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر ، أو خشية الفقر ، فجاء الإسلام ، وحرَّم ذلك ،

قال الله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *} [الأنعام: ١٥١] ، وقال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا *}[الإسراء: ٣١] .

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات ، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشَّنعاء ، كزيد بن عمرو بن نفيل[(٦٢)].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة ، وتأخذ رأيها في الزَّواج ، وكانت المرأة العربيَّة الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها ، وحليلها ، وكانت تتَّسم بالشَّجاعة ، وتتبع المحاربين وتشجِّعهم ، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضَّرورة ، وكانت المرأة البدويَّة العربيَّة تشارك زوجها في رعي الماشية ، وسقيها ، وتغزل الوبر والصوف ، وتنسج الثياب ، والبرود ، والأكسية ، مع التصوُّن والتعفُّف[(٦٣)].

٤ ـ النكاح:

تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح ، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها ، وقد ذكرت لنا السَّيدة عائشة رضي الله عنها ذلك ، فقالت: «إنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّته ، أو ابنته ، فيُصْدِقها ، ثم يَنْكِحُها.

ونكاحٌ اخرُ: كان الرَّجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها[(٦٤)]: أرسلي إلى فلانٍ فاستبضعي[(٦٥)] منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسُّها أبداً ، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي

تستبضعُ منه ، فإذا تبيَّن حملُها؛ أصابها زوجها إذا أحبَّ ، وإنَّما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد ، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ اخر: يجتمع الرَّهط[(٦٦)] ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصيبها[(٦٧)] ، فإذا حملت ، ووضعت ، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن

يمتنع حتَّى يجتمعوا عندها ، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان! تسمِّي من أحبَّت باسمه ، فيُلحق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرَّجل.

والنِّكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمنعُ من جاءها[(٦٨)] ، وهنَّ البغايا كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهنَّ؛ دخل عليهنَّ ، فإذا حملت إحداهنَّ ، ووضعت حملها جُمِعوا لها ، وَدَعوا لهم القافةَ[(٦٩)] ، ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته[(٧٠)] به ، ودُعي ابنَه ، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعث محمَّد (ص) بالحقِّ؛ هدم نكاح الجاهليَّة كلَّه ، إلا نكاحَ الناس اليوم» [البخاري (٥١٢٧) وأبو داود (٢٢٧٢)] .

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها ؛ كنكاح الخِدْن ، وهو في قوله تعالى: {وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [النساء: ٢٥] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لوم ، وهو إلى الزِّنى أقرب منه إلى النِّكاح ، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت ، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرَّجل: انزل لي على امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي ، وأزيدك[(٧١)].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار ، وهو أن يزوِّج الرَّجل ابنته على أن يزوجه الاخر ابنته ، ليس بينهما صداقٌ[(٧٢)].

وكانوا يُحُلُّون الجمع بين الأختين في النِّكاح ، وكانوا يبيحون للرَّجل أن يجمع في عصمته من الزَّوجات ما شاء دون التقيُّد بعددٍ ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدُّ[(٧٣)] ، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النِّساء ، والأكثر ، والأقلُّ ، فقصر ذلك على أربع؛ إنْ علم أنَّه يستطيع الإنفاق عليهنَّ ، والعدل بينهنَّ ، فإن خاف عدم العدل؛ فليكتفِ بواحدةٍ ، وما كانوا في الجاهليَّة يلتزمون العدل بين الزَّوجات ، وكانوا يسيئون عشرتهن ، ويهضمون حقوقهنَّ حتى جاء الإسلام ، فأنصفهن ، وأوصى بالإحسان إليهنَّ في العشرة ، وقرَّر لهنَّ حقوقاً كنَّ يَحْلُمْنَ بها[(٧٤)].

٥ . الطَّلاق:

كانوا يمارسون الطَّلاق ، ولم يكن للطَّلقات عندهم عددٌ محدَّد ، فكان الرَّجل يطلق امرأته ، ثمَّ يراجعها ، ثُمَّ يطلِّقها ، ثم يراجعها هكذا أبداً ، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[(٧٥)] ، إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: {اَلطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [البقرة: ٢٢٩] .

فقيَّد الإسلام عدد الطَّلقات، وأعطى للزَّوج فرصةً ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرَّتين ، فإن طلق الثَّالثة ؛ فقد انقطعت عروة النِّكاح ، ولا تحلُّ له إلا بعد نكاح زوجٍ اخر ، ففي الكتاب الكريم: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [البقرة: ٢٣٠] .

وممَّا كان يُلْحَق بالطَّلاق في التَّحريم الظِّهارُ ، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي ، وكان تحريماً مؤبداً حتَّى جاء الإسلام ، فوسمه بأنَّه منكرٌ من القول وزورٌ ، وجعل للزَّوج مخرجاً منه ، وذلك بالكفارة[(٧٦)] قال تعالى:

{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ *وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ *}[المجادلة: ٢ ـ ٤] .

٦ ـ الحروب ، والسَّطو ، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، فهم لا يبالون بشنِّ الحروب ، وإزهاق الأرواح في سبيل الدِّفاع عن المثل الاجتماعيَّة ، التي تعارفوا عليها ، وإن كانت لا تستحقُّ التَّقدير.

وقد روى لنا التَّاريخ سلسلةً من أيَّام العرب في الجاهليَّة ، ممَّا يدلُّ على تمكُّن الروح الحربيَّة من نفوس العرب ، وغلبتها على التعقُّل والتفكير؛ فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُوس ، وقد قامت الحروب فيه بين بكرٍ ، وتغلب بسبب ناقةٍ للجَرْميِّ ، وهو جارٌ للبَسُوس بنت منقذ خالة

جَسَّاس بن مُرَّة ، وقد كان كُلَيْبٌ سيِّد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصّاً به ، فرأى فيه هذه النَّاقة ، فرماها ، فجزع الجَرْميُّ ، وجزعت البَسُوس ، فلما رأى ذلك جسَّاسٌ تحيَّن الفرصة لقتل كليب ، فقتله ، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدَّة أربعين سنةً[(٧٧)].

وكذلك يوم داحس والغبراء ، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس ، وهو فرسٌ لقيس بن زهير ، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر ، فأوعز هذا إلى رجلٍ ليقف في الوادي ، فإن رأى داحساً قد سبق يردُّه ، وقد فعل ذلك ، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء ، فسبقت الغبراء ، وحصل بعد ذلك القتل ، والأخذ بالثأر ، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس ، وذُبيان[(٧٨)].

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس ، والخزرج في الجاهليَّة ، وهم أبناء عمٍّ؛ حيث إنَّ الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزديّ ، واستمرَّت الحروب بينهم ، وكان اخر أيَّامهم (بُعاث) وذلك: أنَّ حلفاء الأوس من اليهود ، جدَّدوا عهودهم معهم على النُّصرة ، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يُذْكِيْهَا اليهود ، حتى يُضعفوا القبيلتين ، فتكون لهم السِّيادة الدَّائمة ، واستعان كلٌّ فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس[(٧٩)].

وكانت بعض القبائل تسطو ، وتغير بغية نهب الأموال ، وسبي الأحرار ، وبيعهم ، كزيد بن حارثة فقد كان عربيّاً حرّاً ، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيّاً حرّاً ، وقد قضى الإسلام على ذلك ، حتَّى كانت تسير المرأة ، والرَّجل من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخافان إلا الله ، والذئب على أغنامهما[(٨٠)].

٧ ـ العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ ، وعلمٍ كاليهود ، والنَّصارى ، بل كان يغلب عليهم الجهل ، والأميَّة ، والتَّقليد ، والجمود على القديم وإن كان باطلاً ، وكانت أمَّة العرب لا تكتب ، ولا تحسب ، وهذه هي الصِّفة التي كانت غالبةً عليها ، وكان فيهم قليل ممَّن يكتب ، ويقرأ ، ومع أمِّيَّتهم ، وعدم اتِّساع معارفهم ؛ فقد كانوا يشتهرون بالذَّكاء ، والفطنة ، والألمعية ، ولطف المشاعر ، وإرهاف الحسِّ ، وحسن الاستعداد ، والتهيُّؤ لقبول العلم والمعرفة ، والتَّوجيه الرَّشيد ؛ ولذلك لما جاء الإسلام؛ صاروا علماء ، حكماء ، فقهاء ، وزالت عنهم

الأمِّيَّة ، وأصبح العلم ، والمعرفة من أخصِّ خصائصهم ، وكان فيهم مَنْ مهر في علم قصِّ الأثر ، وهو القِيَافَةُ ، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة ، وكان طبُّهم مَبْنِيّاً على التَّجارِبِ؛ التي اكتسبوها من الحياة ، والبيئة[(٨١)].

خامساً: الحالة الأخلاقيَّة:

كانت أخلاق العرب قد ساءت ، وأولعوا بالخمر ، والقمار ، وشاعت فيهم الغارات ، وقطع الطريق على القوافل ، والعصبيَّة ، والظُّلم ، وسفك الدِّماء ، والأخذ بالثأر ، واغتصاب الأموال ، وأكل مال اليتامى ، والتعامل بالرِّبا ، والسَّرقة ، والزِّنى ، وممَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ الزِّنى إنما كان في الإماء ، وأصحاب الرَّايات من البغايا ، ويندر أن يكون في الحرائر ، وليس أدلّ على هذا من أنَّ النَّبيَّ (ص) لما أخذ البيعة على النِّساء بعد الفتح: «على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين» قالت السيِّدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: «أوَ تَزني الحرَّة؟!!»[(٨٢)] [البخاري (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩)] .
وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا، لا ، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر ، ولا يسفكون الدِّماء ، ولا يظلمون ، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى ، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا[(٨٣)] وكانت فيهم سماتٌ ، وخصالٌ من الخير كثيرةٌ ، أهَّلتْهُم لحمل راية الإسلام ، ومن تلك الخصال ، والسِّمات:

١ ـ الذَّكاء ، والفطنة:

فقد كانت قلوبُهم صافيةً لم تدخلها تلك الفلسفات ، والأساطير ، والخرافات ، التي يصعب إزالتها ، كما في الشُّعوب الهنديَّة ، والرومانيَّة ، واليونانيَّة ، والفارسيَّة ، فكأنَّ قلوبهم كانت تعدُّ لحمل أعظم رسالة في الوجود ، وهي دعوة الإسلام الخالدة ، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن ، وقد وجَّه الإسلام قريحة الحفظ والذَّكاء ، إلى حفظ الدِّين ، وحمايته ، فكانت قواهم الفكرية ، ومواهبهم الفطريَّة مذخورةً فيهم ، لم تستهلك في فلسفاتٍ خياليَّةٍ ، وجدالٍ بيزنطيٍّ عقيمٍ ، ومذاهب كلاميَّةٍ معقَّدةٍ[(٨٤)].

واتِّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم ، وذاكرتهم ، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً ، وللثَّعلب مئتان ، وللأسد خمسُمِئَةٍ ، فإنَّ للجمل ألفاً ، وكذا السَّيف ، وللدَّاهية نحو أربعة الاف اسمٍ ،
ولا شكَّ: أنَّ استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرةٍ قويَّةٍ ، حاضرةٍ ، وقَّادةٍ[(٨٥)].
وقد بلغ بهم الذَّكاء ، والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ[(٨٦)].

٢ ـ الكرم والسَّخاء:

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب ، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقته ، فيأتيه الضَّيف ، فيسارع إلى ذبحها ، أو نحرها له ، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان ، بل كان يُطعم الوحش ، والطَّير ، وكرم حاتمٍ الطَّائيِّ سارت به الرُّكبان ، وضُرِبت به الأمثال[(٨٧)].

٣ ـ الشَّجاعة ، والمروءة ، والنَّجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش. قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يُقْتَلْ؛ فقد قُتِل أبوه ، وأخوه ، وعمُّه ، إنا ـ والله ـ لا نموت حتفاً ، ولكن قطعاً بأطراف الرِّماح ، وموتاً تحت ظلال السُّيوف:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِوَلاَ طُلَّ منَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَاوَلَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئاً على العزَّة ، وصيانة العِرْض ، وحماية الحريم ، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم ، قال عنترة:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتوفَ كأنَّنيأَصْبَحْتُ عَنْ غرضِ الحتوف بمعزِلِ

فَأَجَبْتُهَا إنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌلا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بكأسِ المَنْهَلِ

فَأقْنِي حَيَاءَكِ لا أبا لكِ وَاعْلَمِيأَنِّي امْرُؤٌ سَأَموتُ إنْ لَمْ أُقتلِ[(٨٨)]

وقال أيضاً:

لا تَسْقِنِي مَاءَ الحياةِ بذلَّةٍبَلْ فاسْقِنِي بالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ

مَاءُ الْحياةِ بذلَّةٍ كجهنَّمٍوَجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ مَنْزِلِ[(٨٩)]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامةٍ ، ومروءةٍ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضَّعيف ، أو العاجز ، أو المرأة ، أو الشَّيخ ، وكانوا إذا استنجد بهم أحدٌ؛ أنجدوه ، ويرون من النَّذالة التَّخلِّي عمَّن لجأ إليهم.

٤ ـ عشقهم للحُرِّيَّة ، وإباؤهم للضَّيْم والذُّلِّ:

كان العربيُّ بفطرته يعشق الحرِّيَّة يحيا لها ، ويموت من أجلها ، فقد نشأ طليقاً ، لا سلطان لأحدٍ عليه ، ويأبى أن يعيش ذليلاً ، أو يُمَسَّ في شرفه ، وعرضه؛ ولو كلَّفه ذلك حياته[(٩٠)] ، فقد كانوا يأنفون من الذُّلِّ ، ويأبون الضَّيْمَ ، والاستصغار ، والاحتقار ، وإليك مثالاً على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه ، وسألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه خدمة أمِّي؟ قالوا: نعم ، أمَّ عمرو بن كلثوم الشَّاعر الصُّعلوك.

فدعا الملك عَمْرَو بن كلثوم لزيارته ، ودعا أمَّه لتزور أمَّه ، وقد اتَّفق الملك مع أمِّه أن تقول لأمِّ عَمْرِو بن كلثوم بعد الطَّعام: ناوليني الطَّبق الذي بجانبك ، فلمَّا جاءت؛ قالت لها ذلك ، فقالت: لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها الكرَّة وألحَّت ، فصاحت ليلى أم عَمْرِو بن كلثوم: واذُلاَّه! يا لتَغْلب! فسمعها ابنُها فاشتدَّ به الغضب ، فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرُّواق ، فتناوله ، وضرب به رأس الملك عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب ، وانتهبوا ما في الرُّواق ، ونظم قصيدةً يخاطب بها الملك قائلاً:

بأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍنكُونُ لِقَيْلِكُمْ[(٩١)] فيها قَطِينا[(٩٢)]

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْن هِنْدٍتُطِيْعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدَرِيْنَا[(٩٣)]

تُهَدِّدُنَا وتُوعِدُنَا رُوَيْداًمَتَى كُنَّا لأُمِّك مقْتَوِينَا[(٩٤)]

إذا ما الْمَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاًأبينا أن نُقِرَّ الذُّلَ فينا[(٩٥)]

٥ . الوفاءُ بالعهد وحبُّهم للصَّراحة ، والوضوح ، والصِّدق:

كانوا يأنفون من الكذب ، ويعيبونه ، وكانوا أهل وفاءٍ ، ولهذا كانت الشَّهادة باللِّسان كافيةً للدُّخول في الإسلام. ويدلُّ على أنفتهم من الكذب ، قصَّة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله (ص) ، وكانت الحروبُ بينهم قائمةً ، قال: «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً ؛ لكذبت عنه» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

أمَّا وفاؤهم؛ فقد قال النُّعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإنَّ أحدهم يلحظ اللَّحظة ، ويومأى الإيماء ، فهي وَلْثٌ ، وعقدةٌ لا يحلُّها إلا خروج نفسه. وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض ، فيكون رهناً بدينه ، فلا يُغْلَق رهنه ، ولا تخفر ذمَّته. وإنَّ أحدهم ليبلغه أنَّ رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب ، فلا يرضى حتَّى يفني تلك القبيلة التي أصابته ، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المحْدِثُ من غير معرفةٍ ولا قرابةٍ ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله»[(٩٦)].

والوفاء خلقٌ متأصِّلٌ بالعرب ، فجاء الإسلام ، ووجَّهه الوجهة السَّليمة ، فغلَّظَ على من اوى مُحْدِثاً ، مهما كانت منزلته ، وقرابته. قال (ص) : «لعن اللهُ من اوى محدِثاً» [مسلم (١٩٧٨) والنسائي

(٢٣٢/٧)] ، ومن القصص الدَّالة على وفائهم[(٩٧)]: «أنَّ الحارث بن عباد قاد قبائل بكرٍ لقتال تغلب ، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث ، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب»[(٩٨)] في حرب البسوس ، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه ، فقال: دلَّني على مهلهل بن ربيعة ، وأخلي عنك ، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه ، قال: نعم. قال: فأنا هو ، فجزَّ ناصيته ، وتركه». وهذا وفاءٌ نادرٌ ، ورجولةٌ تستحقُّ الإكبار[(٩٩)].

ومن وفائهم: أنَّ النُّعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته ، فأودع أسلحته ، وحرمه إلى هانأى بن مسعود الشَّيبانيّ ، ورحل إلى كسرى ، فبطش به ، ثم أرسل إلى هانأى يطلب منه ودائع النُّعمان ، فأبى ، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله ، فجمع هانأى قومه ال بكرٍ ، وخطب فيهم ، فقال: «يا معشرَ بكر! هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرور ، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر ، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر ، المنيَّة ولا الدَّنيَّة ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطَّعن في ثغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز، والظُّهور، يا ال بكر! قاتلوا فما من المنايا بُدٌّ»[(١٠٠)]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار ، بسبب هذا الرَّجل الذي احتقر حياة الصَّغار ، والمهانة ، ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦ ـ الصَّبر على المكاره ، وقوَّة الاحتمال ، والرِّضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ، ويقولون: البِطْنَة تُذْهِبُ الفِطْنَة ، ويعيبون الرَّجل الأكول الجشع . قال شاعرهم:

إذا مُدَّتِ الأيدِي إلى الزَّادِ لَمْ أَكُنْبأَعْجَلِهِمْ إذْ أَجْشَعُ الْقومِ أعْجَلُ[(١٠١)]

وكانت لهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل المكاره ، والصَّبر في الشَّدائد ، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصَّحراويَّة الجافَّة ، قليلة الزَّرع ، والماء ، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة ، والسَّير في حرِّ الظَّهيرة ، ولم يتأثَّروا بالحرِّ ، ولا بالبرد ، ولا وعورة الطَّريق، ولا بُعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظَّمأ، ولما دخلوا الإسلام؛ ضربوا أمثلةً رائعة في الصَّبر ، والتَّحمُّل ، وكانوا يرضون باليسير ، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمراتٍ يقيم بها صلبه ، وقطراتٍ من ماء يرطِّب بها كبده[(١٠٢)].

٧ ـ قوَّة البدن ، وعظمة النَّفس:

واشتهروا بقوَّة أجسادهم مع عظمة النَّفس ، وقوَّة الرُّوح ، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيَّة صنعتا العجائب ، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

٨ ـ العفو عند المقدرة ، وحماية الجار:

وكانوا ينازلون أقرانهم ، وخصومهم ، حتَّى إذا تمكَّنوا منهم عفوا عنهم ، وتركوهم ، ويأبون أن يُجهِزُوا على الجرحى ، وكانوا يرعون حقوق الجيرة ، ولا سيَّما رعاية النِّساء ، والمحافظة على العرض. قال شاعرهم:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لي جَارَتيحَتَّى يُوَارِي جَارتي مَأْواهَا

وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه ، وربما ضحَّوا بالنَّفس ، والولد ، والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب ، فجاء الإسلام ، فنمَّاها ، وقوَّاها ، ووجَّهها وجهةَ الخير ، والحقِّ ، فلا عجب إذا كانوا قد انطلقوا من الصَّحارى ، كما تنطلق الملائكة الأطهار ، ففتحوا الأرض ، وملؤوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً ، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وفضائل بعد أن عمَّتها الرَّذائل ، وخيراً بعد أن طفحت شراً[(١٠٣)].

هذه بعض أخلاق المجتمع الَّذي نشأ فيه الإنسان العربيُّ، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله (ص) ، واختير له هذا المجتمع العربيُّ ، وهذه البيئة النَّادرة وهذا الوسط الرَّفيع ، مقارنةً بالفرس ، والرُّوم ، والهنود ، واليونان ، فلم يُخْتَرْ من الفرس على سعة علومهم ،

ومعارفهم ، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم ، ولا من الرُّومان على تفنُّنهم ، ولا من اليونان على عبقرية شاعريَّتهم ، وخيالهم ، وإنَّما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأنَّ هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه ، وما هم فيه من علوم ، ومعارف ، إلا أنَّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة ، وحرِّيَّة الضَّمير ، وسموِّ الرُّوح[(١٠٤)].

* * *

المبحث الرَّابع

أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى (ص)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشريَّة ويكرم الإنسانيَّة ، فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب (ص) .
وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم ، ونشأته العزيزة ، ورعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له قبل نزول الوحي عليه ، وسيرته العطرة قبل البعثة ، نريد أن نتحدَّث عن الايات العظيمة ، والأحداث الجليلة؛ الَّتي سبقت ميلاده (ص) ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح.
إنَّ من سنن الله في الكون: أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة ، والضِّياء يكون بعد الظَّلام ، واليُسر بعد العُسر[(١٠٥)].
ومن أهمِّ هذه الأحداث:
أولاً: قصَّة حفر عبد المطَّلب جدِّ النَّبيِّ (ص) لزمزم:
ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيِّم (صحيح السيرة النَّبويَّة) ، روايةً صحيحةً في قصَّة حفر عبد المطَّلب لزمزم من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: «قال عبد المطَّلب: إنِّي لنائمٌ في الحِجْر ، إذْ أتاني اتٍ ، فقال لي: احفر طَيْبة[(١٠٦)]. قلت: وما طَيْبة؟ قال: ثمَّ ذهب عني.
قال: فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مَضْجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر بَرَّة[(١٠٧)] ، قال: قلت: وما بَرَّة؟ قال: ثمَّ ذهب عنِّي.
فلمَّا كان الغدُ؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر المضنونة[(١٠٨)]. قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثمَّ ذهب.

فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِفُ أبداً ، ولا تُذَمُّ[(١٠٩)] ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفَرْث والدَّم، عند نقرة الغراب الأعصم[(١١٠)] ، عند قرية النَّمل[(١١١)].
قال ابن إسحاق: فلمَّا بُيِّن له شأنُها ، ودُلَّ على موضعها ، وعَرَف أنَّه قد صُدِق؛ غدا بمِعْوَلِهِ[(١١٢)] ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، وليس معه يومئذٍ ولدٌ غيره ، فحفر فيها ، فلمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[(١١٣)]؛ كبَّر ، فعرفت قريش: أنَّه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا: يا عبد المطلب! إنَّها بئر أبينا إسماعيل ، وإنَّ لنا فيها حقًّا ، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعلٍ ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم ، وأُعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا ، فإنَّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعدٍ بن هُذَيم. قال: نعم ، وكانت بأطراف الشَّام.

فركب عبد المطَّلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف ، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريش نفرٌ ، فخرجوا؛ والأرض إذ ذاك مفاوز؛ حتَّى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب ، وأصحابه ، فعطشوا حتَّى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا مَنْ كانوا معهم ، فأبوا عليهم ، وقالوا: إنَّا بمفازة[(١١٤)] وإنَّا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطَّلب: إِنِّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرته لنفسه بما لكم الان من القوَّة، فكلَّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته، ثم وَارَوْه؛ حتَّى يكون اخرُهم رجلاً واحداً، فَضَيْعةُ رجلٍ واحدٍ أيسر من ضيعة ركبٍ جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كلُّ رجلٍ لنفسه حفرةً ، ثمَّ قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه: والله إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ، ولا نبتغي لأنفسنا لَعَجْزٌ ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتَحلوا. فارتحلوا؛ حتَّى إذا بعث[(١١٥)] عبد المطَّلب راحلته انفجرت من تحت خفِّها عين ماءٍ عذبٍ ، فكبَّر عبد المطلب ، وكبَّر أصحابه ، ثمَّ نزل ، فشرب ، وشرب أصحابه ، واستسقوا حتَّى ملؤوا أسقيتهم ، ثمَّ دعا قبائل قريش

ـ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال ـ فقال: هَلُمُّوا إلى الماء؛ فقد سقانا الله ، فجاؤوا ، فشربوا ، واستقوا كلُّهم ، ثمَّ قالوا: قد ـ والله ـ قضى لك علينا ، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً ، إنَّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الَّذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ، ورجعوا معه ، ولم يصِلوا إلى الكاهنة ، وخَلُّوا بينه وبين زمزم».

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن عليِّ بن أبي طالبٍ في زمزم [البيهقي في الدلائل (١/٩٣ ـ ٩٤) وابن هشام (١/١٥١ ـ ١٥٣)] وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرةٌ ، فمنها: ما رواه مسلمٌ في صحيحه في قصَّة إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) قال: «إنَّها مباركةٌ ، إنَّها طعامُ طُعْمٍ» [مسلم[(١١٦)] (٢٤٧٣)] .

وروى الدَّارقطنيُّ [(٢٧١٣)] والحاكم [(١/٤٧٣)] وصحَّحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ (ص) : «ماء زمزم لما شُرِبَ له: إنْ شربته لتستشفي ، شفاك الله! وإن شربته لشبعك ، أشبعك الله! وإن شربته لقطع ظمئك ، قطعه الله! وهي هزمة[(١١٧)] جبريل ، وسقيا الله إسماعيل» قال الشَّيخ محمَّد أبو شهبة ـ رحمه الله! ـ[(١١٨)]: ومهما يكن من شيءٍ فقد صحَّح الحافظ الدِّمياطيُّ ـ وهو من الحفَّاظ المتأخِّرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شُرِبَ له» وأقرَّه الحافظ العراقيُّ[(١١٩)].

ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل[(١٢٠)]:

هذه الحادثة ثابتةٌ بالقران الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ، وأتت تفاصيلها في كتب السِّير والتَّاريخ ، وذكرها المفسِّرون في كتبهم: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ *تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *} [سورة الفيل] .

أمَّا إشارات الرَّسول (ص) إلى الحادث؛ فمنها:

أنَّ الرسول (ص) لما خرج زمن الحديبية ، سار حتى إذا كان بالثَّنيَّة الَّتي يهبط عليهم منها ، بركت بها راحلته؛ فقال الناس: حَلْ حَلْ[(١٢١)]. فَأَلَحَّتْ[(١٢٢)] ، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النَّبيُّ (ص) : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل» [البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٣٢٣/٤)] .

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم ما يلي: «كان من شأن الفيل: أنَّ ملكاً كان باليمن غلب عليها ، وكان أصله من الحبشة ، يقال له: أبرهة ، بنى كنيسة بصنعاء ، فسمَّاها القُلَّيْس ، وزعم: أنَّه يصرف إليها حَجَّ العرب ، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها ، فخرج ملكٌ من ملوك حِمير فيمن أطاعه من قومه يُقال له ذو نفر ، فقاتله؛ فهزمه أبرهة ، وأخذه ، فلمَّا أتى به؛ قال له ذو نفر: أيها الملك! لا تقتلني؛ فإن استبقائي خيرٌ لك من قتلي ، فاستبقاه ، وأوثقه ، ثمَّ خرج سائراً يريد الكعبة ، حتَّى إذا دنا من بلاد خَثْعَم؛ خرج إليه النُّفَيْل بن حبيب الخثعميُّ ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه ، فهزمهم ، وأخذ النُّفَيْل ، فقال النُّفيل: أيها الملك! إنِّي عالم بأرض العرب، فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع ، والطَّاعة ، فاستبقاه ، وخرج معه يَدلُّه ، حتَّى إذا بلغ الطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال ثقيف ، فقال: أيُّها الملك! نحن عبيدٌ لك ، ليس لك عندنا خلافٌ ، وليس بيننا وبينك الَّذي تريد ـ يعنون الَّلات ـ إنَّما تريد البيت الذي بمكَّة ، نحن نبعث معك من يدلُّك عليه.

فبعثوا معه مولى لهم، يُقال له: أبو رِغال، فخرج معهم حتَّى إذا كان بالمغَمَّسِ[(١٢٣)] مات أبو رِغال، وهو الذي رُجِمَ قبره، وبعث أبرهة من المغَمَّسِ رجلاً، يقال له: الأسود بن مقصود على مقدِّمة خيله ، فجمع إليه أهل الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير بالأرك ، ثمَّ بعث أبرهة حُناطة الحميريَّ إلى أهل مكَّة ، فقال: سل عن شريفها ، ثمَّ أبلغه: أنِّي لم اتِ لقتال ، إنَّما جئت لأهدم هذا البيت.

فانطلق حُناطة حتَّى دخل مكَّة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال: إنَّ الملك أرسلني إليك؛ ليخبرك: أنَّه لم يأتِ لقتالٍ ، إلا أن تقاتلوه ، إنَّما جاء لهدم هذا البيت ، ثمَّ الانصراف عنكم. فقال عبد المطَّلب: ما عندنا له قتالٌ ، سنخلِّي بينه وبين البيت ، فإن خلَّى اللهُ بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ.

قال: فانطلق معي إليه. قال: فخرج معه؛ حتَّى قدم المعسكر ، وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب ، فأتاه فقال: يا ذا نفر! هل عندكم من غناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن من أن يقتل بُكرةً ، أو عشيَّةً ، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فامره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خيرٍ ، ويُعظم خطرك ، ومنزلتك عنده. قال: فأرسل إلى أنيس ، فأتاه ، فقال: إنَّ هذا سيِّد قريش ، صاحب عير مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، وقد أصاب له الملك مئتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه؛ فانفعه؛ فإنَّه صديقٌ لي.

فدخل أنيس على أبرهة ، فقال: أيُّها الملك! هذا سيِّد قريشٍ ، وصاحب عِيْرِ مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، يستأذن عليك ، وإنَّه أحبَّ أن تأذن له ، فقد جاءك غير ناصبٍ لك ، ولا مخالفٍ عليك. فأذن له ، وكان عبد المطَّلب رجلاً عظيماً ، جسيماً ، وسيماً ، فلمَّا راه أبرهة ، عظَّمه ، وأكرمه ، وكره أن يجلس معه على سريره ، وأن يجلس تحته ، فهبط إلى البساط ، فجلس عليه معه ، فقال له عبد المطلب: أيها الملك! إنَّك قد أصبت لي مالاً عظيماً ، فاردده عليَّ. فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتُك ، ولقد زهدت فيك. قال: ولِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو دينُك ودينُ ابائك ، وعصمتُكم ، ومنعتُكم؛ لأهدمَه ، فلم تُكلِّمْني فيه ، وتكلِّمُني في مئتي بعيرٍ لك! قال: أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه. قال: ما كان ليمنعه منِّي. قال: فأنت وذاك! قال: فأمر بإبله ، فرُدَّت عليه، ثمَّ خرج عبد المطَّلب ، وأخبر قريشاً الخبر ، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب.
وأصبح أبرهة بالمغَمَّس قد تهيَّأ للدُّخول ، وعبَّأ جيشه ، وقرَّب فيله ، وتحمَّل عليه ما أراد أن يحمل ، وهو قائم ، فلمَّا حرَّكه: وقف ، وكاد أن يرزم إلى الأرض ، فيبرك ، فضربوه بالمعول في رأسه ، فأبى ، فأدخلوا محاجنه تحت أقرانه ، ومرافقه ، فأبى ، فوجَّهوه إلى اليمن ، فهرول ، فصرفوه إلى الحرم ، فوقف ، ولحق الفيل بجبلٍ من تلك الجبال ، فأرسل الله الطَّير من البحر كالبلسان[(١٢٤)] ، مع كلِّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، وتحمل أمثال الحِمَّصِ والعدس من الحجارة ، فإذا غشيت القوم أرسلتها عليهم ، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك ، وليس كل القوم أصيب ، فذلك قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ *تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *} [سورة الفيل] .

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده ، ورجعوا سراعاً يتساقطون في كلِّ بلد ، وجعل أبرهة تتساقط أنامله ، كلَّما سقطت أُنملة؛ أتبعتها مِدَّة من قيحٍ ، ودمٍ ، فانتهى إلى اليمن ، وهو مثل فرخ الطَّير فيمن بقي من أصحابه ، ثمَّ مات»[(١٢٥)].

وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله! ـ في سيرته ، كما نقله ابن هشامٍ عنه في السِّير: أنَّ عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش ، يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو اخذٌ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ[(١٢٦)] إنَّ العَبْدَ يَمْنعُ رَحْلَه فَامْنَعْ حلالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْوَمِحَالُهُمْ غَدْواً مِحَالَكْ

إنْ كُنْتَ تَارِكُهمْ وقِبْلتَنا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

ثمَّ أرسل عبد المطَّلب حَلْقَة باب الكعبة ، وانطلق هو ، ومن معه من قريشٍ إلى شَعَفِ الجبال[(١٢٧)] ، فتحرَّزوا فيها ، ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكَّة إذا دخلها ، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاكٍ لأبرهة ، وجيشه[(١٢٨)].

دروسٌ وعبرٌ وفوائدُ من حادثة الفيل:

١ ـ بيان شرف الكعبة أوَّل بيتٍ وُضع للنَّاس ، وكيف أنَّ مشركي العرب كانوا يعظِّمونه ، ويقدِّسونه ، ولا يقدِّمون عليه شيئاً. وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما الصَّلاة والسَّلام.

٢ ـ حسد النَّصارى ، وحقدهم على مكَّة ، وعلى العرب الَّذين يعظِّمون هذا البيت ، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيْس ، وعلى الرَّغم من استعماله أساليب التَّرغيب ، والتَّرهيب إلا أنَّ العرب امتنعوا ، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيْسِ أحدُ الأعراب ، قال الرَّازي ـ رحمه الله تعالى! ـ في قوله تعالى: : اعلم أنَّ الكيد هو إرادة مضرَّةٍ بالغير على الخفية. (إن قيل): لِمَ سمَّاه {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *} ، وأمره كان ظاهراً؟ فإنَّه كان يُصرِّح أن يهدم البيت. (قلنا): نعم؛ لكن الذي كان في قلبه شرّاً ممَّا أظهر؛ لأنَّه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشَّرف الحاصل لهم بسبب الكعبة عنهم ، وعن بلدهم إلى نفسه ، وإلى بلدته[(١٢٩)].

٣ ـ التَّضحية في سبيل المقدَّسات:

قام ملكٌ من ملوك حِميرَ في وجه جيش أبرهة ، ووقع الملك أسيراً ، وقام النُّفَيْلُ ابن حبيبٍ الخثعميُّ ومن اجتمع معه من قبائل اليمن ، فقاتلوا أبرهة ، إلا أنَّهم انهزموا أمام الجيش الْعَرَمْرَم ، وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدَّساتهم.

إنَّ الدِّفاع عن المقدَّسات والتَّضحية في سبيلها ، شيءٌ غريزيٌّ في فطرة الإنسان.

٤ ـ خَوَنة الأمَّة مخذولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة ، وصاروا عيوناً له ، وجواسيس ، وأرشدوه إلى
بيت الله العتيق؛ ليهدمه لعنوا في الدُّنيا والاخرة ، لعنهم النَّاس ، ولعنهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأصبح قبر أبي رِغال رمزاً للخيانة والعمالة ، وصار ذاك الرَّجل مبغوضاً في قلوب النَّاس ، وكلَّما مرَّ أحد على قبره؛ رجمه.

٥ ـ حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مكَّة: «سنخلِّي بينه وبين البيت؛ فإن خلَّى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ» وهذا تقريرٌ دقيقٌ لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه ، فمهما كانت قوَّة العدوِّ وحشوده؛ فإنَّها لا تستطيع الوقوف لحظةً واحدةً أمام قدرة الله وبطشه ، ونِقْمته؛ فهو سبحانه واهب الحياة ، وسالبُها في أيِّ وقتٍ شاء[(١٣٠)].

قال القاسميُّ ـ رحمه الله! ـ: قال القاشانيُّ ـ رحمه الله ! ـ قصَّة أصحاب الفيل مشهورةٌ ، وواقعتهم قريبة من عهد الرَّسول (ص) ، وهي إحدى ايات قدرة الله ، وأثرٌ من سخطه على مَنِ اجترأ عليه بهتك حُرَمِهِ[(١٣١)].

٦ ـ تعظيم النَّاس للبيت ، وأهله:

ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام ، الَّذي تكفَّل بحفظه ، وحمايته من عبث المفسدين ، وكيد الكائدين[(١٣٢)] ، وأعظمت العرب قريشاً ، وقالوا: هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدوَّ ، وكان ذلك ايةً من الله تعالى ، ومقدِّمةً لبعثة نبيٍّ يبعث من مكَّة ، ويطهِّر الكعبة من الأوثان ، ويعيد لها ما كان لها من رفعةٍ ، وشأن[(١٣٣)].

٧ ـ قصَّة الفيل من دلائل النُّبوَّة:

قال بعض العلماء: إنَّ حادثة الفيل من شواهد النُّبوَّة ، ودلالاتها ، ومن هؤلاء: الماورديُّ ـ رحمه الله! ـ حيث يقول: ايات الملك باهرةٌ ، وشواهد النُّبوَّة ظاهرةٌ ، تشهد مباديها بالعواقب ، فلا يلتبس فيها

كذبٌ بصدقٍ ، ولا منتحلٌ بحقٍّ ، وبحسب قوَّتها ، وانتشارها تكون بشائرها ، وإنذارها ، ولما دنا مولد رسول الله (ص) تعاطرت ايات نبوَّته ، وظهرت ايات بركته ، فكان من أعظمها شأناً ، وأشهرها عياناً ، وبياناً أصحاب الفيل... إلى أن قال: واية الرَّسول (ص) في قصَّة الفيل: أنَّه كان في زمانه حَمْلاً في بطن أمِّه بمكَّة؛ لأنَّه ولد بعد خمسين يوماً من

الفيل ، وبعد موت أبيه ، في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوَّل ، فكانت ايةً في ذلك من وَجْهَيْن:

أحدهما: أنَّهم لو ظفروا؛ لسبوا ، واسترقوا ، فأهلكهم الله ـ تعالى ـ لصيانة رسوله (ص) أن يجري عليه السَّبيُ حَمْلاً ، ووليداً.

والثَّاني: أنَّه لم يكن لقريش من التألُّه ما يستحقُّون به رفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب؛ لأنَّهم كانوا بين عابد صنمٍ ، أو متديِّن وثنٍ ، أو قائلٍ بالزَّندقة ، أو مانعٍ من الرَّجعة ، ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام ، تأسيساً للنُّبوَّة ، وتعظيماً للكعبة. ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل ، تهيَّبوا الحرم ، وأعظموه ، وزادت حرمته في النُّفوس ، ودانت لقريش بالطَّاعة ، وقالوا: أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم كيدَ عدوِّهم ، فزادوهم تشريفاً ، وتعظيماً ، وقامت قريش لهم بالوفادة ، والسِّدانة ، والسِّقاية (والوفادة مالٌ تخرجه قريش في كلِّ عامٍ من أموالهم ، يصنعون به طعاماً للنَّاس أيام منى) ، فصاروا أئمَّةً دَيَّانين ، وقادةً متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[(١٣٤)].

وقال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «وكان ذلك عام مولد النَّبيِّ (ص) ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودين النَّصارى خيرٌ منهم ، فعُلِمَ بذلك أن هذه الاية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ ، بل كانت لأجل البيت ، أو لأجل النَّبيِّ (ص) ؛ الَّذي ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأيُّ ذلك كان؛ فهو من دلائل نبوَّته»[(١٣٥)].

وقال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ عندما تحدَّث عن حادثة الفيل: «كان هذا من باب الإرهاص ، والتَّوطئة لمبعث رسول الله (ص) ، فإنَّه في ذلك العام ولد ـ على أشهر الأقوال ـ ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش! على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانةً للبيت العتيق؛ الَّذي سنشرِّفه ، ونوقِّره ببعثة النَّبيِّ الأميِّ محمَّدٍ ـ صلوات الله ، وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء»[(١٣٦)].

٨ ـ حفظ الله للبيت العتيق:

وهي: أنَّ الله لم يقدِّر لأهل الكتاب(أبرهة وجنوده) ، أن يدمِّروا البيت الحرام ، أو يسيطروا على الأرض المقدَّسة ، حتَّى والشِّرك يُدنِّسه ، والمشركون هم سدنته؛ ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلِّطين ، مصوناً من كيد الكائدين ، وليحفظ لهذه الأرض حرِّيتها ، حتَّى تنبت

فيها العقيدة الجديدة حُرَّةً طليقةً ، لا يهيمن عليها سلطانٌ ، ولا يطغى فيها طاغيةٌ ، ولا يهيمن على هذا الدِّين الذي جاء ليهيمن على الأديان ، وعلى العباد ، ويقود البشريَّة ، ولا يقاد ، وكان هذا من تدبير الله لبيته ، ولدينه ، قبل أن يعلم أحدٌ: أنَّ نبيَّ هذا الدِّين قد ولد في هذا العام[(١٣٧)].

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدَّلالة اليوم ، ونطمئنَّ إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرةٍ ماكرةٍ ، ترف حول الأماكن المقدَّسة من قبل الصَّليبيَّة العالميَّة ، والصهيونيَّة العالمية ، ولا تني ، أو تهدأ في التمهيد الخفيِّ اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة ، فالله الَّذي حمى بيته من أهل الكتاب ، وسدنتُه مشركون ، سيحفظه ـ إن شاء الله ـ ويحفظ مدينة رسوله (ص) من كيد الكائدين ، ومكر الماكرين[(١٣٨)].

٩ ـ جَعْلُ الحادثة تاريخاً للعرب:

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل ، فأَرَّخُوا به ، وقالوا: وقع هذا عامَ الفيل ، ووُلد فلانٌ عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السِّنين ، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م[(١٣٩)].

* * *

المبحث الخامس

من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النَّبيِّ (ص):

إنَّ النَّبيَّ (ص) أشرف الناس نسباً ، وأكملهم خَلْقاً ، وخُلُقاً ، وقد ورد في شرف نسبه (ص) أحاديث صحاح؛ منها: ما رواه مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اصطفى من ولد إبراهيم

إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» [سبق تخريجه] .

وقد ذكر الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله! ـ نسب النَّبيِّ (ص) ، فقال: «هو أبو القاسم ، محمَّد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصَيٍّ ، بن كلاب ، بن مُرَّةَ ، بن كعب ، بن لُؤَيٍّ ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النَّضر ، بن كِنانة ، بن خُزيمة ، بن مُدْرِكة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نِزارٍ ، بن مَعَدٍّ ، بن عدنان» [البخاري تعليقاً (٧/٢٠٥ ـ ٢٠٦)] .

وقال البغويُّ في شرح السُّنَّة [(١٣/١٩٣)] بعد ذكر النَّسب إلى عدنان: «ولا يصحُّ حفظ النَّسب فوق عدنان».

وقال ابن القيِّم بعد ذكر النَّسب إلى عدنان أيضاً: «إلى هنا معلوم الصحَّة ، متَّفقٌ عليه بين النَّسَّابين ، ولا خلاف ألبتةَ ، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه ، ولا خلاف بينهم: أنَّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»[(١٤٠)].

وقد جاء عن ابن سعدٍ في طبقاته: «الأمر عندنا الإمساك عمَّا وراء عدنان إلى إسماعيل»[(١٤١)].

وعن عروةَ بن الزُّبير: أنَّه قال: «ما وجدنا مَنْ يعرف وراء عدنان ، ولا قحطان إلا تخرُّصاً»[(١٤٢)].

قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ بإجماع النَّاس ، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الاباء»[(١٤٣)].

لقد كان ـ وما زال ـ شرف النَّسب له المكانة في النُّفوس؛ لأنَّ ذا النَّسب الرَّفيع لا تُنْكَرُ عليه الصَّدارة ، نبوَّةً كانت ، أو مُلكاً ، وينكر ذلك على وضيع النَّسب ، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه ، ولما كان محمَّد (ص) يُعَدُّ للنُّبوَّة ، هيَّأ الله تعالى له شرف النَّسب؛ ليكون مساعداً له على التفاف النَّاس حوله[(١٤٤)].

إنَّ معدن النَّبيِّ (ص) طيِّبٌ ، ونفيسٌ ، فهو من نسْل إسماعيل الذَّبيح ، وإبراهيم خليل الله ، واستجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وبشارةُ أخيه عيسى عليه السلام ، كما حَدَّث هو عن نفسه ، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة أخي عيسى» [أحمد (٤/١٢٧) والحاكم (٢/٦٠٠) ومجمع الزوائد (٨/٢٢٢)] .

وطيب المعدن ، والنَّسب الرَّفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ، ويجعله يهتمُّ بعاليها ، وفضائلها. والرُّسل ، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم ، وطهر أصلابهم ، ويعرفون عند النَّاس بذلك ، فيحمدونهم ، ويثقون بهم[(١٤٥)].
وممَّا تبيَّن يتَّضح لنا من نسبه الشَّريف ، دلالة واضحةً على أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ميَّز العرب على سائر النَّاس ، وفضَّل قريشاً على سائر القبائل الأخرى ، ومقتضى محبَّة رسول الله (ص) محبَّة القوم الذين ظهر فيهم ، والقبيلة التي ولد فيها ، لا مِنْ حيث الأفراد والجنس؛ بل من حيث الحقيقة المجرَّدة ، ذلك؛ لأنَّ الحقيقة العربيَّة القرشيَّة قد شرف كلٌّ منها ـ ولا ريب ـ بانتساب رسول الله (ص) إليها ، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوءٍ ، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب ، أو القرشيِّين عن صراط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وانحطَّ عن مستوى الكرامة الإسلاميَّة التي اختارها الله لعباده؛ لأنَّ هذا الانحراف ، أو الانحطاط من شأنه أن يُوديَ بما كان من نسبةٍ بينه وبين الرَّسول (ص) ، ويلغيها من الاعتبار[(١٤٦)].
ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من امنة بنت وهبٍ ، ورؤيا امنة أمِّ النَّبيِّ (ص):
كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه ، ولما نجا من الذَّبح ، وفداه
عبد المطلب بمئةٍ من الإبل ، زوَّجه من أشرف نساء مكَّة نسباً ، وهي امنة بنت وهبٍ ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب[(١٤٧)].
ولم يلبث أبوه أن توفِّي بعد أن حملت به (ص) امنة ، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عديّ بن النَّجار» ، فإنَّه كان قد ذهب بتجارةٍ إلى الشَّام ، فأدركته منيَّته بالمدينة وهو راجعٌ ، وترك هذه النَّسَمَةَ المباركة ، وكأنَّ القدر يقول له: قد انتهت مهمَّتك في الحياة ، وهذا الجنين الطَّاهر يتولَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحكمته ورحمته تربيته ، وتأديبه ، وإعداده؛ لإخراج البشريَّة من الظُّلمات إلى النُّور.
ولم يكن زواج عبد الله من امنة هو بداية أمر النَّبيِّ (ص) . قيل للنَّبيِّ (ص) : ما أوَّل بدء أمرك؟[(١٤٨)] فقال رسول الله (ص) : «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» [أحمد (٥/٢٦٢) والمعجم الكبير (٧٧٢٩) ومجمع الزوائد (٨/٢٢١)] .
ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [البقرة: ١٢٩] .

وبشرى عيسى عليه السلام كما أشار إليه قوله ـ عزَّ وجل ـ حاكياً عن المسيح عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ *} [الصف: ٦] .

وقوله (ص) : «ورأت أمِّي كأنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام». قال ابن رجب: «وخروجُ هذا النُّور عند وضعه إشارةٌ إلى ما يجيء به من النُّور؛ الَّذي اهتدى به أهل الأرض ، وزالت به ظلمة الشِّرك منها ، كما قال الله تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *} [المائدة: ١٥ ـ ١٦] .

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشَّام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ، وثبوته ببلاد الشَّام ، ولهذا تكون الشَّام في اخر الزَّمان معقلاً للإسلام ، وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشَّرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصَّحيحين: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ ، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم ، ولا مَنْ خالفهم ، حتَّى يأتي أمر الله وهم
كذلك». وفي صحيح البخاريِّ: «وهم بالشَّام» [البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٩٢٣/م)] .

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى (ص):

ولد الحبيب المصطفى (ص) يوم الإثنين بلا خلافٍ ، والأكثرون على أنَّه لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول[(١٤٩)].

والمجمع عليه: أنَّه (ص) ولد عام الفيل[(١٥٠)] ، وكانت ولادته في دار أبي طالبٍ ، بشعب بني هاشم[(١٥١)].

قال أحمد شوقي ـ رحمه الله! ـ في مولد الحبيب المصطفى (ص) :

وُلِدَ الهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِياءُوَفَمُ الزَّمان تبسُّمٌ وَثَنَاءُ

الرُّوحُ ، والملأُ الملائكُ حَوْلَهُللدِّينِ وَالدُّنْيَا به بُشَرَاءُ[(١٥٢)]

وَالْعَرْشُ يَزْهُو ، والحَظِيرةُ تَزْدَهيوالمُنْتَهَى والسِّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

بِكَ بَشَّرَ اللهُ السَّمَاءَ فَزُيِّنَتْوَتَضَوَّعَتْ مِسْكاً بِكَ الْغَبْرَاءُ

يَوْمٌ يَتِيهُ عَلى الزَّمَانِ صَبَاحُهُوَمَسَاؤُهُ بمحمَّدٍ وَضَّاءُ

ذُعِرَتْ عروشُ الظَّالمينَ فَزُلْزِلَتْوعَلَتْ عَلى تِيجَانِهِمْ أَصْدَاءُ

والنَّارُ خَاوِيةُ الجَوَانِبِ حَوْلَهُمْخَمَدَتْ ذَوَائِبُها وَغَاضَ الماءُ

والايُ تَتْرَى ، والخَوارِقُ جَمَّةٌجِبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِها غَدَّاءُ[(١٥٣)]

وقد قال الشَّاعر الأديب اللِّيبي ، الأستاذ محمد بشير المغيربي ، في ذكرى مولد الرَّسول (ص) عام ١٩٤٧ م ، في جريدة الوطن الصَّادرة في بنغازي:

بَلَغَ الزَّمَانُ مِنَ الحياةِ عتيَّالَكِنَّ يوماً لا يَزَالُ فَتِيَّا

يمشي على الأحقابِ مشيَةَ فَاتِحٍفي موكبٍ جَعَلَ السِّنينَ مَطِيَّا

تَخِذَتْ لَهُ الأعْوَامُ في أيَّامِهَاعَرْشاً فأصْبَحَ تَاجَهَا الأَبْدِيَّا

ومَضَتْ بِهِ الأجْيَالُ خُطْوَاتٍ مَنْبَلَغَ الرَّشَادَ وَكَانَ قَبْلُ صَبِيَّا

أعْظِمْ بِيَوْمٍ جَاءَ يَحْمِلُ «رَحْمَةًلِّلْعَالَمِيْنَ» وعِزَّةً ورُقِيَّا

وُلِدَتْ بِهِ للكَائِناتِ حَقِيقةٌأضْحَى بِهَا سِرُّ الحياة جَلِيَّا

وَأَنَارَ في الأُولَى الطَّرِيقَ إلى الْوَرَىلِيَسِيرَ للأخْرى الأنَامُ تَقِيَّا

كَادَتْ بِه الدُّنْيَا تَقولُ لِشَمْسِهَاعَنِّي فَقَدْ رَجَعَ الضِّيَاءُ إليَّا[(١٥٤)]

وقال أيضاً في نادي طرابلس الغرب الثَّقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩ م:

مَالِي وَمَا بِي مِنْ شُمُولٍأَشْدُو عَلَى رَغْمِ العَذُولْ

إني أُطَالِعُ في السَّماءِ كَأَنَّهَا سِفْرٌ جليلْ

وأرَى النُّجُومَ تَمَثَّلَتْلي كالملائك في مُثُولْ

وَالْبَدْرُ خِلْتُ شُعَاعهوَحْيَ الرِّسَالةِ في نُزولْ

وَإِذَا بِصَوْتٍ مِنْ ضَمِيرِ الْكَوْن مُبْتَهجاً يَقُولْ

في مثل هَذي اللَّيلةِ الْغَرَّاء قَدْ وَلِدَ الرَّسُولْ

وَأَشَعَّ نُورُ مُحَمَّدٍفَوْقَ الرَّوابي والسُّهُولْ

مَلأَ الزَّمَانَ وَكَانَ قَبْلُ يَهِيمُ في لَيْل طَوِيلْ[(١٥٥)]

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام:

كانت حاضنته (ص) أمُّ أيمن بركة الحبشيَّة أمَةَ أبيه ، وأول من أرضعته ثُوَيْبَةُ أمَةُ عمِّه أبي لهب[(١٥٦)]. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة ، أنَّ أمَّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنَّها قالت: يا رسول الله! انْكِحْ أختي بنت أبي سفيان ، فقال: «أوَتحبِّين ذلك؟» فقلت: نعم ، لست لك بمخلية ،

وأحَبُّ من شاركني في خيرٍ أختي. فقال النبي (ص) : «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلت: فإنَّا نُحَدَّثُ أنَّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سلمة. قال: «بنت أمِّ سلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنَّها لم تكن ربيبتي في حجري ، ما حَلَّت لي ، إنَّها لابنة أخي من الرَّضاعة ، أرضعتني وأبا سلمة ثويبةُ ، فلا تعرضنَ عليَّ بناتكنَّ ، ولا أخَواتِكنَّ» [البخاري (٥١٠١) ومسلم (١٤٤٩)] .

وكان من شأن أمِّ أيمن، أمِّ أسامة بن زيد: أنَّها كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب ، وكانت من الحبشة، فلمَّا ولدت امنةُ رسولَ الله (ص) ، بعدما تُوفي أبوه ، فكانت أمُّ أيمن تحضنه ، حتَّى كَبِرَ رسولُ الله (ص) ، فأعتقها ، ثمَّ أنْكَحَهَا زيدَ ابن حارثة ، ثم تُوفيت بعدما تُوفي رسولُ الله (ص) بخمسة أشهرٍ. [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)] .

١ . حليمة السَّعديَّة مرضعته في بني سعد[(١٥٧)]:

وهذه حليمة السَّعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصطفى (ص) ؛ التي لمستها في نفسها ، وولدها ، ورعيها ، وبيتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: لما وُلد رسولُ الله (ص) ؛ قدمت حليمة بنت الحارث ، في نسوةٍ من بني سعد بن بكر يلتمسن الرُّضعاء بمكَّة. قالت حليمة: فخرجت في أوائل النِّسوة على أتانٍ لي ، قمراء[(١٥٨)] ، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزَّى ، أحد بني سعد بن بكر ، ثمَّ أحد بني ناضرة ، قد أدمت[(١٥٩)] أتاننا ، ومعي بالرَّكب شارفٌ[(١٦٠)] والله ما تَبِضُّ[(١٦١)] بقطرة لبنٍ! في سنةٍ شهباء[(١٦٢)] ، قد جاع النَّاس حتَّى خلص إليهم الجَهْد ، ومعي ابنٌ لي ، والله ما ينام ليلنا! وما أجد في يدي شيئاً أعلِّله به ، إلا أنا نرجو الغيث ، وكانت لنا غنمٌ ، فنحن نرجوها.

فلمَّا قدمنا مكَّة ، فما بقي منَّا أحدٌ إلا عُرض عليها رسولُ الله (ص) ، فكرهته ، فقلنا: إنَّه يتيم ، وإنَّما يُكرِم الظِّئر ، ويُحسن إليها الوالد ، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أُمُّه ، أو عمُّه ، أو جدُّه ، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعاً ، فلمَّا لم أجد غيره؛ رجعت إليه ، وأخذته ، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لاخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب ، فعسى الله أن ينفعنا به ، ولا أرجع من بين صواحبي ولا اخذ شيئاً ، فقال: قد أصبت!.

قالت: فأخذته ، فأتيت به الرَّحْلَ ، فو الله! ما هو إلا أن أتيتُ به الرَّحْلَ ، فأمسيتُ؛ أقبل ثدِيايَ باللَّبن ، حتَّى أرويتُه ، وأرويت أخاه ، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها ، فإذا هي حافلٌ[(١٦٣)] ،

فحلبها ، فأرواني ، وروي ، فقال: يا حليمة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَة[(١٦٤)] مباركةً ، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً ، وكنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا.

ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي ، فركبت أتاني القمراء ، فحملته معي ، فو الذي

نفس حليمة بيده؛ لقطعت الرَّكْبَ[(١٦٥)]! حتَّى إنَّ النِّسوة ليقلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتي خرجت عليها؟ فقلت: نعم ، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا ، فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا ، فما زال يزيدنا الله في كلِّ يومٍ خيراً ، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سِنةٌ ، ولقد كان رعاتنا يسرحون ، ثمَّ يريحون ، فتروح أغنام بني سعدٍ جياعاً ، وتروح غنمي بطاناً[(١٦٦)] ، حُفَّلاً [(١٦٧)]، فنحلب ، ونشرب ، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى ، وغنم حليمة تروح شباعاً حُفَّلاً ، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم ، فيسرحون معهم ، فما تروح إلا جياعاً ، كما كانت ، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان ، يشبُّ في اليوم شباب السنة ، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّة ، أنا وأبوه ، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه ، قلنا: والله! ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه ، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء[(١٦٨)] مكَّة ، وأسقامها ، فدعيه نرجع به حتَّى تبرئي من دائك ، فلم نزل بها حتى أذنت ، فرجعنا به ، فأقمنا أشهراً ثلاثةً ، أو أربعةً ، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا[(١٦٩)]؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره) ، فقال: إنَّ أخي القرشيَّ ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأخذاه ، وأضجعاه ، فشقَّا بطنه ، فخرجت أنا ، وأبوه يشتدُّ ، فوجدناه قائماً ، قد انتقع لونه [(١٧٠)]، فلمَّا رانا؛ أجهش إلينا ، وبكى ، قالت: فالتزمته أنا وأبوه ، فضمَمْناه إلينا: ما لك بأبي وأمِّي؟ فقال: أتاني رجلان ، وأضجعاني ، فشقَّا بطني ، ووضعا به شيئاً ، ثمَّ ردَّاه كما هو ، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا وقد أصيب ، الحقي بأهله ، فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوَّف منه ، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمِّه ، فلمَّا رأتنا أنكرت شأننا ، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه ، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنْ قضى الله الرَّضاعة ، وسَرَّنا ما نرى ، وقلنا: نؤويه كما تحبُّون أحبُّ إلينا.

قال: فقالت: إنَّ لكما شأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتَّى أخبرناها ، فقالت: كلا والله! لا يصنع الله ذلك به ، إنَّ لابني شأناً ، أفلا أخبركما خبره ، إنِّي حملت به ، فو الله! ما حملت

حملاً قطُّ ، كان أخفَّ عليَّ منه ، ولا أيسر منه ، ثُمَّ أُريت حين حملته خرج منِّي نورٌ أضاء منه أعناق الإبل بِبُصْرى . أو قالت: قصور بُصرى . ثمَّ وضعتُه حين وضعته ، فو الله! ما وقع كما يقع الصِّبيان ، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض ، رافعاً رأسه إلى السَّماء ، فدعاه عنكما! فقَبَضَتْهُ ، وانطلقنا» [أبو يعلى (٧١٦٣) وابن حبان (٦٣٣٥) والمعجم الكبير (٢١٢/٢٤ ـ ٢١٥) ومجمع الزوائد (٢٢٠/٨ ـ ٢٢١) ودلائل البيهقي (١٣٣/١ ـ ١٣٦)] .

١ ـ دروسٌ وعبرٌ:

أ ـ بركة النَّبيِّ (ص) على السَّيدة حليمة:

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السَّعدية في كلِّ شيءٍ ، ظهرت في إدرار ثدييها ، وغزارة حليبها ، وقد كان لا يكفي ولدها ، وظهرت بركته في سكون الطِّفل ولدها ، وقد كان كثير البكاء ، مزعجاً لأمِّه ، يؤرِّقها ، ويمنعها من النَّوم ، وإذا هو شبعان ساكنٌ جعل أمَّه تنام ، وتستريح. وظهرت بركته في شياههم العجفاوات ، الَّتي لا تدرُّ شيئاً ، وإذا بها تفيض من اللَّبن الكثير الَّذي لم يُعهد.

ب ـ كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له:

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السَّعدية التي تشرَّفت بإرضاعه ، وليس من ذلك غرابةٌ ، ولا عجبٌ[(١٧١)] ، فخَلْفَ ذلك حكمةٌ أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطِّفل ، ويحنوا عليه ، ويحسنوا في معاملته ، ورعايته ، وحضانته ، وهكذا كان ، فقد كانوا أحرص عليه ، وأرحم به من أولادهم[(١٧٢)] .

ج ـ خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

اختار الله لحليمة هذا الطِّفل اليتيم ، وأخذته على مضضٍ؛ لأنَّها لم تجد غيره ، فكان الخير كلَّ الخير فيما اختاره الله ، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه ، وهذا درسٌ لكلِّ مسلمٍ بأن يطمئنَّ قلبه إلى قدر الله ، واختياره ، والرِّضا به ، ولا يندم على ما مضى ، وما لم يقدِّره الله تعالى.

د ـ أثر البادية في صحَّة الأبدان ، وصفاء النُّفوس ، وذكاء العقول:

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ: وتنشئة الأولاد في البادية؛ ليمرحوا في كنف الطَّبيعة ، ويستمتعوا بجوِّها الطَّلق ، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء
الأعضاء ، والمشاعر ، وإطلاق الأفكار ، والعواطف.

إنَّها لتعاسةٌ أن يعيش أولادنا في شقق ضيِّقةٍ ، من بيوتٍ متلاصقةٍ ، كأنَّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها ، وحرَمتْهم لذَّة التَّنفُّس العميق ، والهواء المنعش.

ولا شكَّ: أنَّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة ، يعود ـ فيما يعود ـ إلى البعد عن الطَّبيعة ، والإغراق في التصنُّع. ونحن نقدِّر لأهل مكَّة اتِّجاههم إلى البادية؛ لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثيرٌ من علماء التَّربية يودُّ لو تكون الطَّبيعة هي المعهد الأوَّل للطِّفل ، حتَّى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الَّذي وجد فيه ، ويبدو أنَّ هذا حلمٌ عسير التَّحقيق[(١٧٣)].

وتعلَّم رسول الله (ص) في بادية بني سعدٍ اللِّسان العربيَّ الفصيح ، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك؛ فقال (ص) : «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد[(١٧٤)]؟!».

٢ ـ ما يستفاد من حادثة شقِّ الصَّدر:

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصَّدر الَّتي حصلت له (ص) أثناء وجوده في مضارب بني سعدٍ ، من إرهاصات النُّبوَّة ، ودلائل اختيار الله إيَّاه لأمرٍ جليل[(١٧٥)].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصَّدر في صغره ، فعن أنس بن مالكٍ: «أنَّ رسول الله (ص) أتاه جبريل؛ وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه ، فشقَّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب ، فاستخرج منه عَلَقَةً ، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك ، ثمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأَمَهُ[(١٧٦)] ، ثمَّ أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه ـ يعني: ظِئْرَهُ ـ فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه؛ وهو مُنْتَقِعُ اللون. قال أنسٌ رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره» [مسلم (١٦٢/٢٦١) وأحمد (١٤٩/٣) والبيهقي في الدلائل (٢/٥)] .

ولا شكَّ: أنَّ التَّطهير من حظِّ الشيطان هو إرهاصٌ مبكِّرٌ للنُّبوَّة ، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ ، وعبادة غير الله ، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوحيد الخالص ، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك،

فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنمٍ[(١٧٧)] برغم انتشار ذلك في قريش[(١٧٨)].

وتحدَّث الدُّكتور البوطي عن الحكمة في ذلك ، فقال: يبدو: أنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرَّسول (ص) ، وتهيؤه للعصمة ، والوحي منذ صغره بوسائل مادِّيَّةٍ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاس به ، وتصديقهم برسالته. إنَّها ـ إذاً ـ عملية تطهيرٍ معنويٍّ ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع النَّاس ، وأبصارهم[(١٧٩)]. إنَّ إخراج العلقة منه تطهيرٌ

للرَّسول (ص) من حالات الصِّبَا اللاهية العابثة المستهترة ، واتِّصافه بصفات الجدِّ ، والحزم ، والاتزان ، وغيرها من صفات الرُّجولة الصَّادقة ، كما تدلُّنا على عناية الله به ، وحفظه له ، وأنَّه ليس للشَّيطان عليه سبيل[(١٨٠)].

خامساً: وفاة أمِّه ، وكفالة جدِّه ، ثمَّ عمِّه:

توفِّيت أمُّ النَّبيِّ (ص) وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديِّ بن النَّجار تُريه إيَّاهم ، فماتت ، وهي راجعةٌ به إلى مكَّة[(١٨١)] ، ودفنت بالأبواء ، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطَّلب ، فعاش في كفالته ، وكان يؤثره على أبنائه ، أي: أعمام النَّبيِّ (ص) ، فقد كان جدُّه مهيباً ، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له ، وكان أعمامه يتهيَّبون الجلوس على فراش أبيهم ، وكان (ص) يجلس على الفراش ، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم ، فيقف الأب الجدُّ بجانبه ، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير ، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ[(١٨٢)] ، وكان جدُّه يحبُّه حباً عظيماً ، وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها ، وذات يوم أرسله في طلب إبلٍ ، فاحتبس عليه [(١٨٣)]، فطاف بالبيت ، وهو يرتجل ، يقول:

رَبِّ رُدَّ راكبي محمَّدارُدَّه لي وَاصْنَعْ عِنْدي يَدا

فلمَّا رجع النَّبيُّ (ص) ، وجاء بالإبل ، قال له: يا بني! لقد حزنتُ عليك كالمرأة ، حزناً لا يفارقني أبداً. [البيهقي في الدلائل (٢/٢٠ ـ ٢١) والحاكم (٢/٦٠٣ ـ ٦٠٤)] .

ثُمَّ توفِّيَ عبد المطلب والنَّبيُّ (ص) في الثَّامنة من عمره[(١٨٤)] ، فأوصى جدُّه به عمَّه أبا طالبٍ ، فكفله عمُّه ، وحنَّ عليه ، ورعاه[(١٨٥)].

أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسولُه (ص) يتيماً ، تتولاَّه عناية الله وحدها ، بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليله ، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتَّى لا تميل به نفسه إلى مجد المال ، والجاه ، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من معنى الصَّدارة ، والزَّعامة ، فيلتبس على النَّاس قداسة النُّبوَّة بجاه الدُّنيا ، وحتَّى لا يحسبوه يصطنع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثَّاني[(١٨٦)] ، وكانت المصائب الَّتي أصابت النَّبيَّ (ص) منذ طفولته؛ كموت أمِّه ، ثمَّ جدِّه بعد أن حرم عطف الأب ، وذاق كأس الحزن مرَّةً بعد مرَّةٍ ، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب ، مرهف الشعور ، فالأحزان تصهر النُّفوس وتخلِّصها من أدران القسوة ، والكِبْر ، والغرور ، وتجعلها أكثر رقَّةً ، وتواضعاً.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزَالهما ، وضعف بُنيتهما ، فلم يكن محمَّد (ص) سليل أبوين سقيمين ، وإنَّما توفَّاهما الله بعد أن قاما بالمهمَّة الَّتي وُجدا من أجلها؛ ليتأسَّى بمحمَّد (ص) كلُّ مَنْ فقد والديه ، أو أحدَهما وهو صغير ، وليكون أدبه ، وخلقه مع يُتمه دليلاً على أنَّ الله تعالى تولَّى رعايته ، وتأديبه؛ وحتَّى ينشأ قويَّ الإرادة ، ماضي العزيمة ، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه ، وحتَّى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته[(١٨٧)]؛ وحتَّى لا تتدخَّل يدٌ بشريةٌ في تربيته ، وتوجيهه ، فيكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الَّذي يتولَّى تربيته ، ولا يتلقَّى ، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية ، وأعرافها شيئاً ، إنَّما يتلقَّى من لدن الحكيم الخبير ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ اواه ، وسخَّر له جدَّه ، وعمَّه لتهيئة الجانب المادِّيِّ ، بينما كانت التَّربية النَّفسية ، والخُلقيَّة ، والفكريَّة تعهُّداً ربَّانياً ، ورعايةً إلهيَّةً[(١٨٨)].

سادساً: عمله (ص) في الرَّعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ (ص) برعي الغنم مساعدةً منه لعمه ، فلقد أخبر (ص) عن نفسه الكريمة ، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم ، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ ، وأخذ حقَّه عن رعيه ، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله (ص) : «ما بعث الله نبياً إلا
رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة» [البخاري (٢٢٦٢) وابن ماجه (٢١٤٩)][(١٨٩)].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ (ص) الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة ، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء ، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق ، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل ، وظلال القمر ، ونسمات الأسحار ، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر ، والحلم ، والأناة ، والرَّأفة ، والرَّحمة[(١٩٠)].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه (ص) ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان للحيوانات[(١٩١)] ، فكان رعي الغنم للنَّبيِّ (ص) دربةً ، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

١ ـ الصَّبر: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها ، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبر ، والتَّحمُّل ، وكذا تربية البشر[(١٩٢)].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ ، ولا في ترفٍ ، وسرفٍ ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة ، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة ، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه ، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام ، وشظف العيش ، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية ، ويألفها ، ويصبر عليها[(١٩٣)].

٢ ـ التَّواضع: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم ، والإشرافُ على ولادتها ، والقيام بحراستها ، والنَّوم بالقرب منها ، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها ، أو شيءٌ من روثها ، فلا يتضجَّر من هذا ، ومع المداومة والاستمرار يَبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء ، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع[(١٩٤)].

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله (ص) قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ

يحب الجمال ، الكبر: بطرُ الحقِ ، وغَمْطُ النَّاس» [مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) والحاكم (٢٦/١)] .

٣ ـ الشَّجاعة: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة ، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة ، تؤهِّله للقضاء على الوحوش ، ومنعها من افتراس أغنامه[(١٩٥)].

٤ ـ الرَّحمة ، والعطف: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم؛ إن هي مرضت ، أم كُسرت ، أو أصيبت ، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها ، وعلاجها والتَّخفيف من الامها ، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان ، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان ، وإرشاده ، وإنقاذه من النَّار ، وإسعاده في الدَّارين[(١٩٦)].

٥ ـ حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً (ص) عن رعي الغنم ، ولكن هذه تربيةٌ له ، ولأمَّته للأكل من كسب اليد ، وعرق الجبين ، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد ، إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني عمَّا في أيدي الناس ، ولا يعتمد عليهم ، فبذلك تبقى قيمته ، وترتفع منزلته ، ويبتعد عن الشُّبه ، والتَّشكيك فيه ، ويتجرَّد عمله لله تعالى ، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة ، الَّذين يصوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم[(١٩٧)] {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ *} [يونس: ٧٨] .

هكذا يقول فرعون لموسى ، ونظراً لسيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون: أنَّ أيَّ تفكيرٍ ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا ، ولهذا قال الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لأقوامهم ، مبينين استغناءهم عنهم: {وَيَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ *} [هود: ٢٩] .

روى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه ، عن رسول الله (ص) قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [البخاري (٢٠٧٢)] .

ولا شكَّ: أنَّ الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرِّيَّة التَّامَّة ، والقدرة على قول كلمة الحقِّ ، والصَّدْع بها[(١٩٨)] ، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطُّغاة ، ويسكتون على باطلهم ، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم![(١٩٩)].

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس ، إذا ما كان كسبه ، ورزقه من وراء دعوته ، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس ، وصدقاتهم ، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيّ ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ ، أو فضلٌ في دنياه ، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه ، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول (ص) في هذه الفترة؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة ، والرِّسالة الإلهيَّة ، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ، ويوضح: أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسول (ص) قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته ، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيٍّ ، فيما بعد البعثة[(٢٠٠)].

إنَّ إقبال النَّبيِّ (ص) على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة؛ منها: الذوق الرَّفيع ، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّه (ص) . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة ، وكان له في الحنوِّ ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق ، ولكنَّه (ص) ما إن انس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب ، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق ، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع ، وبرٍّ في المعاملة ، وبذلٍ للوسع[(٢٠١)].

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا ، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيأى للنَّبيِّ (ص) ـ وهو في صدر حياته ـ من أسباب الرَّفاهية ، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق ، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم: أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه ، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله ، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[(٢٠٢)].

سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيِّه (ص) قبل البعثة:

إنَّ الله تعالى صان نبيَّه (ص) عن شرك الجاهليَّة ، وعبادة الأصنام. روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال: حدَّثني جارٌ لخديجة: أنَّه سمع النَّبيَّ (ص) وهو يقول

لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً» [أحمد (٤/٢٢٢) و(٥/٣٦٢)] . قال: وهي أصنامهم الَّتي كانوا يعبدون، ثمَّ يضطجعون[(٢٠٣)]. وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصب ، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[(٢٠٤)].

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشَّباب ، ودواعيه البريئة ، الَّتي تنزع إليها الشُّبوبيَّة بطبعها ، ولكنَّها لا تلائم وقار الهداة ، وجلال المرشدين[(٢٠٥)]. فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «ما هممت بقبيح ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به ، إلا مرَّتين من الدَّهر ، كلتيهما يعصمني الله منهما ، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة ، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت ، فجئت أدنى دار من دور مكَّة ، سمعت غناءً ، وضرب دفوفٍ ، ومزامير ، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة ـ لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ ـ فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس ، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه ، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك ، ففعل ، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس ، ثمَّ رجعت إلى صاحبي ، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله (ص) : «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة ، حتَّى أكرمني الله بنبوَّته» [أبو نعيم في الدلائل (١٢٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٣٣ ـ ٣٤) والبزار (٢٤٠٣) ومجمع الزوائد (٨/٢٢٦)] .

وهذا الحديثُ يوضِّح لنا حقيقتين كلاً منهما على جانبٍ كبيرٍ من الأهميَّة:
١ ـ إنَّ النَّبيَّ (ص) كان متمتعاً بخصائص البشريَّة كلِّها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية ، الَّتي اقتضت حكمة الله أن يجبل النَّاس عليها ، فكان يُحِسُّ بمعنى السَّمر واللَّهو ، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ ، وتحدِّثه نفسه: لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك ، كما يتمتَّع الاخرون.
٢ ـ إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف ، ومن كلِّ ما لا يتَّفق مع مقتضيات الدَّعوة الَّتي هيَّأه الله لها[(٢٠٦)].

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول (ص) وهو غلامٌ:
خرج أبو طالبٍ إلى الشَّام ، وخرج معه النَّبيُّ (ص) في أشياخٍ من قريشٍ ، فلمَّا أشرفوا[(٢٠٧)] على الرَّاهب[(٢٠٨)] ، هبطوا ، فحَلُّوا رحالهم[(٢٠٩)] ، فخرج إليهم الرَّاهب ، وكانوا قبل ذلك يسيرون ، فلا يخرج إليهم ، ولا يلتفت.
فبينما هم يحلُّون رحالهم؛ جعل الرَّاهب يتخلَّلهم[(٢١٠)] ، حتَّى جاء ، فأخذ بيد رسول الله (ص) ، فقال: هذا سيِّد العالمين ، هذا رسول ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق شجرٌ ، ولا حجرٌ إلا خرَّ[(٢١١)] ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ ، وإنِّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف[(٢١٢)] كتفه مثل التُّفاحة.
ثمَّ رجع ، فصنع لهم طعاماً ، فلمَّا أتاهم به ، وكان رسول الله (ص) في رعية الإبل[(٢١٣)] ، قال: أرسلوا إليه ، فأقبل ، وعليه غمامةٌ[(٢١٤)] تظلُّه ، فلمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة ، فلمَّا جلس مال فيءُ الشَّجرة[(٢١٥)] عليه ، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه.
قال: فبينما هو قائمٌ عليهم ، وهو يناشدهم[(٢١٦)] ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإن الرُّوم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه ، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الرُّوم ، فاستقبلهم ، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر ، فلم يبقَ طريقٌ إلا بُعث إليه بأناسٍ ، وإنا قد أخبرنا خبره ، بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟
قالوا: إنَّما اخترنا خيره لك لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه ، وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيُّكم وليُّه[(٢١٧)]؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتَّى ردَّه أبو طالب. [البيهقي في الدلائل (٢/٢٤ ـ ٢٥) والترمذي (٣٦٢٠) والحاكم (٢/٦١٥) وأبو نعيم في دلائله (١٠٩)] .

وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب ، يعلمون: أنَّ محمَّداً (ص) هو الرَّسول للبشريَّة ، وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

٢ ـ إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبيِّ (ص) ، وتظليل الغمام له ، وميل فيء الشَّجرة عليه.

٣ ـ أنَّ النَّبيَّ (ص) استفاد من سفره ، وتجواله مع عمِّه ، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلع على تجارِب الاخرين ، وخبرتهم ، واستفاد من ارائهم ، فهم أصحاب خبرةٍ ، ودرايةٍ ، وتجربةٍ لم يمرَّ بها النَّبيُّ (ص) في سِنِّه تلك.

٤ ـ حذَّر بَحِيرا من النَّصارى ، وبيَّن أنَّهم إذا علموا بالنَّبيِّ (ص) فإنَّهم سيقتلونه ، وناشد عمَّه ، وأشياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإنَّ الروم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه. لقد كان الرُّومان على علمٍ بأنَّ مجيء هذا الرَّسول سيقضي على نفوذهم الاستعماريِّ في المنطقة ، ومن ثَمَّ فهو العدوُّ الَّذي سيقضي على مصالح دولة روما ، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها ، وهذا ما يخشاه الرُّومان.

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومَنْ معهم من كنانة ، وبين هوازن ، وسببها: أن عُروةَ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن هوازن أجار لطيمةً[(٢١٨)] للنُّعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم ، وعلى الخلق كلِّه. فخرج بها عروة ، وخرج البرّاض يطلب غفلته حتَّى قتله ، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا؛ وهوازن لا تشعر بهم ، ثمَّ بلغهم الخبر ، فاتَّبعوهم ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتَّى جاء الليل ، ودخلوا الحرم ، فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، وعاونت قريش كنانة[(٢١٩)] وشهد الرَّسول (ص) بعض أيَّامهم ، أخرجه أعمامه معهم. وسمِّيت يوم الفِجَارِ بسبب ما استُحلَّ فيه من حرمات مكَّة؛ التي كانت مقدَّسةً عند العرب[(٢٢٠)].

وقد قال (ص) عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي» ، أي أردُّ عليهم نبل عدوِّهم إذا رموهم بها [ابن هشام (١/١٩٨) والسيرة الحلبية (١/١٢٧ ـ ١٢٩)] .

وكان (ص) حينئذٍ ابن أربع عشرة ، أو خمس عشرة سنة ، وقيل: ابن عشرين ، ويُرَجّحُ الأوَّل: أنَّه كان يجمع النِّبال ، ويناولها لأعمامه؛ ممَّا يدلُّ على حداثة سِنّهِ.

وبذلك اكتسب الجرأة ، والشَّجاعة ، والإقدام ، وتمرَّن على القتال منذ ريعان شبابه ، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب التي تبدؤها ، حتَّى ألَّف الله بين قلوبهم ، وأزاح عنهم هذه الضَّلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[(٢٢١)].

عاشراً: حلْفُ الفُضُول:

كان حِلْفُ الفُضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار ، وسببه: أنَّ رجلاً من زبيد[(٢٢٢)] قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، ومنعه حقَّه ، فاستعدى عليه الزَّبيديُّ أشراف قريش ، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم ، فوقف عند الكعبة واستغاث بال فهرٍ وأهل المروءة ، ونادى بأعلى صوته:

يا ال فهرٍ لِمَظْلومٍ بضاعَتهببَطْنِ مَكَّة نائِي الدَّارِ والنَّفرِ

وَمُحْرِمٍ أشعثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُيَا للرِّجالِ وبَينَ الحِجْرِ والحَجَرِ

إنَّ الحرام لِمَنْ تمَّتْ كَرَامَتُهُولا حرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ[(٢٢٣)]

فقام الزُّبير بن عبد المطلب ، فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهرة ، وبنو تَيْم بن مرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في شهرٍ حرامٍ ، وهو ذو القعدة ، فتعاقدوا ، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظَّالم ، حتَّى يُردَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً ، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[(٢٢٤)].

ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيديّ ، فدفعوها إليه.

وسَمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول ، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزُّبير بن عبد المطلب:

إنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُواألاَّ يُقيمَ ببطْنِ مكَّةَ ظَالِمُ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وتَوَاثَقُوافَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ[(٢٢٥)] فِيهِمْ سالمُ

وقد حضر النَّبيُّ (ص) هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم ، ورفعوا به منار الحقِّ ، وهو يعتبر من مفاخر العرب ، وعرفانهم لحقوق الإنسان[(٢٢٦)] ، وقد قال (ص) : «شهدت حلف المطيّبين مع

عمومتي؛ وأنا غلام، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه» [أحمد (١/١٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٥٦٧) وأبو يعلى (٨٤٤ و٨٤٥ و٨٤٦)] .

وقال أيضاً: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم ، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» [البيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٦٧) وابن هشام (١/١٤١ . ١٤٢)] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

١ . إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ ، وليست نسبيَّة ، وإنَّ الرَّسول (ص) يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين ، فالقيم الإيجابيَّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليَّة[(٢٢٧)].

٢ .كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليَّة ، وفيه دلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان ، والمظالم ، والأخلاق الذَّميمة ، كالظُّلم ، والزِّنى ، والرِّبا ، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ ، ومروءة ، يكرهون الظُّلم ، ولا يقرُّونه ، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم؛ التي لا تُحَكِّمُ الإسلامَ ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام[(٢٢٨)].

٣ . إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله ، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ الناس[(٢٢٩)]. إنَّ الإسلام يحارب الظُّلم ، ويقف بجانب المظلوم ، دون النَّظر إلى لونه ، ودينه ، ووطنه ، وجنسه[(٢٣٠)].

٤ . جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير؛ فهو من قبيل التَّعاون المأمور به في القران الكريم. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *}[المائدة: ٢] .

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنَّه تأكيدٌ لشيءٍ مطلوبٍ شرعاً ، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضِّرار ، بحيث يتحوَّل التعاقد إلى نوعٍ من الحزبيَّة الموجَّهة ضد مسلمين اخرين ظلماً ، وبغياً ، وأمَّا تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلمٍ ، أو في مواجهة ظالمٍ؛ فذلك جائزٌ لهم ، على أن تُلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل ، وفي هذا الحديث دليلٌ ،

والدَّليل فيه قوله (ص) : «ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْر النَّعَم» [سبق تخريجه]؛ لما يحقِّق من عدلٍ ، ويمنع من ظلمٍ ، أو النكث به مقابل حمر النَّعم ، وقوله (ص) : «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» [سبق تخريجه] ، ما دام أنَّه يردع الظَّالم عن ظلمه ، وقد بيَّن (ص) استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[(٢٣١)].

٥ ـ على المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً ، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه ، فقد كان النَّبيُّ (ص) محطَّ أأنظار مجتمعه ، وصار مضرب المثل فيهم ، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين ، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه (ص) ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه ، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع ، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[(٢٣٢)].

* * *

المبحث السَّادس

تجارته لخديجة وزواجه منها وأهمُّ الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة ، وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملةً[(٢٣٣)] ذات شرفٍ ، ومالٍ ، تستأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها ، فلمَّا بلغها عن محمَّد (ص) صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكَرَم أخلاقه ، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التُّجار ، فقبل ، وسافر معه غلامها ميسرةُ ، وقدما الشَّام ، وباع محمَّد (ص) سلعته الَّتي خرج بها ، واشترى ما أراد من السِّلع ، فلمَّا رجع إلى مكَّة ، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

وقد حصل الرَّسول (ص) في هذه الرِّحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الَّذي ناله؛ إذ مرَّ بالمدينة الَّتي هاجر إليها من بعد ، وجعلها مركزاً لدعوته ، وبالبلاد التي فتحها ، ونشر فيها دينه ، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة ، بعد أن حدَّثها ميسرة عن سماحته ، وصدقه ، وكريم أخلاقه[(٢٣٤)] ، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالَّتها المنشودة ، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبِّه ، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[(٢٣٥)] ، فرضي بذلك ، وعرض ذلك على أعمامه ، فوافقوا كذلك ، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب ، فخطبها إليه ، وتزوَّجها رسول الله (ص) وأصدقها عشرين بَكرةً ، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسول الله (ص) ، ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى ماتت رضي الله عنها[(٢٣٦)] ، وقد وَلَدَتْ لرسول الله (ص) غلامين ، وأربع بنات. وابناه هما: القاسم ، وبه كان (ص) يُكنى ، وعبد الله ، ويلقَّب بالطَّاهر ، والطَّيِّب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سناً تمكنه من ركوب الدَّابة ، ومات عبد الله وهو طفل ، وذلك قبل البعثة. أمَّا بناته فهنَّ: زينب ، ورقيَّة ، وأمُّ كلثوم ، وفاطمة. وقد أسلمن ، وهاجرن إلى المدينة ، وتزوجن رضي الله عنهن[(٢٣٧)]. هذا وقد كان عُمرُ الرَّسول (ص) حين تزوَّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً ، وكان عمرها أربعين سنةً[(٢٣٨)].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

١ ـ إنَّ الأمانة ، والصِّدق أهمُّ مواصفات التَّاجر النَّاجح ، وصفة الأمانة ، والصِّدق في التِّجارة في شخصية النَّبيِّ (ص) ، هي الَّتي رغَّبت السَّيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به ، ويسافر به إلى الشَّام ، فبارك الله لها في تجارتها ، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢ ـ إنَّ التِّجارة موردٌ من موارد الرِّزق الَّتي سخَّرها الله لرسوله (ص) قبل البعثة ، وقد تدرَّب النَّبيُّ (ص) على فنونها ، وقد بيَّن النَّبيُّ (ص) : أنَّ التَّاجر الصَّدوق الأمين في هذا الدِّين يُحشر مع النَّبيِّين ، والصدِّيقين ، والشُّهداء ، وهذه المهنة مهمَّة للمسلمين ، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الاخرين ، واستعبادهم ، وقهرهم ، وإذلالهم؛ فهو ليس بحاجة إليهم ، بل هم في حاجة إليه ، وبحاجةٍ إلى خبرته ، وأمانته ، وعفَّته.

٣ ـ كان زواج الحبيب المصطفى (ص) للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى ، ولقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيِّه زوجةً تناسبه ، وتؤازره ، وتُخفِّف عنه ما يصيبه ، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة ، وتعيش همومه[(٢٣٩)].

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله! ـ: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصحاب الرِّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية ، ويلقون غبْناً بالغاً من الواقع الَّذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الَّذي يريدون فرضه ، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّة بالإيناس ، والتَّرفيه ، وكانت خديجة سبَّاقةً إلى هذه الخصال ، وكان لها في حياة محمَّدٍ (ص) أثرٌ كريم[(٢٤٠)].

٤ ـ إنَّ النَّبيّ (ص) ذاق مرارة فقد الأبناء ، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين ، وقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ ألا يعيش له (ص) أحدٌ من الذُّكور ، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم ، وادِّعائهم لهم النُّبوَّة ، فأعطاه الذُّكور تكميلاً لفطرته البشرية ، وقضاءً لحاجات النَّفس

الإنسانيَّة ، ولئلا يتنقَّص النَّبيَّ في كمال رجولته شانأئٌ ، أو يتقوَّل عليه متقوِّلٌ ، ثمَّ أخذهم في الصِّغر ، وأيضاً ليكون ذلك عزاءً ، وسلوى لِلَّذين لا يُرزقون البنين ، أو يُرزقون ثمَّ يموتون ، كما أنَّه لونٌ من ألوان الابتلاء ، وأشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء [الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)] ، وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ (ص) أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسوسون الشُّعوب لا يجنحون إلى الجبروت ، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة ، والأثرة ، وعاشت في أفراحٍ لا يخامرها كدر ، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الالام؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين ، ومداواة المجروحين[(٢٤١)].

٥ ـ يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ (ص) من السَّيدة خديجة ، عدم اهتمام النَّبيِّ (ص) بأسباب المتعة الجسديَّة ، ومكمِّلاتها ، فلو كان مهتماً بذلك ـ كبقيَّة الشَّباب ـ لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً ، أو فيمن لا تفوقه في العمر ، وإنَّما رغب النَّبيُّ (ص) لشرفها ، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة.

٦ ـ في زواج النَّبيِّ (ص) من السَّيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين ، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ (ص) مقتلاً يصاب منه الإسلام ، وصوَّروا النَّبيَّ (ص) في صورة الرَّجل الشَّهوانيِّ الغارق في لذَّاته ، وشهواته ، فنجد: أنَّ النَّبيَّ (ص) عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئةٍ جاهليَّةٍ عفيف النَّفس ، دون أن ينساق في شيءٍ

من التَّيَّارات الفاسدة؛ الَّتي تموج حوله ، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضعف عمره ، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شيءٍ ممَّا حوله ، وإنَّ ما حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشَّباب ، ثمَّ الكهولة ، ويدخل في سن الشُّيوخ ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفِّيت خديجة رضي الله عنها عن خمسةٍ وستين عاماً ، وقد ناهز النَّبيُّ (ص) الخمسين من العمر ، دون أن يفكِّر خلالها بالزَّواج بأيِّ امرأةٍ أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزَّمن الَّذي تتحرَّك فيه رغبة الاستزادة من النِّساء ، والميل إلى تعدُّد الزَّوجات للدَّوافع الشَّهوانية؛ ولكن النبي (ص) لم يفكر في هذه الفترة في أن يضمَّ إلى خديجة مثلها من النِّساء ، زوجةً ، أو أمَةً ، ولو أراد؛ لكان الكثير من النِّساء ، والإماء طوعَ بنانه.

أمَّا زواجه (ص) بعد ذلك من السَّيدة عائشة ، وغيرها من أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، فإنَّ لكلٍّ منهن قصَّةً ، ولكلِّ زواج حكمةً وسبباً ، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمَّد (ص) ، ورفعة شأنه ، وكمال أخلاقه[(٢٤٢)].

ثانياً: اشتراكه (ص) في بناء الكعبة الشَّريفة:

لما بلغ محمَّد (ص) خمساً وثلاثين سنةً ، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصابها من حريق ، وسيلٍ جارفٍ؛ صدَّع جدرانها ، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رَضماً[(٢٤٣)] فوق القامة ، فأرادوا هدمها؛ ليرفعوها ، ويسقفوها ، ولكنَّهم هابوا هدمها ، وخافوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ، ثمَّ قام عليها ، وهو يقول: اللَّهمَّ لم نزغ! ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الرُّكنين؛ فتربَّص النَّاس تلك الليلة ، وقالوا: ننظر ، فإن أصيب؛ لم نهدم منها شيئاً ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيءٌ؛ فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد غادياً يهدم ، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارةٍ خُضْر كالأَسْنمة[(٢٤٤)] اخذٌ بعضها ببعضٍ.

وكانوا قد جزَّؤوا العمل وخصُّوا كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ ، واشترك سادة قريش ، وشيوخها في نقل الحجارة ، ورفعها ، وقد شارك النَّبيُّ (ص) ، وعمُّه العباس في بناء الكعبة ، وكانا ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنَّبيِّ (ص) : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخرَّ إلى الأرض[(٢٤٥)] ، وطمحت عيناه إلى السَّماء ، ثمَّ أفاق ، فقال: «إزاري! إزاري!» ، فشدَّ عليه إزاره [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)] .

فلمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه ، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، وكادوا يقتتلون فيما بينهم ، لولا أنَّ أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل مَنْ يدخل من باب المسجد. فلمَّا توافقوا على ذلك؛ دخل محمَّد (ص) ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين ، قد رضينا. فلمَّا أخبروه الخبر ، قال: «هلمُّوا ثوباً» ، فأتوه به ، فوضع الرُّكن فيه بيديه ، ثمَّ قال: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب ، ثمَّ ارفعوا جميعاً» فرفعوه ، حتَّى إذا بلغوا موضعه ، وضعه بيده ، ثمَّ بنى عليه. [الحاكم (١/٤٥٨ ـ ٤٥٩) وعبد الرزاق (٥/١٠٠ ـ ١٠١) والبيهقي في الدلائل (٢/٥٦ ـ ٥٧)] .

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً ، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخلَ إليها كلُّ أحد ، فيُدخلوا من شاؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها ، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب ، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل ، فأخرجوا منها الحِجْر ، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها ، لأنَّهم

شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةٌ طيِّبةٌ ، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمةُ أحدٍ من النَّاس[(٢٤٦)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ أهمِيَّة الكعبة ، وقداستها عند قريش ، ويكفي أن باشر تأسيسها ، ورفع قواعدها إبراهيم ، وابنه إسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ بأمرٍ من الله تعالى؛ لتكون أوَّل بيتٍ لعبادة الله وحدَه.

٢ ـ بُنِيت الكعبة خلال الدَّهر كلِّه أربع مرَّات على يقينٍ؛ فأمَّا المرَّة الأولى منها ، فهي الَّتي قام بأمر البناء فيها إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ يعينه ابنه إسماعيل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة ، واشترك في بنائها النَّبيُّ (ص) ، والثالثة: عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية ، بفعل الحصار الَّذي ضربه الحُصين السُّكوني على ابن الزُّبير حتَّى يستسلم ، فأعاد ابن الزُّبير بناءها ، وأمَّا المرَّة الرَّابعة ففي زمن عبد الملك بن مروان بعدما قُتِل ابن الزُّبير ، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النَّبيِّ (ص)[(٢٤٧)] ؛ لأنَّ ابن الزُّبير باشر في رفع بناء البيت ، وزاد فيه الأذرع السَّتَّة التي أخرجت منه ، وزاد في طوله إلى السَّماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين: أحدهما يُدخل منه ، والاخر يُخرج منه ، وإنَّما جرَّأه على إدخال هذه الزِّيادة حديث عائشة عن رسول الله (ص) : «يا عائشة! لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ؛ لأمرت بالبيت ، فهُدم؛ فأدخلت فيه ما أُخرجَ منه ، وألزقته بالأرض ،

وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً ، فبلغتُ به أساس إبراهيم» [البخاري (١٥٨٦) ومسلم (١٣٣٣/٤٠١)].

٣ . طريقة فضِّ التنازع كانت موفَّقةً ، وعادلةً ، ورضي بها الجميع ، وحقنت دماءً كثيرةً ، وأوقفت حروباً طاحنةً ، وكان مِنْ عدل حكمه (ص) أن رضيت به جميع القبائل ، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى ، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله (ص) ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله (ص) من باب الصَّفا كان قَدَراً من الله لحلِّ هذه الأزمة المستعصية ، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع ، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمَّد (ص) ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي ، ولا يفسد ، وهو الأمين على البيت ، والأرواح ، والدِّماء[(٢٤٨)].

٤ . إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ (ص) الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ[(٢٤٩)]

،

وحصل لرسول الله (ص) في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة ، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه (ص) ، ألا وهو وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين ، وأخذه من البساط بعد رفعه ، ووضعُه في مكانه من البيت[(٢٥٠)].

٥ . إنَّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهيِّ ، وكمال التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في سيرة رسول الله (ص) ، كما يلاحظ كيف أنَّ الله أكرم رسوله (ص) بهذه القدرة الهائلة على حلِّ المشكلات بأقرب طريقٍ ، وأسهله ، وذلك ما تراه في حياته كلِّها (ص) ، وذلك معلَمٌ من معالم رسالته ، فرسالتُه إيصالٌ للحقائق بأقرب طريقٍ ، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوبٍ ، وأكمله[(٢٥١)].

٦ . من حفظ الله لنبيِّه (ص) في شبيبته ، عن أقذار الجاهليَّة ، وأدرانها، ومعائبها ، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر ، أثناء بناء الكعبة ، ورفع إزاره على رقبته ، فخرَّ إلى الأرض ، وطَمَحَتْ عينُه إلى السَّماء ، ثمَّ أفاق يقول: إزاري! إزاري! فشد عليه إزاره ، فما رُئِيَ بعد ذلك عُرْياناً (ص) [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)] .

ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ (ص):

شاءت حكمة الله تعالى ، أن يُعدَّ الناس لاستقبال نبوَّة محمَّد (ص) بأمورٍ؛ منها:

١ . بشارات الأنبياء بمحمَّد (ص):

دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث في العرب رسولاً منهم ، فأرسل محمَّداً إجابةً لدعوته. قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [البقرة: ١٢٩] ، وذكر القران الكريم: أنَّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد (ص) ، في الكتب السَّماوية المنزلة على الأنبياء السَّابقين ، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الأعراف: ١٥٧].

وبشَّر به عيسى عليه السلام ، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى ، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ *} [الصف: ٦].

وأعلمَ اللهُ تعالى جميع الأنبياء ببعثته ، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به ، واتِّباعه؛ إن هم أدركوه[(٢٥٢)] ، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *} [آل عمران: ٨١].

وقد وقع التَّحريف في نسخ التَّوراة ، والإنجيل ، وحُذِف منهما التَّصريح باسم محمَّد (ص) ، إلا توراة (السَّامرة) ، وإنجيل (برنابا) الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في اخر القرن الخامس الميلادي ، وقد أيَّدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً ، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرِّحة باسم النَّبيِّ محمَّد (ص) ، مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه ، ونصُّ العبارة:

«٢٩ ـ فاحتجب الله ، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس. ٣٠ ـ فلما التفت ادم رأى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»[(٢٥٣)].

قال ابن تيميَّة: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ (ص) عندهم في الكتب المتقدمة متواترةٌ عنهم» ثمَّ قال: «ثمَّ العلم بأنَّ الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب ، ممَّن أسلم ، وممَّن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها؛ وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار: أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنَّه رسولُ الله ، وأنَّه موجودٌ عندهم ، وكانوا ينتظرونه ، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام ، حتَّى امن الأنصار به ، وبايعوه»[(٢٥٤)].

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه ، وكان من أصحاب بدرٍ ، قال: «كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل ، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النَّبيّ (ص) بيسيرٍ ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، قال سلمة: وأنا يومئذٍ أَحْدَثُ مَنْ فيه سناً ، عليَّ بردةٌ مضطجعاً فيها بفناء أهلي ، فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب، والميزان ، والجنَّة ، والنَّار ، فقال ذلك لقومٍ؛ وكانوا أهل شركٍ ، وأصحاب أوثان ، لا يرون: أنَّ بعثاً كائنٌ بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً: أنَّ النَّاس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنَّةٌ، ونارٌ، ويُجزون

فيها بأعمالهم؟! قال: نعم ، والذي يُحلف به! ولودَّ: أنَّ له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ[(٢٥٥)] في الدُّنيا يحمونه ، ثمَّ يدخلونه إيَّاه ، فيطبق به عليه[(٢٥٦)] وأن ينجو من تلك النَّار غداً.

قالوا له: ويحك! وما اية ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكَّة ، واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمرَه؛ يدركه.

قال سلمة: «فو الله! ما ذهب الليل والنَّهار ، حتَّى بعث الله تعالى رسوله (ص) ، وهو حيٌّ بين أظهرنا ، فامنَّا به ، وكفر به بغياً وحسداً؛ فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالَّذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ، وليس به» [أحمد (٣/٤٦٧) والبيهقي في الدلائل (٢/٧٨ ـ ٧٩) وابن هشام (١/٢٢٥ ـ ٢٢٦)] .

وقد قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «قد رأيت أنا من نُسَخِ الزَّبور ما فيه تصريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ (ص) باسمه ، ورأيت نسخةً أخرى بالزَّبور فلم أرَ ذلك فيها ، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسخ من صفات النَّبيّ (ص) ما ليس في أخرى»[(٢٥٧)].

وقد ذكر عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما صفة رسول الله (ص) في التَّوراة ، فقال: «والله! إنه لموصوف في التَّوراة بصفته في القران: يا أيها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرزاً للأميّين[(٢٥٨)] ، أنت عبدي ، ورسولي ، سمَّيتك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سخَّابٍ في الأسواق[(٢٥٩)] ، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، ولن يقبضه الله حتَّى يقيم به

الملَّة العوجاء[(٢٦٠)]؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، واذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً» [البخاري (٢١٢٥ و٤٨٣٨) وأحمد (١٧٤/٢) والبيهقي في الدلائل (/٣٧٤ ـ ٣٧٥)] .

ومن حديث كعب الأحبار ، قال: «إِنِّي أجد في التَّوراة مكتوباً: مُحمَّدٌ رسول الله ، لا فظٌّ ، ولا غليظٌ ، ولا سَخَّابٌ في الأسواق ، ولا يجزي السَّيئة بالسَّيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، أمَّته الحمَّادون ، يحمدون الله في كلِّ منزلةٍ ، ويكبِّرونه على كل نجدٍ ، يأتزرون إلى أنصافهم ، ويوضِّئون أطرافهم ، صَفُّهم في الصَّلاة وصَفُّهم في القتال سواءٌ ، مناديهم ينادي في جوِّ

السَّماء ، لهم في جوف اللَّيل دويٌّ كدويِّ النَّحل ، مولده بمكَّة ، ومهجره بطابة ، وملكه بالشَّام» [البيهقي في الدلائل (٣٧٦/١ ـ ٣٧٧)].

٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوَّته (ص):

أخبر سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه في قصَّة إسلامه المشهورة ، عن راهب عَمُّورية حين حضرته المنيَّة ، قال لسلمان: «إنَّه قد أظلَّ زمان نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين ، بينهما نخلٌ ، به علاماتٌ لا تخفى ، يأكل الهديَّة ، ولا يأكل الصَّدقة ، بين كتفيه خَاتم النُّبوَّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد؛ فافعل».

ثمَّ قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة ، واسترقاقه ، ولقائه برسول الله (ص) حين الهجرة ، وإهدائه له طعاماً على أنَّه صدقة ، فلم يأكل منه الرَّسول (ص) ، ثمَّ إهدائه له طعاماً على أنَّه هدية ، وأكله منه ، ثمَّ رؤيته خاتم النُّبوَّة بين كتفيه ، وإسلامه على إثر ذلك» [أحمد (٤٤١/٥ ـ ٤٤٤) والحاكم (٥٩٩/٣ ـ ٦٠٢) والبيهقي في الدلائل (٨٣/٢ ـ ٩٧) وأبو نعيم في دلائله (١٩٩) وابن هشام (٢٢٨/١ ـ ٢٣٤)] .

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ومن ذلك قصَّة أبي التَّيِّهان ، الَّذي خرج من بلاد الشَّام ، ونزل في بني قريظة ، ثمَّ توفي قبل البعثة النَّبويَّة بسنتين ، فإنَّه لما حضرته الوفاة؛ قال لبني قريظة: يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخَمر ، والخمير ـ الشَّام ـ إلى أرض البؤس والجوع ـ يعني: الحجاز ـ؟ قالوا: أنت أعلم. قال: إِنِّي قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ ـ أنتظر ـ خروج نبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، وكنت أرجو أن يبعث ، فأتَّبعه.

وقد شاع حديث ذلك ، وانتشر بين اليهود ، وغيرهم ، حتَّى بلغ درجة القطع عندهم، وبناءً عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنوَّرة: إنَّه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الان ، نقتلكم معه قتل عاد

وإرم[(٢٦١)] ، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجالٍ من الأنصار ، وقد قالوا: «إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى ، وهداه؛ لما كنَّا نسمع من رجال اليهود ، وكُنَّا أهلَ شركٍ ، أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتابٍ ، عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون؛ قالوا لنا: إنَّه تقارب زمان نبيٍّ يبعث الان، نقتلكم معه قتل عادٍ ، وإرم»[(٢٦٢)].

وقد قال هرقل ملك الرُّوم عندما تسلَّم رسالة النَّبيّ (ص) : «وقد كنت أعلم: أنَّه خارجٌ ، ولم أكن أظنُّ: أنَّه منكم» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

٣ . الحالة العامَّة الَّتي وصل إليها النَّاس:

لخَّص الأستاذ النَّدوي الحال الَّتي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة ، والدَّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السَّادس المسيحيّ أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ، ومعلِّمون من أفراد النَّاس ، فلم تكن القضيَّة قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد ، أو إزالة عادةٍ من العادات ، أو قبول عبادةٍ من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون ، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصرٌ ، ولا مصرٌ.

ولكنَّ القضيَّة كانت قضية إزالة أنقاض الجاهليَّة ، ووثنيَّةٍ تخريبيَّةٍ ، تراكمت عبر القرون ، والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء ، والمرسلين ، وجهود المصلحين ، والمعلمين ، وإقامة بناءٍ شامخٍ مشيد البنيان ، واسع الأرجاء ، يسع العالم كلَّه ، ويؤوي الأمم كلَّها ، قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ ، كأنَّه ولد من جديد أو عاش من جديد. قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٢٢] .

قضية اقتلاع جرثومة الفساد ، واستئصال شأفة الوثنيَّة ، واجتثاثها من جذورها؛ بحيث لا يبقى لها عينٌ ، ولا أثرٌ ، وترسيخ عقيدة التَّوحيد في أعماق النَّفس الإنسانيَّة ترسيخاً لا يتصوَّر فوقه ، وغرس ميلٍ إلى إرضاء الله ، وعبادته ، وخدمة الإنسانيَّة ، والانتصار للحقّ يتغلَّب على كلِّ رغبةٍ ، ويقهر كلَّ شهوةٍ ، ويجرف كلَّ مقاومة وبالجملة الأخذ بِحُجَزِ الإنسانيَّة المنتحرة؛ الَّتي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدُّنيا والاخرة، والسُّلوك بها على طريقٍ أوَّلها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون ، واخرها جنَّة الخلد؛ الَّتي وُعِد المتَّقون ، ولا تصوير أبلغ ، وأصدق من قوله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمَّد (ص)[(٢٦٣)] : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [آل عمران: ١٠٣].

٤ . إرهاصات نبوَّته (ص):

ومن إرهاصات نبوَّته (ص) تسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة ، فعن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله (ص) : «إِنِّي لأعرف حجراً بمكَّة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث ، إِنِّي لأعرفه الان» [أحمد (٥/٨٩) ومسلم (٢٢٧٧) والترمذي (٣٦٢٤)] ومنها: الرُّؤيا الصَّادقة ، وهي أول ما بدأى له من
الوحي ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] وحُبِّب إليه (ص) العزلة ، والتَّحنُّث «التعبد» ، فكان يخلو في غار حراء . وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّماليّ الغربيّ من مكَّة . ويتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارةً عشرة ، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر ، ثمَّ يعود إلى بيته ، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أخرى ، ويعود إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[(٢٦٤)].

* * *

الفصل الثَّاني

نزول الوحي والدَّعوة السِّرِّيَّة

المبحث الأوَّل

نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين (ص)

كان النَّبيُّ (ص) قد بلغ الأربعين من عمره ، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون ، وخالقه ، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته ، فتزوَّد لليالٍ أخرى[(٢٦٥)] ، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار

حراء[(٢٦٦)] ، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها ، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح ، وكتب السُّنن ، والمسانيد ، وكتب التاريخ» ، فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: «أوَّلُ ما بُدىءَ به رسول الله (ص) من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ ، فكان يخلو بغار حراء ، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ الليالي ذواتِ العددِ ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها ، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ ، فجاءه الملِكُ ، فقال: اقرأ ، قال: «ما أنا بقارأى». قال: «فأخذني ، فغَطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ما أنا بقارأى ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارأى ، فأخذني فغطَّني الثالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *} [العلق: ١ ـ ٥]» .

فرجع بها رسولُ الله (ص) يَرْجُفُ فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: زَمِّلُوني ، زَمِّلُوني ، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي ، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ[(٢٦٧)] ،

وتُكسبُ المعدومَ[(٢٦٨)] ، وتقري الضَّيفَ ، وتعين على نوائب الحقِّ[(٢٦٩)]. فانطلقت به خديجة ، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عمِّ خديجة ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة ، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانِيَّ ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي ، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى ، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس[(٢٧٠)] الَّذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً[(٢٧١)]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله (ص) : أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم ، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[(٢٧٢)] ، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ ، وفَتَرَ الوحي[(٢٧٣)]» [سبق تخريجه] .

عندما نتأمل في حديث السَّيدة عائشة؛ يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمَّة تتعلَّق بسيرة الحبيب المصطفى (ص) ، ومن أهمِّها:

أولاً: الرُّؤيا الصَّالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ أوَّل ما بُدأى به محمَّد (ص) من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة ، وتسمَّى أحياناً بالرُّؤيا الصَّادقة ، والمراد بها هنا رؤى طيبةٌ ينشرح لها الصَّدر ، وتزكو بها الرُّوح[(٢٧٤)]. ولعلَّ الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله (ص) بالوحي بالمنام: أنَّه لو لم يبتدئه بالرُّؤيا ، وأتاه الملك فجأةً ، ولم يسبق له أن رأى مَلَكاً من قبل ، فقد يصيبه شيءٌ من الفزع ، فلا يستطيع أن يتلقَّى منه شيئاً؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أوَّلاً في المنام ليتدرب عليه ، ويعتاده[(٢٧٥)]. والرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة . كما ورد في الحديث الشَّريف . [البخاري (٦٩٨٣) وأحمد (١٢٦/٣) وابن ماجه (٣٨٩٣)] وقد قال العلماء: «وكانت مدَّة الرُّؤيا الصَّالحة ستَّة أشهرٍ» ذكره البيهقيُّ ، ولم ينزل عليه شيءٌ من القران في النَّوم؛ بل نزل كلُّه يقظةً.

والرُّؤيا الصَّالحة من البشرى في الحياة الدُّنيا ، فقد ورد عن النَّبيِّ (ص) قوله: «أيها النَّاسُ! إنَّه لم يبقَ من مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا الصَّالحة ، يراها المسلم ، أو تُرَى له» [أحمد (٢١٩/١) ومسلم (٤٧٩) وأبو داود (٨٧٦) والنسائي (١٨٩/٢) وابن ماجه (٣٨٩٩)] .

فكان (ص) قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة ، فيصحو منشرحَ الصَّدر ، متفتِّح النَّفس لكلِّ ما في الحياة من جمال[(٢٧٦)]. لقد أجمعت الرِّوايات من حديث (بدء الوحي) أنَّ أول ما بدأى به رسولُ الله (ص) من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة ، يراها في النَّوم فتجيء في اليقظة كاملةً ، واضحةً كما راها في النَّوم ، لا يغيب عليه منها شيءٌ ، كأنَّما نقشت في قلبه ، وعقله ، وقد شَبَّهت السَّيدة عائشة رضي الله عنها . وهي من أفصح العرب . ظهور رؤيا رسول الله (ص) إذا استيقظ بها من كمال وضوحها ، بظهور ضوء الصُّبح ينفلق عنه غبش الظَّلام ، وهو تصويرٌ بيانيٌّ لا تنفلق دنيا العرب في ذُرَا فصاحتهم عن أبلغ منه[(٢٧٧)].

ثانياً: ثمَّ حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه:

وقبيل النُّبوَّة حُبِّب إلى نفس النَّبيِّ (ص) الخلوة؛ ليتفرغ قلبه ، وعقله ، وروحه إلى ما سَيُلقى إليه من أعلام النُّبوَّة ، فاتَّخذ من غار حراء مُتَعَبَّداً؛ لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق ، استجماعاً لقواه الفكريَّة ، ومشاعره الرُّوحية ، وإحساساته النَّفسيَّة ، ومداركه العقليَّة ، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون ، وخالق الوجود[(٢٧٨)]. والغار الذي كان يتردَّد عليه الحبيب المصطفى (ص) يبعث على التأمُّل ، والتفكُّر ، تنظر إلى منتهى الطَّرْف فلا ترى إلا جبالاً كأنَّها ساجدةً متطامنةً لعظمة الله ، وإلا سماءً صافيةَ الأديم ، وقد يرى مَنْ يكون فيه مكَّة إذا كان حادَّ البصر[(٢٧٩)].

كانت هذه الخلوة الَّتي حُببت إلى نفس النَّبيّ (ص) لوناً من الإعداد الخاصّ ، وتصفية النَّفس من علائق المادّيَّة البشريَّة ، إلى جانب تعهُّده الخاص بالتَّربية الإلهيَّة ، والتَّأديب الرَّبَّانيّ في جميع أحواله ، وكان تعبُّده (ص) قبل النُّبوَّة بالتفكُّر في بديع ملكوت السَّموات ، والنَّظر في اياته الكونيَّة الدَّالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ، ومحكم تدبيره ، وعظيم إبداعه[(٢٨٠)].

وقد أخذ بعض أهل السُّلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذِّكر والعبادة في مرحلة من مراحل السُّلوك؛ لتنوير قلبه ، وإزالة ظلمته ، وإخراجه من غفلته ، وشهوته ، وهفوته ، ومن سنن النَّبيّ (ص) سنَّة الاعتكاف في رمضان[(٢٨١)] ، وهي مهمَّةٌ لكلّ مسلمٍ سواءً كان حاكماً ، أو
عالماً ، أو قائداً ، أو تاجراً؛ لتنقية الشَّوائب الَّتي تعلق بالنُّفوس والقلوب ، ونصحّح واقعنا على ضوء الكتاب والسُّنَّة ، ونُحاسِب أنفسنا قبل أن نُحاسَب[(٢٨٢)].

ويمكن لأهل فقه الدَّعوة أن يعطوا لأنفسهم فترةً من الوقت للمراجعة الشَّاملة ، والتَّوبة ، والتأمُّل في واقع الدَّعوة وما هي عليه من قوَّةٍ ، أو ضعفٍ ، واكتشاف عوامل الخلل ، ومعرفة الواقع بتفاصيله ، خيره وشرّه. ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشا الفساد ، وأصبحت الدُّنيا مؤثرةً ، ومتابعة الهوى مطلباً ، ولابدَّ أن تكون إيجابيةً وليست سلبية ، وليتابع الطَّريق بعدها بما يحمله من الحقّ[(٢٨٣)].

وفي قول السَّيدة عائشة رضي الله عنها: «فيتحنَّث الليالِيَ ذوات العدد» ، يقول الشيخ محمَّد عبد الله دراز: «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلَّة ، ولا إلى نهاية الكثرة ، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النَّبيُّ (ص) قبل البعثة من التوسُّط ، والاقتصاد في الأعمال ، شعاراً للملَّة الإسلامية ، ورمزاً للهدي النَّبويّ الكريم ، بعد أن أرسله الله رحمةً للعالمين»[(٢٨٤)].

ثالثاً: حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء: جاء الملك ، فقال: اقرأ ، قال: «قلت: ما أنا بقارأى... فأخذني فغطَّني الثَّالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *} [العلق: ١ ـ ٤]» .

لقد كانت هذه الايات الكريمات المباركات أوَّل شيءٍ نزل من القران الكريم ، وفيها التَّنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقةٍ ، وإنَّ من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به ادم عليه السلام على الملائكة. والعلم تارةً يكون في الأذهان ، وتارةً يكون في اللِّسان ، وتارةً يكون بالكتابة بالبنان[(٢٨٥)] ، وبهذه الايات كانت بداية نبوَّة محمَّدٍ (ص) ، لقد

كان هذا الحادث ضخماً ، ولقد عبَّر عنه سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله ، فقال: «إنَّه حادثٌ ضخمٌ جداً ، ضخمٌ إلى غير حدٍّ ، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا! إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته ، وضخمٌ بدلالته ، وضخمٌ باثاره في حياة البشريَّة جميعاً ، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ ـ بغير مبالغةٍ ـ أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل.

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟

حقيقته: أنَّ الله ـ جلَّ جلاله ، العظيم ، الجبَّار ، القهَّار ، المتكبِّر ، مالك الملك كلِّه ـ قد تكرَّم ـ في عليائه ـ فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسمَّاة بالإنسان ، القابعة في ركن من أركان الكون ، لا يكاد يُرى ، هذا الرُّكن الَّذي يُسمَّى الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها ليكون ملتقى نوره الإلهي ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثِّل قدره الَّذي يريده ـ سبحانه ـ لهذه الخليقة»[(٢٨٦)].

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم ، وخطره ، والعلم ومنزلته في بناء الشُّعوب ، والأمم ، وفيها إشارةٌ واضحةٌ بأنَّ من أخصِّ خصائص الإنسان العلمَ والمعرفة[(٢٨٧)].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ، ومنزلة العلم في الإسلام ، فأوَّل كلمةٍ في النُّبوَّة تصل إلى رسول الله (ص) هي الأمر بالقراءة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *} [العلق: ١].

وما زال الإسلام يحثُّ على العلم ، ويأمر به ، ويرفع درجة أهله ، ويميِّزهم على غيرهم. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} [المجادلة: ١١] وقال سبحانه: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *} [الزمر: ٩] .

إنَّ مصدر العلم النافع من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو الَّذي علَّم بالقلم ، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم ، ومتى حادت البشريَّة عن هذا المنهج ، وانفصل علمها عن التقيُّد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها ، وسبباً في إبادتها[(٢٨٨)].

رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ (ص) ، ووصفُ ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النَّبيِّ (ص) مراراً حتَّى أجهده ، وأتعبه ، وبقي رسول الله (ص) يلقى من الوحي شدَّةً ، وتعباً ، وثقلاً ، كما قال تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *} [المزمل: ٥] كان

في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ؛ لعلَّ منها: بيان أهمية هذا الدِّين ، وعظمته ، وشدَّة الاهتمام به ، وبيانٌ للأمَّة أنَّ دينها الَّذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدَّةٍ ، وكرب[(٢٨٩)].

إنَّ ظاهرة الوحي معجزةٌ خارقةٌ للسُّنن ، والقوانين الطَّبيعيَّة ، حيث تلقَّى النَّبيُّ (ص) كلام الله «القران» بواسطة الملك جبريل عليه السلام ، وبالتَّالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام ، أو

التأمُّل الباطنيّ ، أو الاستشعار الدَّاخلي ، بل إنَّ الوحي يتمُّ من خارج ذات النَّبيِّ (ص) ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى ، وتبليغه ، وأمَّا بيانه ، وتفسيره فيتمُّ بأسلوب النَّبيِّ (ص) كما يظهر في أحاديثه ، وأقواله (ص)[(٢٩٠)] .

إنَّ حقيقة الوحي هي الأساس الَّذي تترتَّب عليه جميع حقائق الدِّين ، بعقائده ، وتشريعاته ، وأخلاقه؛ ولذلك اهتمَّ المستشرقون . والملاحدة من قبلهم . بالطَّعن والتَّشكيك في حقيقة الوحي ، وحاولوا أن يُؤوِّلوا ظاهرة الوحي ، ويحرِّفوها عن حقيقتها ، عمَّا جاءنا في صحاح السُّنَّة الشَّريفة ، وحدَّثنا به المؤرِّخون الثِّقات ، فقائل يقول: إنَّ محمَّداً (ص) تعلَّم القران ، ومبادأى الإسلام من بحيرا الرَّاهب ، وبعضهم قال: بأنَّ محمَّداً كان رجلاً عصبياً ، أو مصاباً بداء الصَّرع[(٢٩١)].

والحقيقة تقول: إنَّ محمَّداً (ص) وهو في غار حراء فوجأى بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له: اقرأ ، حتَّى يتبيَّن: أنَّ ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مَرَدُّهُ إلى حديث النَّفس المجرَّد؛ وإنَّما هو استقبالٌ وتلقٍّ لحقيقةٍ خارجيَّةٍ لا علاقة لها بالنَّفس ، وداخل الذات. وضمُّ الملك إيَّاه ، ثمَّ إرساله ثلاث مرَّات قائلاً في كلِّ مرَّة: اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقِّي الخارجيِّ ، ومبالغةً في نفي ما قد يتصوَّر ، من أنَّ الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

ولقد أصيب النَّبيُّ (ص) بالرُّعب ، والخوف ممَّا سمع ، ورأى ، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده ، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يكن متشوِّقاً للرِّسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للنَّاس[(٢٩٢)] ، وقد قال الله تعالى تأكيداً لهذا المعنى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ *} [الشورى: ٥٢ . ٥٣] وقال: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *} [يونس: ١٥ . ١٦] .

لقد تساقطت اراء المشكِّكين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصَّحيح الَّذي حدَّثتنا به السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، وقد استمرَّ الوحي بعد ذلك يحمل الدَّلالة نفسها على حقيقة الوحي؛ وأنَّه ليس كما أراد المشكِّكون. وقد أجمل الدُّكتور البوطي هذه الدَّلالة فيما يلي:

١ ـ التمييز الواضح بين القران ، والحديث؛ إذ كان يأمر بتسجيل الأوَّل فوراً ، على حين يكتفي بأان يستودع الثَّاني ذاكرة أصحابه؛ لا لأنَّ الحديث كلام من عنده لا علاقة للنُّبوَّة به؛ بل لأنَّ القران موحى به إليه بألفاظه ، وحروفه بواسطة جبريل عليه السلام ، أما الحديث؛ فمعناه وحي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن لفظه ، وتركيبه من عنده (ص) ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّذي يتلقَّاه من جبريل بكلامه هو (ص) .

٢ ـ كان النَّبيُّ (ص) يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يُجيب عنها ، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويلٌ ، حتَّى تنزل اية من القران في شأن سؤاله. وربما تصرَّف الرَّسول (ص) في بعض الأمور على وجهٍ معين ، فتتنزل ايات من القران تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عَتْبٍ ، أو لومٍ له.

٣ ـ كان رسول الله (ص) أمياً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النَّفسيَّة حقائق تاريخيَّةً ، كقصَّة يوسف عليه السلام ، وأمِّ موسى حينما ألقت وليدها في اليمِّ ، وقصَّة فرعون ، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه (ص) أمياً. يقول تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ *} [العنكبوت: ٤٨].

٤ ـ إنَّ صدق النَّبيِّ (ص) أربعين سنةً مع قومه ، واشتهاره فيهم بذلك يستدعي أن يكون (ص) من قبل ذلك صادقاً مع نفسه ، ولذا فلابدَّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أيِّ شكٍّ يخايل لعينيه ، أو فكره ، وكأنَّ هذه الاية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *} [يونس: ٩٤] .

ولهذا روي: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال بعد نزول هذه الاية: «لا أشكُّ ، ولا أسأل» [عبد الرزاق (١٠٢١١) والسيوطي في الدر المنثور (٣٨٩/٤)] .

خامساً: أنواع الوحي:

تحدَّث العلماء عن أنواع الوحي ، فذكروا منها:

١ ـ الرُّؤيا الصَّادقة:

وكانت مبدأ وحيه (ص) ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ» ، وقال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: {يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: ١٠٢] .

٢ ـ الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في رُوْعِه ـ أي: قلبه ـ من غير أن يراه ، كما قال (ص) : «إنَّ روح القدس نَفَثَ في رُوْعي» أي: إنَّ جبريل عليه السلام نفخ في قلبي ، «أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها ، وأجلها؛ فاتَّقوا الله ، وأجْمِلُوا في الطَّلب» [البغوي في شرح السنة (٣٠٤/١٣) برقم (٤١١٢) وابن عبد البر في التمهيد (٢٨٤/١)].

٣ ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس:

أي مثل صوته في القوَّة ، وهو أشَدُّهُ ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله (ص) : كيف يأتيك الوحي؟ فقال (ص) : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدُّه عليَّ ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال ، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً ، فيكلِّمني ، فأعي ما يقول» [البخاري (٢) ومسلم (٨٧/٢٣٣٣)] .

٤ ـ ما أوحاه الله تعالى إليه ، بلا وساطة مَلَكٍ:

كما كلَّم الله موسى بن عمران عليه السلام ، وهذه المرتبة هي ثابتةٌ لموسى قطعاً بنصِّ القران ، وثبوتها لنبينا (ص) في حديث الإسراء[(٢٩٣)].

٥ ـ أنَّه يرى المَلك في صورته الَّتي خلق عليها:

فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ ـ أنَّه (ص) كان يتمثَّل له المَلكُ رجلاً:

فيخاطبه حتَّى يَعِيَ عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصَّحابة أحياناً[(٢٩٤)].

هذا ما قاله ابن القيِّم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله (ص) بداية عهدٍ جديدٍ في حياة الإنسانيَّة ، بعدما انقطع ، وتاهت البشرية في دياجير الظَّلام.

وكان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله (ص) ـ كما هو واضحٌ من النَّصِّ ـ بالرَّغم من أنَّه كان أشجع النَّاس ، وأقواهم قلباً ، كما دلَّت على ذلك الأحداث خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً ؛ وذلك؛ لأنَّ

الأمر ليس مخاطبة بشرٍ لبشر ، ولكنَّه كان مخاطبة عظيم الملائكة ، وهو يحمل كلام الله تعالى؛ ليستقبله من اصطفاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لحمل هذا الكلام وإبلاغه لجميع البشر.

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤوليَّةً عظمى ، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرِّسالة ، وتبليغها[(٢٩٥)].

وممَّا يُصَوِّر رهبة هذا الموقف ، ما جاء في هذه الرِّواية ، من قول رسول الله (ص) : «لقد خشيت على نفسي» ، وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: «فرجع بها رسول الله (ص) يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، قال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع».

وممَّا يبيِّن شدَّة نزول الوحي على رسول الله (ص) ، ما أخرجه الإمام البخاريُّ ، ومسلمٌ ـ رحمهما الله! ـ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته ـ تعني: رسول الله (ص) ـ ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد ، فيَفصم عنه ، وإنَّ جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً» [البخاري (٢) ومسلم (٢٣٣٣/٨٦)] وحديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان نبيُّ الله (ص) إذا أُنزل عليه الوحي؛ كُرِبَ لذلك ، وتَرَبَّد وجهُه» [مسلم (٢٣٣٤) وأحمد (٥/٣١٧)].

سادساً: أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة:

«فرجع بها رسول الله (ص) يَرْجُفُ فؤادُهُ ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحقِّ» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدلُّ على قوَّة قلبها؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر ، واستقبلت الأمر بهدوءٍ ، وسكينةٍ ، ولا أدلَّ على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل ، وعرضها الأمر عليه[(٢٩٦)].

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدلُّ على سعة إدراكها؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النَّبيِّ (ص) ، فأدركت: أنَّ من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً ، فقد وصفته بأنَّه يصل الرَّحم ، وكون الإنسان يصل أقاربه دليلٌ على استعداده النَّفسيِّ لبذل الخير ، والإحسان إلى النَّاس؛ فإنَّ أقارب الإنسان هم المراة الأولى لكشف أخلاقه ، فإن نجح في احتواء أقاربه ، وكسبهم بما له عليهم من معروفٍ؛ كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من النَّاس[(٢٩٧)].

كانت أمُّ المؤمنين السَّيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطريِّ ، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه ، وإلى يقينها بما يملك محمَّدٌ (ص) من رصيد الأخلاق ، وفضائل الشَّمائل ، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثله في حياته الطَّبيعيَّة الَّتي يعيش بها مع النَّاس ،

وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربَّانيَّة الَّتي شهدت اياها؛ من حفاوة الله تعالى بمحمَّدٍ (ص) ، في مواقف لم تكن من مواقف النُّبوَّة والرِّسالة ، ولا من إرهاصاتها المعجزة ، وأعاجيبها الخارقة ، ولكنَّها كانت من مواقف الفضائل الإنسانيَّة السَّارية في حياة ذوي المكارم ، من أصحاب المروءات في خاصَّة البشر[(٢٩٨)].

كانت موقنةً بأنَّ زوجها فيه من خصال الجبلَّة الكماليَّة ، ومحاسن الأخلاق الرَّصينة ، وفضائل الشِّيم المرضيَّة ، وأشرف الشَّمائل العليَّة ، وأكمل النَّحائز[(٢٩٩)] الإنسانيَّة ، ما يضمن له الفوز ويحقِّق له النَّجاح ، والفلاح ، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة على الكمال المحمَّديِّ[(٣٠٠)] ، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتِّصاف محمَّدٍ (ص) بتلك الصِّفات: أنَّه لن يتعرَّض في حياته للخزي أبداً؛ لأنَّ الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق ، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعيَّة: أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة ، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته ، ومحمَّدٌ (ص) بلغ من المكارم ذروتها ، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل ، ولا تُسامَى[(٣٠١)].

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النَّبيِّ (ص) على نبوَّته؛ بل ذهبت إلى ابن عمِّها العالم الجليل ورقة بن نوفل ـ رحمه الله! ـ الَّذي كان ينتظر ظهور نبيٍّ اخر الزَّمان ، لما عرفه من علماء أهل الكتاب من دنوِّ زمانه ، واقتراب مبعثه ، وكان لحديث ورقة أثرٌ طيِّبٌ في تثبيت النَّبيِّ (ص) وتقوية قلبه ، وقد أَخْبَرَ النَّبيَّ (ص) بأنَّ الذي خاطبه هو صاحب السِّرِّ الأعظم ، الَّذي يكون سفيراً بين الله تعالى ، وأنبيائه ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النَّبيِّ (ص) قوله:

لَجَجْتُ وكنتُ في الذِّكْرى لَجُوجَالِهَمٍّ طَالَما بَعَثَ النَّشِيجَا

وَوَصْفٍ من خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍفَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يا خَدِيجَا

بِبَطْنِ المكَّتَيْنِ[(٣٠٢)] عَلَى رَجَائيحَدِيْثَكِ أن أرَى مِنْهُ خُرُوجا

بما خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّمِنَ الرُّهْبَانِ أَكْرَهُ أن يَعُوجا

بأنَّ مُحمَّداً سَيَسُود فِينَاويَخْصِمُ مَنْ يكُونُ له حَجِيجا[(٣٠٣)]

لقد صدَّق ورقة بن نوفل برسالة النَّبيِّ (ص) ، وشهد له النَّبيُّ (ص) بالجنَّة ، فقد جاء في روايةٍ أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال: «لا تسبُّوا ورقة ، فإنِّي رأيت له جنَّةً ، أو جنَّتين» [الحاكم (٢/٦٠٩) والبزار (٢٧٥٠ و٢٧٥١) ومجمع الزوائد (٩/٤١٦)] .

وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله (ص) عن ورقة ، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً ، فأحسبه لو كان من أهل النَّار لم يكن عليه ثياب بيض». قال الهيثميُّ: وروى أبو يعلى بسندٍ حسنٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) سئل عن ورقة بن نوفل ، فقال: «أبصرته في بُطْنان[(٣٠٤)] الجنَّة وعليه السُّندس» [أبو يعلى (٢٠٤٧) ومجمع الزوائد (٩/٤١٦)] .

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدورٍ مهمٍّ في حياة النَّبيِّ (ص) ؛ لما لها من شخصيةٍ في مجتمع قومها ، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النَّفسيَّة ، الَّتي تقوم على الأخلاق العالية؛ من الرَّحمة ، والحلم ، والحكمة ، والحزم ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. والرَّسول (ص) قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزَّوجة المثاليَّة؛ لأنَّه قدوةٌ للعالمين ، وخاصَّةً الدُّعاة إلى الله ، فقيام خديجة بذلك الدَّور الكبير إعلامٌ من الله تعالى لجميع حملة الدَّعوة الإسلاميَّة بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال ، من التأسِّي برسول الله (ص) ، حتَّى يتحقَّق لهم بلوغ المقاصد العالية الَّتي يسعون لتحقيقها[(٣٠٥)].

إنَّ السيدة خديجة رضي الله عنها مثالٌ حسنٌ ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدُّعاة ، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرِّجال الَّذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة ، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيءٍ؛ إنَّه صاحب هَمٍّ ، ورسالةٍ ، هَمٍّ على ضياع أمَّته ، وانتشار الفساد ، وزيادة شوكة أهله ، وهَمٍّ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، من مؤامراتٍ ، وظلمٍ ، وجوعٍ ، وإذلالٍ ، وما يصيب الدُّعاة منهم من تشريدٍ ، وتضييقٍ ، وتنكيلٍ ، وبعد ذلك هو صاحب رسالة؛ واجب عليه تبليغها للاخرين ، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه، وراحته، وأوقات زوجته، وأبنائه، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت، والدُّنيا بأسرها ، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته ، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق ، والتَّقوى ، والجمال ، والحسب ما أوتيت ، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة ، وأهمِّيتها ، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج ،

وما يتحمَّله من أعباء ، وما يعانيه من مشاقّ ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها ، لا أن تقف عائقاً ، وشوكةً في طريقه[(٣٠٦)].

إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة ، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها ، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيِّ (ص) وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ ، ولا شكَّ: أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة ، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة ، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس ، وإنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمَّله البشر ، فإذا وُفِّق الدَّاعية لزوجةٍ صالحةٍ ذات كفاءةٍ ، فإنَّ ذلك من أهمِّ أسباب نجاحه مع الاخرين[(٣٠٧)] ، وصدق رسول الله (ص) إذ يقول: «الدُّنيا متاعٌ ، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ» [أحمد (٢/١٦٨) ومسلم (١٤٦٧) والنسائي في السنن الكبرى (٥٣٢٥) وابن ماجه (١٨٥٥)] .

سابعاً: وفاء النَّبيِّ (ص) للسَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان رسول الله (ص) مثالاً عالياً للوفاء ، وردِّ الجميل لأهله ، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها ، وبعد مماتها ، وقد بشَّرها (ص) ببيتٍ في الجنَّة في حياتها ، وأبلغها سلام الله ـ جلَّ وعلا ـ وسلام جبريل عليه السلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريلُ النَّبيَّ (ص) ، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك ، معها إناءٌ فيه إدامٌ ـ أو طعامٌ ، أو شرابٌ ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربِّها ـ عزَّ وجلَّ ـ ومني ، وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قَصَبٍ[(٣٠٨)]لا صَخَبَ فيه ، ولا نَصَبَ» [البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢)].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النَّبيِّ (ص) لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرتُ على أحدٍ من نساء النَّبيِّ (ص) ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكنْ كان النَّبيُّ (ص) يُكْثِرُ ذكرها ، وربما ذبح الشَّاة ، ثمَّ يُقطِّعُها أعضاء ، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له: كأنَّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلا خديجةُ؟ فيقول: إنَّها كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد» [البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) واللفظ للبخاري] .

وأظهر (ص) البشاشة ، والسُّرور لأخت خديجة ، لما استأذنت عليه لتذكُّره خديجة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله (ص) ، فعرف استئذان خديجة[(٣٠٩)] فارتاح لذلك ، فقال: اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ! فغِرْت ، فقلت: وما تَذْكُرُ من
عجوزٍ من عجائز قريش ، حمراء الشِّدْقَيْنِ[(٣١٠)] هلكت في الدَّهر؛ فأبدلك الله خيراً منها» [البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧)] . وأظهر (ص) الحفاوة بامرأةٍ كانت تأتيهم زمن خديجة ، وبيَّن: أن حفظ العهد من الإيمان[(٣١١)].

ثامناً: سنَّة تكذيب المرسلين:

«يا ليتني فيها جَذَعاً! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله (ص) : «أوَ مخرجيَّ هم؟!» قال: نعم؛ لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُوديَ ، وإن يدركْني يومك؛ أنصرْك نصراً مؤزراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] ، فقد بيَّن الحديثُ سنَّةً من سنن الأمم مع مَنْ يدعوهم إلى الله ـ عزَّ وجل ـ وهي التَّكذيب ، والإخراج ، كما قال تعالى عن قوم لوط: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *} [النمل: ٥٦] .

وكما قال قوم شعيبٍ: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ *} [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *} [إبراهيم: ١٣].

تاسعاً: قوله: (وفتر الوحي):

تحدَّث علماء السِّيرة قديماً ، وحديثاً عن فترة الوحي ، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخُّره مدَّةً من الزَّمان ، وكان ذلك ليذهب ما كان (ص) وجده من الرَّوع ، وليحصل له التَّشَوُّف[(٣١٢)] إلى العود[(٣١٣)].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال وهو يحدِّث عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي؛ إذ سمعت صوتاً من السَّماء ، فرفعت بصري ، فإذا الْمَلَكُ الَّذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السَّماء ، والأرض ، فرُعبت منه ، فرجعت فقلت: زملوني! فأنزل الله تعالى: فَحَمِيَ {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *} ، وتتابع» [البخاري (٤) ومسلم (١٦١)] .

وقال صفيُّ الرَّحمن المباركفوري: «أمَّا مدَّة فترة الوحي؛ فروى ابن سعدٍ عن ابن عبَّاسٍ ما يفيد: أنَّها كانت أياماً ، وهذا الذي يترجَّح؛ بل يتعيَّن بعد إدارة النظر في جميع الجوانب ، وأمَّا

ما اشتهر من أنَّها دامت طيلة ثلاث سنين ، أو سنتين ونصف؛ فلا يصحُّ بحالٍ ، وليس هذا موضع التفصيل في ردِّه. وقد بقي رسولُ الله (ص) في أيام الفترة كئيباً محزوناً تعتريه الحيرة ، والدَّهشة»[(٣١٤)].

ولقد ذكر البخاريُّ في صحيحه: أنَّه (ص) حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلَّما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي منه نفسه؛ تَبَدَّى له جبريل ، فقَال: يا محمد! إنَّك رسول الله حقاً

، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرُّ نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل؛ تبدَّى له جبريل ، فقالَ له مثل ذلك [البخاري (٦٩٨٢) وابن حبان (٣٣) والبيهقي في الدلائل (١٣٨/٢)] .

* * *

المبحث الثَّاني

الدَّعوة السِّرِّيَّة

أولاً: الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة:

عرف النَّبيُّ (ص) معرفة اليقين: أنَّه أصبح نبياً لله الرَّحيم الكريم ، وجاءه جبريل عليه السلام للمرَّة الثَّانية ، وأنزل الله على نبيِّه قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *} [المدثر:١ - ٤].

كانت هذه الايات المتتابعة إيذاناً للرَّسول (ص) بأنَّ الماضي قد انتهى بمنامه ، وهدوئه ، وأنَّه أمامه عملٌ عظيمٌ ، يستدعي اليقظة ، والتَّشْمير ، والإنذار ، والإعذار ، فليحمل الرِّسالة ، وليوجِّه الناس ، وليأنس بالوحي ، وليقوَ على عنائه؛ فإنَّه مصدر رسالته ، ومدد دعوته[(٣١٥)].

وتعدُّ هذه الايات أوَّل أمرٍ بتبليغ الدَّعوة ، والقيام بالتَّبعة ، وقد أشارت هذه الايات إلى أمور هي خلاصة الدَّعوة المحمَّدية ، والحقائق الإسلاميَّة؛ الَّتي بُني عليها الإسلام كلُّه ، وهي: الوحدانيَّة ، والإيمان باليوم الاخر ، وتطهير النُّفوس ، ودفع الفساد عن الجماعة ، وجلب النَّفع[(٣١٦)].

كانت هذه الايات تهييجاً لعزيمة رسول الله (ص) ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربِّه ، فيمضي قُدُماً بدعوته ، لا يبالي العقبات ، والحواجز. كان هذا النِّداء مُتلطِّفاً إيذاناً بشحذ {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *} ، وتوديعاً لأوقات النَّوم ، والرَّاحة ، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنُّهوض في عزيمةٍ

{قُمْ} ، وقوّةٍ حازمةٍ ، تتحرَّك في اتجاه تحقيق واجب التَّبليغ ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التَّبشير. في أوَّل خطابٍ وُجِّه إلى النَّبيِّ (ص) بعد فترة الوحي ـ إيذانٌ بأنَّ رسالته تعتمد على الكفاح الصَّبور ، والجهاد المرير ، ثمَّ زادت الايات في تقوية عزيمة النَّبيِّ (ص) ، وشدِّ أزره ، وحَضِّه على المضيّ قُدُماً إلى غاية ما أُمر به ، غير عابأٍى بما يعترض طريقه من عقبات ، مهما يكن شأنها ، فقيل له: أي: لا تعظم شيئاً من

أمور الخلق ، ولا يتعاظمك منهم شيءٌ ، فلا تتهيَّب فعلاً من أفعالهم ، ولا تخشَ أحداً منهم ، ولا تعظِّم إلا ربَّك ، الَّذي تعهَّدك وأنت في أصلاب الاباء ، وأرحام الأمَّهات ، فربَّاك على موائد فضله ، ورعاك بإحسانه وجوده حتَّى أخرجك للنَّاس نبياً ، ورسولاً ، بعد أن أعدَّك خلْقاً وخُلُقاً؛ لتحمل أمانة أعظم رسالاته : فكلُّ تعظيمٍ وتكبيرٍ وإجلال حقٌّ لله تعالى {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *} ، لا يشاركه فيه أحد ، أو شيءٌ من مخلوقاته[(٣١٧)].

وفي قوله تعالى: فكأنَّه قيل له {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *} : فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيَّتك ، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق ، وبما حباك به من نبوَّته؛ ليعدَّك بها ليومك هذا ـ أحوج إلى أن تزداد في تطهُّرك النَّفسيِّ ، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء ، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين ، وكمال الرِّسالة في كمال الخُلق الاجتماعيِّ؛ صبراً ، وحلماً ، وعفواً ، وإحساناً ، ودأباً على الجدِّ في تبليغ الدَّعوة إلى الله تعالى ، ولا يثنيك إيذاءٌ ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[(٣١٨)].

وفي قوله تعالى: فكأنَّه قيل له {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *} : ليكن قصدك ، ونيَّتك في تركك ما تركت فطرةً ، وطبعاً؛ هجره تكليفاً ، وتعبُّداً؛ لتكون قدوة أمَّتك ، وعنوان تطهُّرها بهداية رسالتك[(٣١٩)].

ثانياً: بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة:

بعد نزول ايات المدثر ، قام رسول الله (ص) يدعو إلى الله ، وإلى الإسلام سراً ، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته ، وأصدقائه ، وأقرب النَّاس إليه.

١ ـ إسلام السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أوَّل من امن بالنَّبيِّ (ص) من النِّساء ، بل أوَّل من امن به على الإطلاق ، السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، فكانت أوَّل من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرَّسول الكريم (ص) ، وكانت أوَّل من تلا القران بعد أن سمعته من صوت الرَّسول العظيم (ص) ، وكانت كذلك أوَّل من تعلَّم الصَّلاة من رسول

الله (ص) ، فبيتُها هو أوَّل مكان تُلي فيه أوَّل وحيٍ نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[(٣٢٠)].

كان أوَّل شيءٍ فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتَّوحيد ، إقامة الصَّلاة ، وقد جاء في

الأخبار حديث تعليم الرَّسول (ص) زوجه خديجة الوضوء ، والصَّلاة ، حين افتُرضت على رسول الله: أتاه جبريل وهو بأعلى مكَّة ، فهمز له بعَقبهِ في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عينٌ ، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام ، ورسولُ الله (ص) ينظر ليُرِيَه كيفية الطُّهور للصَّلاة ، ثمَّ توضَّأ رسولُ الله (ص) كما رأى جبريل توضَّأ ، ثمَّ قام جبريل عليه السلام فصلَّى به ، وصلَّى النَّبيُّ (ص) بصلاته ، ثمَّ انصرف جبريل عليه السلام ، فجاء رسول الله (ص) خديجة رضي الله عنها ، فتوضَّأ لها يريها كيف الطُّهور للصَّلاة ، كما أراه جبريل عليه السلام ، فتوضَّأت كما توضَّأ رسول الله (ص) ، ثمَّ صلَّى بها رسولُ الله (ص) ، كما صلَّى به جبريل عليه السلام ، فصلَّت بصلاته. [ابن هشام (١/٢٦٠ ـ ٢٦١)] .

٢ ـ إسلام عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:

وبعد إيمان السَّيدة خديجة ، دخل عليٌّ بن أبي طالب في الإسلام ، وكان أوَّل من امن من الصِّبيان ، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال ، وهو قول الطَّبريِّ ، وابن إسحاق[(٣٢١)] ، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربَّى في حجر رسوله (ص) قبل الإسلام ، حيث أخذه من عمِّه أبي طالب وضمَّه إليه[(٣٢٢)] ، وكان عليٌّ رضي الله عنه ثالث من أقام الصَّلاة بعد رسول الله (ص) ، وبعد خديجة رضي الله عنها[(٣٢٣)].

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنَّ رسول الله (ص) كان إذا حضرت الصَّلاة؛ خرج إلى شعاب مكَّة ، وخرج معه عليٌّ بن أبي طالبٍ مستخفياً من أبيه ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصلِّيان الصَّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ليضمَّهما ذلك البيت الطَّاهر التَّقيُّ بالإيمان ، المفعم بصدق الوفاء ، وكرم الْمَنْبِتِ[(٣٢٤)].

٣ ـ إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه:

هو أوَّل من امن بالدَّعوة من الموالي[(٣٢٥)] ، حِبُّ النَّبيِّ (ص) ، ومولاه ، ومُتَبنَّاه: زيد ابن حارثة الكلبيُّ، الَّذي اثر رسول الله (ص) على والده ، وأهله؛ عندما جاؤوا إلى مكَّة لشرائه من رسول الله (ص) ، فترك رسول الله (ص) الأمر لزيدٍ، فقال زيدٌ لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، وأنت منِّي بمنزلة الأب، والعمِّ، فقال له والده، وعمُّه: ويحك! تختار العبوديَّة على الحرِّيَّة ،

وعلى أبيك ، وعمّك ، وأهل بيتك! قال: نعم! وإنّي رأيت من هذا الرَّجل شيئاً ما أنا بالّذي أختار عليه أحداً أبداً[(٣٢٦)].

٤ ـ بنات النَّبيّ (ص):

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النَّبيّ (ص) ، كلٌّ من: زينب ، وأمّ كلثوم ، وفاطمة ، ورقيَّة ، فقد تأثَّرْنَ قبل البعثة بوالدهنَّ (ص) في الاستقامة ، وحسن السِّيرة ، والتَّنزُّه عمَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة ، من عبادة الأصنام ، والوقوع في الاثام ، وقد تأثَّرن بوالدهنَّ؛ فأسرعن إلى الإيمان[(٣٢٧)]. وبذلك أصبح بيت النَّبيّ (ص) أوَّل أسرةٍ مؤمنةٍ بالله تعالى ، منقادةٍ لشرعه في الإسلام ، ولهذا البيت النَّبويّ الأوَّل مكانةٌ عظمى في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ لما حباه الله به من مزايا ، وخصَّه بشرف الأسبقية في الإيمان ، وتلاوة القران ، وإقام الصَّلاة؛ فهو:

* أوَّل مكانٍ تلي فيه وحي السَّماء بعد غار حراء.

* وأوَّل بيتٍ ضمَّ المؤمنة الأولى سابقة السَّبق إلى الإسلام.

* وأوَّل بيت أقيمت فيه الصَّلاة.

* وأول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثَّلاثة السَّابقون إلى الإسلام: خديجة ، وعليٌّ ، وزيد بن حارثة.

* وأوَّل بيت تعهَّد بالنُّصرة ، ولم يتقاعس فيه فردٌ من أفراده ـ كباراً ، أو صغاراً ـ عن مساندة الدَّعوة[(٣٢٨)].

يحقُّ لهذا البيت أن يكون قدوةً ، ويحقُّ لربَّته أن تكون مثالاً ، ونموذجاً حيّاً لبيوت المسلمين ، ولنسائهم ، ورجال المؤمنين كافَّةً؛ فالزَّوجة فيه طاهرةٌ ، مؤمنةٌ ، مخلصةٌ ، وزيرة الصِّدق ، والأمان ، وابن العمِّ المحضون ، والمكفول مستجيبٌ ، ومعضِّد ، ورفيقٌ ، والْمُتَبَنَّى مؤمنٌ ، صادقٌ ، مساعدٌ ، ومعينٌ ، والبنات مصدِّقاتٌ ، مستجيباتٌ ، مؤمناتٌ ، ممتثلات[(٣٢٩)].

لقد اكتسى هذا البيت بأبهى حُلل الإيمان ، وأضاء أركانَه قبسُ نور التَّصديق ، فكان بين الزَّوجين التَّجاوب ، والتَّكافل ، وتمَّ بذلك تجسيد معنى قوله تعالى في محكم تنزيله:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٨٩] .

وفيه أيضاً تجسيد ما رُوي عن النَّبيّ (ص) في مجال التَّربية في قوله: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمَجِّسانه» [البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)] ومن استقامة التَّربية

كان بناته رضي الله عنهن من السَّابقات إلى التَّصديق ، والإيمان ، وهكذا كان للبيت النَّبويِّ مكانته الأولى ، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا ، والأنموذج الَّذي نسير على هديه ، في المعاشرة ، ومثاليَّة السُّلوك بالصِّدق ، والتَّصديق ، في الاستجابة ، والعمل لكلِّ من امن بالله رباً ، وبمحمَّدٍ نبياً ، ورسولاً[(٣٣٠)]. إنَّ الحقيقة البارزة في المنهج الرَّبانيِّ تشير إلى أهميَّة بناء الفرد الصَّالح ، والأسرة الصَّالحة كأوَّل حلقةٍ من حلقات الإصلاح ، والبناء ، ثمَّ المجتمع الصَّالح ، ولقد تجلَّت عناية الإسلام بالفرد المسلم ، وتكوينه ، ووجوب أن يسبق أيَّ عمل اخر ، فالفرد المسلم هو حجر الزَّاوية في أي بناءٍ اجتماعيٍّ ، ولهذا كانت الأسرة هي التي تستقبل الفرد منذ ولادته ، وتستمرُّ معه مدَّةً طويلةً من حياته ، بل هي الَّتي تحيط به طوال حياته ، هي المحضن المتقدِّم الَّذي تتحدَّد به معالم الشَّخصيَّة ، وخصائصها ، وصفاتها ، كما أنَّها الوسيط بين الفرد ، والمجتمع ، فإذا كان هذا الوسيط سليماً قويّاً؛ أمدَّ طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسَّلامة ، والقوَّة[(٣٣١)].

ولهذا اهتمَّ الإسلام بالأسرة ، واتَّجه إليها ، يضع لها الأسس الَّتي تكفل قيامها ، ونموَّها نمواً سليماً ، ويوجِّهها الوجهة الرَّبَّانيَّة؛ لتكون حلقةً قويَّةً في بناء المجتمع الإسلاميِّ ، والدَّولة الإسلاميَّة الَّتي تسعى لصناعة الحضارة الرَّبَّانيَّة في دنيا النَّاس[(٣٣٢)].

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من حركة الدَّعوة الإسلاميَّة منذ ساعتها الأولى؛ إذ كان من قدر الله تعالى أن يكون أوَّل السَّابقين إلى الإسلام امرأةٌ (خديجة رضي الله عنها) ، إشادةً بمنزلة المرأة في الإسلام ، وأنَّه يرسي قواعده على الأسرة ، وصبيٌّ (علي رضي الله عنه) ، إشارةً لحاجة الدَّعوة إلى البراعم الجديدة ، واهتمامها بالجيل النَّاشأى؛ لتسير في مراحلها الصَّحيحة لبناء المجتمع ، ثمَّ الدَّولة ، ثمَّ الحضارة[(٣٣٣)].

وإنَّ التَّأمُّل في نقطة البدء بهذه الدَّعوة الَّتي توجَّهت إلى امرأةٍ كخديجة رضي الله عنها ، ومولىً كزيد بن حارثة ، وصبيٍّ كعليِّ بن أبي طالبٍ ، وبقيَّة أسرة النَّبيِّ (ص) ، ليدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة موجهةٌ لكلِّ النَّاس ـ صغيرهم ، وكبيرهم ، ذكرهم ، وأنثاهم ،

وسيِّدهم ، ومولاهم ـ فلكلِّ هذه الشَّرائح الاجتماعيَّة من الرِّجال والنِّساء ، والأطفال ، والموالي دوره المنتظر في البناء الاجتماعيِّ ، وإقامة الدَّولة ، وانتشار الحضارة[(٣٣٤)].

٥ ـ إسلام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه أوَّل مَنْ امن بالنَّبيِّ (ص) من الرِّجال الأحرار ، والأشراف ، فهو من أخصِّ أصحاب رسول الله (ص) قبل البعثة ، وفيه قال رسولُ الله (ص) : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ ، وتردُّدٌ ، ونَظرٌ ، إلا أبا بكر ، ما عَكَم[(٣٣٥)] حين دعوته ، ولا تردَّد فيه» [البيهقي في الدلائل (١٦٤/٢)] ، فأبو بكرٍ صاحب رسول الله (ص) ، وهو حسنةٌ من حسناته (ص) ؛ فلم يكن إسلامه إسلام رجلٍ ، بل كان إسلامه إسلام أمَّةٍ ، فهو في قريشٍ ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ في موقع العين منها:

ـ كان رجلاً مَأْلَفاً[(٣٣٦)] لقومه ، محبباً ، سهلاً.

ـ وكان أنسب قريش لقريشٍ ، وأعلم قريشٍ بها ، وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ.

ـ وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلقٍ ، ومعروفٍ.

ـ وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر؛ لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته[(٣٣٧)].

لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادَّخره الله تعالى لنبيِّه (ص) ، وكان من أحبِّ قريشٍ لقريشٍ ، فذلك الخُلُق السَّمح الَّذي وهبه الله تعالى إيَّاه جعله من الموطَّئين أكنافاً ، من الذين يألفون ، ويؤلفون ، والخُلُق السَّمح وحدَه عنصرٌ كاف لألفة القوم ، وهو الَّذي قال فيه (ص) : «أَرْحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكرٍ» [أحمد (١٨٤/٣ ـ ٢٨١) والترمذي (٣٧٩٠ و٣٧٩١) وابن ماجه (١٥٤)] وعِلْمُ الأنساب عند العرب وعلم التَّاريخ هما أهمُّ العلوم عندهم ، ولدى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه النَّصيب الأوفر منهما ، وقريشٌ تعترف للصِّدِّيق بأنَّه أعلمها بأنسابها ، وأعلمها بتاريخها ، وما فيه من خيرٍ وشرٍّ ، فالطبقة المثقَّفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارةً ، ووفرةً ، وسعةً ، ومن أجل هذا كان الشَّباب النَّابهون ، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً ، إنَّهم الصَّفوة الفكريَّة المثقَّفة الَّتي تودُّ أن تلقى عنده هذه العلوم ، وهذا جانبٌ اخر من جوانب عظمته. وطبقة رجال الأعمال ، ورجال المال في مكَّة ، هي كذلك من روَّاد مجلس

الصِّدِّيق ، فهو إن لم يكن التَّاجر الأوَّل في مكَّة ، فهو من أشهر تجَّارها ، فأرباب المصالح هم كذلك قُصَّاده. ولطيبته ، وحسن خلقه تلقى عوامَّ النَّاس يرتادون بيته ، فهو المضياف الدَّمث الخُلُق؛ الَّذي يفرح بضيوفه ، ويأنس بهم ، فكلُّ طبقات المجتمع المكيِّ تجد حظَّها عند الصِّدِّيق ، رضوان الله عليه[(٣٣٨)] كان رصيده الأدبيُّ ، والعلميُّ ، والاجتماعيُّ في المجتمع المكيِّ عظيماً ، ولذلك عندما تحرَّك في دعوته للإسلام استجاب له صفوةٌ من خيرة الخلق ، وهم:

ـ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، في الرَّابعة والثلاثين من عمره.
ـ وعبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه ، في الثَّلاثين من عمره.
ـ وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، وكان في السَّابعة عشرة من عمره.
ـ والزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، وكان في الثانية عشرة من عمره.
ـ وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وكان في الثالثة عشرة من عمره[(٣٣٩)].

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أوَّل ثمرةٍ من ثمار الصِّدِّيق أبي بكرٍ رضي الله عنه ، دعاهم إلى الإسلام ، فاستجابوا ، وجاء بهم إلى رسول الله (ص) فرادى ، فأسلموا بين يديه ، فكانوا الدِّعامات الأولى؛ الَّتي قام عليها صرح الدَّعوة ، وكانوا العدَّة الأولى في تقوية جانب رسول الله (ص) ، وبهم أعزَّه الله وأيَّده ، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، رجالاً ، ونساءً ، وكان كلٌّ من هؤلاء الطلائع داعيةً إلى الإسلام ، وأقبل معهم رعيل السَّابقين ، الواحد ، والاثنان ، والجماعة القليلة ، فكانوا على قلَّة عددهم كتيبة الدَّعوة ، وحصن الرِّسالة ، لم يسبقهم سابقٌ ، ولا يلحق بهم لاحقٌ في تاريخ الإسلام[(٣٤٠)].

إنَّ تحرُّك أبي بكر رضي الله عنه في الدَّعوة إلى الله تعالى يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدِّين ، والاستجابة لله ورسوله (ص) ؛ صورة المؤمن الَّذي لا يقرُّ له قرارٌ ، ولا يهدأ له بالٌ ، حتَّى يحقِّق في دنيا النَّاس ما امن به ، دون أن تكون انطلاقته دفعةً عاطفيَّةً مؤقَّتةً سرعان ما تخمد ، وتذبل ، وتزول ، وقد بقي نشاط أبي بكرٍ ، وحماسه إلى أن توفَّاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لم يفتر ، أو يضعف ، أو يملَّ ، أو يعجز.

ونلاحظ: أنَّ أصحاب الجاه لهم أثرٌ كبيرٌ في كسب أنصارٍ للدَّعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكرٍ رضي الله عنه في الإسلام أكثرَ من غيره[(٣٤١)].

بعد أن كانت صحبة الصِّدِّيق لرسول الله (ص) مبنيةً على مجرَّد الاستئناس النفسيِّ؛ والخلقيِّ؛ صارت الأنسة بالإيمان بالله وحدَه ، وبالمؤازرة في الشَّدائد ، واتَّخذ رسول الله (ص) من مكانة أبي بكر ، وأُنْسِ النَّاس به ، ومكانته عندهم قوةً لدعوة الحقِّ فوق ما كان له (ص) من قوَّة نفسٍ ، ومكانةٍ عند الله ، وعند النَّاس[(٣٤٢)].

ومضت الدَّعوة سرِّيَّةً ، وفرديَّةً على الاصطفاء ، والاختيار للعناصر؛ الَّتي تصلح أن تتكوَّن منها الجماعة المؤمنة ، الَّتي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ، ودعوة الخلق إلى دين ربِّ العباد ، والَّتي ستقيم حضارةً ربّانيَّةً ليس لها مثيلٌ.

٦ ـ الدُّفْعة الثَّانية:

جاء دور الدُّفعة الثَّانية بعد إسلام الدُّفعة الأولى ، فأوَّل من أسلم من هذه الدُّفعة: أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرَّة ابن عمَّة رسول الله (ص) (برَّة بنت عبد المطلب) ، وأخوه من الرَّضاع ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميُّ ، وعثمان بن مظعون الجمحيُّ ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيلٍ ، وقُدامة وعبد الله ابنا مظعونٍ ، وفاطمة بنت الخطَّاب بن نفيل ، أخت عمر بن الخطَّاب وزوجة سعيد بن زيد ، وأسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ، وعائشة بنت أبي بكرٍ الصدِّيق ، وخباب بن الأرتِّ حليف بني زُهرة[(٣٤٣)].

٧ . الدُّفعة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقَّاص أخو سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعبد الله بن مسعودٍ ، ومسعود بن القاري ، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرٍو ، وسليط بن عمرٍو ، وأخوه حاطب بن عمرٍو ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وامرأته أسماء بنت سلامة ، وخُنَيس بن حُذافة السَّهميُّ ، وعامر بن ربيعة حليف ال الخطَّاب ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته أسماء بنت عُمَيس ، وحاطب بن الحارث ، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل ، وأخوه حطَّاب بن الحارث ، وامرأته فُكَيهة بنت يسار ، وأخوهما معمَر بن الحارث ، والسَّائب بن عثمان بن مظعون ، والمطَّلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنَّحَّام بن عبد الله بن أُسَيْد ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكرٍ ، وفهيرة: أمُّه ، وكان عبداً للطُّفيل بن الحارث بن سَخْبَرة ، فاشتراه الصِّدِّيق ، وأعتقه ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ ، وامرأته أمينة بنت خلف ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ ، وواقد بن عبد

الله بن عبد مناف ، وخالدٌ ، وعامرٌ ، وعاقلٌ ، وإياسٌ بنو البُكَيْر بن عبد يا ليل ، وعمَّار بن ياسرٍ حليف بني مخزوم بن يقظة ، وقال ابن هشام: عَنْسيٌّ من مَذْحج.

وصُهيب بن سنان ، هو (سابق الرُّوم).

ومن السَّابقين إلى الإسلام: أبو ذرٍّ الغفاريٍّ ، وأخوه أُنَيْس ، وأمُّه[(٣٤٤)].

ومن أوائل السَّابقين: بلال بن رباح الحبشيُّ.

وهؤلاء السَّابقون: من جميع بطون قريش ، عدَّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً[(٣٤٥)].

وقال ابن إسحاق: ثمَّ دخل النَّاس في الإسلام أرسالاً من الرِّجال ، والنِّساء ، حتى فشا ذكر الإسلام في مكَّة ، وتُحدِّث به[(٣٤٦)].

ويتَّضح من عرض الأسماء السَّابقة: أنَّ السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم ، ولم يكونوا ـ كما يحبُّ أعداء الإسلام أن يصوِّروا للنَّاس ـ من حثالة النَّاس ، أو من الأرقَّاء؛ الَّذين أرادوا استعادة حرِّيَّتهم ، أو ما شابه ذلك. وجانب الصَّوابَ بعضُ كُتَّاب السِّيرة لدى حديثهم عن السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، فكان من كتابة بعضهم: «وتُحَدِّثنا السِّيرة: أنَّ الَّذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمُهم خليطاً من الفقراء ، والضُّعفاء ، والأرقَّاء ، فما الحكمة في ذلك؟»[(٣٤٧)] ، وكذلك قولهم:

«كان رصيد هذه الدَّعوة بعد سنواتٍ ثلاثٍ من بدايتها أربعين رجلاً وامرأةً ، عامَّتهم من الفقراء ، والمستضعفين ، والموالي ، والأرقَّاء ، وفي مقدِّمتهم أخلاطٌ من مختلف الأعاجم: صهيبٌ الرُّوميُّ ، وبلالٌ الحبشيُّ»[(٣٤٨)]. وقولهم: «فامن به ناسٌ من ضعفاء الرِّجال ، والنِّساء ، والموالي»[(٣٤٩)].

إنَّ البحث الدَّقيق يثبت: أنَّ مجموع من أشير إليهم بالفقراء ، والمستضعفين ، والموالي والأرقَّاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر ، ونسبة هذا العدد من العدد الكلِّيِّ من الدَّاخلين في الإسلام لا يقال عليه: «أكثرهم» ، ولا «معظمهم» ، ولا «عامَّتهم».

إنَّ الَّذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافعٌ دنيويٌّ؛ وإنَّما هو إيمانهم بالحقِّ الَّذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيِّه (ص) ، يشترك في ذلك الشَّريف، والرَّقيق، والغنيُّ ، والفقير ، ويتساوى في هذا أبو بكرٍ ، وبلالٌ ، وعثمان ، وصهيبٌ رضي الله عنهم[(٣٥٠)].

يقول الأستاذ صالح الشَّامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضُّعفاء ، والأرقَّاء؛ ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبيَّة؛ لأنَّ هذا مخالفٌ للحقائق الثَّابتة ، ولو كانوا كذلك؛ لكانت دعوةً طبقيَّةً يقوم فيها الضُّعفاء ، والأرقَّاء ضدَّ الأقوياء وأصحاب السُّلطة ، والنُّفوذ ، ككلِّ الحركات الَّتي تقاد من خلال البُطون. إنَّ هذا لم يَدُرْ بِخَلَدِ أيٍّ من المسلمين وهو يعلن إسلامه ، إنَّهم يدخلون في هذا الدِّين على اعتبارهم إخوةً في ظلِّ هذه العقيدة ، عباداً لله ، وإنَّه لمن القوَّة لهذه الدَّعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذَّات من كرام أقوامهم ، وقد اثروا في سبيل العقيدة أن يتحمَّلوا أصنافاً من الهوان ، ما سبق لهم أن عانوها ، أو فكَّروا فيها[(٣٥١)].

لقد كان الإسلام ينساب إلى النُّفوس الطَّيِّبة ، والعقول النَّيِّرة ، والقلوب الطَّاهرة الَّتي هيَّأها الله لهذا الأمر ، ولقد كان في الأوائل: خديجة ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، وعثمان ، والزُّبير ، وعبد الرَّحمن ، وطلحة ، وأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن جحش ،

وجعفر ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، وخالد بن سعيد ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وهم من سادة القوم ، وأشرافهم[(٣٥٢)].

هؤلاء هم السَّابقون الأوَّلون ، الَّذين سارعوا إلى الإيمان والتَّصديق بدعوة النَّبيِّ (ص) .

ثالثاً: استمرار النَّبيِّ (ص) في الدَّعوة:

استمرَّ النَّبيُّ (ص) في دعوته السِّرِّيَّة يستقطب عدداً من الأتباع ، والأنصار من أقاربه ، وأصدقائه ، وخاصَّة الَّذين يتمكَّن من ضمِّهم في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ بعد إقناعهم بالإسلام ، وهؤلاء كانوا نعم العون والسَّند للرَّسول (ص) ؛ لتوسيع دائرة الدَّعوة في نطاق السِّرِّيَّة ، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرَّسول (ص) ظهرت فيها الصُّعوبة والمشقَّة في تحرُّك الرَّسول (ص) ومن امن معه بالدَّعوة ، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شرِّه ، ويثقون به ، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة خطواتها بطيئةٌ ، وحذرةٌ ، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقِّي مطالب الدَّعوة من مصدرها ، وصعوبة تنفيذها؛ إذ كان الدَّاخل في هذا الدِّين ملزماً منذ البداية بالصَّلاة ، ودراسة ما تيسَّر من القران ـ مثلاً ـ ولم يكن يستطيع أن يصلِّي بين ظَهْرَانَيَ قومه ، ولا أن يقرأ القران ، فكان المسلمون

يتخفَّون في الشِّعاب ، والأودية؛ إذا أرادوا الصَّلاة[(٣٥٣)].

١ ـ الحسُّ الأمنيُّ:

إنَّ من معالم هذه المرحلة الكتمان ، والسِّرِّيَّة ، حتَّى عن أقرب النَّاس ، وكانت الأوامر النَّبويَّة على وجوب المحافظة على السِّرِّيَّة واضحةً ، وصارمةً ، وكان (ص) يكوِّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا) ، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعدادٍ ، وتدريبٍ ، لا اختفاء جبنٍ ، وهروبٍ ، حسب ما تقتضيه الخطَّة الرَّبَّانيَّة ، فبدأ الرَّسول (ص) ينظِّم أصحابه من أسرٍ وخلايا صغيرةٍ ، فكان الرَّجل يجمع الرَّجل والرَّجلين؛ إذا أسلما عند الرَّجل به قوَّةٌ ، وسعةٌ من المال ، فيكونان معه ، ويصيبان منه فضل طعامه ، ويجعل منهم حلقاتٍ ، فمن حفظ شيئاً من القران؛ عَلَّمَ مَنْ لم يحفظ ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخُوَّة ، وحلقات تعليم.

إنَّ المنهج الَّذي سار عليه رسول الله (ص) في تربية أتباعه هو القران الكريم ، وكان النَّبيُّ (ص) يربِّي أصحابه تربيةً شاملةً؛ في العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والحسِّ الأمنيِّ ، وغيرها ، ولذلك نجد في القران الكريم اياتٍ كريمةً تَحَدَّثَتْ عن الأخذ بالحسِّ الأمنيِّ؛ لأنَّ مِنْ أهمِّ عوامل نهوض الأمَّة أن ينشأ الحسُّ الأمنيُّ في جميع أفرادها ، وخصوصاً في الصَّفِّ المنظَّم الَّذي يدافع عن الإسلام ، ويسعى لتمكينه

في دنيا النَّاس ، ولذلك نجد النَّواة الأولى للتَّربية الأمنيَّة كانت في مكَّة ، وتوسَّعت مع توسُّع الدَّعوة ، ووصولها إلى دولة ، ومن الايات المكِّيَّة التي أشارت إلى هذا المعنى قوله تعالى: {يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ *} [يوسف: ٨٧] .

ووجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسَّسوا ، ويبحثوا عن يوسف ، وأخيه ، وفي هذا إقرارٌ من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الاخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ، ويؤكِّد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى: {وَلاَ تَيْأَسُوا}

ولا شكَّ: أن الصَّحابة كانوا يجمعون المعلومات عمَّن يريدون دعوته للإسلام ، وكانت القيادة تشرف على ذلك ، ولذلك قام النَّبيُّ (ص) بترتيب جهازٍ أمنيٍّ رفيعٍ ، يشرف على الاتِّصال المنظَّم بين القيادة والقواعد؛ ليضمن تحقيق مبدأ السِّرِّيَّة.

وفي القران المكي نجد قوله تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *} [القصص: ١١ ، ١٢].

ونلحظ في الايتين الاتي:

١ ـ استخدام أمِّ موسى مبدأ جمع المعلومات ، والحصول عليها في حفاظها على ابنها: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [القصص: ١١] والقَصُّ إنَّما هو تتبُّع الأثر ، وجمع المعلومات.

٢ ـ اختيار العنصر الأمين ، والحريص في جمع المعلومات؛ لتكون صحيحةً ، وموثَّقةً ، وأمينة ، وقبل ذلك حريصةً على تلك المعلومات {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [القصص: ١١] ، فأمُّ موسى لم تختر غير أخته؛ لأنَّ الأخت تعتبر من الحريصين ، والأمناء على تلك المصلحة ، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات ، وتحصيل الأخبار ، فمن الأهمِّيَّة بمكانٍ أن يكون العنصر المرسَل في عملية الاستخبارات مندفعاً من ذاته ، حريصاً على المصلحة المرسل إليها.

٣ ـ القَصُّ ، والتَّتبُّع بدون إشارةٍ ، أو جلب أنظار {قُصِّيهِ} [القصص: ١١] إذ نفهم من كلمة {قُصِّيهِ} ، وعدم إثارة الأنظار ، ودليل ذلك: أنَّها بصرت به دون أن يشعروا بها.

٤ ـ دقة الملاحظة ، وقوَّة الفراسة في أثناء جمع المعلومات {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *} [القصص: ١١] .

٥ ـ استعملت أختُ موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصريَّة ، وهو التَّخريب الفكري ، فبعد أن نظرت إليهنَّ وهنَّ غير قادرات على إرضاعه؛ قالت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *} [القصص: ١٢].

٦ ـ محاولة تحقيق الهدف في أثناء جمع المعلومات ، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمَّها بمكانه ، وإنما هي قصَّت الأخبار ، وتوصَّلت إلى مكانه ، وحاولت إعادته إلى أمِّه ، وقد نجحت في هذا[(٣٥٤)].

إنَّ هذه الايات الكريمة تربِّي في حسِّ الصَّحابة الحسَّ الأمنيَّ ، وأخذ الحيطة في مسيرتهم الدَّعويَّة.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في أبعادها الأمنيَّة منذ تربية الأفراد ، وحتَّى بعد قيام الدَّولة ، وتظهر الحاجة للحركات الإسلاميَّة والدُّول المسلمة لإيجاد أجهزةٍ أمنيَّةٍ متطوِّرةٍ (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام ، والمسلمين من أعدائها ـ اليهود ، والنَّصارى ، والملاحدة ـ وتعمل على حماية الصفِّ المسلم في الدَّاخل من اختراقات الأعداء فيه ، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين ،

والمحاربين للإسلام ، حتَّى تستفيد القيادة من المعلومات الَّتي تقدِّمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنيَّة ، ولابدَّ أن تؤسَّس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وتكون أخلاق رجالها قمَّةً رفيعةً تمثِّل صفات رجال الأمن المسلمين.

إنَّ اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنِّبهم المفاجات العدوانيَّة؛ «إذا عرفت العدوَّ ، وعرفت نفسك ، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركةٍ ، وإذا عرفت نفسك ، ولم تعرف العدوَّ فإنك ستواجه الهزيمة في كلِّ معركة»[(٣٥٥)].

إن بناء الأجهزة الأمنيَّة ، ومكاتب المعلومات الَّتي تقدِّم للقيادة التَّقارير لوضع الخطط المناسبة على إثرها ليس أمراً جديداً ، بل هو موغلٌ في تاريخ الإنسانيَّة ، وكذلك في تاريخ المسلمين؛ منذ عصر النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة حتَّى يومنا هذا.

إنَّ من أسباب التَّمكين المهمَّة إعطاء هذا الأمر حقَّه من الاهتمام ، والارتقاء به ، وتطويره بما يناسب أحوال العصر الَّذي نحن فيه[(٣٥٦)]. كان النَّبيُّ (ص) يشرف بنفسه على تربية أصحابه في شتَّى الجوانب ، ووزَّعهم في أسرٍ؛ فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ـ وهو ابن عمِّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم ـ كانوا في أسرةٍ واحدةٍ مع نُعَيم بن عبد الله النَّحَّام بن عديٍّ ، وكان معلِّمهم خبَّاب بن الأرت ، وكان اشتغالهم بالقران لا يقتصر على تجويد تلاوته ، وضبط مخارج حروفه ،

ولا على الاستكثار من سرده ، والإسراع في قراءته؛ بل كان همُّهم دراسته ، وفهمَه ، ومعرفة أمره ، ونهيه ، والعمل به[(٣٥٧)].

كان النَّبيُّ (ص) يهتمُّ بالتَّخطيط الدَّقيق المنظَّم ، ويحسب لكلِّ خطوةٍ حسابها ، وكان مدركاً تماماً: أنَّه سيأتي اليوم الذي يُؤمر فيه بالدَّعوة علناً ، وجهراً ، وأنَّ هذه المرحلة سيكون لها شدَّتها ، وقوَّتها ، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظَّمة تقتضي أن يلتقي الرَّسول المربِّي مع أصحابه ، فكان لابدَّ من مقرٍّ لهذا الاجتماع ، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتَّسع لكثرة الأتباع ، فوقع اختيار النَّبيِّ (ص) وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرَّسول (ص) : أنَّ الأمر يحتاج إلى الدِّقَّة المتناهية في السِّرِّيَّة ، والتَّنظيم ، ووجوب التقاء القائد المربِّي بأتباعه في مكانٍ امنٍ بعيدٍ عن الأنظار؛ ذلك: أنَّ استمرار اللِّقاءات الدَّوريَّة المنظَّمة بين القائد ، وجنوده هو خير وسيلةٍ للتَّربية العمليَّة ، والنَّظرية ، وبناء الشَّخصيَّة القياديَّة الدَّعويَّة.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول (ص) كان يعدُّ أتباعه؛ ليكونوا بناة الدَّولة ، وحملة الدَّعوة ، وقادة الأمم حرصُه الشَّديد على هذا التَّنظيم السِّرِّيِّ الدَّقيق ، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كلِّ هذا.

ولو كان يريد مجرَّد إبلاغ الدَّعوة للنَّاس؛ لكان خير مكانٍ في الكعبة؛ حيث منتدى قريشٍ كلِّها ، ولكن الأمر غير ذلك؛ فلابدَّ من السِّرِّيَّة التَّامَّة في التَّنظيم ، وفي المكان الَّذي يلتقي فيه مع أصحابه ، وفي الطَّريقة الَّتي يحضرون بها إلى مكان اللِّقاء[(٣٥٨)].

٢ . دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقرُّ القيادة):

تَذْكُرُ كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مَقَراً لقيادة الرَّسول (ص) كان بعد المواجهة الأولى الَّتي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله (ص) إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب ، فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله (ص) في شِعْبٍ من شِعاب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون ، فناكَرُوهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحي[(٣٥٩)] بعيرٍ ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أُريق في الإسلام» [ابن هشام (١/٢٨١ . ٢٨٢)] .

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون ، ويتلقَّون عن رسول الله (ص) كلَّ جديدٍ من الوحي ، ويستمعون له (ص) وهو يذكِّرهم بالله ، ويتلو عليهم القران ، ويضعون بين يديه كلَّ

ما في نفوسهم وواقعهم؛ فيربيهم (ص) على عينه كما تربَّى هو على عين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأصبح هذا الجمع هو قرَّة عين النَّبيِّ (ص)[(٣٦٠)] .

رابعاً: أهمُّ خصائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله (ص):

كانت الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله (ص) ، قد برزت فيها خصائص مهمَّة؛ جعلتها تتقدَّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشَّخصية المسلمة ، الَّتي تقيم الدَّولة المؤمنة ، وتصنع الحضارة الرَّائعة ، ومن أبرز هذه الخصائص:

١ ـ الاستجابة الكاملة للوحي ، وعدم التَّقديم بين يديه:

إنَّ العلم ، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد ، والشَّرائع ، والاداب وغيرها ، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل ـ قراناً وسنَّةً ـ وذلك بالعلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ،

ومعرفة ما يجب له ، وما ينزَّه عنه ـ سبحانه وتعالى ـ والعلم بالملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والعلم بالاخرة ، والجنَّة ، والنَّار ، والعلم بالشَّرائع المجملة والمفصَّلة ، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين ، والعلم بالمسلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا ، في القصد والغنى ، في الأمن والخوف ، في الخير والشَّرِّ ، في الهدنة والفتنة ، والتزام الدَّليل الشَّرعيِّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّحيح[(٣٦١)]. قال تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ *} [الأعراف: ١٨١] .

لقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعاً بالدَّليل والوحي ، وتسليماً له؛ لأسبابٍ عديدةٍ؛ منها:

أ ـ نزاهة قلوبهم ، وخلوُّها من كلِّ ميلٍ أو هوًى غير ما جاءت به النُّصوص ، واستعدادها التَّامُّ لقبول ما جاء عن الله ، ورسوله (ص) ، والإذعان ، والانقياد له انقياداً مطلقاً دون حرجٍ ، ولا تردُّدٍ ، ولا إحجامٍ.

ب ـ معاصرتهم لوقت التَّشريع ، ونزول الوحي ، ومصاحبتهم للرَّسول (ص) ، ولذلك كانوا أعلم النَّاس بملابسات الأحوال الَّتي نزلت النُّصوص فيها ، والعلم بملابسات الواقعة أو النَّصِّ من أعظم أسباب فقهه ، وفهمه ، وإدراك مغزاه.

ج ـ وكانت النُّصوص ـ قراناً وسنَّةً ـ تأتي في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بهم ـ بصورةٍ فرديَّةٍ ، أو جماعيَّةٍ ـ فتخاطبهم خطاباً مباشراً ، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنَّها تعالج أحداثاً واقعيَّةً ، وتعقب في حينها ، حيث تكون النُّفوس مشحونةً بأسباب التأثُّر ، متهيِّئةً لتلقِّي الأمر ، والاستجابة له.

د ـ قد أعفاهم قرب عهدهم بالنَّبيِّ (ص) من الجهد الَّذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النُّصوص ، وتصحيحها ، فلم يحتاجوا ـ في غالب أحوالهم ـ إلى سلسلة الإسناد ، ولا معرفة الرِّجال ، والعلل ، وغيرها ، ولم يختلط عليهم الصَّحيح بغيره ، ومن ثمَّ لم يقع عندهم التردُّد في ثبوت النَّص الَّذي وقع عند كثيرٍ ممَّن جاء بعدهم ـ خاصَّةً من أصحاب النُّفوس المريضة ، أو من الجهلة الَّذين لم يدرسوا السُّنَّة ، ويفقهوها روايةً ، ودرايةً[(٣٦٢)] ـ فكانوا إذا سمعوا أحداً يقول: قال رسول الله (ص) ابتدرته أبصارُهم ، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[(٣٦٣)].

٢ ـ التَّأثُّر الوجدانيُّ العميق بالوحي والإيمان:

كان الصَّحابة يتعاملون مع العلم الصَّحيح ، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحسب ، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب ، والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ـ محبَّته ، والتألُّه إليه ، والشَّوق إلى لقائه ، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ ، وأورثهم تعظيمه ، والخوف منه ، والحذر من بأسه ، وعقابه ، وبطشه ، ونقمته ، وأورثهم رجاء ما عنده ، والطَّمع في جنَّته ، ورضوانه ، وحسن الظَّنِّ به ، فاكتملت لديهم ـ بذلك ـ اثار العلم بالله ، والإيمان به ، وهي الحبُّ ، والخوف ، والرَّجاء.

وأورثهم العلم بالجنَّة ، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديِّ السَّرمديِّ ، والخوف من مقاساة العذاب الرَّهيب ، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه ، وتخشى فوته ، وعذابٍ تحذره ، وتخشى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالاخرة ـ فكرةً ، وخوفاً ، ورجاءً ـ حتَّى كأنَّهم يرون البعث ، والقيامة ، والميزان ، والصِّراط ، والجنَّة ، والنَّار رأيَ العين. وأورثهم علمهم بالقدر ، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه ـ التَّوكُّل على الله ، وعدم التَّوكلِ على الأسباب ، وعدم الفرح بما أوتوا ، ولا الأسَى على ما مُنعوا ، والإجمال في الطَّلب؛ إذ لن يفوت المرء ما قدِّر له ، ولن يأتيه ما لم يقدَّر ، كما غرس في نفوسهم الشَّجاعة ، والإقدام. وأورثهم علمُهم بالموت ، وإيمانُهم به ـ العزوفَ عن الدُّنيا ، والإقبال على الاخرة ، والدَّوام على العمل الصَّالح؛ إذ لا يدري المرء متى يموت ، والموت منه قريب. وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم ، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ ، بل هو ضررٌ في العاجل ، والاجل[(٣٦٤)].

ولقد كان للصَّحابة رضي الله عنهم من هذه المعاني الوجدانيَّة أعظم نصيبٍ؛ لأنَّ إيمانهم كان أعمق ، وأكمل من إيمان غيرهم ، ولقد تلقَّوه غضَّاً طريَّاً من النَّبيِّ (ص) لم يَعْلَقْ بغبرة الأهواء ، والغفلان[(٣٦٥)].

وكان الصَّحابة فرساناً بالنَّهار ، ورهباناً باللَّيل ، لا يمنعهم علمُهم ، وإيمانُهم الحقُّ وخشوعُهم للهِ من القيام بشؤونهم الدُّنيويَّة؛ من بيعٍ، وشراءٍ، وحرثٍ، ونكاحٍ، وقيامٍ على الأهل ، والأولاد ، وغيرهم فيما يحتاجون إليه ، وكانوا بعيدين كلَّ البعد عن الإعجاب بالنَّفس ، الَّذي أصيب به بعض المتعبِّدين ممَّن جاء بعدهم ، فترتَّب عليه ازدراؤهم ، واحتقارهم لأعمال الاخرين ، واستهانةٌ بمجهوداتهم في سبيل الدِّين، وحطٌّ من قدرهم،

فأصبحوا في الحقيقة متعبِّدين في محراب (الذَّات) ، معظِّمين لأنفسهم ، وهذا مصدر كلِّ رذيلةٍ خلقيَّةٍ ، وسببٌ لمحق كلِّ عملٍ صالحٍ.

والَّذين يصابون بهذه البليَّة المردية يشعرون بأنَّهم ـ وحدهم ـ الأوصياء على الدِّين ، ويغلقون عقولهم ، وأعينهم عن رؤية فضائل الاخرين ، فلا يرون إلا العيوب والمساوأى؛ بل تصبح الفضائل عندهم عيوباً ، ومساوأى[(٣٦٦)].

خامساً: شخصيَّة النَّبيِّ (ص) وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسةٍ للتَّربيَة والتَّعليم عرفتها البشريَّة ، كيف لا ، وأستاذها هو رسولُ الله (ص) أستاذ البشريَّة كلِّها ، وتلاميذها هم الدُّعاة والهداة ، والقادة الرَّبانيُّون الَّذين حرَّروا البشرية من رِقِّ العبودية ، وأخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّور ، بعد أن ربَّاهم الله تعالى على عينه تربيةً غير مسبوقةٍ ، ولا ملحوقةٍ؟![(٣٦٧)].

في دار الأرقم وفَّق الله تعالى رسوله (ص) إلى تكوين الجماعة الأولى من الصَّحابة ، الَّذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان ، وأصبحوا جميعاً من عظماء الرِّجال ومشاهير العالم ، وصنَّاع التَّاريخ البشريِّ ، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشريَّة.

إنَّ خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم ، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة ، والجهاد ، والدَّولة ، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعمرَ بن الخطَّاب ، وعثمان بن عفَّان ، وعليِّ بن أبي طالبٍ ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

لقد استطاع الرَّسول المربِّي الأعظم (ص) أن يربِّي في تلك المرحلة السرِّيَّة ، وفي دار الأرقم ، أفذاذ الرِّجال الَّذين حملوا راية التَّوحيد والجهاد والدَّعوة؛ فدانت لهم الجزيرة ، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النَّبيِّ (ص) فائقةً في اختيار العناصر الأولى للدَّعوة، في خلال السَّنوات الثَّلاث الأولى من عمر الدَّعوة ، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصّاً ليؤهِّلهم لتسلُّم القيادة ، وحمل الرِّسالة ، فالرِّسالات الكبرى ، والأهداف الإنسانيَّة العظمى ، لا يحملها إلا أفذاذ الرِّجال ، وكبار القادة ، وعمالقة الدُّعاة.

كانت دار الأرقم مدرسةً من أعظم مدارس الدُّنيا ، وجامعات العالم ، التقى فيها الرَّسول المربِّي (ص) بالصَّفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّابقين الأوَّلين) ، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسة على مفهوم الجنديَّة ،

والسَّمع ، والطَّاعة ، والقيادة ، وادابها ، وأصولها ، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثِّقة بالله ، والعزيمة ، والإصرار ، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب ، والتَّربية ، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشحذ العزائم ، ويقوِّي الهمم ، ويدفع إلى البذل ، والتَّضحية ، والإيثار[(٣٦٨)].

كانت نقطة البدء في حركة التَّربية الرَّبانيَّة الأولى لقاء المدعو بالنَّبيِّ (ص) ، فيحدث للمدعو تحوُّلٌ غريب واهتداءٌ مفاجأى بمجرَّد اتِّصاله بالنَّبيِّ (ص) ، فيخرج المدعو من دائرة الظَّلام إلى دائرةِ النُّور ، ويكتسب الإيمان ، ويطرح الكفر ، ويقوى على تحمل الشَّدائد ، والمصائب في سبيل دينه الجديد ، وعقيدته السَّمحة.

كانت شخصية رسول الله (ص) المحرِّك الأوَّل للإسلام؛ فشخصيته (ص) تملك قوى الجذب ، والتأثير على الاخرين ، فقد صنعه الله على عينه ، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض ، والعظمة دائماً تُحَبُّ ، وتحاط من النَّاس بالإعجاب ، ويلتفُّ حولها المعجبون ، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ ، ولكن رسول الله (ص) يضاف إلى عظمته تلك: أنَّه رسول الله ، مُتلقِّي الوحي من الله ، ومبلِّغه إلى الناس ، وذلك بُعْدٌ اخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه؛ فهو لا يحبُّه لذاته فقط ، كما يُحبُّ العظماء من النَّاس ، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الرَّبَّانيَّة الَّتي تشمله من عند الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلهيِّ المكرَّم؛ ومن ثَمَّ يلتقي في شخص الرَّسول (ص) البشر العظيم ، والرَّسول العظيم ، ثمَّ يصبحان شيئاً واحداً في النِّهاية ، غير متميِّز البداية ، ولا النِّهاية ، حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر ، أو للبشر الرَّسول ، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله (ص) ، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان

في مشاعره نقطة ارتكاز المشاعر كلِّها ، ومحور الحركة الشُّعورية ، والسُّلوكية كلِّها ، كذلك كان هذا الحبُّ الَّذي حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة هو مفتاح التَّربية الإسلاميَّة ، ونقطة ارتكازها ، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه[(٣٦٩)].

سادساً: المادة الدِّراسيَّة في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدِّراسيَّة الَّتي قام بتدريسها النَّبيُّ (ص) في دار الأرقم ، القرانَ الكريمَ ، فهو مصدر التَّلقِّي الوحيد ، فقد حَرَصَ الحبيب المصطفى (ص) على توحيد مصدر التَّلقِّي ، وتفرُّده ، وأن يكون القران الكريم وحده هو المنهج ، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، وكان روح القُدُس ينزل بالايات غضَّةً طريَّةً على رسول الله (ص) ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله (ص) مباشرةً ، فَتُسْكَب في قلوبهم ،

وتتسرَّب في أرواحهم ، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم ، وكانت قلوبهم ، وأرواحهم تتفاعل مع القران ، وتنفعل به ، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنسانٍ جديدٍ؛ بقيمه ، ومشاعره ، وأهدافه ، وسلوكه ، وتطلُّعاته. لقد حرص الرَّسول (ص) حرصاً شديداً على أن يكون القران الكريم وحده هو المادَّة الدِّراسيَّة ، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه نفوس أصحابه ، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القران[(٣٧٠)].

في دار الأرقم تعلَّموا: أنَّ القران الكريم ، وتوجيهات الحبيب المصطفى (ص) ، هما الدُّستور الأعلى؛ للدَّعوة ، والحياة ، والدَّولة ، والحضارة. كان القران الكريم المادَّة الدِّراسيَّة الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد (ص) ، فهو المصدر الوحيد للتلقِّي ، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة ، فهو كتاب هذه الأمَّة الحيُّ ، ورائدها النَّاصح ، وهو مدرستها الَّتي تتلقَّى فيها دروس حياتها.

لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القران الكريم بجدِّيَّةٍ ، ووعيٍ ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاته ، والعمل بها بدقَّةٍ تامَّةٍ ، فكانوا يلتمسون من اياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم الواقعيَّة ، والمستقبليَّة. نشأ الرَّعيل الأوَّل على توجيهات القران الكريم ، وجاؤوا صورةً عمليَّةً لهذه التَّوجيهات الرَّبَّانيَّة ، فالقران كان هو المدرسة الإلهيَّة ، الَّتي تخرَّج منها الدُّعاة ، والقادة الرَّبَّانيُّون ، ذلك الجيل الَّذي لم تعرف له البشريَّة مثيلاً من قبلُ ، ومن بعدُ. لقد أنزل الله القران الكريم على قلب رسوله (ص) ؛ لينشأى به أمَّةً ، ويقيم به دولةً ، وينظِّم به مجتمعاً؛ وليربِّيَ به ضمائر ، وأخلاقاً ، وعقولاً ، ويبني به عقيدةً ، وتصوُّراً ،

وأخلاقاً ومشاعر ، فخرَّج الجماعة المسلمة الأولى الَّتي تفوَّقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقديَّة، والرُّوحيَّة، والخلقيَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة ، والحربيَّة[(٣٧١)].

سابعاً: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها:

١ . أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ (ص) وأصحابه رضي الله عنهم بداره.

٢ . أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم ، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء الحرب ضدَّ بني هاشم ، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه ، ولن يخطر في البال أن يكون
اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

٣ . أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السَّادسة عشرة من عمره ، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي ، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ (ص) ؛ بل يتَّجه نظرها ، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه ، أو بيته هو نفسه (ص) .

قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التَّجمُّع على الأغلب في أحد دور بني هاشم ، أو في بيت أبي بكرٍ رضي الله عنه ، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أنَّ اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من النَّاحية الأمنيَّة ، ولم نسمع أبداً: أنَّ قريشاً داهمت ذات يومٍ هذا المركز ، وكشفت مكان اللِّقاء[(٣٧٢)].

ثامناً: من صفات الرَّعيل الأوَّل:

كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة ، والفرديَّة ، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً ، ومنظَّماً ، وسياسيَّاً محكماً ، فما كان اختيار رسول الله (ص) لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح ، ومواعظ ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة ، ومدرسةً للتَّعليم ، والتَّربية ، والإعداد ، والتَّأهيل للدَّعوة ، والقيادة ، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة ، وتعهُّد بعض العناصر ، والتَّركيز عليها تركيزاً خاصَّاً؛ لتأهيلها لأعباء الدَّعوة ، والقيادة ، فكأنَّ الرَّسول المربِّي (ص) قد حدَّد لكلِّ فردٍ من هؤلاء عمله بدقَّةٍ ، وتنظيمٍ حكيمٍ ، فالكلُّ يعرف دوره المنوط به ، والكلُّ يدرك طبيعة الدَّعوة ، والمرحلة الَّتي تمرُّ بها ، والكلُّ ملتزمٌ جانب الحيطة ، والحذر ، والسِّرِّيَّة والانضباط التَّامِّ[(٣٧٣)].

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكِّيَّة يتمُّ بكلِّ هدوءٍ وتدرُّجٍ وسرِّيَّةٍ ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثِّل في قوله تعالى:

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *}[الكهف: ٢٨].

إنَّ الاية الكريمة تأمر النَّبيَّ (ص) بأن يصبر على تقصير، وأخطاء المستجيبين لدعوته ، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم ، خاصَّةً إن كانت خطأً ، وأن يصبر على تردُّدهم في قبول التَّوجيهات ، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدَّعوة ، وأن يوضِّح لهم طبيعة طريق الدَّعوة ، وأنَّها شاقَّةٌ ، وألا يغرِّر به مغرِّرٌ ليبعده عنهم ، وألا يسمع فيهم منتقِصاً، وألا يطيع فيهم

متكبِّراً أغفل اللهُ قلبَه عن حقيقة الأمور، وجوهرها[(٣٧٤)].

إنَّ الاية الكريمة السَّابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى ، والَّتي من أهمِّها:

أ ـ الصبر في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ}

إنَّ كلمة الصَّبر تتردَّد في القران الكريم ، وفي أحاديث النَّبيِّ (ص) ، ويوصي النَّاس بها بعضُهم بعضاً ، وتبلغ أهمِيَّتُها أن تصير صفةً من أربعٍ للفئة النَّاجية من الخسران ، قال تعالى: {وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *} [العصر]؛ فحكم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العمل الصَّالح.

٣ ـ التَّواصي بالحقِّ.

٤ ـ التَّواصي بالصَّبر.

لأنَّ نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، وأكمل غيره بالنُّصح ، والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حقِّ الله ، وحقِّ العباد ، والتواصي بالصَّبر ضرورةٌ؛ لأنَّ القيام على الإيمان ، والعمل الصَّالح ، وحراسة الحقِّ ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد ، والجماعة ، ولا بدَّ من الصَّبر على جهاد النَّفس ، وجهاد الغير ، والصَّبر على الأذى والمشقَّة ، والصَّبر على تبجُّح الباطل ، والصَّبر على طول الطَّريق ، وبطء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبُعْدِ النِّهاية[(٣٧٥)].

ب .كثرة الدُّعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى: ؛ فالدُّعاء بابٌ {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} ، فإذا فتح للعبد؛ تتابعت عليه الخيرات ، وانهالت عليه البركات ، فلا بدَّ من تربية الأفراد الَّذين يُعَدُّون لحمل الرِّسالة ، وأداء الأمانة ، على حسن الصِّلة بالله ، وكثرة الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من أعظم ، وأقوى عوامل النَّصر[(٣٧٦)].

ج . الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: ؛ فلا بدَّ عند إعداد الأفراد إعداداً ربَّانيّاً أن يتربَّى {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} على أن تكون أقواله ، وأعماله ، وجهاده كلُّه ، لوجه الله ، وابتغاء مرضاته ، وحسن مثوبته من غير نظرٍ إلى مغنمٍ ، أو جاهٍ ، أو لقبٍ ، أو تقدُّمٍ ، أو تأخُّرٍ ، وحتَّى يصبح جنديّاً من أجل العقيدة والمنهج الرَّبانِيّ ، ولسان حاله قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ . ١٦٣] .

إنَّ الإخلاص ركنٌ من أركان قبول العمل ، ومعلومٌ: أنَّ العمل عند الله لا يُقبل إلا بالإخلاص ، وتصحيح النِّيَّة ، وبموافقة السُّنَّة ، والشَّرع.

د . الثَّبات:

ويظهر في قوله تعالى: {وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ٢٨].

وهذا الثبات المذكور فرعٌ عن ثباتٍ أعمَّ ينبغي أن يتَّسم به الدَّاعية الرَّبانيُّ ، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣].

ففي الايات الكريمة ثلاث صفاتٍ: إيمانٌ ، ورجولةٌ ، وصدقٌ. وهذه العناصر مهمَّةٌ للثَّبات على المنهج الحقِّ؛ لأنَّ الإيمان يبعث على التمسُّك بالقيم الرَّفيعة ، والتشبُّث بها ، ويبعث على التَّضحية بالنَّفس؛ ليبقى المبدأ الرَّفيع. والرُّجولة محرِّكةٌ للنَّفس نحو هذا الهدف ، غير مهتمةٍ بالصَّغائر ، والصَّغار ، وإنَّما دائماً دافعةٌ نحو الهدف الأسمى ، والمبدأ الرَّفيع. والصِّدق يحول دون التحوُّل ، أو التغيير ، أو التبديل ، ومن ثَمَّ يورث هذا كلُّه الثبات الذي لا يتلوَّن معه الإنسان ، وإن رأى شعاع السَّيف على رقبته ، أو رأى حبل المشنقة ينتظره ، أو رأى دنيا يصيبها ، أو امرأةً ينكحها.

ولا شكَّ: أنَّ اللَّبنات الَّتي تعدُّ لحمل الدَّعوة ، وإقامة الدَّولة ، وصناعة الحضارة ، تحتاج إلى الثَّبات الَّذي يعين على تحقيق الأهداف السَّامية ، والغايات الجميلة ، والقيم الرَّفيعة[(٣٧٧)].

هذه من أهمِّ الصِّفات الَّتي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعاً: انتشار الدَّعوة في بطون قريش ، وعالميَّتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السِّرِّيَّة ، في سائر فروع قريش بصورةٍ متوازنةٍ ، دون أن يكون ثقلٌ كبيرٌ لأيِّ قبيلة ، وهذه الظاهرة مخالفةٌ لطبيعة الحياة القبليَّة انذاك. وهي إذا أفقدت

الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبليِّ ، والعصبية لحماية الدَّعوة الجديدة ، ونشرها ، فإنَّها في الوقت نفسه لم تؤلِّب عليه العشائر الأخرى؛ بحجَّة: أنَّ الدَّعوة تحقِّق مصالح العشيرة الَّتي انتمت إليها ، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى ، ولعلَّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشيَّة العديدة دون تحفُّظاتٍ متَّصلةٍ بالعصبيَّة.

فأبو بكر الصِّدِّيق من «تَيْم» ، وعثمان بن عفان من «بني أميَّة» ، والزُّبير بن العوَّام من «بني أسد» ، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدَّار» ، وعليُّ بن أبي طالب من «بني هاشم» ، وعبد الرَّحمن بن عوف من «بني زُهرة» ، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ» ، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح»؛ بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش؛ فعبد الله بن مسعودٍ من هُذَيل ، وعتبة بن غزوان من مازنٍ ، وعبد الله بن قيس من الأشعريين ، وعمَّار بن ياسر من عنس من مَذْحِج ، وزيد بن حارثة من كلب ، والطُّفيل بن عمرو من دَوْسٍ ، وعمرو بن عبسة من سليم ، وصهيب النَّمَري من بني النَّمِر بن قاسِط. لقد كان واضحاً: أنَّ الإسلام لم يكن خاصّاً بمكَّة[(٣٧٨)].

لقد شقَّ النَّبيُّ (ص) طريقه بكلِّ تخطيطٍ ودقَّةٍ ، وأخذ بالأسباب مع التوكُّل على الله تعالى؛ فاهتمَّ بالتَّربية العميقة ، والتَّكوين الدَّقيق ، والتَّعليم الواسع ، والاحتياط الأمني ، والانسياب الطَّبيعي في المجتمع ، والإعداد الشَّامل للمرحلة التي بعد السِّرِّيَّة؛ لأنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يعلم: أنَّ الدَّعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوةً سرِّيَّةً ، يخاطب بها الفرد بعد الفرد ، بل نزلت لإقامة الحجَّة على العالمين ، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من النَّاس ، من ظلمات الشِّركِ ، والجاهليَّة إلى نور الإسلام والتَّوحيد ، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدَّعوة ، وميدانها ، منذ خطواتها الأولى؛ حيث إنَّ القران المكيَّ بيَّن شمول الدَّعوة ، وعالميتها:

قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *} [ص: ٨٧] .

وقال تعالى: {وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *} [القلم: ٥٢] .

إنَّ الدَّعوة جاءت لتخاطب البشر ، كلَّ البشر ، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى ، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة جاءت ومن خصائصها الإعلان ، والصَّدع ، والبلاغ ، والبيان ، والإنذار ، وتَحمُّل ما يترتَّب على هذا من التَّكذيب ، والإيذاء ، والقتل.

إن استسرار النَّبيِّ (ص) في دعوته أوَّل الأمر إنَّما هو حالٌ استثنائيٌّ لظروفٍ وملابساتٍ خاصَّة ، وهي ظروف بداية الدَّعوة ، وضعفها ، وغربتها ، وينبغي أن يُفهم ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسةً مصلحيَّةً في كثيرٍ من أمور الإسلام في الحرب ، والسَّلام؛ فهو كذلك في موضوع الدَّعوة؛ فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع ، وإلا فالأصل هو بيان دين الله ، وشرعه ، وحكمه لكلِّ النَّاس ، أمَّا الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل ، والخطط ، والتَّفصيلات؛ فهو أمرٌ مصلحيٌّ خاضعٌ للنَّظر ، والاجتهاد البشريِّ؛ إذ لا يترتَّب عليه كتمانٌ للدِّين ، ولا سكوتٌ عن حقٍّ ، ولا يتعلَّق به بيانٌ ، ولا بلاغٌ ، ومن ذلك ـ مثلاً ـ معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدَّعوة ، فهذا أمرٌ مصلحيٌّ لا يخلُّ بقضية البلاغ ، والنذارة ، الَّتي نزلت الكتب ، وبعثت الرُّسل من أجلها ، فيمكن أن يظلَّ سرّاً متى كانت المصلحة في ذلك ، مع القيام بأمر الدَّعوة ، والتبليغ ، ولهذا فإنَّ النَّبيَّ (ص) حتَّى بعد أن صدع بدعوته ، وأنذر النَّاس ، وأعلن النُّبوَّة ظلَّ يخفي أشياء كثيرةً لا تؤثِّر على مهمة البلاغ والبيان ، كعدد أتباعه ، وأين يجتمع بهم ، وما هي الخطط الَّتي يتَّخذونها إزاء الكيد الجاهليِّ[(٣٧٩)].

* * *

المبحث الثَّالث

أولاً: فقه النَّبيِّ (ص) في التَّعامل مع السُّنن:
إنَّ بناء الدُّول ، وتربية الأمم ، والنُّهوض بها يخضع لقوانين ، وسنن ، ونواميس ، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشُّعوب ، والأمم والدُّول ، وعند التأمُّل في سيرة الحبيب المصطفى (ص) نراه قد تعامل مع السُّنن ، والقوانين بحكمةٍ ، وقدرةٍ فائقةٍ.
إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة ، هي أحكام الله تعالى الثَّابتة في الكون على الإنسان في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، وهي كثيرةٌ جدّاً ، والَّذي يهمُّنا منها في هذا الكتاب هو ما يتعلَّق بحركة النُّهوض تعلُّقاً وثيقاً.
«ولقد شاء الله ربُّ العالمين أن يجري أمر هذا الدِّين ، بل أمر هذا الكون على السُّنن الجارية ، لا على السُّنن الخارقة ، وذلك حتَّى لا يأتي جيلٌ من أجيال المسلمين ، فيتقاعس ، ويقول: لقد نُصِر الأوَّلون بالخوارق ، ولم تَعُد الخوارق تنزل بعد ختم الرِّسالة ، وانقطاع النُّبوَّات»[(٣٨٠)].
إنَّ المتدبِّر لايات القران الكريم يجدها حافلةً بالحديث عن سُنن الله تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، ويجد عنايةً ملحوظةً بإبراز تلك السُّنن ، وتوجيه النَّظر إليها ، واستخراج العبرة منها ، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.
والقران الكريم حينما يوجِّه أنظار المسلمين إلى سُنن الله تعالى في الأرض ، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول الَّتي تجري وفقها ، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنَّواميس الَّتي تحكم الكون ، والشعوب ، والأمم ، والدُّول ، والأفراد جاريةٌ لا تتخلَّف ، والأمور لا تمضي جزافاً ، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ وإنَّما تتبع هذه النواميس ، فإذا درس المسلمون هذه السُّنن ، وأدركوا مغازيها؛ تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبيَّنت لهم الأهداف من
وراء الوقائع ، واطمأنُّوا إلى ثبات النِّظام الَّذي تتبعه الأحداث ، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النِّظام ، واستشرفوا خطَّ السَّير على ضوء ما كان في ماضي الطَّريق ، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين؛ لينالوا النَّصر ، والتَّمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدِّية إليه[(٣٨١)].
«والسُّنن الَّتي تحكم الحياة واحدةٌ؛ فما وقع منها من زمانٍ مضى سيقع في كلِّ زمان»[(٣٨٢)].
وهذه السُّنن هي الَّتي يُجْرِي الله ـ تعالى ـ عليها فَلَكَ الحياة ، ويُسيِّرُ عليها حركَتَها ، فليس هناك شيءٌ واحدٌ في حياة البشر يحدُث اعتباطاً ، وإنَّما يجري كلُّ شيءٍ في هذه الحياة حسب سُنن اللهِ تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتخلَّف ، ولا تحابي أحداً من الخلق ، ولا تستجيب لأهواء البشر[(٣٨٣)].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربِّهم المبرزة لهم في كتاب الله ، وفي سنة رسول (ص) ، حتَّى يصلوا إلى ما يرجون من عزَّةٍ وتمكينٍ؛ «فإنَّ التَّمكين لا يأتي عفواً ، ولا ينزل اعتباطاً ، ولا يخبط خَبْطَ عشواء ، بل إنَّ له قوانينه الَّتي سجَّلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون ، ويتعاملوا معها على بصيرة»[(٣٨٤)].

إنَّ أوَّل شروط التعامل المنهجيِّ السليم مع السُّنن الإلهيَّة ، والقوانين الكونيَّة في الأفراد ، والمجتمعات ، والأمم ، هو أن نفهم ، بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُّنن ، وكيف تعمل ضمن النَّاموس الإلهيِّ ، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السُّنن» ، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعيَّة ، والمعادلات الحضاريَّة[(٣٨٥)].

يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ في منهجيَّة التَّعامل مع السُّنن: «لا تصادموا نواميس الكون؛ فإنَّها غلابة ، ولكن غالبوها ، واستخدموها ، وحوِّلوا تيَّارها ، واستعينوا ببعضها على بعضٍ ، وترقَّبوا ساعة النَّصر ، وما هي منكم ببعيد»[(٣٨٦)].

ونلاحظ في هذا الكلام عدَّة أمورٍ مهمَّةٍ:

١ ـ عدم المصادمة.

٢ ـ المغالبة.

٣ ـ الاستخدام.

٤ ـ التَّحويل.

٥ ـ الاستعانة ببعضها على بعضٍ.

٦ ـ ترقُّب ساعة النَّصر[(٣٨٧)].

إنَّ ما وصل إليه الأستاذ البنَّا يدلُّ على دراسته العميقة للسِّيرة النَّبويَّة ، والتَّاريخ الإسلاميِّ ، وتجارب الشُّعوب ، والأمم ، ومعرفةٍ صحيحةٍ للواقع الَّذي يعيشه ، وتوصيفٍ سليمٍ للدَّاء ، والدَّواء.

إنَّ حركة الإسلام الأولى؛ الَّتي قادها النَّبيُّ (ص) في تنظيم جهود الدَّعوة ، وإقامة الدَّولة ، وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيِّ الحضاريِّ خضعت لسنن ، وقوانين قد ذكر بعضها بنوعٍ من الإيجاز؛ كأهمِّيَّة القيادة في صناعة الحضارات ، وأهمِّيَّة الجماعة المؤمنة المنظَّمة في مقاومة الباطل ، وأهمِّية المنهج الَّذي تستمدُّ منه العقائد ، والأخلاق ، والعبادات ، والقيم ، والتَّصوُّرات. ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر

سنَّة التَّدرُّج ، وهي من سنن الله تعالى في خلقه ، وكونه ، وهي من السُّنن المهمَّة الَّتي يجب على الأمَّة أن تراعيها ، وهي تعمل للنُّهوض ، والتَّمكين لدين الله عزَّ وجلَّ.

ومنطلق هذه السُّنَّة: أنَّ الطَّريق طويلٌ ـ لا سيَّما في هذا العصر الَّذي سيطرت فيه الجاهليَّة ، وأخذت أُهْبَتَها ، واستعدادها ـ كما أنَّ الشرَّ ، والفساد قد تَجَذَّر في الشُّعوب ، واستئصاله يحتاج إلى تدرُّج.

بدأت الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى متدرجةً ، تسير بالنَّاس سيراً دقيقاً ، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء ، والتَّأسيس ، ثمَّ مرحلة المواجهة والمقاومة ، ثمَّ مرحلة النَّصر والتَّمكين ، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقتٍ واحدٍ ، وإلا كانت المشقَّة ، والعجز ، وما كان يمكن كذلك أن تقدم واحدةٌ منها على الأخرى ، وإلا كان الخلل ، والإرباك[(٣٨٨)].

إنَّ اعتبار هذه السُّنَّة في غاية الأهمِّيَّة؛ «ذلك أنَّ بعض العاملين في حقل الدَّعوة الإسلاميَّة يحسبون أنَّ التَّمكين يمكن أن يتحقَّق بين عشيةٍ وضحاها ، ويريدون أن يغيِّروا الواقع الَّذي تحياه الأمَّة الإسلاميَّة في طرفة عينٍ ، دون النَّظر في العواقب ، ودون فهمٍ للظُّروف ، والملابسات المحيطة بهذا الواقع ، ودون إعدادٍ جيِّدٍ للمقدِّمات ، أو للأساليب ، والوسائل»[(٣٨٩)] ، وقد وجَّه

الله تعالى أنظارنا إلى هذه السُّنَّة في أكثر من موقع ، فالله ـ تعالى ـ خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيام ، يعلمها سبحانه ، ويعلم مقدارها ، وكان ـ جلَّ شأنُه ـ قادراً على خلقها في أقلَّ مِنْ لمح البصر ، وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان ، والحيوان ، والنَّبات ، كلُّها تتدرَّج في مراحل حتَّى تبلغ نماءها ، وكمالها ، ونضجها ، وَفْقَ سنَّة الله ـ تعالى ـ الحكيمة.

وسنَّة التَّدرُّج مقررةٌ في التَّشريع الإسلاميِّ بصورةٍ واضحةٍ ملموسةٍ ، وهذا من تيسير الإسلام على البشر؛ حيث إنَّه راعى معهم سنَّة التَّدرُّج فيما شرعه لهم إيجاباً ، وتحريماً ، فنجده حين فرض الفرائض؛ كالصَّلاة ، والصِّيام ، والزَّكاة فرضها على مراحل ، ودرجاتٍ؛ حتَّى انتهت إلى الصُّورة الأخيرة الَّتي استقرَّت عليها[(٣٩٠)].

«ولعلَّ رعاية الإسلام للتدرُّج هي الَّتي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرِّقِّ الذي كان نظاماً سائداً في العالم كلِّه عند ظهور الإسلام ، وكانت محاولة إلغائه تؤدِّي إلى زلزلةٍ في الحياة الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، فكانت الحكمة في تضييق روافده؛ بل ردمها كلِّها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حدٍّ ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرِّق بطريق التَّدرُّج»[(٣٩١)].

«إننا إذا درسنا القران الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، دراسةً عميقةً؛ علمنا كيف؛ وبأيِّ تدرُّج ، وانسجامٍ تمَّ التَّغيير الإسلاميُّ في بلاد العرب ، ومنها إلى العالم كلِّه على يد النَّبيِّ (ص) .. فلقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً حسب مجراها الطبيعيّ؛ حتَّى تستقرَّ في مستقرِّها الَّذي أراده الله ربُّ العالمين»[(٣٩٢)].

«وهذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة في رعاية التَّدرُّج ينبغي أن تُتَّبع في سياسة النَّاس ، وعندما يُراد تطبيق الإسلام في الحياة ، واستئناف حياةٍ إسلاميَّةٍ متكاملةٍ؛ يكون التَّمكين ثمرتها ، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقيّاً؛ فلا نتوهَّم: أنَّ ذلك يمكن أن يتحقَّق بقرارٍ يصدر من رئيسٍ ، أو ملكٍ ، أو من مجلسٍ قياديٍّ ، أو برلمانيٍّ ، وإنَّما يتحقَّق ذلك بطريق التَّدرُّج؛ أي: بالإعداد ، والتَّهيئة الفكريَّة ، والنَّفسيَّة ، والاجتماعيَّة.

وذلك هو المنهج الَّذي سلطه النَّبيُّ (ص) لتغيير الحياة الجاهليَّة إلى الحياة الإسلاميَّة ، فقد ظلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة ، كانت مهمَّته الأساسيَّة فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن ، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدَّعوة ، وتكاليف الجهاد؛ لحمايتها ، ونشرها في الافاق ، ولهذا لم تكن المرحلة المكِّيَّة مرحلة تشريعٍ بقدر ما كانت مرحلة تربيةٍ ، وتكوينٍ»[(٣٩٣)].

ثانياً: سنة التَّغيير وعلاقتها بالبناء العقديّ:

من السُّنن المهمَّة على طريق النُّهوض: السُّنَّة الَّتي يقرِّرها قول الله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ *} [الرعد: ١١] .

وارتباط هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة بالتَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة واضحٌ غاية الوضوح؛ ذلك: أنَّ التَّمكين لا يمكن أن يتأتَّى في ظلِّ الوضع الحالي للأمَّة الإسلاميَّة ، فلا بدَّ من التَّغيير ، كما أنَّ التَّمكين لن يتحقَّق لأمَّةٍ ارتضت لنفسها حياة المذلَّة ، والتخلُّف ، ولم تحاول أن تغيِّر ما حلَّ بها من واقعٍ ، وأن تتحرَّر من أسره[(٣٩٤)].

«والإسلام يوم جاء أوَّل مرَّةٍ، وقف في وجهه واقعٌ ضخمٌ، واقع الجزيرة العربيَّة، وواقع الكرة الأرضيَّة ، ووقفت في وجهه عقائد وتصوُّرات ، ووقفت في وجهه قيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمةٌ، وأوضاعٌ، ووقفت في وجهه مصالح، وعصبياتٌ.

كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع النَّاس في الجزيرة العربيَّة ، وفي الأرض كافَّةً ، مسافةً هائلةً ، وكانت النُّقلة الَّتي يريدهم عليها بعيدةً بعيدةً ، وكانت تساند الواقع أحقابٌ من التَّاريخ ،

وأشتاتٌ من المصالح ، وألوانٌ من القوى ، وقفت كلُّها سدّاً في وجه هذا الدِّين الجديد ، الَّذي لا يكتفي بتغيير العقائد ، والتَّصوُّرات، والقيم، والموازين ، والعادات ، والتَّقاليد ، والأخلاق ، والمشاعر؛ إنَّما يريد كذلك أن يغيِّر الأنظمة، والأوضاع، والشَّرائع، والقوانين ، كما يريد انتزاع قيادة البشريَّة من يد الطَّاغوت ، والجاهليَّة؛ ليردَّها إلى الله ، وإلى الإسلام»[(٣٩٥)].

«ولا شكَّ: أنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى ، فقد حدث ما حدث وَفْقَ سنَّةٍ جاريةٍ ، لا وفق معجزاتٍ خارقةٍ ، وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدَّخرة لكلِّ من يستنفد هذا الرَّصيد، ويجمعه، ويطلقه في اتِّجاهه الصَّحيح»[(٣٩٦)].

إنَّ التَّغيير الَّذي قاده النَّبيُّ (ص) بمنهج الله تعالى بدأ بالنَّفس البشريَّة ، وصنع منها الرِّجال العظماء ، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع ، حيث نقل النَّاس من الظُّلمات

إلى النُّور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التَّخلُّف إلى التَّقدُّم ، وأنشأ بهم أروع حضارةٍ عرفتها الحياة[(٣٩٧)].

لقد قام النَّبيُّ (ص) ـ بمنهجه القرانيّ ـ بتغيير في العقائد ، والأفكار ، والتَّصوُّر ، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه؛ فتغيَّر ما حوله في دنيا النَّاس ، فتغيَّرت المدينة ، ثمَّ مكَّة ، ثمَّ الجزيرة ، ثمَّ بلاد فارس ، والرُّوم في حركةٍ عالميَّةٍ تسبِّح ، وتذكر خالقها بالغدوِّ ، والاصال.

كان اهتمام المنهج القرانيِّ في العهد المكيِّ بجانب العقيدة ، فكان يعرضها بشتَّى الأساليب؛ فغمرت قلوبهم معاني الإيمان ، وحدث لهم تحوُّل عظيمٌ ، قال الله تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٢٢].

حقَّاً إنَّه تصويرٌ رائعٌ عجيبٌ تقف الأقلام حائرةً في وصفه! وكذلك الأسلوب القرانيُّ في كلِّ حينٍ تنهل منه الألباب ، وتصدر عنه الأساليب ، وتعجِز عن إيفائه حقَّه من التَّعبير؛ من الموت إلى الحياة ، ومن الظُّلمات إلى النُّور ، هل يستويان مثلاً؟! مسافةٌ هائلةٌ! ونقلةٌ عظيمةٌ لا يعرف عظمتها ، ويدرك مقدارها إلا مَنْ تفرَّس في حالهم في ضوء هذا البيان القرانيِّ المعجز[(٣٩٨)].

ثالثاً: تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة:

كان تصورُ الصَّحابة رضي الله عنهم لله قبل البعثة تصوراً فيه قصورٌ ، ونقصٌ ، فهم ينحرفون عن الحقِّ في أسمائه ، وصفاته: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ *} [الأعراف: ١٨٠] ، فينكرون بعض صفاته ، ويسمُّونه بأسماء لا توفيق فيها ، أو بما يوهم معنىً فاسداً ، وينسبون إليه النَّقائص ، كالولد، والحاجة، فزعموا: أنَّ الملائكة بنات الله، وجعلوا الجنَّ شركاء له سبحانه: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ *} [الأنعام: ١٠٠] ، {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ *} [النحل: ٥٧] .

فجاء القران الكريم لترسيخ العقيدة الصَّحيحة ، وتثبيتها في قلوب المؤمنين ، وإيضاحها للنَّاس أجمعين ، وذلك ببيان توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الأسماء ، والصِّفات ، والإيمان بكلِّ ما أخبر الله به من الملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والقدر خيره ،

وشرِّه ، واليوم الاخر ، وإثبات الرِّسالة للرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ والإيمان بكلِّ ما أخبروا به[(٣٩٩)].

فقد عرَّف القران المكيُّ الناسَ مَنْ هو الإله الَّذي يجب أن يعبدوه، وكان النَّبيُّ (ص) يربِّيهم على تلك الايات العظيمة؛ فقد حرص (ص) منذ اليوم الأوَّل على أن يعطي النَّاس التَّصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم ، وعن حقِّه عليهم مدركاً: أنَّ هذا التَّصوُّر سيورث التَّصديق ، واليقين عند مَنْ صفت نفوسهم ، واستقامت فطرتُهم. ولقد كان تركيز النَّبيِّ (ص) في هذا التَّصوُّر المستمدِّ من القران الكريم قائماً على عدَّة جوانب ، منها:

١ ـ أنَّ الله منزَّهٌ عن النَّقائص ، موصوفٌ بالكمالات الَّتي لا تتناهى؛ فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له ، لم يتَّخذ صاحبةً ، ولا ولداً.

٢ ـ وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ ، ومالكه ، ومدبِّر أمره: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *} [الأعراف:٥٤] .

٣ ـ وأنَّه تعالى مصدر كلِّ نعمةٍ ـ دقَّت أو عظمت ، ظهرت أو خفيت ـ في هذا الوجود {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ *} [النحل: ٥٣] .

٤ ـ وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، ولا ما يُخفي الإنسان ، وما يُعلن: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *} [الطلاق: ١٢] .

٥ ـ وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتابٍ لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللَّحظة المناسبة ، والوقت المناسب: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ *} [ق: ١٨] .

٦ ـ وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون ، وما يهوون؛ ليعرف النَّاسُ معادنَهم ، ومن منهم يرضى بقضاء الله ، وقدره ، ويسلم له ظاهراً وباطناً ، فيكون جديراً بالخلافة ، والإمامة ، والسيادة ، ومن منهم يغضب ، ويسخط ، فيكون جزاؤه غضبَ الله ، وعدمَ إسناد شيءٍ إليه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ *} [الملك: ٢] ، وذلك مع علمه بالشَّيء قبل وقوعه.

٧ ـ وأنَّه سبحانه يوفِّق ، ويؤيِّد ، وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي ، وما يذر: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ *} [الأعراف: ١٩٦] .

٨ ـ وأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ حقُّه على العباد أن يعبدوه ، ويوحِّدوه ، فلا يشركوا به شيئاً: {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *} [الزمر: ٦٦] .

٩ ـ وأنَّه ـ سبحانه ـ حدَّد مضمون هذه العبوديَّة، وهذا التَّوحيد في القران العظيم[(٤٠٠)].

وتربَّى الرَّعيل الأوَّل رضي الله عنهم ، على فهم صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وعبدوه بمقتضاها؛ فَعَظُمَ الله في نفوسهم ، وأصبح رضاه سبحانه غايةَ مقصدهم ، وسعيهم ، واستشعروا مراقبته لهم في كلِّ الأوقات ، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزلَّ؛ والله مطَّلعٌ عليها ، وتطهَّر صحابة رسول الله (ص) من الشِّرك بجميع أنواعه ، سواءٌ من اعتقاد متصرِّف مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أيِّ شيءٍ ، من تدبير الكون؛ من إيجادٍ ، أو إعدامٍ ، أو إحياءٍ ، أو إماتةٍ ، أو طلب خير ، أو دفع شرٍّ بغير إذنٍ من الله سبحانه ، أو اعتقاد منازعٍ له في شيءٍ من مقتضيات أسمائه وصفاته ، كعلم الغيب ، وكالعظمة ، والكبرياء ، وكالحاكميَّة المطلقة ، وكالطَّاعة المطلقة ، ونحو ذلك[(٤٠١)].

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة للأفراد على التَّوحيد هي الأساس الَّذي قام عليه البناء الإسلاميُّ ، وهي المنهجيَّة الصَّحيحة الَّتي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل ، فكلُّ رسولٍ دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة. قال تعالى عن نوح عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ *} [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ، وقال عن هودٍ عليه السلام: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَال يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ *} [هود: ٥٠]

، وقال عن صالح عليه السلام: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ *} [هود: ٦١] ، وقال عن شعيبٍ عليه السلام: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ *} [هود: ٨٤] ، وقال عن عيسى عليه السلام: {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *} [آل عمران: ٥١].

وبالجملة: فالرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ كلُّهم دعوا لتوحيد الألوهيَّة ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ، واجتناب الطَّاغوت ، والأصنام. قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *} [النحل: ٣٦].

وقد ربَّى رسول الله (ص) صحابته على تجريد التَّوحيد بأنواعه كلِّها ، وكان هو (ص) مثالاً حيَّاً للمؤمن الموحِّد غاية التَّوحيد: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ *} [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

وقد آتت تربية الرَّسول (ص) لأصحابه ثمارها المباركة؛ فتطهَّر الصَّحابة في الجملة ممَّا يضادُّ توحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتَّبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يحبُّوا غير الله كحب الله ، ولم يخشوا إلا الله ، ولم يتوكَّلوا إلا على الله ، ولم يلتجئوا إلا إلى الله ، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده ، ولم يذبحوا إلا لله ، ولم ينذروا إلا لله ، ولم يستغيثوا إلا بالله ، ولم يستعينوا ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ إلا بالله وحده ، ولم يركعوا ، أو يسجدوا ، أو يَحُجُّوا ، أو يطوفوا ، أو يتعبَّدوا إلا لله وحده ، ولم يُشَبِّهُوا الله لا بالمخلوقات ، ولا بالمعدومات؛ بل نزَّهوه غاية التَّنزيه ، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله (ص) ، من غير تحريفٍ ، أو تعطيلٍ ، أو تأويلٍ ، ولم يخافوا خوف السِّرِّ إلا من الله وحده ، ولم يصرفوا الطَّاعة المطلقة إلا لله وحده ، ولم يشركوا أحداً من خلقه في خاصِّيَّةٍ من خصائص ربوبيَّته؛ كالإحياء ، والإماتة ، والرِّزق ، والعلم المحيط ، والقدرة الباهرة ، والقيُّوميَّة ، والبقاء المطلق ، والتَّحليل ، والتَّحريم ، ونحو ذلك؛ جعلنا الله ممَّن يحقِّق التَّوحيد قولاً ، وعملاً ، واعتقاداً ، إنَّه وليُّ ذلك ، والقادر عليه[(٤٠٢)].

وقد جاء القران المكّيُّ موضّحاً عقيدة التَّوحيد ، ومثبّتاً لرسالة محمَّدٍ (ص) إلى الإنس ، والجنّ كافةً. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [سبأ: ٢٨] ، وقال تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [الأعراف: ١٥٨] ، وقال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ *قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ *يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *} [الأحقاف: ٢٩ . ٣١] وغير هذه الايات في القران الكريم كثيرٌ ، والّتي تثبت رسالة محمَّدٍ (ص) للإنس والجنّ كافَّةً[(٤٠٣)].

وكما رسَّخ القران المكّيُّ في قلوب الصَّحابة رضي الله عنهم العقيدة الصَّحيحة حول التَّوحيد بأنواعه ، وحول الرَّسول (ص) والرِّسالة ؛ صحَّح عقيدتهم حول الملائكة، وأنَّهم خلقٌ من خلقه ، يسجدون له ، ولا يستكبرون عن عبادته ، وليس لهم شركٌ في السَّماء ولا في الأرض ، وأنَّهم لا يضرُّون ولا ينفعون أحداً إلا بأمره سبحانه: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ *} [الرعد: ١٣] ، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَآبَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *} [النحل: ٤٩] ، {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [فاطر: ١] ، {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ *} [سبأ: ٢٢] ، {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ *} [الأعراف: ٢٠٦] .

وكذلك سائر أركان الإيمان الأخرى ، غرسها القران المكّيُّ في قلوب المؤمنين بأسلوب القران المعجز ، ووضَّحها للنَّاس كافَّةً؛ فبيَّن كيفيَّة إنزال القران على الرَّسول (ص) : {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً *} [الإسراء: ١٠٦] ، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *} [الزمر: ٢٣] ، {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا

وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ *} [الأنعام: ٩١] .

وبيَّن سبحانه: أنَّ له كتباً غير القران الكريم: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *}[الإسراء: ٥٥] ، {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ *}[آل عمران: ٣] ، وبيَّن سبحانه: أنَّه بعث كثيراً من الأنبياء: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ *}[الزخرف: ٦] ، فبعضهم ذكرهم القران ، وبعضهم لم يذكرهم: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *}[غافر: ٧٨] .

رابعاً: وصف الجنَّة في القران الكريم ، وأثره على الصَّحابة:

ركَّز القران المكِّيُّ على اليوم الاخر غاية التَّركيز ، فقلَّ أن توجد سورةٌ مكِّيَّةٌ لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة ، وأحوال المنعَّمين ، وأحوال المعذَّبين ، وكيفية حشر النَّاس ومحاسبتهم ، حتَّى لكأنَّ الإنسان يرى يوم القيامة رأيَ العين: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ *وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ *قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ *وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ *وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الزمر: ٦٧ ـ ٧٥] .

وقد جاءت الايات الكريمة مبيِّنةً ، واصفةً للجنَّة ، فأثَّر ذلك في نفوس الصَّحابة أيَّما تأثير؛ فممَّا جاء في وصف الجنَّة: أنَّها لا مثيل لها ، وأنَّ لها أبواباً ، وفيها درجاتٌ ، وتجري من تحتها الأنهار ، وفيها عيونٌ ، وقصورٌ ، وخيامٌ ، وفيها أشجارٌ متنوعةٌ ، كسدرة المنتهى ، وشجرة طوبى ، وتحدَّث القران

الكريم عن نعيم أهلها، وطعامهم، وشرابهم، وخمرهم، وانيتهم، ولباسهم ، وحليّهم ، وفرشهم، وخدمهم ، وأحاديثهم، ونسائهم، وعن أفضل ما يُعْطاه أهلها ، وعن اخر دعواهم؛ بحيث أصبح الوصف القرانيُّ للجنَّة مهيمناً على جوارح ، وأحاسيس ، وأذهان ، وقلوب المسلمين ، ونذكر بعض ما جاء من وصفها من خلال القران الكريم:

١ ـ الجنَّة لا مثيل لها:

إنَّ نعيم الجنَّة شيءٌ أعدَّه الله لعباده المتَّقين ، نابعٌ من كرم الله ، وجوده ، وفضله ، ووصف لنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ شيئاً من نعيمها ، إلا أنَّ ما أخفاه الله عنَّا من نعيمٍ شيءٌ عظيم ، لا تدركه العقول ، ولا تصل إلى كُنْهِهِ الأفكار ، قال تعالى: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٧] .

وقد بيَّن سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء ، وهو ما وفَّقهم إليه من أعمالٍ عظيمةٍ؛ من قيام ليلٍ ، وإنفاقٍ في سبيله. قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٦ ـ ١٧] .

٢ ـ درجات الجنَّة:

إنَّ أهل الجنَّة متفاوتون فيما بينهم على قدر أعمالهم ، وتوفيق الله لهم ، وكذلك درجاتهم في الاخرة ، بعضها فوق بعض. قال تعالى: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى *} [طه: ٧٥].

وأولياء الله المؤمنون في تلك الدَّرجات بحسب إيمانهم ، وتقواهم ، قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً *} [الإسراء: ٢١] ، وقال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ *} [الطور: ٢١] ، {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ *} [الزمر: ٢٠].

٣ ـ أنهار الجنَّة:

ذكر القران الكريم في اياتٍ عديدةٍ أنهار الجنَّة. قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ١٥] .

٤ ـ عيون الجنَّة:

في الجنَّة عيونٌ كثيرةٌ ، مختلفة الطُّعوم ، والمشارب. قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *} [الحجر: ٤٥] ، وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ *} [المرسلات: ٤١] ، وقال في وصف الجنَّتين اللَّتين أعدَّهما لمن خاف ربه: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ *} [الرحمن: ٥٠] ، {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ *} [الرحمن: ٦٦] .

وفي الجنَّة عينان يشرب المقرَّبون ماءهما صِرْفاً غير مخلوطٍ ، ويشرب منهما الأبرار الشَّراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره:

العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا *} [الإنسان: ٥ ـ ٦]. فقد أخبر: أنَّ الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التَّسنيم. قال تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ *يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ *وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ *} [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨].

ومن عيون الجنَّة عينٌ تسمَّى السَّلسبيل. قال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً *}[الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

٥ ـ وصف بعض شجر الجنَّة:

أ ـ سدرة المنتهى:

وهذه الشَّجرة ذكرها المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز ، وأخبر ـ سبحانه ـ: أنَّ رسولنا (ص) رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأنَّ هذه الشجرة عندها جنَّة

المأوى ، وهذه السِّدرة يغشاها ما لا يعلمه إلا الله. قال تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى *}[النجم: ١٣ ـ ١٧].

ب ـ شجرة طوبى:

وهذه الشَّجرة عظيمةٌ كبيرةٌ ، تصنع منها ثياب أهل الجنَّة ، فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «طوبى شجرةٌ في الجنَّة مسيرة مئة عامٍ ، ثياب أهل الجنَّة تخرج من أكمامها» [أحمد (٧١/٣) وأبو يعلى (١٣٧٤) ومجمع الزوائد (٦٧/١٠)] .

الشَّجرة الَّتي يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة عام ، هذه الشَّجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الَّذي خلقها ، وقد بيَّن الرسول (ص) عِظَمَ هذه الشَّجرة ، بأنْ أخبر: أنَّ الرَّاكب لفرس من الخيل الَّتي تعدُّ للسِّباق ، يحتاج إلى مئة عامٍ حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه ، ففي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة سنةٍ ، واقرؤوا إن شئتم {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *} ٣٠]» [البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦)] .

وهذا يدلُّ على خَلْقٍ بديعٍ ، وقدرةِ الصَّانع ، سبحانه وتعالى.

٦ ـ طعام أهل الجنَّة وشرابهم:

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ في الجنَّة ما تشتهيه الأنفس من الماكل ، والمشارب فقال: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ *} [الواقعة: ٢٠] ، وقال: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *} [الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها ، وألوان طعامها ، وشرابها ما يشتهون ، فقال: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *} [الحاقة: ٢٤] .

٧ ـ خمر أهل الجنَّة:

من الشَّراب الَّذي يتفضَّل اللهُ به على أهل الجنَّة الخمر ، وخمر الجنَّة خالٍ من العيوب ، والافات الَّتي تتَّصف بها خمر الدُّنيا ، فخمر الدُّنيا تذهب العقول ، وتُصدِّع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الأسقام ، وقد تكون معيبةً في صنعها ، أو لونها ، أو غير ذلك ، أمَّا خمر الجنَّة؛ فإنَّها خاليةٌ من ذلك كلِّه ، وجميلةٌ ، صافيةٌ ، رائعةٌ[(٤٠٤)]. قال الله تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ *لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ *} الصافات: ٤٥ ـ ٤٧]. فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ، ثمَّ بين: أنَّها يلتذُّ بها شاربُها ، لا يملُّ من شربها. وقال في موضع اخر يصف خمر الجنَّة: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ *} [الواقعة: ١٧ ـ ١٩] .

وقال تعالى في موضع اخر: {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ *} [المطففين: ٢٥ ـ ٢٦] ، والرَّحيق هو الخمر ، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأوَّل: أنه مختومٌ؛ أي: موضوعٌ عليه خاتم الأمر. الثاني: أنَّهم إذا شربوه؛ وجدوا في ختام شرابهم له رائحة المسك[(٤٠٥)].

٨ ـ طعام أهل الجنَّة وشرابهم لا دنس معه:

الجنَّة دارٌ خالصةٌ من الأذى ، وأهلها مطهَّرون من أوساخ أهل الدُّنيا. قال رسول الله (ص) : «أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة من أمَّتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثمَّ الذين يلونهم على أشدِّ نجم في السَّماء إضاءةً، ثمَّ هم بعد ذلك منازلُ، لا يتغوَّطُون، ولا يبولون ، ولا يَمْتَخِطُونَ ، ولا يَبْزُقُون» [البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)].

فالَّذي يتفاوت فيه أهل الجنَّة ممَّا نُصَّ عليه في الحديث قوَّة نور كلٍّ منهم ، أمَّا خلوصهم من الأذى؛ فإنَّهم يشتركون فيه جميعاً ، فهم لا يتغوَّطون ، ولا يبولون ، ولا يتفلون ، ولا يَبْزُقُون ، ولا يَمْتَخِطُونَ ، وفضلات الطَّعام والشَّراب تتحوَّل إلى رشح كرشح المسك ، يفيض من أجسادهم ، كما يتحوَّل بعضٌ منه إلى جشاءٍ ، ولكنَّه جشاء تنبعث منه روائح طيّبةٌ عبقةٌ عطرةٌ.

قال رسول الله (ص) : «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها ، ويشربون ، لا يَتْفُلُون ، ولا يَبُولُون ، ولا يَتَغَوَّطُون ، ولا يَمْتَخِطُونَ». قالوا: فما بالُ الطَّعام؟ قال: «جُشَاءٌ ، ورَشْحٌ كَرَشْحِ المسك» [مسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١)] .

٩ ـ لباس أهل الجنَّة ، وحليُّهم ، ومباخرهم:

أهل الجنَّة يلبسون فيها الفاخر من اللِّباس ، ويتزيَّنون فيها بأنواع الحليّ من الذَّهب ، والفضَّة ، واللؤلؤ؛ فمن لباسهم الحرير ، ومن حليّهم أساور الذَّهب ، والفضَّة ، واللؤلؤ. قال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *} [فاطر: ٣٣] ، {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *} [الإنسان: ٢١] . وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثِّياب الَّتي يلبسون الخضر من السُّندس والإستبرق: {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *} [الكهف: ٣١]. وقد أخبر الرَّسول (ص) : أنَّ لأهل الجنَّة أمشاطاً من الذَّهب ، والفضَّة ، وأنَّهم يتبخَّرون بعود الطِّيب ، مع أنَّ رائحة المسك

تفوح من أبدانهم الزَّكيَّة. قال رسول الله (ص) : «انيتُهم الذَّهبُ ، والفضَّةُ ، وأمشاطُهم الذَّهب ، وَوَقُودُ مَجامِرِهم الأَلُوَّةُ ـ عود الطِّيب ـ ورَشْحُهم الْمِسْك» [البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (١٧/٢٨٣٤)] .

وثياب أهل الجنَّة ، وحليُّهم لا تبلى ، ولا تفنى. قال رسول الله (ص) : «من يدخلُ الجنة ينعمُ لا يَبْأَسُ ، لا تَبْلَى ثيابُه ، ولا يفنى شبابُه» [مسلم (٢٨٣٦) وأحمد (٣٦٩/٢ ـ ٣٧٠ و٤٠٧ و٤١٦ و٤٦٢) والدارمي (٢٨٦١) وأبو نعيم في صفة الجنة (٩٧)] .

١٠ ـ اجتماع أهل الجنَّة ، وأحاديثهم:

أهل الجنَّة يزور بعضهم بعضاً ، ويجتمعون في مجالس طيبة ، يتحدَّثون ويذكرون ما كان منهم في الدُّنيا ، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان. قال الله تعالى في وصف اجتماع أهل الجنَّة: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *} [الحجر: ٤٧].

وحدَّثنا القران عن أصناف الأحاديث الَّتي يتكلَّمون بها في اجتماعهم: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ *فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ *إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ *}[الطور: ٢٥ ـ ٢٨]. ومن ذلك تذكُّرهم أهل الشرِّ الَّذين كانوا يشكِّكون أهل الإيمان ، ويدعونهم إلى الكفران: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ *يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ *أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ *قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ *فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ *قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ *وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ *أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ *إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ *}[الصافات: ٥٠ ـ ٦١].

١١ ـ نساء أهل الجنَّة:

زوجة المؤمن في الدُّنيا هي زوجته في الاخرة إذا كانت مؤمنةً. قال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *} [الرعد: ٢٣] ، وهم في الجنَّات منعَّمون مع الأزواج ، يتّكِئون في ظلال الجنَّة مسرورين فرحين: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ *} [يس: ٥٦] ، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *} [الزخرف: ٧٠] .

١٢ ـ الحور العين:

قال تعالى: {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *} [الدخان: ٥٤] ، والحور: جمع حوراء، وهي الَّتي يكون بياض عينها شديد البياض ، وسواده شديد السَّواد ، والعين: جمع عيناء ، والعيناء هي واسعة العين ،

وقد وصف الله في القران الحور العين بأنهنَّ كواعب أتراب ، قال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا *وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا *} [النبأ: ٣١ ـ ٣٣]. والكاعب: المرأة الجميلة الَّتي برز ثديها ، والأتراب: المتقاربات في السنّ ، والحور العين من خلق الله في الجنَّة ، أنشأهنَّ الله إنشاءً فجعلهن أبكاراً ، عرباً أتراباً: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا *عُرُبًا أَتْرَابًا *} [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]. وكونهنَّ أبكاراً يقضي أنَّه لم ينكحهنَّ قبلهم أحدٌ ، كما قال تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ *} [الرحمن: ٥٦] ، وقد تحدَّث القران الكريم عن جمال نساء أهل الجنة ، فقال: {وَحُورٌ عِينٌ *كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ *} [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣] والمراد بالمكنون: الخفيُّ المصون، الَّذي لم يغيّر صفاء لونه ضوءُ الشَّمس، ولا عبثُ الأيدي ، وشبَّههنَّ في موضع اخر بالياقوت والمرجان: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ *} [الرحمن: ٥٦ ـ ٥٨] . والياقوت والمرجان: حجران كريمان فيهما جمالٌ ، ولهما منظرٌ حسنٌ بديعٌ ، وقد وصف الحور بأنهنَّ قاصرات الطَّرف ، وهنَّ اللَّواتي قصَرْنَ بصرهنَّ على أزواجهنَّ ، فلم تطمح أنظارهنَّ لغير أزواجهنَّ ، وقد شهد الله لحور الجنَّة بالحسن ، والجمال ، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *} [الرحمن: ٧٠ ـ ٧١]. ونساء الجنَّة لَسْنَ كنساء الدُّنيا ، فإنهنَّ مطهراتٌ من الحيض والنِّفاس ، والبصاق ، والمخاط ، والبول ، والغائط[(٤٠٦)].

وقد تحدَّث الرَّسول (ص) عن جمال رجال ، ونساء أهل الجنَّة ، فقال: «أوَّل زمرةٍ تلج الجنَّة صورتُهم على صورة القمر ليلةَ البدر ، لا يَبْصُقُون فيها ، ولا يمْتَخِطُونَ ، ولا يتغوَّطُون ، وانيتُهم فيها الذَّهبُ ، أمشاطُهم من الذَّهب والفضة ، ومجَامِرُهم الألُوَّةُ ، ورَشْحُهم المسكُ ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ ، يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللَّحم من الحُسْن» [البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (١٧/٢٨٣٤)] .

وانظر إلى هذا الجمال الَّذي حدَّث به رسول الله (ص) أصحابَه ، هل تجد له نظيراً ممَّا تعرف؟! «ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنَّة اطَّلعت إلى أهل الأرض؛ لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ، ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» [البخاري (٢٧٩٦) وأحمد (١٤١/٣) والترمذي (١٦٥١) وابن حبان (٧٣٩٩)].

١٣ ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله (ص) : «إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ، يقول اللهُ تبارك تعالى: تريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهنَا؟! ألم تُدْخِلْنا الجنة ، وتُنَجِّنَا من النار؟! قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربهم تبارك وتعالى» ، وجاء في روايةٍ أخرى: ثمَّ تلا هذه الاية: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *}[يونس: ٢٦] [أحمد (٣٣٢/٤ ـ ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)]

.

وأمَّا عن رضوان الله الَّذي يعطى لأهل الجنَّة؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا ، وسَعْدَيْكَ ، والخير كلُّه في يَدَيْكَ! فيقول: هل رَضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩)] .

١٤ ـ اخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين:

يمرُّ المؤمنون في الموقف العظيم بأهوالٍ عظام ، ثمَّ يمرُّون على الصِّراط ، فيشاهدون هولاً ، ورعباً ، ثمَّ يدخلهم الله جنَّات النَّعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن ، فيرون ما أعدَّ الله لهم فيها من خيراتٍ عظام ، فترتفع ألسنتهم تسبِّح ربَّهم وتقدِّسه؛ فقد أذهب عنهم الحزن ، وصدَقَهم وعده ، وأورثهم الجنَّة: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ *} [فاطر: ٣٣ ـ ٣٤].

واخر دعواهم في جنَّات النَّعيم الحمد لله رب العالمين: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [يونس: ١٠].

إنَّ النَّبيَّ (ص) كان يربِّي أصحابه على السَّعي لمرضاة الله تعالى حتى يدخلهم جنَّاته العظيمة ، فكان يصف لهم الجنَّات من خلال المنهج القرانيّ ، حتَّى لكأنَّ الصَّحابي يرى الجنَّة معروضةً أمامه في تلك اللحظة ، وينفعل بها كأنَّه يراها في عالم العيان بالفعل ، وليست أمراً يتصوَّر حدوثه في المستقبل ، وهذا من الإعجاز البياني في التعبير القراني إلى حدٍّ تصبح الاخرة ـ التي لم تأت بعد ـ كأنَّها الحاضر الَّذي يعيشه الإنسان ، ويصبح الحاضر الَّذي يعيشه بالفعل كأنَّه ماضٍ سحيقٌ تفصله عن الإنسان امادٌ ، وأبعاد[(٤٠٧)].

إنَّ التَّصوُّر البديع للجنان ، والاعتقاد الجازم بها ، مهمٌّ في نهضة أمَّتنا ، فعندما تُحْيَا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمَّة ، فإنَّهم سيندفعون لمرضاة الله تعالى ، ويُقدِّمون الغالي ، والنَّفيس ، ويتخلَّصون من الوَهَن ، وكراهة الموت ، وتتفجَّر في نفوسهم طاقاتٌ هائلةٌ تمدُّهم بعزيمةٍ ، وإصرارٍ ، ومثابرةٍ على إعزاز دين الله ، وقد لاحظت في المعارك الفاصلة ، والانتصارات العظيمة؛ التي حقَّقتها الأمَّة في تاريخها المجيد من أسبابها الواضحة حبُّ القادة ، والجنود المقاتلين للشَّهادة في سبيل الله ، والشَّوق لجنانه ، وتعبُّدهم لله بفريضة الجهاد ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ ، كمعركة الزلاَّقة الَّتي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين

على النَّصارى في الأندلس ، وكمعركة حطِّين بقيادة صلاح الدِّين ، وعين جالوت بقيادة قطز ، وكفتح القسطنطينية بقيادة محمَّد الفاتح.

خامساً: وصف النَّار في القران الكريم ، وأثره في نفوس الصَّحابة:

كان الصَّحابة يخافون الله تعالى ، ويخشونه ، ويرجونه ، وكان لتربية الرَّسول (ص) أثرٌ في نفوسهم عظيم ، وكان المنهج القرانيُّ الَّذي سار عليه رسول الله (ص) يفعل الأفاعيل في نفوس الصَّحابة؛ لأنَّ القران الكريم وصف أهوال يوم القيامة ، ومعالمها من قبض الأرض ودكِّها ، وطيِّ السَّماء ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، وتسجيرها ، ومَوْرِ السماء ، وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وخسوف القمر ، وتناثر النُّجوم ، وصوَّر القران الكريم حال الكفَّار ، وذلَّتهم ، وهوانهم ، وحسرتهم ، ويأسهم ، وإحباط أعمالهم ، وتخاصم العابدين والمعبودين ، وتخاصم الأتباع وقادة الضَّلالة ، وتخاصم الضعفاء والسَّادة ، وتخاصم الكافر وقرينه الشَّيطان ، ومخاصمة الكافر أعضاءه ، وتخاصم الرُّوح والجسد ، وتحدَّث القران الكريم عن الشَّفاعة ، وبيَّن شروطها ، والمقبول منها ، والمرفوض ، والمراد بالحساب والجزاء ، وعن مشهد الحساب ، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟

وتحدَّث القران الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق ، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة ، وبين المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في القران الكريم عظم شأن الدِّماء ، وبين: أنَّ هناك يوم القيامة توضع الموازين الَّتي توزن بها الأعمال ، وأخبر النَّبيُّ (ص) عن الحوض ، ومَنِ الَّذين يردون على الحوض ، والَّذين يُذادون عنه ، وتحدَّث القران الكريم عن حشر الكفَّار إلى النَّار ، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصِّراط ، وخلاص المؤمنين وحدهم[(٤٠٨)].

وقد كان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصَّحابة ، وصوَّر القران الكريم ألوان العذاب في النَّار ، فأصبح الرَّعيل الأوَّل يراها رأيَ العين ، ومن حديث القرانءْ عن النَّار بيانه لكلٍّ من:

١ . طعام أهل النَّار وشرابهم ولباسهم:

أ . بيَّن القران الكريم: أنَّ من طعام أهل النَّار الضَّريع ، والزقُّوم ، وأنَّ شرابهم الحميم ، والغسلين ، والغسَّاق ، قال تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ *لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ *} [الغاشية: ٦ . ٧] ، وأكلهم لهذا الطَّعام هو نوعٌ من أنواع العذاب؛ فهم لا يتلذَّذون به ، ولا تنتفع به أجسادهم.

أمَّا الزَّقُّوم؛ فقال تعالى فيه: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ *طَعَامُ الأَثِيمِ *كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ *كَغَلْيِ الْحَمِيمِ *} [الدخان: ٤٣ . ٤٦] وقد وصف الله شجرة الزَّقوم في موضعٍ اخر ، فقال: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ *إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ *إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ *طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ *} [الصافات: ٦٢ . ٦٥] وقال: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء: ٦٠].

وقال في موضعٍ اخر: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ *لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ *فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ *فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ *} [الواقعة: ٥١ . ٥٥] ، ويؤخذ من هذه الايات: أنَّ هذه الشَّجرة شجرةٌ خبيثةٌ ، جذورها تضرب في قعر النَّار ، وفروعها تمتدُّ في أرجائها ، وثمر هذه الشَّجرة قبيح المنظر: لذلك شبِّه برؤوس الشَّياطين ، وقد استقرَّ في النُّفوس قبح رؤوسهم . وإن كانوا لا يرونهم . ومع خبث هذه الشَّجرة ، وخبث طلعها إلا أنَّ أهل النَّار يُلقَى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرّاً من الأكل منها ، إلى درجة ملء البطون ، فإذا امتلأت بطونهم؛ أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي عكر الزَّيت ، فيجدون لذلك الاماً مبرحةً ، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ؛ اندفعوا إلى الحميم . وهو الماء الحارُّ الَّذي تناهى حرُّه . فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب ، وتشرب ، ولا تروى لمرضٍ أصابها ، وعند ذلك يقطِّع الحميمُ أمعاءهم: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ *} [محمد: ١٥] هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم[(٤٠٩)].

وإذا أكل أهل النَّار هذا الطَّعام الخبيث من الضَّريع، والزَّقُّوم؛ غَصُّوا به؛ لقبحه ، وخبثه، وفساده: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *} [المزمل: ١٢ . ١٣].

ومن طعام أهل النَّار الغسلينُ ، قال الله تعالى: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ *وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لاَ يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ*} [الحاقة: ٣٥ . ٣٧] ، وقال الله تعالى: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ *} [ص: ٥٧] ، والغسلين ، والغسَّاق بمعنىً واحدٍ ، وهو ما سال من جلود أهل النَّار من القيح والصَّديد

، وقيل: هو ما يسيل من فروج النِّساء الزَّواني ، ومن نتن لحوم الكفرة ، وجلودهم وقال القرطبيُّ: «هو عصارة أهل النَّار»[(٤١٠)].

ب ـ أمَّا شرابهم فهو الحميم ، والغسَّاق ، والمهل ، والصديد. قال الله تعالى: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ *} ،محمد: ١٥].

وقال تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *} [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ *يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ *} [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧]

وقال: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ *} [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الايات أربعة أنواع من شراب أهل النَّار ، هي: الحميم ، وهو الماء الحار؛ الَّذي تناهى حرُّه؛ والغسَّاق ، وقد مضى الحديث عنه ، فإنَّه يذكر في مأكول أهل النَّار ومشروبهم؛ والصَّديد ، وهو ما يسيل من لحم الكافر ، وجلده؛ والمهل ، وهو كعكر الزَّيت ، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه[(٤١١)].

ج ـ لباس أهل النَّار:

قال تعالى: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ *سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ *} [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠] ، والقطران هو النُّحاس المذاب.

٢ ـ صور من عذاب أهل النَّار:

أ ـ تفاوت عذاب أهل النَّار:

قال تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *} [غافر: ٤٦] .

وقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ *} [النحل: ٨٨] .

وقد حدَّث النَّبيُّ (ص) عن أخفِّ الناس عذاباً ، فقال فيه: «إن أهون أهل النَّار عذاباً يوم القيامة ، لَرجلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرةٌ يغلي منها دِماغُه» [البخاري (٦٥٦١ و٦٥٦٢) ومسلم (٢١٣)].

ب ـ حشرهم على وجوههم ، ولفح النَّار لهم:

ومن إهانة الله لأهل النَّار: أنَّهم يُحشرون في يوم القيامة على وجوههم ، عُمْياً ، وصُمّاً وبُكماً ، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا *}[الإسراء: ٩٧].

ويلقون في النَّار على وجوههم: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [النمل: ٩٠].

ثمَّ إنَّ النَّار تلفح وجوههم ، وتغشاها أبداً ، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها ، {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ *}[المؤمنون: ١٠٤] .

ج ـ السَّحْب:

ومن أنواع العذاب الأليم ، سحب الكفار في النَّار على وجوههم ، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ *يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ *} [القمر: ٤٧ ـ ٤٨] ، ويزيد في الامهم ـ حال سحبهم في النَّار ـ أنَّهم مقيَّدون بالقيود ، والأغلال ، والسَّلاسل: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ *فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ *} [غافر: ٧٠ ـ ٧٢].

د ـ تسويد الوجوه:

يسوِّد الله في الدَّار الاخرة وجوهَ أهل النار بسوادٍ شديدٍ ، كأنَّما حلَّت ظلمة الليل في وجوههم ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *}[يونس: ٢٧] .

هـ إحاطة النَّار بالكفَّار:

لما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السِّوار بالْمِعْصَم ، وكان الجزاء من جنس العمل ، فإنَّ النار تحيط بالكفار من كلِّ جهةٍ ، كما قال تعالى: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ *} [الأعراف: ٤١] ، والمهاد: ما يكون من تحتهم ، والغواش: جمع غاشية ، وهي الَّتي تغشاهم من فوقهم ، والمراد: أنَّ النِّيران تحيط بهم من فوقهم ، ومن تحتهم ، قال تعالى: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *}[العنكبوت: ٥٥] .

وقال في موضعٍ اخر: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ *} [الزمر: ١٦] .

وقد صرَّح بالإحاطة في موضعٍ اخر ، وذلك أنَّ للنَّار سُوراً يحيط بالكفَّار ، فلا يستطيع الكفار مغادرتها ، أو الخروج منها ، قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *}[الكهف: ٢٩] ، وسرادق النَّار: سورها ، وحائطها الَّذي يحيط بها[(٤١٢)].

و ـ اطِّلاع النَّار على الأفئدة:

قال الله تعالى: {كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ *} [الهمزة: ٤ ـ ٧].

ز ـ قيود أهل النَّار ، وأغلالهم ، وسلاسلهم:

أعدَّ الله لأهل النَّار سلاسلَ وقيوداً ومطارقَ: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا *} [الإنسان: ٤] ، {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *} [المزمل: ١٢ ـ ١٣] ، وهذه الأغلال تُوضَع في الأعناق: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [سبأ: ٣٣] ، {إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ *} [غافر: ٧١] ، والأنكال: هي القيود ، وقد سمِّيت أنكالاً؛ لأنَّه يعذبهم ، ويُنكِّل بهم بها {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *} [المزمل: ١٢] ، والسَّلاسل نوعٌ اخر من ألوان العذاب الَّتي يُقيَّد بها المجرمون ، كما يُقيَّد المجرمون في الدُّنيا.

وانظر إلى هذه الصُّورة الَّتي أخبر بها الكتاب الكريم: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *}[الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢] .

ح ـ قَرْنُ معبوداتهم وشياطينهم في النَّار:

قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ *لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ *} [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ *وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ *} [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩] .

خ ـ حسرتهم ، وندمهم ، ودعاؤهم:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *} [يونس: ٥٤] .

وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله ، فيرى كفره ، وشركه الَّذي يؤهِّله للخلود في النَّار؛ فإنَّه يدعو على نفسه بالثُّبُور ، والهلاك: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا *وَيَصْلَى سَعِيرًا *} [الإنشقاق: ١٠ ـ ١٢] ، ويتكرَّر دعاؤهم بالويل ، والهلاك عندما يُلقَوْن في النار ، ويَصْلَوْنَ حرَّها: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا *} [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

وهناك يعلو صراخهم ، ويشتدُّ عويلهم ، ويدعون ربَّهم املين أن يخرجهم من النَّار: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ *}[فاطر: ٣٧] .

وسيعترفون في ذلك الوقت بضلالهم ، وكفرهم ، وقلَّة عقولهم: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [الملك: ١٠] ، ولكن طلبهم يرفض بشدَّة ، ويجابون بما يستحقُّ أن تجاب به الأنعام: {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ *رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ *قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ *} [المؤمنون: ١٠٦ـ ١٠٨].

لقد حقَّ عليهم القول ، وصاروا إلى المصير الَّذي لا ينفع معه دعاءٌ ، ولا يُقبل فيه رجاءٌ: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ *وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٢ ـ ١٤].

ويتوجَّه أهل النَّار بعد ذلك النِّداء إلى خزنة النَّار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم؛ كي يخفف الله عنهم شيئاً ممَّا يعانونه: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ *قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *} [غافر: ٤٩ ـ ٥٠] .

وعند ذلك ينادون مالكاً ، طالبين منه أن يقبض الله أرواحهم ، فيريحهم من العذاب: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ *لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ *} [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨] .

لقد خسر هؤلاء الظَّالمون أنفسهم ، وأهليهم عندما استحبُّوا الكفر على الإيمان. قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *}[الزمر: ١٥] .
كان القران المكيُّ يربِّي المسلم على الخوف من عقاب الله ، ويبيِّن للصَّحابة: أنَّ العذاب في الاخرة حسِّيٌّ ومعنويٌّ ، وفي خطاب القران ، وتوضيح النَّبيِّ (ص) للصَّحابة حقيقةَ النَّار ما يجعل الصَّحابيَّ يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه ، فكان الصَّحابي يستحضر في مخيِّلته صورة الجنان ، والنِّيران ، ويستعدُّ للموت الَّذي هو اتٍ لا محالة ، وأنَّه سوف يُسأل في وَحْدَته لا محالة ، وأنَّ القبر إمَّا روضةٌ من رياض الجنَّة ، أو حفرةٌ من حفر النِّيران ، فالصَّحابي حين يستحضر في نفسه كلَّ هذا؛ فإنَّ قلبه يستشعر خوف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومراقبته في السِّرِّ والعلن بل
يندفع بكلِّيته إلى العمل الصَّالح من دعوةٍ وجهادٍ ، والسَّعي لإقامة دولةٍ تحكم بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصناعة حضارةٍ تنقذ البشرية من ضياعها ، وانحرافها عن شرع الله تعالى ، ويدعو الله في خلواته، وفي سرِّه، وجهره أن يكرمه الله برفقة النَّبيين والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين ، وحسن أولئك رفيقاً.
إنَّ هذا التَّصوُّر والفهم العميق لحقيقة الاخرة وحقيقة الجنَّة والنَّار ، له أثره على العاملين لنهضة الأمَّة ، واستعادة مجدها ، وعزَّتها ، وكرامتها ، وهو أصلٌ عظيمٌ في بناء التَّصوُّر العقديِّ لأفراد الأمَّة ، سار على نهجه الحبيب المصطفى (ص) ؛ ولذلك لابدَّ لنا من السَّير على الطَّريق نفسه.
سادساً: مفهوم القضاء والقدر ، وأثره في تربية الصَّحابة رضي الله عنهم:
اهتمَّ القران الكريم في الفترة المكِّيَّة بقضية القضاء والقدر ، قال الله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *} [القمر: ٤٩] ، وقال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا *} [الفرقان: ٢] ، وكان (ص) يغرس في نفوس الصَّحابة مفهوم القضاء والقدر ، ويُبَيِّن لهم مراتبه من خلال القران الكريم ، وهي:
المرتبة الأولى: علم الله المحيط بكلِّ شيءٍ: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *} [يونس: ٦١] .
المرتبة الثَّانية: كتابة كلِّ شيءٍ كائن: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ *}[يس: ١٢] .

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النَّافذة ، وقدرته التَّامَّة: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا *} [فاطر: ٤٤] .

المرتبة الرابعة: خَلْقُ الله لكلِّ شيءٍ: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *} [الأنعام: ١٠٢] .

كان للفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلوب الصَّحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمارٌ نافعةٌ ومفيدةٌ ، عادت عليهم بخيرات الدُّنيا والاخرة؛ فمن تلك الثمرات:

١ ـ أداء عبادة الله عزَّ وجلَّ؛ فالقدر ممَّا تَعَبَّدَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمَّة بالإيمان به.

٢ ـ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشِّرْك؛ لأنَّ المؤمن يعتقد: أنَّ النَّافع والضَّار ، والمعزَّ ، والمذلَّ ، والرافع ، والخافض ، هو الله وحده سبحانه وتعالى.

٣ ـ الشَّجاعة والإقدام: فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون: أنَّ الاجال بيد الله تعالى ، وأنَّ لكل نفسٍ كتاباً.

٤ ـ الصَّبر والاحتساب ، ومواجهة الصِّعاب.

٥ ـ سكون القلب ، وطُمَأْنِينَةُ النَّفس ، وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهي هدفٌ منشودٌ ، فكلُّ مَنْ على وجه البسيطة يبتغيها ، ويبحث عنها ، فقد كان عن الصَّحابة من سكون القلب ، وطُمأْنِينَة النَّفس ما لا يخطر على بالٍ ، ولا يدور حول ما يشبهه خيالٌ ، فلهم في ذلك الشَّأن القِدْحُ المعَلَّى (النَّصيب الوافر) والنَّصيب الأوفى.

٦ ـ عزَّة النَّفس والقناعة والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين: فالمؤمن بالقدر يعلم: أنَّ رزقه بيد الله ، ويدرك أنَّ الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأنَّه لن يموت حتَّى يستوفي رزقه ، وأنَّ العباد مهما حاولوا إيصال الرِّزق له ، أو منعه عنه؛ فلن يستطيعوا إلا بشيءٍ قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة ، وعزَّة النَّفس ، والإجمال في الطَّلب ، وترك التكالب على الدُّنيا ، والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين ، وقطع الطَّمع ممَّا في أيديهم ، والتوجُّه بالقلب إلى ربِّ العالمين.

إنَّ ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرةٌ ، وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرَّسول (ص) لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان السِّتَّة المتقدِّمة؛ بل صحَّح عندهم كثيراً من المفاهيم والتَّصوُّرات ، والاعتقادات عن الإنسان ، والحياة ، والكون ، والعلاقة بينهما؛ ليسير

المسلم على نورٍ من الله ، ويدرك هدف وجوده في الحياة ، ويحقِّق ما أراد الله منه غاية التَّحقيق ، ويتحرَّر من الوهم والخرافات[(٤١٣)].

سابعاً: معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان:

إنَّ القران الكريم عرَّف الإنسان بنفسه ، بعد أن عرَّفه بربِّه ، وباليوم الاخر ، وأجاب على تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كلِّ إنسان سَوِيٍّ ، وتلحُّ في طلب الجواب[(٤١٤)].

وبيَّن القران الكريم للصَّحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانيَّة ، وأصولهم الَّتي يرجعون إليها ، وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وما هو مصيرهم بعد الموت؟

تعرَّف الصَّحابة بواسطة النَّبيِّ (ص) ، ومنهجه القراني على الأصل الإنسانيِّ الَّذي هو الماء والتُّراب ـ أي: الطِّين ـ وبسلالته الَّتي هي الماء المهين ، أو النطفة ، كما عرَّفه بمكانته ،

وكرامته عند ربِّه؛ حيث أسجد له الملائكة ، وأعلى كرامتَه ، وتفضيلَه على كثيرٍ من الخلق؛ ليقف الإنسان وسطاً بين هذين الحدَّين: الأدنى ، والأعلى ، فبمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزاً ، وبأصله وسلالته يتواضع مُعَظِّمَاً شأنَ من أنشأه من ذلك الأصل ، وأوصله إلى تلك المكانة العالية ، فينجو بذلك من العُجْبِ والكبر ، والغرور ، كما يمنعه عزُّه وكرامته من التذلُّل لغير الله تعالى ، والإنسان لو تركه الإله دون هدىً؛ لعانى الكثير من سوء الفهم للنَّفس ، بل إنَّ عدداً من النَّاس قد يعانون ذلك لسببٍ ما؛ كالإفراط في الثِّقة بنظرتهم الخاصَّة إلى أنفسهم؛ الَّتي قد تؤدِّي إلى الغرور ، والتَّعالي ، وإمَّا إلى الهوان والتَّدنِّي[(٤١٥)].

إنَّ نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثِّرات في تربيته ، وما زال الإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه ، يميل إلى جانب الإفراط حيناً؛ فيرى أنَّه أكبر ، وأعظم كائنٍ في العالم ، فينادي بذلك وقد امتلأ أنانيةً ، وغطرسةً ، وكبرياء كما نادى قوم عاد: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ *} [فصلت: ١٥] وكما نادى فرعون: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى *} [النازعات: ٢٤] ، ويربأ بنفسه ـ أي: الإنسان ـ أن يعتقد أنَّه مسؤولٌ أمام أحدٍ ، ويتحوَّل إلى متألِّهٍ ، ويميل حيناً اخر إلى جانبٍ معاكسٍ هو التَّفريط؛ فيظن أنَّه أدنى ، أو أرذل كائنٍ في العالم ، فَيُطَأْطِىء رأسه أمام شجرٍ ،

أو حجرٍ ، أو نهرٍ ، أو جبلٍ ، أو أمام حيوان؛ بحيث لا يرى السَّلامة إلا أن يسجد للشَّمس أو للقمر[(٤١٦)].

وقد بيَّن القران الكريم بوضوحٍ: أنَّ «حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد ، وهو الخلقة الأولى من طينٍ ، حين سوَّاه ، ونفخ فيه الرُّوح ، والأصل القريب المستمرُّ ، وهو خلقه من نطفةٍ»[(٤١٧)] ، وقال الله تعالى في ذلك عن نفسه: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ *ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ *} [السجدة: ٧ ـ ٩] ، والايات في هذا المعنى كثيرةٌ.

وتحدَّث القران الكريم عن تكريم الله تعالى للإنسان ، وكان لذلك الحديث أثره في نفوس ، وعقول ، وقلوب الرَّعيل الأوَّل؛ فقد بَيَّن لهم القران الكريم صوراً عديدةً لتكريم الإنسان؛ منها:

١ ـ اختصَّ الله الإنسان بأن خلقه بيديه:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ *} [ص: ٧١ ـ ٧٥] فبيَّن لهم علوَّ مكانة الرُّوح الَّتي حلَّت في الإنسان ، وأنَّ لها منزلةً ساميةً ، وكرَّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الَّذي تسجد فيه الملائكة ، ويعلن فيه الخالق ـ جلَّ شأنه ـ تكريم هذا الإنسان بقوله عزَّ مِنْ قائلٍ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ *} [الأعراف: ١١].

٢ ـ الصُّورة الحسنة ، والقامة المعتدلة:

قال الله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [التغابن: ٣]. وقال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *} [التين: ٤]، وقال ـ عزَّ وجل ـ: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ *} [الإنفطار: ٧] .

٣ ـ ومنحه العقل، والنطق، والتمييز:

قال الله تعالى: {الرَّحْمَانُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ *} [الرحمن: ١ ـ ٤].

٤ ـ وسخَّر الله تعالى للإنسان مافي السَّماء والأرض:

بعد أن خلق الله تعالى الإنسان ، أكرمه بالنِّعم العظيمة التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ لقوله تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *} [إبراهيم: ٣٤].

لقد سخَّر الله ـ عزَّ وجل ـ للإنسان ـ تكريماً له ـ ملكوتَ السَّموات؛ بما تشتمل عليه من نجومٍ ، وشموسٍ ، وأقمار ، وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان؛ من تعاقب اللَّيل والنَّهار ، واختلافٍ في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك.

قال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *} [النحل: ١٢] وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [الجاثية: ١٣] .

٥ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بتفضيله على كثيرٍ من خلقه:

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء: ٧٠].

٦ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بإرسال الرُّسل إليه:

ومن أجلِّ مظاهر التكريم من المولى سبحانه للإنسان أن أرسل الرُّسل لهداية الخلق ، ودعاهم لما يحييهم ، وضمن لهم الفوز في الدُّنيا والاخرة ، فكان من أعظم النِّعم الَّتي أنعم الله بها على الإنسان تكريماً له نعمةُ الإسلامِ ، ونعمةُ الإيمان ، ونعمةُ الإحسان ، وأنْ هدانا الله إليها ، فقال عزَّ مِنْ قائل: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى *} [طه: ١٢٣] ، وقال: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [الأعراف: ١٥٨].

ومن مظاهر هذا التَّكريم الَّذي شعر به الصَّحابة رضي الله عنهم ، حصرُ مظاهر شرف الإنسان في العبوديَّةِ لله وحده ، وتحريره من عبادة الأصنام ، والأوثان ، والبشر: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *} [النحل: ٣٦].

٧ ـ حبُّ الله للإنسان ، وذكره في الملأ الأعلى:

من أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان أنْ جعله أهلاً لحبِّه ورضاه ، وأرشده في القران الكريم إلى ما يجعله خليقاً بهذا الحبِّ ، وأوَّل ذلك اتِّباع رسول الله (ص) ، فيما دعا النَّاس إليه؛ كي يحيوا حياةً طيِّبةً في الدُّنيا ، ويظفروا بالنَّعيم المقيم في الاخرة ، وقد أشار المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى ثمرة هذا الاتِّباع ، وما أحلاها من ثمرة! ألا وهي التَّمتُّع بخيري الدُّنيا والاخرة! قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [النحل: ٩٧] .

٨ ـ حفظ الإنسان ورعايته:

ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحفظه من السُّوء.

قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *} [الإنفطار: ١٠] ، وسخَّر له الملائكة لحفظه: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ *} [الطارق: ٤] ، وصورُ التَّكريم للإنسان كثيرةٌ في القران الكريم[(٤١٨)].

ثامناً: تصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لقصَّة الشَّيطان مع ادم عليه السلام:

كان رسول الله (ص) من خلال المنهج القرانيّ ، يحدثهم عن قصَّة الشَّيطان مع ادم ، ويشرح لهم حقيقة الصِّراع بين الإنسان مع عدوِّه اللَّدود ، الَّذي حاول إغواء أبيهم ادم عليه السلام من خلال الايات الكريمة؛ مثل قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف: ٢٧] ، وقوله تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ *ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ *} [الأعراف: ١٤ ـ ١٧].

كان الشَّيطان يتجسَّم في حسِّ الرَّعيل الأوَّل مرئيّاً مشهوداً ، يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، يوسوس لهم بالمعصية ، ويستثير فيهم كوامن الشَّهوات ، فكانوا يحاولون أن يكونوا دائماً منتبهين من عدوِّهم ، وكانوا يسارعون في الخيرات؛ ليضيِّقوا مسالك الشَّيطان ويسدُّوها ، فلا يجد له مسلكاً إليهم: حتَّى فيما هو أخفى من دبيب النَّمل[(٤١٩)] ، وقد تعلَّموا ذلك بعد قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ *إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ *} [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

جاءت قصَّة ادم ـ عليه السَّلام ـ مع الشَّيطان في القران الكريم في أكثر من موضع؛ فأحياناً تجيء بكلِّ تفصيلاتها ـ كما في سورة الأعراف ـ وأحياناً تجيء ببعض التَّفصيلات ـ كما في سورة الحِجْر ، والإسراء ،

وطه ، وص ـ وأحياناً تجيء في صورة إشارةٍ عابرةٍ ، وهذا كثيرٌ جدّاً في القران ، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشَّيطان يوم القيامة من بني ادم ، الَّذين استجابوا له في الدُّنيا ، وتنصُّله الكامل من تبعتهم ـ كما في الاية الثانية والعشرين ـ[(٤٢٠)].

قال الله تعالى في سورة الأعراف: {وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ *فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ *يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف: ١٩ ـ ٢٧] .

إنَّ ممَّا يهمُّ الإنسان أن يعرف تاريخه؛ ليعتبر به ، لا ليتسلَّى ، وقصَّة ادم مع الشَّيطان قصةٌ لها دَلالاتها الخاصَّة بين القصص القرانيّ كله ، فهي تحدِّد للبشر ، مبدأهم ومنتهاهم ، ودورهم في الأرض ، وخطَّة سيرهم فيها ، والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم ، وطريقة تجنُّب هذه العقبات وتخطِّيها[(٤٢١)].

كانت الايات الكريمة الَّتي تحدَّثت عن قصَّة ادم ، وصراعه مع الشَّيطان قد علَّمت الرَّعيل الأوَّل قضايا مهمَّةً في مجال التَّصوُّر والاعتقاد ، والأخلاق؛ ومنها:

١ ـ إنَّ ادم هو أصل البشر:

إنَّ ادم عليه السلام هو أصل البشر؛ فقد خلقه الله تعالى من طينٍ على صورته البشريَّة الكاملة الَّتي لم تأتِ عن طريق التدرُّج عن نوعٍ من أنواع المخلوقات ، أو عن صورةٍ أو هيئةٍ أخرى ، فالله تعالى خلق ادم من طينٍ ، ثمَّ نفخ فيه الرُّوح ، فصار بشراً سوياً من لحمٍ ، ودمٍ بكامل هيئته ، وصورته الإنسانيَّة.

٢ ـ جوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله تعالى:

أمر الله تعالى الملائكة بالسُّجود لادم ، فسجدوا له سجود تحيَّةٍ ، وتكريمٍ ، وتعظيمٍ ، واعترافٍ بفضله ، وطاعةً لله ربِّ العالمين دون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، مع أنَّهم في الملأ الأعلى ، وهم في حال تسبيحٍ ، وتقديسٍ ، وعبادةٍ مستمرَّةٍ لله ربِّ العالمين ، وقبل أن يصدر من ادم أي نوعٍ من العبادة ترجح على عبادتهم ، وإنَّما كانت مبادرة الملائكة إلى السُّجود لادم ، والحال كما وصفنا؛ لأنَّ الأمر لهم بالسُّجود لادم صادر من الله ربِّ العالمين ، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا توقفٍ في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر ، وهذا هو جوهر الإسلام ، وهذا هو شأن المسلم: يسارع إلى طاعة ربِّه ، والامتثال لأمره بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا تعليقٍ لهذه الطَّاعة على شيءٍ اخر من معرفة سبب الأمر ، أو معرفة حكمته ، أو موافقته لعقله ، وهواه.

٣ ـ قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة:

تعلَّم الصَّحابة من قصَّة وقوع ادم في الخطيئة: أنَّ الإنسان له قابليةٌ للوقوع في المعصية ، وأنَّ هذه القابلية متأتِّيةٌ من طبيعة الإنسان ، فقد خلقه الله تعالى على طبيعةٍ تجعل وقوعه في الخطيئة أمراً ممكناً؛ لما في طبيعته ، وما جبله الله عليه من ميولٍ ورغباتٍ ، وغرائز ـ هي جوانب الضَّعف في الإنسان ـ والَّتي من خلالها ينفذ الشَّيطان بوساوسه إليه ، ويزيِّن له الوقوع في الخطيئة ، فمن غرائز الإنسان الكامنة فيه: أنَّه يحبُّ أن يكون خالداً لا يموت ، أو معمِّراً أجلاً

طويلاً كالخلود ، يحبُّ أن يكون له ملكٌ غير محدَّدٍ بالعمر القصير[(٤٢٢)] ، فجاء إبليس إلى ادم عليه السلام من هذه الغريزة ، فقال له ، ولزوجته: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *} [الأعراف: ٢٠] ، وأكَّد لهما ادِّعاءه بالحلف بالله بأنَّه لهما لمن النَّاصحين.

وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول ، والرَّغبات ، بل لابدَّ للمسلم من أن يضبطها ، ويكبح جماحها ، ويجعلها تابعةً لأحكام الشَّرع الحنيف ، وهذه الميول ، والغرائز ، والرَّغبات هي ما تهواه النَّفس ، وغالباً ما تكون منفلتةً ، ومتجاوزةً حدودها ، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشَّرع ، ولذلك يأتي ذمُّ (الهوى) ، ويراد به ما تهواه النفس من أمرٍ مذمومٍ. قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى *} [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] ، فقد أطلق الهوى ، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى؛ لأنَّه ينصرف عند الإطلاق إلى ما هو مذموم[(٤٢٣)].

٤ ـ خطيئةُ ادمَ تُعَلِّم المسلمَ ضرورة التَّوكُّل على ربِّه:

إنَّ خطيئة ادم عليه السلام تظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة ، وتثير الخوف ، والفزع في النُّفوس ، وبالتالي تزيد من تَوَكُّل المسلم على ربِّه ، واعتماده عليه؛ ليكفيه شرَّ الشَّيطان الرَّجيم ، وبيان ذلك: أنَّ الله تعالى أَسْجَدَ الملائكة لادم إظهاراً لفضله ، وعلوِّ منزلته عند ربِّه ، وطَرَد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السُّجود له ، وأسكنه وزوجه في الجنَّة ، وأمره بالأمر الصَّريح بعدم الاقتراب من شجرةٍ معيَّنةٍ وأباح له ما عداها من نعيم الجنَّة ، وثمارها ، قال تعالى: {وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *} [الأعراف: ١٩].

وحذَّرهما من الشَّيطان ، ومن خداعه وكيده؛ لئلا يخرجهما من الجنَّة. قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى *فَقُلْنَا ياآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى *} [طه: ١١٦ ـ ١١٧] ومع هذا كلِّه فإنَّ الشَّيطان استزلَّهما ، وغرَّهما ، فأكلا من الشَّجرة ، ووقعا في المعصية فأخرجهما ممَّا كانا فيه.

إنَّ خطيئة ادم عليه السلام أثارت في نفوس الصَّحابة الكرام الخوف ، والفزع من هذا العدوِّ الخبيث ، وهذا الخوف من الشَّيطان ، وإغوائه دفعهم إلى الالتجاء الدَّائم إلى الله تعالى، والتَّوكُّل عليه ، والاستعانة به على هذا الشَّيطان الرَّجيم ، الَّذي لا همَّ له إلا إغواءُ الإنسان ، وجرُّه إلى الخطيئة ، وهذا هو الَّذي فهموه من قول الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً *} [الإسراء: ٦٥] ، وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٩٩]؛ فلا تأثير ، ولا قدرة للشَّيطان على إغواء الَّذين امنوا بالله إيماناً عميقاً؛ لأنَّ الله تعالى قد وجَّهَ قلوبهم إليه سبحانه، وحرَّكَ جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشَّيطان على هؤلاء من سلطانٍ ، فهم يحاربون أمانيه الباطلة ، ويهدمون ما يُلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النُّور الكاشف عن مكره ، والتَّوكُّل عليه يفيدهم التقوية بالله؛ فيضعف الشَّيطان ، وينخذل أمام قوَّة الإيمان بالله والتَّوكُّل عليه[(٤٢٤)].

٥ ـ ضرورة التَّوبة والاستغفار:

تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من هذه القصَّة ضرورة التَّوبة ، والاستغفار عند الوقوع في الذَّنب أو المعصية ، فقد سارع ادم وزوجه إلى المغفرة وطلب الرَّحمة من ربِّهم الكريم عندما وقعوا في المعصية: {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} [الاعراف: ٢٢ ـ ٢٣] فهذا اعترافٌ بالذَّنب سريعٌ ، مقرونٌ بندمٍ شديدٍ ، فندمٌ من قوله تعالى: {ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} ، وتوبةٌ خالصةٌ مقرونةٌ برجاء قبولها؛ لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين ، وهذا يفهم من قولهما: {وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} ، فإذا كان ادم وزوجه لم يستغنيا عن التَّوبة ، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوِّ منزلتهما؛ فغيرهما أولى بذلك[(٤٢٥)].

٦ ـ الاحتراز من الحسد ، والكِبْر:

إنَّ إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد ، والكِبْر ، فكان بدء الذُّنوب الكِبْر ، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربِّه بالسُّجود لادم ، ولهذا جاء التَّحذير من الكِبْر ، والوعيد للمُتكبِّرين ، قال (ص) : «لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ» [أحمد (١/٣٩٩ و٤٥١) ومسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩)] .

وحقيقة الكبر: بَطَرُ الحقِ ، وغَمْطُ النَّاس.

وبطر الحقّ: ردُّه ودفعه ، وعدم الخضوع له ، وعدم الانقياد له؛ استخفافاً به ، وترفُّعاً عليه ، وعناداً له.

وغمط النَّاس: احتقارهم ، والازدراء بهم[(٤٢٦)].

ومن أعظم مظاهر بطر الحقِ رفضُ أوامر الله ، والتَّمرُّد عليها؛ لأنَّ ما يأمر به الله هو الحقُّ ، فالتَّمرُّد على هذا الحقِّ ، ودفعه يمثِّل حقيقة الكِبْر ، فكان الصَّحابة رضي الله عنهم أبْعَدَ خلق الله تعالى عن جراثيم الحسد والكِبْر ، والابتعاد عن الحديث عن النَّفس وتزكيتها ، وقد شعروا بخطورة ذلك من قوله تعالى: ؛ لأنَّ فيها معنى {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} ، والله قال لهم: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *} [النجم: ٣٢] ، وتعلَّموا: أنَّه لا فخر بالأصل والنَّسب؛ وإنَّما بالتَّقوى ، والطَّاعات والخيرات؛ ابتغاء ربِّ الأرض والسَّموات؛ لأنَّ إبليس افتخر بسبب أصله {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *} [الأعراف: ١٢] .

٧ ـ إبليس هو العدوُّ لادم وزوجه وذريتهما:

تعلَّم الصَّحابة من القران المكِّيِّ: أنَّ إبليس هو عدوُّهم الأوَّل؛ لأنَّه بسبب امتناعه عن السُّجود لأبيهم ادم طرده الله من رحمته ، ولعنه ، فأصبح عدوَّاً لادم ، وزوجه وذرِّيَّته قال تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ

أَجْمَعِينَ *} [الحجر: ٤٣] ، وقال تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٦٢].

وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني ادم ، وإغوائهم ، وطلب من الله تعالى إمهاله ، وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم ، وصمَّم عليه ، ممَّا يدلُّ على شدَّة عداوته لادم ، وبنيه.

قال تعالى حكاية عن قول إبليس: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *} [الحجر: ٣٦ ـ ٤٠].

لقد أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال المنهج القرانيِّ: أنَّ طبيعة علاقة الشَّيطان بالبشر هي العداوة ، ولا يمكن تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما لإزالة هذه العداوة؛ لأنَّ الشَّيطان لا همَّ له ، ولا عمل ، ولا غرض في حياته ، سوى إضلال الإنسان ، ودفعه إلى معصية الله ، بواسطة تزيين الذُّنوب ، كما قال تعالى: {فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى حكايةً عمَّا قاله الهدهد لسليمان عليه السلام بشأن ملكة سبأ: {وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *} [النمل: ٢٤] وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم: أي: حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر، { فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} ؛ أي: عن طريق التَّوحيد[(٤٢٧)] ، ومن هذا الباب ، وبهذا الأسلوب ـ أسلوب التَّزيين ـ يزيِّن الشَّيطان البدع في الدِّين في أعين المبتدعين[(٤٢٨)].

ولذلك جعل الصَّحابةُ إبليسَ عدوَّهم الأكبر ، وامتثلوا قول الله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [فاطر: ٦] فعادوه ، ولم يطيعوه ، واحترزوا منه ، وحذَّروا منه النَّاس.

٨ ـ التَّخاطب بأحسن الكلام بين الصَّحابة الكرام:

من الوسائل التي استخدمها الصَّحابة الكرام لمحاربة الشَّيطان امتثالُهم قول الله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً *} [الإسراء: ٥٣] ، لقد أمر الله تعالى رسوله الكريم (ص) ، أن يأمر المؤمنين بأن يقولوا في مخاطباتهم ، ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطَّيِّبة؛ لأنَّهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم؛ أي: أفسد فيما بينهم

، وهيَّج الشَّرَّ، والِمراء؛ لتقع بينهم العداوة والبغضاء: أي: شديد العداوة للإنسان؛ ولذلك فهو {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً *} يريد إلا الشَّرَّ لهم ، والعداوة فيما بينهم.

وقد تربَّى الصَّحابة الكرام على خُلُقٍ رفيعٍ وأسلوبٍ جميلٍ في معاملة النَّاس من قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ *وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ *وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *} [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨] ، وقوله تعالى: أي: بالخَلَّة الَّتي هي أحسن الخِلال؛ أي: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ، ومكارم الأخلاق ، ادفع إساءة من يسيء إليك ، فبهذا تعود عداوته صداقة ، وبغضه محبَّة[(٤٢٩)] ، وقوله تعالى: أي: أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشُّرور {وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *} ، والصَّدِّ عن الحق؛ لأنَّ الشَّياطين لا ينفع معهم شيءٌ ، ولا ينقادون بالمعروف[(٤٣٠)] ، أي: أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأنٍ من شؤوني أو في شيءٍ من {وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *} ، ولهذا أمر الشَّرع بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطرد الشَّيطان.

وقال الله تعالى: {وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦] ، وقوله تعالى: {هِيَ أَحْسَنُ} أي: مَنْ أساء إليك فادفعه عنك إليه.

وقوله تعالى: كأنَّه وليٌّ؛ أي: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *} ، أو قريب. (حميم): أي: شديد الولاء. ومعنى ذلك: أنَّك إذا أحسنت إلى مَنْ أساء إليك؛ قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك، ومحبَّتك، والحنوِّ عليك؛ حتَّى يصير كأنَّه وليٌّ لك، حميمٌ؛ أي: قريب إليك من الشَّفقة عليك والإحسان إليك.

ثمَّ قال تعالى: أي: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *} يقبل هذه الوصيَّة ـ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها ـ إلا مَنْ صبر على ذلك ، فإنَّه يشق على النُّفوس ، وما يقبل هذه الوصية أي: ذو نصيبٍ وافرٍ من السَّعادة في الدُّنيا والاخرة

وقال تعالى: أي: وإما يُلْقِيَنَّ الشَّيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} ، والانتقام منه ، فاستعذ بالله من وساوس هذا الشَّيطان ونزغه ، وشرِّه ، فإنه يسمع استعاذتك ، ويعلم حالك ، فالشَّيطان لا تنفع معه مداراةٌ ، ولا مقابلة إساءته بإحسانٍ؛ لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله ، ولا يقبل منك

غير هذا أبداً ، أمَّا عدوُّ الإنسان فقد ينفع معه إحسانُك إليه ، وعدم مقابلة إساءته بإساءةٍ مثلها ، ولذلك حثَّنا الشَّرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه ، أمَّا بالنِّسبة لنزغ الشَّيطان وتحرُّشه بالإنسان؛ فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلِّصك من شرِّه[(٤٣١)].

إنَّ المنهج القرانيَّ الكريم وضَّح حقيقة العلاقة بين الإنسان والشَّيطان ، وبيَّنَ سُبُلَ علاجها ، ووسائل الشَّيطان لإغواء بني ادم ، ومضى القران يتحدَّث عن الشَّيطان ، وهو في جهنم ، وقد تبرَّأ ممَّن أغواهم ، وأضلَّهم من بني الإنسان.

قال تعالى: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ *وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *} [إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

هذه صورةٌ موجزةٌ عن حقيقة إبليس ، وتصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لهذا العدوِّ اللَّعين.

تاسعاً: نظرة الصَّحابة إلى الكون ، والحياة ، وبعض المخلوقات:

ظلَّ رسول الله (ص) يعلِّم الصَّحابة كتاب الله تعالى ، ويربِّيهم على التَّصوُّر الصَّحيح في قضايا العقائد ، والنَّظر السليم للكون والحياة ، من خلال الايات القرانيَّة الكريمة ، فبيَّن بدء الكون ومصيره.

قال تعالى: {قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ *وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ *فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *}[فصلت: ٩ ـ ١٢] .

وقد أشارت الايات الكريمة إلى ثلاث حقائق كونيَّة:

١ ـ خلق الأرض ، وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيَّامٍ قبل الاستواء إلى السماء؛ وهيَ دخانٌ.

٢ ـ أصل الكون المادِّيّ من الدُّخان.

٣ ـ الدَّورات التَّكوينيَّة للأرض ، والسَّماء مجموعها ستَّة أيَّامٍ[(٤٣٢)].

وقد بيَّنَ القران الكريم حقيقةً مهمَّةً ، وهي استحالة تحديد الحالة الأوَّلية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النُّجوم ، والكواكب ، والمجرَّات ، ولن يستطيع الناس معرفة ذلك ، إلا ظنّاً ، وتخميناً ، قال تعالى: {مَا أَشْهَدْتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا *} [الكهف: ٥١] .

وأشار القران الكريم إلى هذا الأصل الموحَّد ، وساق حقائق كونيَّةً في غاية الوضوح. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأنبياء: ٣٠] .

لقد فهم الصَّحابة من الايات ـ الَّتي في سورة فصِّلت ـ: أنَّ الله تعالى خلق الأرض ، ووضع البركة فيها وقدَّر أقواتها في أربعة أيَّام ، كلُّ ذلك قبل تشكيل السَّماء وجعلها سبع سمواتٍ ، وهذه الحقيقة وصل إليها الصَّحابة من طريق الوحي ، من خالق السَّموات والأرض[(٤٣٣)].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وَخَلَق الأرض في يومين ، ثمَّ خَلَقَ السَّماء ، ثمَّ استوى إلى السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين اخرين ، ثمَّ دحا الأرض ، ودَحْوُها أنْ أخرج منها الماء والمرعى ، وخلقَ الجبالَ ، والرِّمالَ ، والجمادَ ، والاكامَ ، وما بينهما في يومين اخرين ، فذلك قوله تعالى: {دَحَاهَا *} وقوله: {خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}. فجُعِلَتِ الأرضُ وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام ، وخُلِقَتِ السَّمواتُ في يومين. [البخاري تعليقاً (٨/٧١٤)] .

وبيَّن لهم القران الكريم في اياتٍ عظيمة: أنَّ الله هو الَّذي خلق السَّموات وألقى في الأرض رواسيَ ، وتحدَّث عن حقائق في الكون ، وعن الشَّمس ، والقمر ، والنُّجوم ، وفصَّل في الجبال ، وبيَّن فوائدها ، وضرب بها الأمثال ، ودعا إلى التأمُّل فيها ، وأخبر أنَّه سوف ينسفها نسفاً ، وتحدَّث القران الكريم عن البحار ، وما فيها من السُّفن ، والأرزاق ، وتكلَّم القران الكريم عن الظَّواهر الجوِّيَّة ، كالرِّياح ، والسُّحب ، والمطر ، والرَّعد ، والبرق ، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *} [الروم: ٤٨] ، وقال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ *} [الحجر: ٢٢].

وقرَّر القران الكريم حقائق عن الحيوان ، لا تقلُّ في الأهمِّيَّة ، والدِّقَّة عن الحقائق الَّتي قرَّرها في كلِّ جوانب الكون ، والحياة ، فهو يلفت النَّظر تارةً إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه

الدَّوابِّ ركوباً ، وحملاً ، ولباساً ، وطعاماً ، وشراباً ، وزينة ، فهي مسخَّرةٌ للإنسان ، مذلَّلةٌ له منقادةٌ ، كان الرَّعيل الأوَّل قبل البعثة؛ ينظر إلى الكون والحياة ، والمخلوقات من شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجومٍ ، نظرةً مضطربةً غير واضحةٍ في معالمها التَّصوُّريَّة ، والعقديَّة ، ولا يستشعرون بالمنظومة التي خلقها الله ، وأنَّها تسبِّح للهِ ، وله حكمة من خلقها ، فأرشدهم القران الكريم إلى التأمُّل ، والتدبُّر في هذا الكون ، وما فيه من مخلوقات ، وبيَّن لهم حقيقة أنَّ مخلوقاته العظيمة تسبِّح له ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن لا يفقهون تسبيحهم ، قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *}[الإسراء: ٤٤] .

وحدَّثهم القران الكريم عن ظاهرة تذليل ، وانقياد الحيوان للإنسان ، وبيَّن لهم: أنَّها ظاهرةٌ تستدعي شكر المنعم؛ الَّذي جعل فيها هذه الطَّبائع ، ولولا وجود هذا الطَّبع فيها؛ لما استطاع الإنسان التغلُّب عليها سبيلاً[(٤٣٤)]. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ *}[يس: ٧١ ـ ٧٣] .

ولفت القران الكريم الأنظار إلى مسألة رزق الحيوان ، وأنَّ الإنسان يعقل ويفكِّر ، ويخطِّط ، ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه ، وإذا حصل على الكسب بطريقةٍ ما؛ فكَّر في ادِّخاره ، وتخزينه للمستقبل ، أمَّا الحيوان؛ فليست عنده القدرة على التَّفكير والتَّخطيط ، وليس من طبعه ذلك ، ولكنَّ قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكلِّ شيءٍ قد تكفلت بأرزاقها ، وتوفير سبل البقاء أمامها. قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [العنكبوت: ٦٠] .

هكذا شأن الألوهيَّة في المخلوقات: العلم ، والإحاطة بالمكان ، والتَّكفُّل بالرزق في جميع الظُّروف ، فالحيوان مرزوقٌ في كلِّ مكانٍ ، في أعماق البحار ، والمحيطات ، وفي الصَّحراء المحرقة ، والأصقاع المتجمِّدة ، تحت الصُّخور الصَّمَّاء ، وفي أجواء الفضاء ، كلَّ ذلك في كتابٍ لا يضلُّ ربِّي ، ولا ينسى ، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *} [هود: ٦].

وقد لفت القران الكريم النَّظر إلى أنَّ هذه المخلوقات ـ من الدَّواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة ، والسَّير ـ أممٌ ، وفصائلُ أمثال النَّاس[(٤٣٥)] ، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي

الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ *} [الأنعام: ٣٨] .

وهكذا نَظَّمَ القران الكريم أفكار ، وتصوُّرات الرَّعيل الأوَّل عن الكون ، وما فيه من مخلوقاتٍ ، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية ، واستمرَّ النَّبيُّ (ص) في غرس حقيقة المصير ، وسبيل النَّجاة في نفوس أصحابه ، موقناً: أنَّ مَنْ عرف منهم عاقبته ، وسبيل النَّجاة ، والفوز سيسعى بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ ووسيلةٍ لسلوك السَّبيل ، حتَّى يظفر غداً بهذه النَّجاة ، وذلك الفوز ، وركَّز (ص) في هذا البيان على الجوانب التَّالية:

إنَّ هذه الحياة الدُّنيا مهما طالت؛ فهي إلى زوالٍ ، وإنَّ متاعها مهما عظم؛ فإنَّه قليلٌ حقيرٌ ، ووضَّحَ لهم ذلك الله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [يونس: ٢٤] .

إنَّ الاية الكريمة السَّابقة فيها عشر جملٍ وقع التَّركيب من مجموعها ، بحيث لو سقط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيه؛ إذ المقصود تشبيه حال الدُّنيا في سرعة تقضِّيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار

النَّاس بها ، بحال ماءٍ نزل من السَّماء ، وأنبت أنواع العشب ، وزيَّن بزخرفه وجهَ الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثِّياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنُّوا أنها مُسَلَّمَةٌ من الجوائح؛ أتاها بأس الله فجأةً ، فكأنَّها لم تكن بالأمس[(٤٣٦)].

وأخبرهم الرَّسول (ص) بقول الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا *} [الكهف: ٤٥] أي: واضرب يا محمَّد للنَّاس في {مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ، وفنائها ، وانقضائها أي: {كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} فيها من الحبِّ ، فشبَّ ، ونما ، وحسن ، وعلاه الزَّهر ، والنَّضرة ، ثمَّ بعد هذا كلِّه {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} أي: يابساً {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} ، أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين ، وذات الشِّمال { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} أي: هو قادر على الإنشاء والإفناء

وقال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ *}[الحديد: ٢٠] يقول تعالى مُوَهِّنَاً أمر الحياة الدُّنيا ، ومحقِّراً لها: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ} أي: تفريح نفسٍ ، {وَلَهْوٌ} أي: باطل ، {وَزِينَةٌ} أي: منظرٌ جميلٌ {وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ} أي: بالحسب والنَّسب { وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ} أي: مطر {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} أي: يعجب الزُّرَّاع نبات ذلك الزَّرع؛ الَّذي نبت بالغيث ، وكما يُعجب الزُّرَّاع ذلك ، كذلك تُعجب الحياة الدُّنيا الكفار ، فإنَّهم أحرص النَّاس عليها ، وأميل النَّاس إليها {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} أي: ثمَّ يجفُّ بعد خضرته، ونضرته ، فتراه مصفرّاً؛ أي: من اليبس {ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} ، ثم يكون بعد ذلك كلِّه حطاماً؛ أي: هشيماً منكسراً وكذلك الدُّنيا لا تبقى ، كما لا يبقى النَّبات الَّذي وصفناه ، ولما كان هذه المثل دالاً على زوال الدُّنيا ، وانقضائها لا محالة ، وأنَّ الاخرة كائنةٌ ، واتيةٌ لا محالة ، حذَّرنا الله تعالى من أمرها ، ورغَّبنا فيما فيها من الخير ، فقال تعالى: {وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} أي: وليس في الاخرة الاتية إلا: إمَّا هذا ، وإما هذا؛ أي: إمَّا عذابٌ شديدٌ ، وإمَّا مغفرةٌ من الله ، ورضوانٌ ، وقوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *} أي: هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ، ويخدع مَنْ يركن إليها ، وإلى متاعها ، فيغترُّ بها ، وتعجب مَنْ يعتقد: أنَّه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، مع أنَّها حقيرةٌ ، قليلة المتاع بالنسبة إلى الدَّار الاخرة[(٤٣٧)].

إنَّ هذه الحقيقة الَّتي أشارت إليها الايات الكريمة ، هي حقيقة الدُّنيا بكلِّ متاعها ، وزينتها ، وما تشتهيه النَّفس منها ، وإنَّ كلَّ ذلك بالنِّسبة لنعيم الاخرة شيءٌ تافهٌ ، وقليلٌ وزائلٌ ، هكذا فهم الرَّعيل الأوَّل حقيقة الدُّنيا ، فكان رسول الله (ص) يبصِّرهم، ويذكِّرهم بدورهم، ورسالتهم في الأرض ، ومكانتهم عند الله ، وظلَّ (ص) معهم على هذه الحال من التَّبصير والتَّذكير حتَّى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله ، وما دورهم وما رسالتهم في الأرض ، وتأثُّراً بتربيته الحميدة تولَّد الحماس ، والعزيمة في نفوس أصحابه ، فانطلقوا عاملين باللَّيل والنَّهار بكلِّ ما في وسعهم ، وما في طاقتهم دون فتورٍ ، أو توانٍ ، ودون كسلٍ ، أو مللٍ ، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا من الله ، ودون طمع في مغنمٍ أو جاهٍ إلا أداء هذا الدَّور وهذه الرِّسالة؛ لتحقيق السَّعادة في الدُّنيا ، والفوز ، والنَّجاة في الاخرة[(٤٣٨)].

إنَّ كثيراً من العاملين في مجال الدَّعوة بهتت في نفوسهم هذه الحقيقة؛ لأنَّهم انغمسوا في هذه الحياة الدُّنيا ، ومتاعها وشغفتهم حبّاً ، فهم يلهثون وراءها ، وكلَّما حصلوا على شيءٍ من متاعها؛ طلبوا المزيد ، فهم لا يشبعون ، ولا يقنعون؛ بسبب التصاقهم بالدُّنيا ، وإنَّها لكارثةٌ عظيمةٌ على الدَّعوة ، والنُّهوض بالأمَّة ، أمَّا التمتُّع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشَّرع ، واتِّخاذها مطيَّةً للاخرة فذلك فعلٌ محمودٌ.

* * *

المبحث الرَّابع

البناء التعبُّدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات:

قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] ، وقال تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *} [ص: ٧٢] ، وقال تعالى: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ *} [السجدة: ٩] ، وقد رَبَّى رسول الله (ص) أصحابه على تزكية أرواحهم ، وأرشدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب ، من خلال القران الكريم؛ ومن أهمِّها:

١ ـ التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته ، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق ، وحكمته سبحانه وتعالى ، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *} [الأعراف: ٥٤].

٢ ـ التأمُّل في علم الله الشَّامل ، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح ، والقلب بعظمة الله ، ويطهِّر النَّفس من الشكوك ، والأمراض. قال الله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *وَهُوَ الَّذِي يَتَوفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا

جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠] .

٣ ـ عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي من أعظم الوسائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّلِ لله سبحانه ، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣] ، والعبادات الَّتي تسمو بالرُّوح وتطهِّر النفس نوعان:

أ ـ النَّوع الأوَّل: العبادات المفروضة كالطَّهارة، والصَّلاة ، والصِّيام ، والزَّكاة ، والحجِّ وغيرها.

ب ـ النوع الثَّاني: العبادات بمعناها الواسع ، الَّذي يشمل كلَّ عملٍ يعمله الإنسان ، أو يتركه ، بل كلّ شعورٍ يُقبِل عليه الإنسان تقرُّباً به إلى الله تعالى ، بل يدخل فيها كلُّ شعورٍ يطرده الإنسان من نفسه تقرُّباً به إلى الله تعالى ، ما دامت نيَّة المتعبِّد بهذا العمل هي إرضاء الله سبحانه وتعالى ، فكلُّ الأمور مع نيَّة التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى عبادةٌ يُثاب صاحبها ، وتربِّي روحه تربيةً حسنةً[(٤٣٩)].

إنَّ تزكية الرُّوح بالصَّلاة ، وتلاوة القران ، وذكر الله تعالى ، والتَّسبيح له سبحانه أمرٌ مهمٌّ في الإسلام؛ فإنَّ النَّفس البشريَّة إذا لم تتطهَّر من أدرانها ، وتتَّصل بخالقها فلن تقوم بالتَّكاليف الشَّرعية الملقاة عليها ، والعبادة والمداومة عليها ، تعطي الرُّوح وقوداً وزاداً ، ودافعاً قويّاً إلى القيام بما تؤمر به ، ويدلُّ على هذا أمر الله الرَّسول (ص) في ثالث سورةٍ نزلت عليه بالصَّلاة والذِّكر ، وترتيل القران.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً *إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً *وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً *} [المزمل: ١ ـ ٨].

إنَّ الاستعداد للأمر الثَّقيل ، والتَّكاليف الشَّاقَّة يكون بقيام اللَّيل والمداومة على الذِّكر والتِّلاوة ، وقد حرص رسول الله (ص) بتوجيهٍ من ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ على تربية الصَّحابة من أوَّل إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة[(٤٤٠)].

وكان أصحاب رسول الله (ص) إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب ، واستخْفَوا بصلاتهم[(٤٤١)]. ولما خاف (ص) في بداية الإسلام على أصحابه ، وعرف: أنَّ الكفار لا يتركونهم يمارسون الصَّلاة ، وقراءة القران علناً ، دخل بهم دار الأرقم ، وصار يصلِّي بهم ، ويعلِّمهم كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولولا أهمِّية تزكية الرُّوح بالعبادة ، والصَّلاة ، والتِّلاوة؛ لأمرهم بتركها عند الخوف ، حتَّى إنَّه بعد أن اكتشفت قريش

المكان الَّذي يصلّي فيه الرَّسول (ص) بأصحابه لم يترك الرَّسول (ص) الصَّلاة ، والتِّلاوة لأجل الخوف[(٤٤٢)].

وقد حضَّ الله تعالى في القران المكّيّ على إقامة الصَّلاة ، وأثنى على الَّذين يخشعون في صلاتهم ، والَّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله ، وعلى الذين

يدعون الله ويسبّحونه ، ويذكرونه ، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *} [المؤمنون: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٥ ـ ١٧].

وقال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ *} [هود: ١١٤] .

وقال تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا *} [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩] .

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى *وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى *} [طه: ١٣٠ ـ ١٣٢] .

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ *وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ *} [ق: ٣٩ ـ ٤٠] .

وهذه الايات الأخيرةُ تدلُّ على أنَّ العُدَّةَ في حال الضيق والشدَّة هي الإكثار من الصَّلاة ، والذِّكر ، وتلاوة القران ، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده ، والإكثار من الدُّعاء[(٤٤٣)].

إنَّ الصَّلاة تأتي في مقدِّمة العبادات الَّتي لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية روح المسلم ، ولعلَّ من أبرز اثارها الَّتي أصابت الرَّعيل الأوَّل:

١ ـ الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين استجابوا لأمره ، فقال عزَّ وجل: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *} [الشورى: ٣٨] .

ولا تتحقَّق معاني العبودية الصَّادقة لله سبحانه وتعالى ، إلا إذا اقترنت بصدق التوجُّه إليه ، والإخلاص له سبحانه ، قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

وكان الرَّعيل الأوَّل يرى: أنَّ لكل عملٍ من أعمال الصَّلاةِ عبوديةً خاصةً ، وتأثيراً في

النَّفس ، وتزكيةً للرُّوح؛ فقراءة سورة الفاتحة مع التدبُّر تشعرهم بعبوديَّتهم لله تعالى ، فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} يثبت كلَّ كمال لله ـ سبحانه وتعالى ـ ويحمده على ما وفَّقه إليه من الطَّاعة ، وما أنعم عليه من النِّعم ، ويثني عليه بصفاته ، وأسمائه الحسنى[(٤٤٤)].

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *} يقرُّ بالتَّوحيد والاستعانة بالله وحده ، فالله هو المعبود ، وهو المستعان ، وكلُّ استعانةٍ بغير الله فهي خذلانٌ وذلٌّ.

وعندما يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *} فهو إقرارٌ من العبد بأنَّه مفتقرٌ إلى الهداية ، والثَّبات على طريق الحقِّ ، وأنَّه محتاجٌ إلى ثمار الهداية ، والاستزادة منها ، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم ، والضَّالِّين[(٤٤٥)].

وعندما ينحني للرُّكوع يكبِّر ربَّه معظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ، فيجتمع في هذا الرُّكن خضوع الجوارح ، وخضوع القلب ، ثمَّ يأتي السُّجود ، فيجعل العبدُ أشرف أعضائه ، وأعزَّها متذللاً لله سبحانه ، ويتبع هذا انكسارُ القلب ، وتواضعُه ، فيسجد القلب لربِّه كما سجد الجسد[(٤٤٦)] ، وحَرِيٌّ به في هذهِ الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربِّه ، وكلَّما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربِّه في سجوده ، ازداد منه قرباً ، كما في قوله تعالى: {كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *} [العلق: ١٩].

وفي الحديث النَّبويِّ الشريف: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدُّعاءَ»[(٤٤٧)].

وعندما يعتدل جالساً ، يتمثَّل جاثياً بين يدي ربِّه ، ملقياً نفسه بين يديه ، معتذراً إليه ممَّا جناه ، راغباً إليه أن يغفر له ، ويرحمه ، وهكذا تتجلَّى في كلِّ أفعال الصَّلاة العبوديةُ لله سبحانه ، وإقبالُ العبد على ربِّه ، وتوحيده ، وتقوية الإيمان به الَّذي هو أساس التَّزكية ، وهذه أعظم ثمرةٍ من ثمرات الصَّلاة ، وهي الَّتي تنير للعبد طريق حياته ، وتمنحه طهارة القلب ، وطمأنينة النَّفس[(٤٤٨)].

٢ ـ مناجاة العبد لربِّه:

وقد بيَّن رسول الله (ص) مشهداً من مشاهد هذه المناجاة ، فقد قال رسول الله (ص): «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبدُ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} قال الله تعالى: حمدني عبدي ، وإذا قال: {الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *} قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ *} قال: مجَّدني عبدي ، فإذا قال: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *} قال: هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل». [أحمد (٢/٢٤١ ـ ٢٤٢) ومسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤)].

لقد تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من النَّبيِّ (ص) : أنَّ هذه المناجاة ، من أعظم أسباب تزكية النَّفس ، وتقوية الإيمان ، إذا هيَّأ العبد نفسه لها ، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوِّق للوقوف بين يدي ربِّه ، الوافد عليه ، المنتظر لرحمته ، وفضله؛ يستمدُّ العون منه سبحانه في كلِّ أموره وأعماله.

٣ ـ طمأنينة النَّفس ، وراحتها:

كان رسول الله (ص) إذا حَزَبَه أمرٌ؛ صلَّى [أبو داود (١٣١٩) وأحمد (٥/٣٨٨)] ، وقد جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة [أحمد (٣/١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥) والنسائي (٧/٦١) والحاكم (٢/١٦٠)] ، وقد علَّم الرَّسول (ص) الصَّحابة كثيراً من السُّنن والنَّوافل ليزدادوا صلةً بربِّهم ، وتأمن بها نفوسهم ، وتصبح الصَّلاة سلاحاً مهمَّاً لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

٤ ـ الصَّلاة حاجزٌ عن المعاصي:

قال الله تعالى: {اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ *} [العنكبوت: ٤٥] .

كان الصَّحابة رضي الله عنهم عندما يؤدُّون صلاتهم ، تستريح بها نفوسُهم ، وتمدُّهم بقوَّةٍ دافعةٍ لفعل الخيرات ، والابتعاد عن المنكرات ، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورعاية حدوده ، والتَّغلُّب على نوازع الهوى ، ومجاهدة النَّفس ، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي [(٤٤٩)]، كما أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ الصَّلاة تكفِّر السَّيئات ، وترفع الدَّرجات. قال الله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ *} [هود: ١١٤].

وغير ذلك من الاثار التَّربويَّة ، والنَّفسيَّة الطَّيبة؛ الَّتي تتضافر ، فيغنمها العبد المصلِّي ، فتؤدِّي الصَّلاة دورها في تزكية النَّفس ، وطهارتها ، ويتحقَّق قول رسول الله (ص) : «والصَّلاة نورٌ»؛ [مسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٧) والنسائي (٥/٥ ـ ٦) وابن ماجه (٢٨٠) وأحمد (٣٤٢/٥ و٣٤٣ و٣٤٤)]؛ فهي نورٌ تضيء لصاحبها طريق الهداية ، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصَّالح ، وهي نورٌ في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ، ولذَّة المناجاة لربِّه ، وهي نورٌ بما تمنح النَّفس من تزكيةٍ ، وطمأنينةٍ ، وراحةٍ ، وبما تمدُّ من أمنٍ ، وسكينةٍ ، وهي نورٌ ظاهرٌ على وجه المقيم لها في الدُّنيا ، تتجلَّى بها وَضَاءَةُ الوجه وبهاؤه؛ بخلاف تارك الصَّلاة [(٤٥٠)]، وهي نورٌ له يوم القيامة[(٤٥١)].

قال الله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [الحديد: ١٢].

كان الصَّحابة يكثرون من الذِّكر ، والدُّعاء ، وتلاوة القران الكريم ، والاستماع إليه ، واغتنام السَّاعات الفاضلة في قيام اللَّيل ، ومجاهدة النَّفس على الخشوع والتدبُّر وحضور القلب ، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى ، وله اثار عظيمةٌ في تزكية النَّفس ، وسموِّ الرُّوح ، وترقيتها إلى مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصَّحابة من اثار الذِّكر ، والدُّعاء ، والتِّلاوة مناجاةُ الله ، وتحقيقهم مقامات العبوديَّة التي تُعلي مكانتهم عند الله تعالى.

قال رسول الله (ص) : «يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنا عند ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني؛ إن ذكرني في نفسه؛ ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ؛ ذكرته في ملأٍ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّبَ مني شبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً ، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلَةً» [البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

ومن أعظم أنواع الذِّكر الَّتي مارسها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم تلاوة القران الكريم ، فقد عظمت محبَّة الله في قلوبهم ، وازدادت خشيتهم له ـ سبحانه وتعالى ـ فقد شفى القرانُ نفوسَهم من أمراضها ، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا *} [الإسراء: ٨٢] .

وقوله سبحانه: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ *} [فصلت: ٤٤] .

وقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ *} [الرعد: ٢٨] .

وكان للصَّحابة مع الدُّعاء شأنٌ عظيمٌ ، فقد علَّمهم النَّبيُّ (ص) : أنَّه مِنْ أجلى مظاهر العبودية ، والمناجاة لله سبحانه وتعالى ، قال رسول الله (ص) : «الدُّعاء هو العبادة» [أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٣٧٢) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان (٨٨٧) والحاكم (٤٩١/١)] ، ولقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالدُّعاء ، وتوعَّد من يستكبر ، فيترك الدُّعاء؛ وكأنه مستغنٍ عن ربه.

قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ *} [غافر: ٦٠] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يستكبرون عن عبادتي؛ أي: عن دعائي ، وتوحيدي»[(٤٥٢)].

كان النَّبيُّ (ص) يبيِّن لهم حاجة القلب إلى غذاءٍ دائمٍ؛ من ذكرٍ ، ودعاءٍ ، وتلاوة قران؛ ليكون ذلك تحصيناً لهم من الأمراض ، والافات ، وبيَّن لهم ما يستحبُّ للمسلم من الأدعية ، والأذكار في الصَّباح والمساء ، وعند دخول المنزل ، أو الخروج منه ، وعند دخول السُّوق ، أو الأكل ، أو اللبس ، وغير ذلك من الأعمال اليوميَّة؛ حتى يبقى في وقايةٍ دائمةٍ من كلِّ مرضٍ، فإذا أصيب بمرض عارضٍ، كالقلق، والكابة ، والاضطراب العصبيّ ، أو غيرها ، كانت تلك الأذكار والدَّعوات البلسم الشَّافي؛ الَّذي تطمئنُّ به القلوب ، وتحيا به النُّفوس ، ومن بين تلك الأذكار والدَّعوات المأثورة الَّتي علَّمها رسولُ الله (ص) لأصحابه، دعاء الشِّدَّة، والكرب؛ الَّذي يقول فيه: «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم». [البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠)] .

إنَّ رسول الله (ص) عَلَّمَ أصحابه كيف يلجؤون إلى الله سبحانه وقت الضِّيق؛ ليجدوا المأمن ، والسَّكينة ، فلا يفزعوا ، ولا يقلقوا ، وهم موقنون بأنَّ الله معهم ، وأنَّه ناصرهم ، ومتولِّي أمرهم ، ومؤيِّدهم ، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين[(٤٥٣)].

قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *} [النمل: ٦٢] .

إنَّ الذِّكر والدُّعاء ، وتلاوة القران ، وقيام اللَّيل ، والنَّوافل بأنواعها ، لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية النفس ، وسموِّ الرُّوح ، ومهما كتبنا في هذا الموضوع؛ فلا يمكن أن نحيط به في صفحاتٍ أو كتبٍ؛ وإنَّما هذا جزءٌ من كلٍّ وغيضٌ من فيضٍ.

ثانياً: التزكية العقلية:

كانت تربية النَّبيّ (ص) لأصحابه شاملةً؛ لأنَّها مستمدةٌ من القران الكريم ، الَّذي خاطب الإنسان ككلٍّ يتكون من الرُّوح ، والجسد ، والعقل ، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّحابي على تنمية قدرته في النَّظر ، والتأمُّل ، والتفكُّر ، والتدبُّر؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله ، وهذا مطلبٌ قرانيٌّ ، أرشد إليه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم تنزيله.

قال تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ *}[يونس: ١٠١] .

وقال سبحانه: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ *} [ص: ٢٩] .

وقال جلَّ شأنُه: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ *أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا *ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا *فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً *وَحَدَائِقَ غُلْبًا *وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ *} [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمَّة ، وقد جعله المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ مناط التَّكليف ، فمن حُرم العقل لجنونٍ أو غيره ، فهو غير مكلَّفٍ ، ويسقط عنه التَّكليف قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ٣٦] .

إنَّ العقل نعمةٌ من الله على الإنسان يتمكَّن بها من قبول العلم ، واستيعابه؛ ولذلك وضع القران الكريم منهجاً لتربية العقل ، سار عليه رسول الله (ص) لتربية أصحابه؛ ومن أهمِّ نقاط هذا المنهج:

١ ـ تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتَّخمين ، أو التبعيَّة والتقليد ، فقد حذَّر القران الكريم من ذلك في الاية الكريمة التَّالية؛ قال تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا *} [النجم: ٢٨] .

٢ ـ إلزام العقل بالتَّحرِّي والتَّثبُّت ، قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ *} [الحجرات: ٦].

٣ ـ دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون . قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ *} [الحجر: ٨٥].

٤ ـ دعوة العقل إلى التأمُّل في حكمة ما شرع الله لعباده من عباداتٍ ، ومعاملاتٍ ، وأخلاقٍ ، واداب ، وأسلوب حياةٍ كاملٍ ، في السِّلم والحرب ، في الإقامة والسَّفر؛ لأنَّ ذلك يُنْضِجُ العقل ، وينمِّيه ، وبتعرُّفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص ، ليطبق الشَّرع الرَّبانيَّ

في حياته ، ولا يبغي عنه حولاً؛ لما فيه من السَّكينة ، والطمأنينة ، والسَّعادة للبشريَّة ، ولأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنَّما شرع ما شرع لذلك.

قال سبحانه: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ *} [الأنعام: ١١٩] .

٥ ـ دعوة العقل إلى النَّظر إلى سنَّة الله في النَّاس عبر التَّاريخ البشريِّ؛ ليتَّعظ النَّاظر في تاريخ الاباء ، والأجداد ، والأسلاف ، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم ، والشُّعوب ، والدُّول. قال الله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ *} [الأنعام: ٦] .

وقال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ *ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *} [يونس: ١٣ ـ ١٤] .

وقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *} [الروم: ٩] .

كانت هذه الايات الكريمة ترشد الصَّحابة إلى استخدام عقولهم وفق المنظور الرَّبانيِّ؛ لكي لا تضلَّ عقولهم في التيه؛ الَّذي ضلَّ فيه كثيرٌ من الفلاسفة ، الَّذين قدَّسوا العقل ، وأعطوه أكثر ممَّا يستحقُّ[(٤٥٤)] ، وقد كان لهذه التَّربية القرانيَّة اثارٌ عمليَّة عظيمةٌ.

ثالثاً: التَّربية الجسديَّة:

حَرَصَ النَّبيُّ (ص) على تربية أصحابه جسديّاً ، واستمدَّ أصول تلك التَّربية من القران الكريم ، بحيث يؤدِّي الجسم وظيفته ، الَّتي خلق لها ، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ ، ودون محاباةٍ لطاقة من طاقاته على حساب طاقةٍ أخرى.

إنَّ الله أرشد عباده في القران الكريم ، إلى ما أحلَّه من الطَّيبات ، وما حرَّمه من الخبائث ، وأنكر على أولئك الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم الطَّيبات ، قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [الأعراف: ٣٢].

ولاشكَّ: أنَّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة ، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله ، واستخلافٍ في الأرض ، وإعمارها ، وتعارفٍ ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين؛ ولذلك ضبط القران الكريم حاجات الجسم البشريِّ على النَّحو التَّالي:

١ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الطَّعام ، والشَّراب بقوله تعالى: {يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *} [الأعراف: ٣١] .

٢ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الملبس ، بأن أوجب من اللِّباس ما يستر العورة ، ويحفظ الجسم من عاديات الحرِّ والبرد ، وندب ما يكون زينةً عند الذَّهاب إلى المسجد. قال تعالى: {يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *} [الأعراف: ٣١].

٣ ـ ضَبَطَ الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ *}[النحل: ٨٠] .

٤ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الزَّواج والأسرة بإباحة النِّكاح ، بل إيجابه في بعض الأحيان ، وتحريم الزِّنى ، والمخادنة ، واللِّواط ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *}[المؤمنون: ٥ ـ ٧].

٥ ـ ضَبَطَ حاجته إلى التَّملُّك والسِّيادة ، وأباح التَّملُّك للمال ، والعقار ، وَفْقَ ضوابط شرعيَّةٍ ، قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ *} [الحديد: ٧].

٦ ـ ضَبَطَ الإسلام السِّيادة بتحريم الظُّلم ، والعدوان ، والبغي. قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *} [الأنعام: ٢١] ، وقال تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا *} [الفرقان: ٣٧] ، وقال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *} [النحل: ٩٠].

٧ . ضَبَطَ حاجته إلى العمل ، والنَّجاح؛ بأن جعل من الَّلازم أن يكون العمل مشروعاً ، وغير مضرٍّ بأحدٍ من النَّاس ، ونادى المسلمين أن يعملوا في هذه الدُّنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدَّعوة والدِّين ، وما يدَّخرون عند الله سبحانه ، قال تعالى: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *} [الأعراف: ١٢٩].

وربط العلم بالإيمان في كثيرٍ من ايات القران الكريم ، وشرط في العمل أن يكون صالحاً ،

قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً *} [الكهف: ٣٠] ، وطالب بالإحسان في العمل ، فقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *} [النحل: ٩٠].

٨ . وحذَّر سبحانه من الدَّعة والبطر ، والاغترار بالنِّعمة ، فقال سبحانه: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ *} [القصص: ٥٨] .

هذه بعض الأسس الَّتي قامت عليها التربية النَّبويَّة للأجسام ، حتى تستطيع أن تتحمَّل أثقال الجهاد ، وهموم الدَّعوة ، وصعوبة الحياة.

لقد ربَّى النَّبيُّ (ص) صحابته على المنهج الكريم ، منهج تزكية الأرواح ، وتنوير العقول ، والمحافظة على الأجساد ، وتقويتها؛ لإعداد الشَّخصيَّة الإسلاميَّة الرَّبَّانيَّة المتوازنة ، ولقد نجحت تربيته (ص) في تحقيق أهدافها المرسومة.

رابعاً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق ، وتنقيتهم من الرَّذائل:

إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ ، وقد ربَّى رسولُ الله (ص) صحابته على مكارم الأخلاق ، بأساليب متنوعةٍ ، وكان (ص) يتلو عليهم ما ينزل من قران ، فإذا سمعوه ، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتدبِّر للقران المكِّيِّ يجده مليئاً بالحثِّ على مكارم الأخلاق ، وعلى تنقية الرُّوح ، وتصفيتها ، من كلِّ ما يعوق سيرها إلى الله تعالى ، ورسول الهدى (ص) القدوة الكاملة ، والمربِّي النَّاصح للأمَّة كان على خلقٍ عظيمٍ[(٤٥٥)]؛ قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *}[القلم: ٤] ومعنى الاية واضحٌ ، أي:

ما كان يأمر به من أمر الله ، وينهى عنه من نهي الله ، والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي اثرك الله به في القران[(٤٥٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله (ص) ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله (ص) كان القرانَ » [مسلم (٧٤٦) وأحمد (٦/٥٤) وأبو داود (١٣٤٢)] . وقد جمع الله تعالى لنبيِّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *} [الأعراف: ١٩٩] .

قال مجاهد في معنى الاية: يعني: خذ العفو من أخلاق النَّاس ، وأعمالهم من غير

تخسيسٍ ، مثل قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء في البحث ، والتَّفتيش عن حقائق بواطنهم[(٤٥٧)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: وهو كلُّ {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} ، وأعْرَفُهُ التَّوحيدُ ، ثُمَّ حقوق العبوديَّة ، وحقوق العبيد[(٤٥٨)] ، ثمَّ قال تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *} ، يعني: إذا سفه عليك الجاهل ، فلا تقابله بالسَّفه ، كقوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *} [الفرقان: ٦٣] ، وهكذا كان خلقه (ص) ؛ «كان النَّبيُّ (ص) أحسنَ النَّاس خُلُقاً» [البخاري (٦٢٠٣) ومسلم (٦٥٩)].

وكان النَّبيُّ (ص) يربِّي أصحابه على حسن الخُلُق ، ويحثُّهم عليه ، فعن النَّبيِّ (ص) قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخُلُق ، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِض الفاحشَ البذيءَ» [أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٤٧٦)].

وسئل رسول الله (ص) عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة؟ فقال: «تقوى الله ، وحسنُ الخلق» ، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ النار؟ فقال: «الفمُ ، والفرجُ» [أحمد (٢/٣٩٢) والترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وابن حبان (٤٧٦) والبخاري في الأدب الفرد (٢٨٩ و٢٩٤)] ، وقد بيَّن (ص) لأصحابه عظم ثواب حُسْنِ الخُلُق ، فقال: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً ، وإنَّ أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني يوم القيامة ، الثَّرْثارون ، والمتشدِّقونَ ، والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله! قد علمنا (الثرثارون ، والمتشدِّقون) ، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبِّرون» [الترمذي (٢٠١٨)].

الثَّرثار: هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيَّةٍ. والمتشدِّق: المتكلِّم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً ، وتطاولاً ، وإظهاراً لفضله على غيره ، والمتفيهق: هو الَّذي يتوسَّع في الكلام ، ويفتح به فاهه ، وأصله: من الْفَهْقِ ، وهو الامتلاء[(٤٥٩)].

لقد سار النَّبيُّ (ص) على المنهج القرانيّ في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة ، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة ، والعقائد في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحةٌ في كتاب الله تعالى ، وقد بيَّن سبحانه لرسوله (ص) ، وللمسلمين ، الأخلاقيات الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ (لا إله إلا الله) ، والأخلاقيات الجاهليَّة الَّتي ينبغي أن ينبذها المؤمنون ، والحقيقة: أنَّ التَّنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللَّحظة الأولى ، مع

التنديد بفساد تصوُّراتهم الاعتقاديَّة ، واستمرَّ معه حتَّى النِّهاية.

إنَّ الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدِّين ، وليست محصورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريّ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه ، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريّ كلِّه ، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة ، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد ، والإيمان الصَّحيح؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسبٍ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك ، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السُّلوك العمليَّ ، أو حين نرى عكسه أن نتساءل: أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّل إلى سلوكٍ[(٤٦٠)]؟!

ولذلك نجد القران الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قويّاً ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ؛ منها:

قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لأِمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *} [المؤمنون: ١ ـ ١١]؛ فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التَّوكيد: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *} ، ثُمَّ تصف هؤلاء المؤمنين بذلك الوصف المطوَّل المفصَّل ، الذي يُعْنَى بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين ، موحياً إيحاءً واضحاً أنَّ هذه الأخلاقيات ـ من جهةٍ ـ هي ثمرة الإيمان ، وأنَّ الإيمان ـ من جهةٍ أخرى ـ هو سلوكٌ ملموسٌ يُترجِم عن العقيدة المكنونة.

إنَّهم بادأى ذي بدء خاشعون في صلاتهم ، فذلك أوَّل مظهرٍ للمؤمن الصَّادق: أن تكون صلاتُه ـ وهي اللَّحظة التي يقف فيها متعبِّداً لربِّه ، ذاكراً له في قلبه ، متَّصلاً به بروحه ـ صلاةً خاشعةً بما ينبأى عن صدق الصِّلة باللهِ؛ الَّتي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصَّلاة ، ثمَّ تثنِّي السُّورة بصفة سلوكيَّة أخرى ذات دَلالةٍ ، هي: أنَّهم عن اللغو معرضون؛ فاللَّغو لا ينبأى عن نفسٍ جادَّةٍ ، والإيمان الصَّحيح يورث النَّفس الجدَّ بما يشعرها من ثقل التَّكاليف ، وجدِّيتها ، والجدُّ ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً ، ولكنَّ اللَّغو ـ من جانبٍ اخر ـ لا يستقيم مع جدِّية الشُّعور بعظم الأمانة؛ التي يحملها الإنسان أمام خالقه ، ثمَّ إنَّ هؤلاء المؤمنين لابدَّ أن تكون في قلوبهم الحساسية لحقِّ الله في أموالهم ، وهو الزَّكاة.

ولابدَّ أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس؛ فلا يتعدَّون حدود الله ، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعيَّة؛ فيحفظون الأمانة ، ويرعون العهد ، وبهذا نفهم فَهْم الصَّحابة

للأخلاق ، فهي ثمرةٌ طبيعيَّةٌ للعقيدة الصَّحيحة ، وكذلك العبادة الحيَّة الخاشعة لله ، هكذا تعلَّموا من القران الكريم ، ومن هدي حبيبهم الصَّادق الأمين (ص) .

لقد رسم القران الكريم لهم صورةً تفصيليَّةً للشَّخصيَّة المؤمنة ، فكانت العبادة أوَّل مَعْلَمٍ واضح فيها؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين أول وصفٍ لهم الخشوعَ في الصَّلاة ، واخر أوصافهم المحافظة عليها ، ووصفهم بفعل الزَّكاة ، وهي عبادةٌ ، مع الفضائل الخلقيَّة الأخرى.

إنَّ القران الكريم يبرز جانب العبادة أحياناً ، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى؛ لمناسباتٍ واعتباراتٍ توجب هذا الإبراز ، ففي سورة الذَّاريات كانت العناية بالعبادة في وصف المتقين: {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ *وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ *} [الذاريات: ١٦ ـ ١٩] .

وفي سورة الرَّعد كانت العناية بالجانب الأخلاقيِّ في وصف أصحاب العقول ، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ *وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *} [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

ومع أنَّ معظم الأوصاف هنا أخلاقيَّةٌ ـ لمناسبة أولي الألباب ـ مثل الوفاء والصِّلة ، والصَّبر ، والإنفاق؛ لكنَّ الملحوظ فيها أنَّها ليست مجرَّد أخلاقٍ (مدنيَّة) ، وإنَّما هي أخلاقٌ ربَّانيَّة ، أخلاقٌ فيها معنى

العبادة ، والتَّقوى ، فهم إنَّما يوفون (بعهد الله) ، وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهم إنَّما يفعلون ويتركون؛ لأنَّهم {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *} ، وهم إنَّما يصبرون ؛ فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون {ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} ، ويرجون اليوم الاخر[(٤٦١)].

لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق؛ لأنَّها من باب الوفاء لله ، والشُّكر للنِّعمة ، والاعتراف بالجميل ، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير ، والتَّعظيم ، وكلُّها من مكارم الأخلاق[(٤٦٢)] ، كانت أخلاقُ الصَّحابة ربَّانيَّة ، باعثها الإيمان بالله ، وحاديها الرَّجاء في الاخرة ، وغرضها رضوان الله ، ومثوبته ، فكانوا يصدقون في الحديث ، ويؤدُّون الأمانة ، ويوفون بالعهود ، ويصبرون في البأساء والضَّرَّاء ، وحين البأس ، ويغيثون الملهوف ،

ويرحمون الصَّغير ، ويوقِّرون الكبير ، ويرعون الفضيلة في سلوكهم؛ كلُّ ذلك ابتغاء وجه الله ، وطلباً لما عنده تعالى؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم ، كما قال تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا *} [الإنسان: ١١ ـ ١٢].

إنَّ أخلاق المؤمن عبادةٌ؛ لأنَّ مقياسه في الفضيلة ، والرَّذيلة ، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع ، هو أمر الله ونهيه؛ بالضَّمير وحدَه ليس بمعصومٍ ، وكم من أفرادٍ وجماعاتٍ رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال![(٤٦٣)].

والعقل وحده ليس بمأمونٍ؛ لأنَّه محدودٌ بالبيئة والظُّروف ، ومتأثِّرٌ بالأهواء والنِّزاعات ، وفي الاختلاف الشَّاسع للفلاسفة الأخلاقيِّين في مقياس الحكم الخلقيِّ ، دليلٌ واضحٌ على ذلك ، والعرف لا ثبات له ، ولا عموم؛ لأنَّه يتغيَّر من جيلٍ إلى جيل ، وفي الجيل الواحد من بلدٍ إلى بلدٍ ، وفي البلد الواحد من إقليمٍ إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الَّذي لا يضلُّ ، ولا ينسى ، ولا يتأثَّر ، ولا يجور[(٤٦٤)].

إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان ، وكلَّ أحاسيسه ، ومشاعره ، وتفكيره؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع ، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو ، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله ، وحرماته ، والتَّعامل مع الاخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف ، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس ، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح ، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار ـ أي: ردُّ العدوان ـ

وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكيّفه ، ولا شيءٌ واحدٌ ليست له دَلالةٌ أخلاقيّةٌ مصاحبةٌ.

هذا أمر ، والأمر الاخر ـ وهو الأهمُّ ـ أنَّ الأخلاق في المفهوم القراني هي لله ، وليست للبشر، ولا لأحدٍ غير الله؛ فالصِّدق لله، والوفاء بالعهد للهِ، واتّقاء المحرّمات في علاقات الجنس لله ، والعفو ، والصَّفح لله ، والانتصار من الظُّلم لله ، وإتقان العمل لله ، كلُّها عبادةٌ لله ، تُقَدَّمُ لله وحدَه؛ خشيةً لله ، وتقوى ، وتطلُّعاً إلى رضاه ، إنَّها ليست صفقةً بشريَّةً للكسب ، والخسارة ، إنَّما هي صفقةٌ تُعقد مع الله[(٤٦٥)].

قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]. ذلك هو الميثاق الأخلاقيُّ الشَّامل الَّذي التزم به الصَّحابة ، ومَنْ سار على هديهم؛ اتِّباعاً لصراط الله المستقيم ، فهو ـ إذاً ـ من العقيدة مرتبطٌ بها ارتباطاً أساسياً ، لا ينفصل عنها بحالٍ.

إنَّ الأعمال الخلقيَّة تدخل في جميع الجوانب ، ويرتقي بها الوحي الإلهيُّ إلى ذروةٍ متفرّدة حين يجعلها ديناً ، وعبادةً ومحلاً لثواب الله تعالى ، أو عقابه الأليم عند المخالفة[(٤٦٦)] ، وإذا تأمَّلنا في الايات السَّابقة من سورة الأنعام ، نجدها قد اشتملت على العناية بالضَّروريات الخمس ، وهي: «ما لابدَّ منها في قيام مصالح الدِّين ، والدُّنيا؛ حيث إنَّها إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدُّنيا على استقامةٍ ، بل على فسادٍ ، وتهارجٍ وفوت حياةٍ ، وفي الأخرى فوت النَّجاة والنَّعيم ، والرُّجوع بالخسران المبين»[(٤٦٧)] إنَّ دعوة النَّبيِّ (ص) من أهدافها إرجاع النَّاس إلى مقاصد الشَّريعة ، والَّتي من ضمنها المحافظة على الضَّروريات الخمس ، فقد اشتملت الايات الكريمة السَّابقة على العناية بالضَّروريات ، وهي:

أ ـ حفظ الدِّين: وذلك في قوله تعالى: {أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} ، وفي قوله تعالى: لأنَّه {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} يستقيم دينٌ مع الشِّرك بالله تعالى ، فأمَرَ سبحانه عباده أن يوحِّدوه بالعبادة ، وأن يتَّبعوا صراطه المستقيم ، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ،

ولا من خلفه ، ونهاهم عن اتِّباع سُبُل الشيطان؛ فإنَّها غيٌّ وضلالٌ ، وفي سلوكها إعراضٌ عن دين الحقِّ ، واتِّباعٌ لأهواء النفوس ، ووسواس الشَّيطان[(٤٦٨)] ، وقد قام النَّبيُّ (ص) بالمحافظة على الدِّين من خلال العمل به ، والجهاد من أجله ، والدَّعوة إليه ، والحكم به ، وردِّ كلِّ ما يخالفه[(٤٦٩)].

ب ـ حفظ النَّفس: في قوله تعالى: وقوله: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ} وقد وضعت الشَّريعة الوسائلَ الكفيلةَ {وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} بإذن اللَّهَ . بحفظ النَّفس

من التَّعدِّي عليها ، ومن هذه الوسائل[(٤٧٠)]: تحريمُ الاعتداء عليها ، وسدُّ الذَّرائع المؤدِّية إلى القتل ، كالقِصاص ، وضرورةُ إقامة البيِّنة في قتل النَّفس ، وضمان النَّفس ، وتأخير تنفيذ القِصاص؛ بحيث إذا خشيَ مِنْ قَتْلِ غير القاتل؛ وجب عليه العفو ، وكذلك إباحة المحظورات حالَ الضَّرورة[(٤٧١)].

ج ـ حفظ النَّسل: في قوله تعالى: ومن أعظم الفواحش الزِّنى؛ الَّذي وصفه الله تعالى في ايةٍ أخرى بأنَّه {وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} ، كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً *} [الإسراء: ٣٢] .

إنَّ حفظ النَّسل من الركائز الأساسية في الحياة ، ومن أسباب عمارة الأرض ، وفيه تكمن قوَّة الأمَّة ، وبه تكون مرهوبة الجانب ، عزيزة القدر ، تحمي دينها ، وتحفظ نفسها ، وتصون عرضها ، ومالها؛ ولذلك عُنِيَت الشَّريعة بحماية النَّسل ، ومنع كلِّ ما من شأنه أن يقف في طريق سلامته ، ووضعت ضوابط ، وأصولاً شرعيَّةً مهمَّةً في هذا الباب[(٤٧٢)].

د ـ حفظ المال: في قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ} وقوله: . ومن وسائل حفظ المال في الشَّريعة: تحريم الاعتداء {أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} ، وتحريم إضاعة المال ، وما شُرِعَ من الحدود في العهد المدنيّ؛ كحدِّ السَّرقة ، وحدِّ الحرابة ، وضمان المتلفات ، ومشروعيَّة الدِّفاع عن المال ، وتوثيق الدُّيون والإشهاد عليها ، وتعريف اللُّقَطَة ، وما يتبعه[(٤٧٣)].

هـ حفظ العقل: وأمَّا حفظ العقل ، فمطلوب أيضاً؛ لأنَّ التَّكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله ، ولا يقوم بها فاسد العقل ، وفي قوله تعالى: إشارةٌ إلى {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} ، والله أعلم[(٤٧٤)] ، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما من شأنه إفساد العقل ، وإدخال الخَلل عليه[(٤٧٥)].

وهكذا القران الكريم يعلم ، ويربِّي الصَّحابة على العقائد ، والعبادة ، والأخلاق ، ومقاصد الشَّريعة في وقتٍ واحدٍ ، إنَّ الأخلاق الرَّبَّانيَّة تصدر من القران الكريم بتقرير التَّوحيد ، والعبودية لله تعالى ، وهذا

بدوره تأكيدٌ أساسيٌّ على حقائق وأصول هذا المنهج القرانيّ ، الَّتي تتبع جميعها هذا المدخل التَّأسيسي ، وبذلك يتقرَّر:

١ ـ أنَّ الله تعالى هو وحده مصدر الشَّرائع جميعاً ، وهو شارع القيم ، والمعايير الأخلاقية؛ الَّتي تنسجم مع الفطرة ، وتوافق العقل السَّليم.

٢ ـ أنَّ الأخلاق دينٌ ملتزمٌ به ، بل هي أصلٌ من أصول المنهج الرَّبانيّ ، وليست مجرَّد فضائل فرديَّةٍ ، أو ادابٍ اجتماعيَّةٍ ، أو أذواقٍ حضاريَّةٍ.

٣ ـ أنَّ الأخلاق قيمٌ أساسيَّة في حياة البشر ، ينبغي أن تحظى بالثَّبات والاستقرار ، وبالتَّالي يمنع الطَّواغيت من التلاعب بها ، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء[(٤٧٦)].

وقد احتوى القران الكريم على العديد من الاداب الفذَّة ، الَّتي تعطي أسمى التَّوجيهات في باب الفضائل ، والاداب الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، ففي سورة الإسراء جاءت اياتٌ كريمةٌ هي من أجمع الايات؛ للحثِّ على الخُلُق المحمود ، والتَّنفير من الخُلُق المذموم.

قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا *وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا *رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا *وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا *إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا *وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا *وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا *إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا *وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً *وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً *كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا *} [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨].

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل التَّوحيد ـ أي: إفراد الله بالعبادة ـ على رأس هذا المنهج الخُلقيّ؛ الَّذي رسمته الايات مدحاً ، وذماً؛ لأنَّ التَّوحيد له في الحقيقة جانبٌ أخلاقي أصيل؛ إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل ، والإنصاف ، والصِّدق مع النَّفس ، كما أنَّ الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوءِ الأخلاق في المقام الأوَّل ، مثل الكِبْر ، عن قبول الحقِ ، والاستكبار عن اتِّباع الرُّسل غروراً ، وأَنَفَةً ، أو الولوع بالمِراء والجدل بالباطل

مغالبةً ، وتطلُّعاً للظُّهور ، أو تقليداً وجموداً على الإلف ، والعرف مع ضلاله وبهتانه ، وكلُّها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تُهلك أصحابها ، وتصدُّهم عن الحقِ بعدما تبيَّن ، وعن سعادة الدَّارين ، مع استيقان أنفسهم بأنَّ طريق الرُّسل هو السَّبيل إليها.

والايات بعد ذلك تذكر أنماطاً خُلُقيَّةً متعدِّدة الجوانب في شؤون الأسرة؛ مثل برِّ الوالدين ، وما جاء فيه من وصايا غايةً في السُّموِّ ، والإحسان ، والوفاء بالجميل ، ومثل برِّ الأقارب ، والضعفاء ، وفي شؤون المال ، والإنفاق بالنَّهي عن التبذير ، والأمر بالاعتدال بين الشُّحِّ المطْبق ، والبسط المستغرق ، وقد نفَّر الله تعالى من التَّبذير بإضافته إلى شرِّ الخلق: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا *} [الإسراء: ٢٧]. ونفَّر من الحرص ، والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثالٍ: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}

وتأمر الايات الكريمة بخلقٍ جميلٍ غايةً في السُّموِّ ، وهو الحرص على الكلمة الطَّيبة ، إذا لم يجد الإنسان من المال ما يَسَعُ به النَّاس: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ} وهي وصيَّةٌ ذات أثرٍ بالغٍ في إحسان العلائق بين {رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا *} ، بل ربَّما فضَّلوها على العطاء المادِّيِّ؛ خاصَّةً إذا اقترن بالمنِّ ، والأذى ، ثمَّ تتحدَّث الايات عن سوء الخلق بالبغي والاستطاعة ، وقساوة القلب ، وجفافه من الرَّحمة ، وجمود العاطفة الكريمة ، ويتمثَّل ذلك في مظهره الجنائيِّ ، وهو القتل ، وخاصَّةً قتل الابنة الصَّغيرة.

نعم ، القتل جريمةٌ جنائيَّةٌ تسلك في قانون العقوبات القصاصيَّة ، ولكنَّها هنا تُعالَج من زاويتها الأخلاقيَّة؛ التي تستهدف الوقاية ، وتعمل على تغيير الإرادة ، وتوجيهها وجهةً صالحةً لتحريم الفعل ، وتجريمه ، وإصلاح عقيدة صاحبه: {نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} ، وبهدم القيم الاجتماعيَّة الجائرة الَّتي صنعت هذا المنكر ، وسوَّغته بلا نكيرٍ ، وتنهى الايات عن الزِّنى ، وهو بالمقياس نفسه جريمةٌ خلقيَّةٌ أساسها البغي ، والاستطالة على الأعراض ، والحرمات ، وإهدار العفاف ، والشَّرف ، والاستهانة بكلِّ كريمٍ من

القيم الإنسانيَّة العليا ، وتأمر الايات ، وتنهى عن أمورٍ مردُّها إلى خلق الأمانة أو الخيانة ، والجدِّ أو العبث ، والتَّواضع العزيز أو الكبر ، والغرور؛ فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتَّى يبلغ أشدَّه ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والخيانة أضدادها ، ومن الجدِّ اشتغال الإنسان بما ينفعه ، وعدم تتبُّعه ما ليس به شأنٌ ، ولا علمٌ: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ٣٦] .

والعبث كلُّ العبث اشتغال الإنسان بما نُهِيَ عنه ، ومن التَّواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده ، ومعرفتُه قدر نفسه ، فيضعها في مواضعها الصَّحيحة ، ومن الكبر والغرور ذلك

التَّطاول المبنيُّ على الجهل ، والطيش ، والحماقة: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً *} [الإسراء: ٣٧] .

ولأنَّ هذه الوصايا جامعةٌ لك ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [الإسراء: ٣٩].

فسمَّاها حكمةً ، وختمها بالدَّعوة إلى التوحيد ، والنَّهي عن الشِّرك كما بدأها؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى مِفْتَاحُ كلِّ خيرٍ ، وحافظُه ، وحارسُه ، والكفر به مفتاحُ كلِّ شرٍّ وباعثُه[(٤٧٧)].

هكذا كانت تربية القران الكريم للصَّف المؤمن ، فقد كانت قائمةً على التخلُّق بمحاسن الأخلاق ، ونَبْذِ سيِّئها.

خامساً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرانيِّ:

إنَّ القصص القرانيَّ غنيٌّ بالمواعظ، والحكم، والأصول العقديَّة، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة ، والأساليب التَّربويَّة ، والاعتبار بالأمم والشُّعوب ، والقصص القرانيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين ، وإنَّما هو أعلى ، وأشرف ، وأفضل من ذلك ، فالقصص القرانيُّ مليءٌ بالتَّوحيد ، والعلم ، ومكارم الأخلاق ، والحجج العقليَّة ، والتَّبصرة ، والتَّذكرة ، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصَّة يوسف عليه السلام ، متأمِّلاً في جانب الأخلاق الَّتي عُرضت في مشاهدها الرَّائعة ، قال علماء الأخلاق ، والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمَّة إلا بمصلحين ، ورجال أعمالٍ قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروطٌ معلومةٌ ، وأخلاقٌ معهودةٌ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً؛ فله أربعون خَصْلَةً ذكروها ، كلُّها ادابٌ ، وفضائل بها يسوسُ أمتَه ، وإن كان رئيساً فاضلاً ، اكتفوا من الشُّروط الأربعين ببعضها ، وسيِّدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين ، وجمال النَّبيِّين ، ولقد

جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدياً لاختيار الأكفاء في مهامِّ الأعمال؛ إذ قد حاز الملك ، والنبوة! ونحن لا قِبَل لنا بالنُّبوة لانقطاعها ، وإنَّما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها اثنتي عَشْرَةَ خَصْلَةً هي أهمُّ خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكَّر في القران ، وتنبيهاً للمتعلِّمين السَّاعين للفضائل»[(٤٧٨)].

أهمُّ ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ ـ العفَّة عن الشَّهوات؛ ليضبط نفسه ، وتتوافر قوَّته النَّفسيَّة: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ *} [يوسف: ٢٤] .

٢ ـ الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: {قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ *} [يوسف: ٧٧].

٣ ـ وضع اللِّين في موضعه ، والشِّدَّة في موضعها: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ *فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ *} [يوسف: ٥٩ ـ ٦٠] فبداية الاية لينٌ ، ونهايتها شدَّةٌ.

٤ ـ ثقته بنفسه بالاعتماد على ربِّه: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ *} [يوسف: ٥٥].

٥ ـ قوَّة الذَّاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ، ومضى له سنون؛ ليضبط السِّياسات ، ويعرف للنَّاس أعمالهم: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ *} [يوسف: ٥٨].

٦ ـ جودة المصوِّرَة والقوَّة المخيِّلة؛ حتَّى تأتي بالأشياء تامَّة الوضوح: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَِبِيه ياأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ *} [يوسف: ٤].

٧ ـ استعداده للعلم ، وحبُّه له ، وتمكُّنه منه: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ *} [يوسف: ٣٨] ، و {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *} [يوسف: ١٠١].

٨ ـ شفقته على الضُّعفاء ، وتواضعه مع جلال قدره ، وعلوِّ منصبه ، فقد خاطب الفتيين المسجونين بالتَّواضع ، فقال: {يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *} [يوسف: ٣٩] ، وحادثهما في أمور دينهما ، ودنياهما بقوله: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}

[يوسف: ٣٧] ، و {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *} [يوسف: ٣٧] ، وشَهِدَا له بقولهما: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *} [يوسف: ٣٦] .

٩ ـ العفو عند المقدرة: {قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *} [يوسف: ٩٢] .

١٠ ـ إكرام العشيرة: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ *} [يوسف: ٩٣] .

١١ ـ قوَّة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملِك واقتداره على الأخذ بأفئدة الرَّاعي والرَّعيَّة والسُّوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنيَّة على الحكمة ، والعلم: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ *} [يوسف: ٥٤] .

١٢ ـ حسن التَّدبير: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ *} [يوسف: ٤٧] تالله! ما أجملَ القرانَ! وما أبهج العلم!

لاشكَّ أنَّ العلاقة بين القصص القرانيِّ والأخلاق متينةٌ؛ لأنَّ من أهداف القصص القرانيِّ التذكير بالأخلاق الرَّفيعة؛ الَّتي تفيد الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، والدَّولة ، والأمَّة ، والحضارة ، كما أنَّ من أهداف القصص القرانيِّ التنفير من الأخلاق الذَّميمة؛ الَّتي تكون سبباً في هلاك الأمم والشُّعوب ، ولقد استفاد الصَّحابة الكرام من تربية النَّبِيِّ (ص) لهم ، ومن المنهج الَّذي سار عليه ، فهذا جزءٌ من الأخلاق القرانيَّة النَّبويَّة أردت به التمثيل وليس الاستقصاء ، وفي سنَّة رسول الله (ص) وهديه مزيدٌ من التَّفصيل والبيان ، وإنَّ المنهج النَّبويَّ القرانيَّ الرَّبانيَّ في الأخلاق نمطٌ فريدٌ ، وعجيبٌ ، ليس له مقاربٌ ، ولا نظيرٌ؛ لأنه من ربِّ العالمين ، وقد تفرَّد بأمورٍ وخصائص ، زاد من قوَّتها واكتمالها وجودُها مجتمعةً على هذا الوجه المحْكَم ، ومنها:

١ ـ وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرَّبانيِّ متمثِّلاً في الكتاب والسُّنَّة ، وقد حدَّدا ما يُحْمَدُ ، أو يُذمُّ.

٢ ـ وجود ما يضبط السُّلوك ويبعث على العلم ، وهو رجاء الله والدَّار الاخرة.

٣ ـ وجود القدوة العمليَّة، وهي من أسس التَّربية الخلقيَّة ، وقد تمثَّل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله (ص)[(٤٧٩)] ؛ كما قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [القلم: ٤].

لقد أولى المنهاج النبويُّ الكريم ـ المستمدُّ من كتاب ربِّ العالمين ـ الأخلاق أهمِّيَّةً كبيرةً ، وحثَّ على التمسُّك بفضائلها بمختلف الأساليب ، وحذَّر من ارتكاب مرذولها بشتَّى الطُّرق ، ونظرة القران إلى الأخلاق منبثقةٌ من نظرته إلى الكون والحياة ، والإنسان ، فإذا كانت العقائد تشكِّل أركان الصَّرح الإسلاميّ؛ فإنَّ التَّشريعات تكوِّن تقسيمات حُجراته ، وممرَّاته ، ومداخله ، والأخلاق تُضفي البهاء ، والرَّونق ، والجمال على الصَّرح المكتمل ، وتصبغه الصِّبغة الربَّانيَّة المتميِّزة ، وإذا كانت العقيدة الإسلاميَّة تشكِّل جذور الدَّوحة الإسلاميَّة ، وجذعها ، فإنَّ الشَّريعة تمثِّل أغصانها ، وتشعُّباتها ، والأخلاق تكوِّن ثمارها اليانعة ، وظلالها الوارفة ، ومنظرها البهيج النَّضِر[(٤٨٠)].

لقد استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة ، والالتزام في تربيته للصَّحابة؛ لكي يحوَّل الخلق من دائرة النَّظريات ، إلى صميم الواقع التَّنفيذيِّ ، والعمل التَّطبيقيِّ ، سواءٌ كانت اعتقاديَّةً ، كمراقبة الله تعالى ، ورجاء الاخرة ، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر ، وصقل الإرادات ، وتزكية النَّفس ، ومع تطوُّر الدَّعوة الإسلاميَّة ، ووصولها إلى الدَّولة أصبحت هناك حوافز إلزاميَّةٌ تأتي من خارج النفس ، متمثلةً في:

أ ـ التَّشريع:

الَّذي وُضع لحماية القيم الخلقيَّة ، كشرائع الحدود ، والقِصاص؛ الَّتي تحمي الفرد ، والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل ، أو السَّرقة) ، أو انتهاك الأعراض: (بالزِّنى والقذف) أو البغي على النَّفس ، وإهدار العقل: (بالخمر ، والمسكرات المختلفة).

ب ـ سلطة المجتمع:

الَّتي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر، والتَّناصح بين المؤمنين ، ومسؤوليَّة بعضهم على بعض ، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤوليَّة قرينة الزَّكاة ، والصَّلاة ، وطاعة الله ورسوله (ص) {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ٧١].

بل جعلها المقوِّم الأصليَّ لخيريَّة هذه الأمَّة: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *} [آل عمران: ١١٠] .

وقد ظهرت هذه السُّلطة ، وأثرها في الفترة المدنيَّة:

ج ـ سلطة الدَّولة:
الَّتي وجب قيامها ، وأقيمت على أسس أخلاقيَّةٍ وطيدةٍ ، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق ، وبثِّها في سائر أفرادها ومؤسَّساتها ، وتجعلها من مهامِّ وجودها ومبرراته[(٤٨١)].
وبذلك اجتمع للخلق الإسلاميِّ أطراف الكمال كلِّه ، وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي ، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.
هذه بعض الخطوط في البناء العقائديِّ والرُّوحيِّ والأخلاقيِّ في الفترة المكِّيَّة ، ولقد اتت هذه التَّربية أُكُلَها ، فقد كان ما يزيد على العشرين من الصَّحابة الكرام من الخمسين الأوائل
السَّابقين إلى الإسلام ، يمارسون مسؤولياتٍ قياديَّةً بعد توسع الدَّعوة ، وانطلاقها في عهد النَّبيِّ (ص) وبعد وفاته ، وأصبحوا القادة الكبار للأمَّة ، وعشرون اخرون معظمهم استشهدوا ، أو ماتوا على عهد رسول الله (ص) ؛ فكان في الرَّعيل الأول أعظم شخصيات الأمَّة على الإطلاق ، كان فيه تسعةٌ من العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، وهم أفضل الأمَّة بعد رسول الله (ص) ، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة ، كعمَّار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعودٍ ، وأبي ذرٍّ ، وجعفر بن أبي طالب ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان من هذا الرَّعيل أعظم نساء الأمَّة خديجة رضي الله عنها ، ونماذج عاليةٌ أخرى ، مثل أمِّ الفضل بنت الحارث ، وأسماء ذات النِّطاقين ، وأسماء بنت عُمَيس ، وغيرهنَّ.
لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة ، والرُّوحيَّة ، والعقليَّة ، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ (ص) ، فكانوا هم حداة الرَّكب ، وهداةُ الأمَّة[(٤٨٢)] ، فقد كان رسولُ الله (ص) يزكِّيهم ، ويربِّيهم وينقِّيهم من أوضار الجاهليَّة ، فإذا كان السَّعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله (ص) ولو مرَّةً واحدةً في حياته ، وامن به ، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له ، ويتلقَّى منه ، ويعبق من نوره ، ويتغذَّى من كلامه ، ويتربَّى على عينه[(٤٨٣)]؟!!

* * *

الفصل الثَّالث

الجهر بالدَّعوة ، وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأوَّل

الجهر بالدَّعوة

بعد الإعداد العظيم الَّذي قام به النَّبيُّ (ص) لتربية أصحابه ، وبناء الجماعة المسلمة المنظَّمة الأولى على أسسٍ عقديَّةٍ ، وتعبُّديَّةٍ ، وخلقيَّةٍ رفيعة المستوى حان موعدُ إعلان الدَّعوة ، بنزول قول الله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ *} [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦] .

فجمع قبيلته (ص) ، وعشيرته ، ودعاهم علانيةً إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ ، وخوَّفهم من العذاب الشَّديد؛ إن عصوه ، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النَّار ، وبيَّن لهم مسؤولية كلِّ إنسانٍ عن نفسه[(٤٨٤)] .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت صَعِدَ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *} (ص) على الصَّفا ، فجعل ينادي: يا بني فِهْر! يا بني عَديٍّ ـ لبُطونِ قريش ـ حتَّى اجتمعوا ، فجعل الرَّجل إذا لم يستطعْ أن يَخرج؛ أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو ، فجاء أبو لهبٍ ، وقريشٌ ، فقال: أرأيتَكم لو أخبرتُكم: أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم! ما جَرَّبْنا عليك إلا صِدقاً ، قال: فإِنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبَّاً لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *} [المسد: ١ ـ ٢] [البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨)]

وفي روايةٍ: ناداهم بطناً بطناً ، ويقول لكلِّ بطن: «أنقذوا أنفسكم من النَّار....» ، ثمَّ قال: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار ، فإِنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا» [البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤)] كان

القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين ، فلمَّا رأوا محمَّداً (ص) ، ـ وهو الصَّادق الأمين ـ قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر إلى ما وراءه ، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم إنصافهم ، وذكاؤهم إلى تصديقه ، فقالوا: نعم.

ولما تمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة ، وتحقَّقت شهادة المستمعين؛ قال رسول الله (ص) : «فإِنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبوَّة ، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة ، والعلوم الوهبيَّة ، وموعظةً ، وإنذاراً ، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات ، والنُّبوَّات ، فلم تكن طريقٌ أقصر من هذه الطَّريق ، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب ، فسكت القوم[(٤٨٥)] ، ولكنَّ أبا لهب قال: تبّاً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبيُّ (ص) قد وضع للأمَّة أسس الإعلام؛ فقد اختار مكاناً عالياً ـ وهو الجبل ـ ليقف عليه، وينادي على جميع النَّاس ، فيصل صوته إلى الجميع ، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسال في عصرنا الحديث ، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعيِّ ، ثمَّ اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصِّدق ، وبهذا يكون (ص) قد علَّم رجال الإعلام والدَّعوة: أنَّ الاتصال بالنَّاس بهدف إعلامهم ، أو دعوتهم يجب أن يعتمد ـ وبصفةٍ أساسيَّةٍ ـ على الثِّقة التَّامَّة بين المرسِل ، والمستقبِل ، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة ، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه[(٤٨٦)].

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرَّسول (ص) دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة ، فبدء الدَّعوة بالعشيرة ، قد يعين على نصرته ، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثرٌ خاصٌّ؛ لما لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ ، فَجَلْبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابدَّ أن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقيَّة القبائل؛ لأنَّ الإسلام ـ كما يتجلَّى من القران الكريم ـ اتَّخذ الدَّعوة في قريشٍ خطوةً أولى لتحقيق رسالته العالية»[(٤٨٧)]، فقد جاءت الايات المكِّيَّة تبيِّن عالمية الدَّعوة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *} [الفرقان: ١] ، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء: ١٠٧] ، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [سبأ: ٢٨].

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها ، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم ، وبلدانهم ، ويتبع النَّاس في أنديتهم ، ومجامعهم ، ومحافلهم ، وفي المواسم،

ومواقف الحجّ ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ، وعبدٍ، وقويٍّ، وضعيفٍ ، وغنيٍّ ، وفقير[(٤٨٨)]؛ حين نزول قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ *إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ *الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ *} [الحجر: ٩٤ ـ ٩٧] .

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ ، والإعراض ، والسُّخرية ، والإيذاء ، والتَّكذيب ، والكيد المدبَّر المدروس ، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ (ص) وصحبه ، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها ، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّراع في كلِّ مكانٍ ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسباً عظيماً للدَّعوة ، ساهم فيه أشدُّ ، وألدُّ أعدائها ، ممَّن كان يشيع في القبائل قالة السُّوء عنها ، فليس كلُّ الناس يسلِّمون بدعاوى زعماء الكفر ، والشِّرك.

كانت الوسيلة الإعلاميَّة في ذلك العصر ، تناقل النَّاس للأخبار مشافهةً ، وسمع القاصي ، والدَّاني بنبوَّة الرَّسول (ص) ، وصار هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في المجالس ، ونوادي القبائل ، وفي بيوت النَّاس[(٤٨٩)].

أهم اعتراضات المشركين:

كانت أهمُّ اعتراضات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى ، والإيمان باليوم الاخر ، ورسالة النَّبيِّ (ص) ، والقران الكريم الذي أُنزل عليه من ربِّ العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والردّ عليها:

أولاً: الإشراك بالله:

لم يكن كفارُ مكَّةَ ينكرون: أنَّ الله خلقهم ، وخلق كلَّ شيءٍ ، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *} [لقمان: ٢٥] ، لكنَّهم كانوا يعبدون الأصنام ، ويزعمون: أنَّها تقرِّبهم إلى الله ، قال تعالى: [(٤٩٠)] {أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ *} [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم ، ولهذا قابلوا الدَّعوة إلى التَّوحيد بأعظم إنكارٍ ، وأشدِّ استغرابٍ[(٤٩١)]. قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ

كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ *}[(٤٩٢)] [ص: ٤ . ٧] ولم يكن تصوُّرهم لله تعالى ، ولعلاقته بخلقه صحيحاً؛ إذ كانوا يزعمون: أنَّ لله تعالى صاحبةً من الجنِّ ، وأنَّها ولدت الملائكة ، وأنَّ الملائكة بناتُ الله!

كانت الايات تنزل مُبيِّنةً: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الجنَّ ، والملائكة ، كما خلق الإنس، وأنَّه لم يتَّخذ ولداً ، ولم تكن له صاحبةٌ ، قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا [(٤٩٣)] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١] ، ومبينةً: أنَّ الجنَّ يُقرُّون لله بالعبودية ، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ *} [الصافات: ١٥٨].

ومُطالِبةً المشركين باتِّباع الحقِّ ، وعدم القول بالظُّنون ، والأوهام: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا *}[النجم: ٢٧ ـ ٢٨] ، ومُوضِّحَةً أنَّه لا يُعْقَلُ أن يَمْنَحَ اللهُ المشركين البنين ، ويخصَّ نفسه بالبنات ، وهنَّ أدنى قيمةً ـ في رأيهم ـ من البنين: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا *}[الإسراء: ٤٠] .

ومُحَمِّلةً المشركين مسؤوليَّة أقوالهم الَّتي لا تقوم على دليلٍ: {وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ *} [الزخرف: ١٩] .

ثانياً: كفرهم بالاخرة:

أمَّا دعوة الرَّسول (ص) إلى الإيمان باليوم الاخر ، فقد قابلها المشركون بالسُّخرية والتَّكذيب: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ *أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ *} [سبأ: ٧ ـ ٨]؛ فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ *} [الأنعام: ٢٩] ، ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلَّظة: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ *}

[النحل: ٣٨ ـ ٣٩] ، وكانوا يظنُّون أنَّه لا توجد حياةٌ في غير الدُّنيا ، ويطلبون إحياء ابائهم؛ ليصدقوا بالاخرة.

قال تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ *} [الجاثية: ٢٤ ـ ٢٧].

وفاتَهُم: أنَّ الذي خلقهم أوَّل مرَّةٍ، قادرٌ على أن يحييهم يوم القيامة ، قال مجاهد ، وغيره: جاء أُبَيُّ بنُ خلف[(٤٩٣)] إلى رسول الله (ص) وفي يده عظمٌ رميمٌ ، وهو يفتِّته، ويذروه في الهواء؛ وهو يقول: يا محمد! أتزعم: أنَّ الله يبعث هذا؟ قال (ص) : «نعم، يميتك الله تعالى، ثمَّ يبعثك ، ثمَّ يحشرك إلى النار» ، ونزلت هذه الايات[(٤٩٤)]:

{أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ *وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ *} [يس: ٧٧ ـ ٧٩] [الدر المنثور (٧/٧٥ ـ ٧٦)] .

كانت أساليب القران الكريم في إقناع النَّاس بالبعث تعتمد على خطاب العقل ، والانسجام مع الفطرة ، والتجاوب مع القلوب ، فقد ذكَّر الله عباده: أنَّ حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء ، والحساب ، فإن الله خلق الخلق لعبادته ، وأرسل الرُّسل ، وأنزل الكتب؛ لبيان الطَّريق الَّذي به يعبدونه ، ويطيعونه ، ويتبعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، فمن العباد مَنْ رفض الاستقامة على طاعة الله ، وطغى ، وبغى ، أفليس من العدل بعد ذلك أن يموت الطَّالح والصَّالح ، ثمَّ يُجزي اللهُ المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته. قال تعالى: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ *إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ *} [القلم: ٣٥ ـ ٣٨] .

إنَّ الملاحدة الَّذين ظلموا أنفسهم هم الَّذين يظنُّون: أنَّ الكون خُلِق عبثاً ، وباطلاً ، لا لحكمة ، وأنَّه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح ، والكافر المفسد ، ولا بين التَّقيّ والفاجر[(٤٩٥)]. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ *أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ *} [ص: ٢٧ ـ ٢٨] .

وضرب القران الكريم للنَّاس الأمثلة في إحياء الأرض بالنَّبات ، وأنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة ، والعظام البالية: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الروم: ٥٠] .

وذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه ، أمثلةً من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدُّنيا ، فأخبر النَّاسَ في كتابه عن أصحاب الكهف ، بأنَّه ضُرب على اذانهم في الكهف ثلاثمئةٍ وتسع سنين ، ثمَّ قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة ، قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا *} [الكهف: ١٢] ، {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا *} [الكهف: ١٩] ، {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا *} [الكهف: ٢٥] ، وغير ذلك من الأدلَّة والبراهين؛ التي استخدمها رسول الله (ص) في مناظراته مع زعماء الكفر ، والشِّرك.

ثالثاً: اعتراضهم على الرَّسول (ص):

اعترضوا على شخص الرَّسول (ص) ، فقد كانوا يتصوَّرون: أنَّ الرَّسول لا يكون بشراً مثلهم ، وأنَّه ينبغي أن يكون مَلَكاً ، أو مصحوباً بالملائكة: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *} [الإسراء: ٩٤] ، {وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ *وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ *} [الأنعام: ٨ ـ ٩] ، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة؛ لجعلناه على هيئة رجلٍ ، حتَّى يمكنهم مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالْتَبَس عليهم الأمر كما هم يلبِّسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[(٤٩٦)]. وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطَّعام ، ولا يمشي في الأسواق: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا *أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا *} [الفرقان: ٧ ـ ٨] ، وكأنَّهم لم يسمعوا بأنَّ الرُّسل جميعاً كانوا يأكلون ، ويسعون ، ويعملون: [(٤٩٧)] {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *}[الفرقان: ٢٠] .

ويريدون أن يكون الرَّسولُ كثيرَ المال ، كبيراً في أعينهم: {وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ *} [الزخرف: ٣١] .

ويقصدون بـ : {رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ *} بن المغيرة بمكَّة ، أو عروة بن مسعود الثَّقفي بالطَّائف[(٤٩٨)].

ونسبوا الرَّسول (ص) إلى الجنون: {وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ *لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *} [الحجر: ٦ ـ ٧] ، {أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ *ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ *} [الدخان: ١٣ ـ ١٤] .

وردَّ الله عليهم بقوله: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *} [القلم: ٢] .

كما نسبوه إلى الكهانة ، والشعر: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ *أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ *} [الطور: ٢٩ ـ ٣٠] .

هذا مع أنَّهم كانوا يعلمون: أنَّه لا يَنْظِمُ الشِّعر ، وأنَّه راجح العقل ، وأنَّ ما يقوله بعيدٌ عن سجع الكُهَّان ، وقول السَّحرة[(٤٩٩)].

ونسبوه (ص) إلى السِّحر ، والكذب: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ *} [ص: ٤] ، {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا *انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً *} [الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨].

وكانت الايات تتنزَّلُ على رسول الله (ص) تفنِّد مزاعم المشركين ، وتبيِّن له أنَّ الرُّسل السَّابقين استهزأى بهم ، وأنَّ العذاب عاقبة المستهزئين: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ *} [الأنعام: ١٠] ، وتُعَلِّمُهُ أنَّ المشركين لا يُكذِّبون شخصه ، ولكنَّهم يعاندون الحقَّ ، ويدفعون ايات الله بتلك الأقاويل[(٥٠٠)]: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} [الأنعام: ٣٣] .

رابعاً: موقفهم من القران الكريم:

كذلك لم يصدِّقوا: أنَّ القران الكريم منزلٌ من عند الله ، واعتبروه ضرباً من الشِّعر ، الَّذي كان ينظمه الشُّعراء ، مع أنَّ كلَّ من قارن بين القران ، وأشعار العرب يعلم أنَّه مختلفٌ عنها: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ *لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ *} [يس:

٦٩ ـ ٧٠] وكيف يكون القران شعراً وقد نزل فيه ذمٌّ للشعراء الَّذين يُضِلُّون الناس ويقولون خلاف الحقيقة؟![(٥٠١)] قال تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[(٥٠٢)] *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ *وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ *} [(٥٠٣)] [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]؛ فهو كلام الله المنزل على رسوله (ص) وليس شبيهاً بقول الشعراء ، ولا بقول الكهَّان: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ *ولاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣] .

وقد أدرك الشُّعراء قبل غيرهم: أنَّ القران الكريم ليس شعراً[(٥٠٤)] ، ومن فرط تكذيبهم ، وعنادهم قالوا: إنَّ محمَّداً يتعلَّم القران من رجلٍ أعجميٍّ[(٥٠٥)] ، كان غلاماً لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصَّفا ، وربَّما كان الرسول (ص) يجلس إليه ، ويكلِّمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجميَّ اللِّسان لا يعرف من العربيَّة إلا اليسير ، بقدر ما يردُّ جواب الخطاب فيما لابدَّ منه ، ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *} [النحل: ١٠٣] أي: فكيف يتعلَّم مَنْ جاء بهذا القران في فصاحته ، وبلاغته ، ومعانيه التَّامَّة الشَّاملة من رجلٍ أعجميٍّ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكةٍ من العقل[(٥٠٦)] .

واعترضوا على طريقة نزول القران ، فطلبوا أن ينزل جملةً واحدةً ، مع أنَّ نزوله مفرَّقاً أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به ، وتيسير فهمه ، وحفظه ، وامتثاله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً *}[الفرقان: ٣٢] .

فلمَّا اعترض المشركون على القران ، وعلى من أُنزِل عليه بهذه الاعتراضات؛ تحدَّاهم الله بأن يأتوا بمثله ، وأعلن عن عجز الإنس والجنِّ مجتمعين عن ذلك: {قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا *} [الإسراء: ٨٨] .

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سورٍ مثله:

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [هود: ١٣ ـ ١٤] .

وحتَّى السُّورة الواحدة هم عاجزون عن أن يأتوا بمثلها: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *} [يونس: ٣٧ ـ ٣٨] .

فعجزُهم ـ مع أنَّ الفصاحة كانت من سجاياهم ، وكانت أشعارهم ومعلَّقاتهم في قمَّة البيان ـ دليلٌ على أنَّ القران كلام الله الَّذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وأقواله ، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[(٥٠٧)].

خامساً: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ:

تحدَّث بعض الباحثين[(٥٠٨)] عن دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ ، فذكروا منها:

١ ـ ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

كان العرب الَّذين بُعِثَ فيهم النبي (ص) بعيدين عن الدِّيانات السَّماويَّة ، فلم يكونوا يدينون بدينٍ؛ ولم ينشغلوا بدراسة كتابٍ سماويٍّ ـ كما كانت تفعل اليهود ، والنَّصارى ـ ولهذا احتجَّ الله عليهم ببعثة محمَّدٍ (ص) ، يقول الله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ *أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ *} [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧] .

وكان لتغلغل المعتقدات الوثنيَّة في حياتهم ، وعقولهم ، وسيطرتها على تفكيرهم أثرٌ عظيم في تصلُّبهم أمام الحقِّ ، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته ، هذا فضلاً عن أنَّ طبيعة النَّفس البشريَّة حين لا تدين بدينٍ سماويٍّ ، فإنَّها تبتعد عن التجرُّد والصَّفاء العقديِّ ، وتميل إلى التَّجسيم المادِّيِّ الحسِّيِّ ، ولذلك أقدم عُبَّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم ، وأبنائهم دونها ، وهم يشاهدون مصارع إخوانهم ، وما حلَّ بهم ، ولا يزيدهم ذلك إلا حبّاً لها ، وتعظيماً ، ويوصي بعضهم بعضاً بالصَّبر عليها ، وتحمُّل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها ، وهم يسمعون أخبار الأمم الَّتي فُتنت بعبادتها ، وما حلَّ بهم من عاجل العقوبات[(٥٠٩)].

٢ ـ العصبيَّة لتراث الاباء ، والأجداد:

كان أكبر طاغوتٍ تحارَب به دعوات الرُّسل والأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ هو طاغوت التَّقليد ، والعادة المتبعة ، وهي من أكبر العوامل في الصَّدِّ عن دين الله ، ومن الصَّعب على الإنسان الخروج من

مألوفاته ، وإنَّ ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها؛ إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها ، وقد أشار القران الكريم إلى مرض تقليد الاباء في الباطل في الأمم السَّابقة[(٥١٠)]؛ فهذا
إبراهيم ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه قائلاً: {إِذْ قَالَ لأِبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ *قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ *قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ *أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ *} [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٤] .
وهذا المنهج هو دأب المشركين ، والمعارضين لدين الله على مرِّ الأجيال ، وإذا استنكر عليهم الدُّعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشَّهوات ، وانهماكهم في الفواحش ، وساءلوهم عن ذلك ، قالوا: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *} [الأعراف: ٢٨] .
ما ذلك إلا لفقدان الدَّليل ، وانقطاع الحجَّة؛ إذ إنَّهم لا يعتمدون على عقلٍ يرشدهم ، ولا كتابٍ يؤيِّدهم ، ولذلك قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ *} [لقمان: ٢٠ ـ ٢١] .
وإنَّما أوقع الكفارَ في هذا التَّقليد المنحرف استدراجُ الشَّيطان لهم من خلال فطرة مركوزةٍ في الإنسان أصلاً ، تدعوه إلى الوفاء للاباء ، والأجداد ، وتربطه بتاريخه وتراثه ، وهذا من أعظم وسائل الشيطان في الكيد: أن يأتي الإنسانَ من قبل غريزةٍ مطبوعةٍ فيه؛ من حبِّ الشَّهوة ، والوطن ، والمال ، وغيرها ، قال رسول الله (ص) : «إنَّ الشَّيطان قعد لابن ادم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال: تُسْلِمُ ، وتذر دينك ، ودين ابائك ، واباء أبيك؟ فعصاه ، فأسلم ، ثمَّ قعد له بطريق الهجرة ، فقال: تهاجر ، وتدع أرضك ، وسماءك؟! وإنَّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل![(٥١١)] فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال: تجاهد؟! فهو جهد النَّفس ، والمال ، فتقاتل ، فتقتل ، فتُنكح المرأة! ويُقسم المال! فعصاه فجاهد».
فقال رسول الله (ص) : «فمن فعل ذلك كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة ، ومن قتل كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة ، وإن غرق كان حقّاً على الله أن يدخله الجنَّة ، أو

وَقَصَتْهُ[(٥١٢)] دابته كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة» [النسائي (٦/٢١ ـ ٢٢) وأحمد (٣/٤٨٣) وابن حبان (٤٥٩٣)] .

فلما بُعث النبيُّ (ص) ، كان من التُّهم الَّتي وُجِّهت إليه: أنَّه كان يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه الاباء والأجداد ، وبذلك نفَّروا منه العامَّة والدَّهماء ، وفرضوا على الدَّعوة نوعاً من الحصار المؤقت[(٥١٣)].

٣ ـ موقف أهل الكتاب المساند للوثنيَّة:

كانت بيئة العرب الوثنيَّة مستعدَّةً لمواجهة دعوة التَّوحيد ، ومحاربتها ، ووجدت في موقف أهل الكتاب الرَّافض للدَّعوة مستنداً قويّاً لهذه المعارضة ، فهاهم أهل التَّوراة، والإنجيل، وورثة الكتب السَّماوية ، ينكرون دعوة محمَّد (ص) ، ويردُّونها ، ويكذِّبونها ، وهم أدرى منَّا بالدِّين ، وهذا كان مصدر دعمٍ ، وتقويةٍ ، وتثبيتٍ لموقف المشركين: {وَانْطَلَقَ الْمَلأَُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ *مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ *} [ص: ٦ ـ ٧] .

فمن عوامل الصَّبر على الالهة في مواجهة الدَّعوة الجديدة: أنهم لم يسمعوا بما جاء به (ص) في الملَّة الاخرة، وهي النَّصرانيَّة، قاله ابن عباس، والسُّدِّيُّ ، ومحمَّد بن كعب القرظيُّ ، وقتادة ، ومجاهد[(٥١٤)] ، وهذا مبنيٌّ على شهادة أهل الكتاب للمشركين ضدَّ الرَّسول (ص) ، وإلا فما كان للعرب من علمٍ بالكتب السَّماوية ، وما فيهامن الحقائق والأخبار[(٥١٥)].

٤ ـ سيطرة الأعراف ، والعوائد القبليَّة:

كان الصِّراع القبليُّ ، والتَّنافس على الرِّياسة ، والشَّرف ، والسُّؤدد ، ذا جذورٍ في الأعراف ، والعوائد القبليَّة ، ولذلك تجد المعارضين للدَّعوة المنتسبين للبطن الَّذي ينتسب إليه الرَّسول (ص) ، يحتجُّون على رسول الله (ص) بأنَّه ليس شيخاً ذا رياسةٍ ، وتقدُّمٍ فيهم ، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الإسلام خوفاً على مناصبهم ، ومكانتهم ، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظاً على مراكز قبائلهم ، وتكبُّراً على اتِّباع فردٍ من قبيلةٍ أخرى ، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «إنَّ أوَّل يومٍ عرفت فيه رسول الله (ص) ، كنت أنا ، وأبو جهل بن هشام في بعض أزقَّة مكَّة؛ إذ لقينا رسول الله (ص) ، فقال رسول الله (ص) لأبي جهل: يا أبا الحكم! هَلُمَّ إلى الله ، وإلى رسوله ، إنِّي أدعوك إلى الله ، فقال أبو جهل: يا محمد! هل أنت مُنتهٍ عن سبِّ الهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله! لو أنِّي أعلم أنَّ ما تقول حقاً ما تبعتك! فانصرف رسول الله (ص) ، وأقبل عليَّ ، فقال: والله! إنِّي

لأعلم أنَّ ما يقوله حقٌّ ، ولكن بني قصيٍّ قالوا: فينا الحجابة ، فقلنا: نعم ، قالوا: فينا النَّدوة ، قلنا: نعم ، قالوا: فينا اللِّواء ، قلنا: نعم ، قالوا: فينا السِّقاية ، قلنا: نعم. ثم أطعموا ، وأطعمنا حتَّى إذا تحاكَّت الرُّكب؛ قالوا: منا نبيٌّ! فلا والله لا أفعل» [البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٠٧)] .

٥ . حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب:

فقد كانوا يريدون أن تبقى لهم منزلتهم المرموقة ، وأمجادهم العريقة ، ويريدون أن تبقى لمكَّة قداستها عند القبائل العربيَّة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الإسلام سيسلبها هذه الميزة ، ويجعل العرب يغزونها ، ويمتنعون عن جلب الرِّزق إلى أسواقها ، وينسون: أنَّ الله هو المنعم عليهم بالأمن والرِّزق[(٥١٦)]: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *} [القصص: ٥٧] .

إنَّ قريشاً كانت تظنُّ: أن العرب الَّذين يقدِّسون الأصنام ، عندما يعلمون: أنَّ قريشاً ستعتنق ديناً جديداً ، وستترك دين ابائهم؛ فإنَّهم سينقضُّون عليها ، ويتخطَّفون أهلها؛ جزاءَ ما فعلوا ، بل ويمتنعون عن جلب الرِّزق إليهم في مواسم الحجِّ ، لكن هيهات! فإنَّ الله غالبٌ على أمره ، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ *} [العنكبوت: ٦٧] ، ويقول تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ *إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ *وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ *} [الصافات: ١٧١ . ١٧٣].

* * *

المبحث الثَّاني

سنَّة الابتلاء

الابتلاء . بصفةٍ عامَّةٍ . سنَّة الله في خلقه ، وهذا واضحٌ في تقريرات القران الكريم. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [الأنعام: ١٦٥] ، وقال سبحانه: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً *} [الكهف: ٧] ، وقال جلَّ شأنهُ: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *} [الإنسان: ٢] .

الابتلاء مرتبطٌ بالتَّمكين ارتباطاً وثيقاً؛ فلقد جرت سنَّة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمَّةٍ إلا بعد أن تمرَّ بمراحل الاختبار المختلفة ، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطَّيِّب ، وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأمَّة الإسلاميَّة لا تتخلَّف ، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبلي المؤمنين ، ويختبرهم؛ ليمحِّص إيمانهم ، ثمَّ يكون لهم التَّمكين في الأرض بعد ذلك ، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشَّافعيّ رضي الله عنه حين سأله رجلٌ: أيُّهما أفضل للمرء ، أنَّ يُمكَّن ، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشَّافعيُّ: لا يُمَكَّن حتَّى يبتلى ، فإنَّ الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّداً ـ صلوات الله ، وسلامه عليهم أجمعين ـ فلمَّا صبروا مكَّنهم؛ فلا يظنُّ أحدٌ أن يخلص من الألم ألبتَّة[(٥١٧)].

وابتلاء المؤمنين قبل التَّمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التَّمحيص؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكُّنٍ ورسوخ ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرَّحمة ، لا ابتلاء الغضب ، وابتلاء الاختيار ، لا مجرَّد الاختبار[(٥١٨)].

إنَّ طريق الابتلاء سنَّة الله في الدَّعوات ، كما أنَّه الطريق إلى الجنَّة ، وقد «حُفَّت الجنَّةُ بالْمكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات» [مسلم (٢٨٢٢) وأحمد (١٥٣/٣) والترمذي (٢٥٥٩)] .

حكمة الابتلاء ، وفوائده: للابتلاء حِكَمٌ كثيرة؛ من أهمِّها:

١ ـ تصفية النُّفوس:

جعل الله الابتلاء وسيلةً لتصفية نفوس النَّاس ، ومعرفة المؤمن الصَّادق من المنافق الكاذب؛ وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرَّخاء ، لكن يتبيَّن في الشِّدَّة. قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *} [العنكبوت: ٢] .

٢ ـ تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ: «ثمَّ إنَّه الطَّريق الَّذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة الَّتي تحمل هذه الدَّعوة ، وتنهض بتكاليفها؛ طريق التربية لهذه الجماعة ، وإخراج مكنوناتها من الخير ، والقوَّة ، والاحتمال ، وهو طريق المزاولة العمليَّة للتَّكاليف ، والمعرفة الواقعيَّة لحقيقة النَّاس ، وحقيقة الحياة؛ ذلك

ليثبت على هذه الدَّعوة أصلبُ أصحابها عوداً ، فهؤلاء هم الَّذين يصلحون لحملها . إذاً . بالصَّبر عليها ، فهم عليها مؤتمنون»[(٥١٩)].

٣ . الكشف عن خبايا النُّفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله ، مغيَّبٌ عن علم البشر ، فيحاسب النَّاس . إذاً . على ما يقع من عملهم ، لا على مجرَّد ما يعلمه سبحانه من أمرهم ، وهو فضلٌ من الله من جانبٍ ، وعدلٌ من جانبٍ ، وتربيةٌ للنَّاس من جانبٍ ، فلا يأخذون أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حقَّقه فعله؛ فليسوا بأعلمَ من الله بحقيقة قلبه»[(٥٢٠)].

٤ . الإعداد الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وما بالله . حاشا للهِ . أن يعذِّب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة ، ولكنَّه الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة ، فهي في حاجةٍ إلى إعدادٍ خاصٍّ ، لا يتمُّ إلا بالمعاناة العمليَّة للمشاقِّ ، وإلا بالاستعلاء الحقيقيِّ على الشَّهوات ، وإلا بالصَّبر الحقيقيِّ على الالام ، وإلا بالثِّقة الحقيقيَّة في نصر الله وثوابه ، على الرَّغم من طول الفتنة ، وشدَّة الابتلاء. والنَّفس تصهرها الشَّدائد ، فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة ، فتستيقظ وتتجمَّع ، وتطرقها بعنف وشدَّةٍ ، فيشتدُّ عودها ، ويصلب ويُصقل ، وكذلك تفعل الشَّدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً ، وأقواها طبيعةً ، وأشدُّها اتِّصالاً بالله ، وثقةً فيما عنده من الحُسْنَيَيْن: النَّصر أو الشَّهادة ، وهؤلاء هم الَّذي يُسلَّمون الرَّاية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[(٥٢١)].

٥ . معرفة حقيقة النَّفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدَّعوة حقيقتهم هم أنفسهم ، وهم يزاولون الحياة ، والجهاد مزاولةً عمليَّةً واقعيَّةً ، ويعرفوا حقيقة النَّفس البشرَّية وخباياها ، حقيقة الجماعات ، والمجتمعات ، وهم يرون كيف تصطرع مبادأى دعوتهم مع الشَّهوات في أنفسهم ، وفي أنفس الناس ، ويعرفون مداخل الشَّيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطَّريق ومسارب الضَّلال»[(٥٢٢)].

٦ . معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي تعزَّ هذه الدَّعوة عليهم ، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من جهدٍ وبلاءٍ ، وبقدر ما يضحُّون في سبيلها من عزيزٍ ، وغالٍ ، فلا يفرِّطون فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»[(٥٢٣)].

٧ ـ الدِّعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوةٌ صامتةٌ لهذا الدِّين ، وهي الَّتي تُدخِل النَّاس في دين الله ، ولو وهنوا ، أو استكانوا؛ لما استجاب لهم أحدٌ ، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النَّبيِّ (ص) ، ثمَّ يأتيه أمر النَّبيِّ (ص) أن يمضي إلى قومه ، يدعوهم ، ويصبر على تكذيبهم ، وأذاهم ، ويتابع طريقه؛ حتَّى يعود بقومه إلى رسول الله (ص)[(٥٢٤)] ، وسنرى ذلك في الصَّفحات القادمة ، إن شاء الله.

٨ ـ جذب بعض العناصر القويَّة إليها:

أمام صمود المسلمين وتضحياتهم تتوق النُّفوس القويَّة إلى هذه العقيدة ، ومن خلال الصَّلابة الإيمانيَّة تكبر عند هذه الشَّخصيات الدَّعوة ، وحاملوها ، فيسارعون إلى الإسلام دون تردُّدٍ ، وأعظم الشَّخصيات الَّتي يعتزُّ بها الإسلام دخلت إلى هذا الدِّين من خلال هذا الطريق[(٥٢٥)].

٩ ـ رفع المنزلة والدَّرجة عند الله ، وتكفير السَّيِّئات:

قال رسول الله (ص) : «ما يصيب المؤمنَ من شوكةٍ فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجةً ، أو حَطَّ عنه بها خطيئةً» [البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢)]. ، فقد يكون للعبد درجةٌ عند الله تعالى لا يبلغها بعمله ، فيبتليه الله تعالى حتَّى يرفَعه إليها ، كما أنَّ الابتلاء طريقٌ لتكفير سيِّئات المسلم[(٥٢٦)].

كما أنَّ للابتلاء فوائدَ عظيمةً؛ منها: معرفة عزِّ الرُّبوبية ، وقهرها ، ومعرفة ذلِّ العبودية ، وكسرها ، والإخلاص ، والإنابة إلى الله ، والإقبال عليه ، والتَّضرُّع ، والدُّعاء ، والحلم عمَّن صدرت عنه المصيبة ، والعفو عن صاحبها ، والصَّبر عليها ، والفرح بها لأجل فوائدها ، والشُّكر عليها ، ورحمة أهل البلاء ، ومساعدتهم على بلواهم ، ومعرفة قدر نعمة العافية ، والشُّكر عليها ، وما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الاخرة على اختلاف مراتبها ، وغير ذلك من الفوائد ، ومن أراد التوسُّع فليراجع كتاب فقه الابتلاء[(٥٢٧)].

وقد تعرَّض النَّبيُّ (ص) وأصحابه لأشكالٍ وأنواعٍ ، وأصنافٍ متعدِّدةٍ من الابتلاء ، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله (ص) ، وتشويه الدَّعوة ، وإيذائه (ص) ، وإيذاء أصحابه ، وعرض المغريات ، والمساومات لترك الدَّعوة ، ومطالبته بجعل الصَّفا ذهباً ، والاستعانة باليهود في مجادلة

رسول الله (ص) ، والدِّعاية الإعلاميَّة في المواسم ضدَّ الدَّعوة ، وشخص الرَّسول (ص) ، والحصار الاقتصاديِّ الَّذي تعرَّض له رسول الله (ص) ، وبنو هاشم ، وبنو المطَّلب من قِبَل كفار مكَّة ، والإيذاء الجسديِّ ، وغير ذلك من أنواع الابتلاء ، وسنبين في الصَّفحات القادمة ـ بإذن الله تعالى ـ أساليب المشركين في محاربة الإسلام ، وكيف تصدَّى لها رسولُ الله (ص) وأصحابه ، وكيف دفع رسول الله (ص) قَدَرَ سنَّة الابتلاء ، بسنَّة الأسباب ، وكيف تعامل رسول الله (ص) مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، حتَّى أقام دولة الإسلام في المدينة.

* * *

المبحث الثَّالث
أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة

أجمع المشركون على محاربة الدَّعوة الَّتي عرَّت واقعهم الجاهليَّ ، وعابت الهتهم ، وسفَّهت أحلامهم ـ أي: اراءهم ، وأفكارهم ـ وتصوُّراتهم عن الله ، والحياة ، والإنسان ، والكون؛ فاتَّخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدَّعوة ، وإسكات صوتها ، أو تحجيمها ، وتحديد مجال انتشارها.

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة ، وحماية رسول الله (ص):

جاءت قريش إلى أبي طالب ، فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قد اذانا في نادينا ، ومسجدنا؛ فانهه عنَّا ، فقال أبو طالب لرسول الله (ص) : إنَّ بني عمِّك هؤلاء زعموا: أنك تؤذيهم في ناديهم ، ومسجدهم ،

فانْتَهِ عن أذاهم ، فحلَّق رسول الله (ص) ببصره إلى السَّماء ، فقال: «ترون هذه الشَّمس؟» قالوا: نعم! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعَلوا منها بشعلةٍ» وفي روايةٍ: «والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعَل أحدٌ من هذه الشَّمس شعلةً من نارٍ» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قطُّ ، فارجعوا راشدين» [البخاري في التاريخ الكبير (٥١/١/٤) والبيهقي في دلائل النبوة (١٨٧/٢)][(٥٢٨)] ، وحاولت قريش مرَّاتٍ عديدةً الضَّغط على رسول الله (ص) بواسطة عائلته ، ولكنَّها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه ، وتصميمه على مناصرته ، وعدم خذلانه ، فاشتدَّ ذلك على قريش غمَّاً ، وحسداً ، ومكراً ، فمشوا إليه بعُمَارةَ بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له: «يا أبا طالب! هذا عُمَارةُ بنُ الوليد ، أنهدُ فتىً في قريشٍ ، وأجملُها ، فخذه ، فلك عَقْلُه[(٥٢٩)] ونصرُه ، واتَّخذه ولداً ، فهو لك ، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ، ودين ابائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفَّه أحلامنا ، فنقتله ، فإنَّما هو رجلٌ برجلٍ» قال: «والله لبئس
ما تسومونني![(٥٣٠)] أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني فتقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً!». [السيرة النبوية لابن هشام (٢٨٥/١) وابن كثير في البداية والنهاية (٤٨/٣)] .

وإنَّ المرء ليسمع عجباً ، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالبٍ مع رسول الله (ص) ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمَّد (ص) ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضمَّ بني هاشم ، وبني المطلب إليه في حلفٍ واحدٍ ، على الحياة والموت؛ تأييداً لرسول الله (ص) ، مسلمهم ، ومشركهم على السَّواء[(٥٣١)] ، وأجار ابن أخيه محمَّداً إجارةً مفتوحةً لا تقبل التردُّد ، أو الإحجام ، كانت هذه الأعراف الجاهليَّة ، والتَّقاليد العربيَّة تُسَخَّر من قبل النَّبيِّ (ص) لخدمة الإسلام ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم ، وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبي لهبٍ عدوِّ الله اللَّعين.

ولما رأى أبو طالبٍ من قومه ما سرَّه من جهدهم معه ، وحَدَبهم عليه ، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم ، ويذكر فضل رسول الله (ص) فيهم ، ومكانه منهم؛ ليشدَّ لهم رأيهم ، وليَحْدَبوا معه على أمره ، فقال:

إذا اجْتَمَعتْ يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍفَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّها وصَمِيمُها

وإنْ حُصِّلتْ أشْرافُ عَبْدِ مَنَافِهافَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُها وقَدِيْمُهَا

وإنْ فَخَرَتْ يوماً فإنَّ مُحَمَّداًهُوَ المصُطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا

تَداعَتْ قريشٌ غَثُّهَا وَثَمِيْنُهاعلينا فَلَمْ تَظْفَرْ وطَاشَتْ حُلُومُها

وَكُنَّا قَديماً لا نُقِرُّ ظُلاَمَةًإذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخُدُوْدِ نُقِيْمُها[(٥٣٢)]

وحين حاول أبو جهل أن يَخْفِر جوارَ أبي طالبٍ ، تصدَّى له حمزةُ ، فَشَجَّه بقوسه ، وقال له: تشتم محمَّداً وأنا على دينه! فَرُدَّ ذلك؛ إن استطعت.

إنَّها ظاهرةٌ فذَّةٌ أن تقوم الجاهليَّة بحماية مَنْ يسبُّ الهتها ، ويعيب دينها ، ويسفِّه أحلامها ، وباسم هذه القيم يقدِّمون المهج والأرواح ، ويخوضون المعارك والحروب ، ولا يُمَسُّ محمَّدٌ (ص) بسوءٍ.

ولما خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكَّة ، وبمكانه منها ، وتودَّد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره ، أنَّه

غيرُ مُسْلِمٍ رسولَ الله (ص) ، ولا تاركه لشيءٍ أبداً حتَّى يهلك دونه؛ فقال:

ولما رأيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيْهِمُوقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائِلِ

وقَدْ صارَحُونَا بالعَداوَةِ والأَذَىوقَدْ طاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المزَايلِ

وقد حالفوا قوماً عَلَيْنَا أَظِنَّةًيَعضُّون غيظاً خَلْفَنا بالأنَامِلِ

صَبَرْتُ لهمْ نَفْسِي بِحَمْرَاءَ[(٥٣٣)] سَمْحةٍوأَبْيَضَ عَضْبٍ[(٥٣٤)] مِنْ تُرَاثِ المقَاوِلِ

وأحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وإِخْوَتيوأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِه بالوَصَائلِ[(٥٣٥)]

وتعوَّذ بالبيت ، وبكلِّ المقدَّسات الَّتي فيه ، وأقسم بالبيت بأنَّه لن يُسْلِمَ محمَّداً ولو سالت الدِّماء أنهاراً ، واشتدَّت المعارك مع بطون قريشٍ:

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ الله نُبْزَى مُحَمَّداًولما نُطَاعِنْ دُوْنَهُ ونُنَاضِل

ونُسْلِمه حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ[(٥٣٦)]ونُذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا والحَلائِلِ[(٥٣٧)]

ويَنْهضُ قَوْمٌ في الحَدِيْدِ إِلَيْكُمُنُهُوْضَ الرَّوَايا[(٥٣٨)] تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ

وقَرَّع زعماءَ بني عبد منافٍ بأسمائهم لخذلانهم إيَّاه ، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فَعُتْبَةُ لاَ تَسْمَعْ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍحَسُوْدٍ كَذُوبٍ مُبْغِضٍ ذِيْ دَغاوِلِ[(٥٣٩)]

ولأبي سفيان بن حربٍ يقول:

ومَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّيَ مُعْرِضاًكَمَا مرَّ قَيْلٌ[(٥٤٠)] مِنْ عِظَامِ المقَاوِلِ

يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِويَزْعُمُ أَنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ[(٥٤١)]

وللمُطْعم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل يقول:

أَمُطعِمُ لَمْ أَخْذُلْكَ فِي يَوْمِ نَجْدَةٍوَلاَ مُعْظِمٍ عِنْدَ الأمُوْرِ الجَلاَئِلِ

أَمُطْعِمُ إِنَّ الْقَوْمَ سَامُوْكَ خُطَّةًوإِنِّي مَتَى أُوكَلَ فَلَسْتُ بِوَائِلِ[(٥٤٢)]

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ ونَوْفَلاًعُقُوبَةَ شرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ اجلِ[(٥٤٣)]

لقد كان كسب النَّبيّ (ص) لعمّه ، وجذبه إلى صفِّه للدِّفاع عنه ، نصراً عظيماً ، وقد استفاد (ص) من العُرْف القبليّ ، فتمتَّع بحماية العشيرة ، ومُنِع من أيِّ اعتداء يقع عليه ، وأعطي حرِّيَّة التَّحرُّك والتَّفكير ، وهذا يدلُّ على فهم النَّبيِّ (ص) للواقع الَّذي يتحرَّك فيه ، وفي ذلك درسٌ بالغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى للتَّعامل مع بيئتهم ، ومجتمعاتهم ، والاستفادة من القوانين ، والأعراف ، والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرَّسول (ص):

قام مشركو مكَّة بتشويه دعوة الرَّسول (ص) ، ولذلك نظَّمت قريش حرباً إعلاميَّةً ضدَّه لتشويهه ، قادها الوليد بن المغيرة؛ حيث اجتمع مع نفر من قومه ، وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر موسم الحجِّ ، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيُكذِّب بعضكم بعضاً ، ويردُّ قولكم بعضُه بعضاً.

ـ فقالوا: فأنت أبا عبد شمس! فقلْ ، وأقِمْ لنا رأياً نقول به.

ـ قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

ـ فقالوا: نقول: كاهنٌ.

ـ فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكُهَّانَ، فما هو بزمزمة[(٥٤٤)] الكاهن، ولا سَجْعه.

ـ فقالوا: نقول: مجنونٌ.

ـ فقال: ما هو بمجنونٍ ، لقد رأينا الجنونَ ، وعرفناه ، فما هو بخَنْقِه ، ولا تَخالُجِه ، ولا وَسْوَسَتِه.

ـ فقالوا: نقول: شاعرٌ.

ـ فقال: ما هو بشاعرٍ ، قد عرفنا الشِّعر برجزه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشِّعر.

ـ قالوا: فنقول ساحرٌ.

ـ قال: ما هو ساحر ، لقد رأينا السُّحَّار ، فما هو بِنَفْثِهِمْ ، ولا عَقْدِهِمْ.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!

ـ قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوةً ، وإن أصله لعَذقٌ[(٥٤٥)] ، وإن فرعه لجَنَاةٌ[(٥٤٦)] ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنَّه باطلٌ ، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحرٌ ، فقولوا: ساحرٌ يفرّق بين المرء وبين أبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته[(٥٤٧)].

وأنزل الله تعالى في الوليد: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا *[(٥٤٨)] وَبَنِينَ شُهُودًا *وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا *ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ *كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا[(٥٤٩)] *إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[(٥٥٠)] *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[(٥٥١)] *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ[(٥٥٢)] *إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ *سَأُصْلِيهِ سَقَرَ *} [المدثر: ١١ ـ ٢٦] .

ويتَّضح من هذه القصَّة: أنَّ الحرب النَّفسيَّة المضادَّة للرَّسول (ص) لم تكن توجَّه اعتباطاً ، وإنَّما كانت تعدُّ بإحكام ودقَّةٍ بين زعماء الكفَّار ، وحسب قواعد معيَّنةٍ ، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النَّفسيَّة في العصر الحديث؛ كاختيار الوقت المناسب ، فهم يختارون وقت تجمُّع النَّاس في موسم الحج ، والاتِّفاق وعدم التَّناقض ، وغير ذلك من هذه الأسُس حتَّى تكون حملتهم منظَّمةً ، وبالتَّالي لها تأثيرٌ على وفود الحجيج ، فتؤتي ثمارها المرجوَّة منها ، ومع اختيارهم للزَّمان المناسب ، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتَّى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكَّة[(٥٥٢)].

ويتَّضح من هذا الخبر ، عظمة النَّبيِّ (ص) وقوَّته في التَّأثير بالقران على سامعيه ، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم ، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبُّر ، والتَّعاظم ، فإنَّه قد تأثَّر بالقران ، ورقَّ له ، واعترف بعظمته ، ووصفه بذلك الوصف البليغ[(٥٥٣)] ، وهو في حالة استجابة لنداء العقل ، ولم تستطع تلك الحرب الإعلاميَّة المنظَّمة أن تحاصر دعوة

رسول الله (ص) ؛ بل استطاع محمَّد (ص) أن يخترق حصار الأعداء ، الَّذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكَّة من رسول الله (ص) ، وتشويه سمعته عندهم؛ بل صاروا يتلقَّون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم ، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه ، والتأثُّر بدعوته ، فقد كان رسولُ الله (ص) عظيمَ النَّجاح في دعوته ، بليغاً في التأثير فيمن خاطبه ، حيث يؤثِّر على من جالسه بهيئته ، وسَمْتِه ، ووقاره قبل أن يتكلَّم ، ثمَّ إذا تحدَّث أسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ ، المتمثِّل في العقل السَّليم ، والعاطفة الجيَّاشة بالحبِّ والصَّفاء ، والنِّيَّة الخالصة في هداية الأمَّة بوحي الله تعالى[(٥٥٤)]. ومن أبرز الأمثلة على قوَّته في التأثير بالكلمة المعبِّرة

، والأخلاق الكريمة ، وقدرته على اختراق الجدار الحديديّ ، الّذي حاول زعماء مكَّة ضربه عليه ، ما كان من موقفه مع ضماد الأزديِّ ، وعمرو بن الطُّفيل الدَّوسيِّ ، وأبي ذرٍّ ، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم ، وهَاكَ التفصيلَ:

١ ـ إسلام ضِماد الأزديِّ رضي الله عنه:

وفَدَ ضِمادُ الأزديُّ إلى مكَّة ، وتأثَّر بدعاوى المشركين على رسول الله (ص) ، حتَّى استقرَّ في نفسه: أنَّه مصاب بالجنون ـ كما يتَّهمه بذلك زعماء مكَّة ـ وكان ضماد من أزد شنوءة ، وكان يعالِجُ من الجنون ، فلمَّا سمع سفهاء مكَّة يقولون: إنَّ محمَّداً (ص) مجنونٌ ، فقال: لو أني رأيت هذا الرَّجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ.

قال: فلقيه ، فقال: يا محمد! إنِّي أرقي من هذه الرِّيح ، وإنَّ الله يشفي على يديَّ من شاء؛ فهل لك؟ فقال رسول الله (ص) : «إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمَّداً عبده ، ورسوله ، أما بعدُ».

فقال: أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاء ! فأعادهنَّ عليه رسول الله (ص) ثلاث مرَّاتٍ. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السَّحرة ، وقول الشُّعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ[(٥٥٥)] ، فقال لرسول الله (ص) : هات يدك أبايعْك على الإسلام ، قال: فبايعه ، فقال رسول الله (ص) : «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة ، وكانت سرايا رسولِ الله تُبعث؛ مرُّوا على قوم ضماد ، فقال صاحب السَّريَّة للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطْهَرَةً ، فقال: ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء قومُ ضمادٍ. [مسلم (٨٦٨) وأحمد (١/٣٠٢) والنسائي (٦/٨٩ ـ ٩٠) وابن ماجه (١٨٩٣)] .

دروسٌ وفوائد:

١ ـ دعاية قريش ، وتشويه شخص الرَّسول (ص) ، واتِّهامه بالجنون؛ حمل ضماداً على السَّير للرَّسول (ص) من أجل رقيته ، فكانت الحرب الإعلاميَّة المكيَّة ضدَّ الرَّسول (ص) سبباً في إسلامه ، وإسلام قومه.

٢ . تتَّضح صفتا الصَّبر والحلم في شخص النَّبيِّ (ص) ، فقد عرض ضماد على رسول الله (ص) ، معالجته من مرض الجنون ، وهذا موقفٌ يثير الغضب ، ولكنَّ رسول الله (ص) استقبل الأمر بحلمٍ ، وهدوءٍ ، ممَّا أثار إعجاب ضمادٍ واحترامه لرسول الله (ص) .

٣ . أهمِّية هذه المقدِّمة الَّتي يستفتح بها رسول الله (ص) بعض خطبه ، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده ، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله (ص) كثيراً ما يجعلها بين يدي خطبه ، ومواعظه.

٤ . تأثَّر ضماد بفصاحة الرَّسول (ص) ، وقوَّة بيانه؛ لأنَّ حديث الرَّسول (ص) انبعث من قلب مُلأى إيماناً ، ويقيناً ، وحكمةً ، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب ، ويجذبها إلى الإيمان.

٥ . في سرعة إسلام ضماد دليلٌ على أنَّ الإسلام دين الفطرة ، وأنَّ النفوس إذا تجرَّدت من الضُّغوط الدَّاخليَّة والخارجيَّة؛ فإنَّها غالباً تتأثَّر وتستجيب ، إمَّا بسماع قول مؤثِّرٍ ، أو الإعجاب بسلوكٍ قويم.

٦ . حرص الرَّسول على انتشار دعوته؛ حيث رأى في ضماد صدق إيمانه ، وحماسته للإسلام ، وقوَّة اقتناعه به ، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

٧ . وفي هذا بيانٌ واضح لأهمِّيَّة الدَّعوة إلى الله تعالى؛ حيث جعلها النَّبيُّ (ص) قرينة الالتزام الشَّخصيِّ ، فقد بايع رسول الله (ص) على الالتزام بالدِّين ، فلم يكتف رسولُ الله (ص) بذلك؛ بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

٨ . حفظ المعروف والودّ لأهل السَّابقة ، والفضل: «ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء من قوم ضماد»[(٥٥٦)].

٩ . في الحديث بعض الوسائل التَّربويَّة التي استعملها النَّبيُّ (ص) مع ضماد ، كالتأنِّي في الحديث ، وأسلوب الحوار ، والتَّوجيه المباشر ، وتظهر بعض الصِّفات في شخصية رسول الله (ص) كمربٍّ؛ كالحلم ، والصبر ، والتَّشجيع على الإكثار من الخيرات.

٢ . إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

قال عَمْرُو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أَظُنُّ أنَّ النَّاس على ضلالةٍ ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ؛ وهم يعبدون الأوثان ، فسمعتُ برجلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أخباراً ، فقعدت على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسولُ الله (ص) مستخفياً ، جُرَاءُ عليه قومُه ، فَتَلَطَّفْتُ حتَّى دخلت عليه بمكَّة ، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ» فقلت: وما نبيٌّ؟ قال: «أرسلني الله» ، فقلت: وبأي شيءٍ أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ به شيءٌ» فقلت له: فمن معك على

هذا؟ قال: «حرٌّ ، وعبدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر ، وبلالٌ ممَّن امن به ، فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا ، ألا ترى حالي وحالَ النَّاس؟ ولكن ارجعْ إلى أهلك ، فإذا سمعتَ بي قد ظَهَرْتُ فائتني».

قال: فذهبت إلى أهلي ، وقدم رسول الله (ص) المدينة ، وكنت في أهلي ، فجعلتُ أتَخَبَّرُ الأخبارُ ، وأسأل النَّاس حين قدم المدينة ، حتَّى قدم عليَّ نفرٌ من أهل يثرب من أهل المدينة ، فقلت: ما فعل هذا الرَّجلُ الَّذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناسُ إليه سِراعٌ ، وقد أراد قومُه قتله ، فلم يستطيعوا ذلك ، فقدمت المدينة ، فدخلت عليه ، فقلت: يا رسول الله! أتعرفني؟ قال: «نعم ، أنت الَّذي لقيتني بمكَّة». وذكر بقيَّة الحديث ، وفيه: أنَّه سأله عن الصَّلاة ، والوضوء. [مسلم (٨٣٢) وأحمد (١١٢/٤) وأبو داود (١٢٧٧) والنسائي (٢٧٩/١ ـ ٢٨٠) وابن ماجه (١٢٥١)] .

دروس وعبر:

١ ـ عَمْرُو بنُ عَبَسَة كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهليَّة.

٢ ـ كانت الحروب الإعلاميَّة الضَّروس الَّتي شنَّتها قريشٌ على رسول الله (ص) سبباً في تتبُّع عمرو بن عبسة لأخبار الرَّسول (ص) .

٣ ـ جرأة ، وشدَّة قريش على رسول الله (ص) ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفياً وقومه جُرَاءُ عليه.

٤ ـ الأدب في الدُّخول على أهل الفضل والمنزلة ، قال عمرو بن عبسة: «فتلطَّفت حتَّى دخلت عليه».

٥ ـ الرِّسالة المحمَّدية تقوم على ركيزتين: حقِّ الله ، وحقِّ الخلق. قال (ص) : «أرسلني بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان» وفي هذا دليلٌ على أهمِّيَّة صلة الأرحام؛ حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام ، مع اقترانه بالدَّعوة إلى التَّوحيد ، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوَّة ، مع أنَّها كانت أقدس شيءٍ عند العرب ، وفي هذا دلالةٌ على أهمِّيَّة إزالة معالم
الجاهليَّة ، وأنَّ دعوة التَّوحيد لا تستقرُّ ولا تنتشر ، إلا بزوال هذه المعالم.

٦ ـ وفي اهتمام النَّبيِّ (ص) المبكِّر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالةٌ على أنَّ أمور الدِّين لا يجوز تأخير بيانها للنَّاس ، بحجَّة عدم القدرة على تطبيقها ، فالَّذين يبيِّنون للنَّاس من أمور الدِّين ما يستطيعون تطبيقه بسهولةٍ ، وأمن ، ويحجمون عن بيان أمور الدِّين الَّتي يحتاج تطبيقها إلى شيءٍ من المواجهة والجهاد هؤلاء دعوتهم ناقصةٌ ، ولم يقتدوا برسول الله (ص) الذي واجه الجاهليَّة وطغاتها وهو في قلَّةٍ من أنصاره ، والسِّيادة في بلده لأعدائه[(٥٥٧)].

٧ ـ حِرْصُ الرَّسول (ص) على صحابته ، وتوفير الجوِّ الامن لهم ، والسَّير بهم إلى برِّ الأمان ، وإبعادهم عن التَّعرُّض للمضايقات ، فقد قال لعَمْرِو بنِ عَبَسَةَ: «إنك لا تستطيع يومك هذا».

٨ ـ تذكُّر رسول الله (ص) لأحوال أصحابه ، وعدم نسيان مواقفهم ، قال: «أنت الذي لقيتني بمكَّة».

٩ ـ لم يكن رسول الله (ص) يعطي كلَّ مَنْ أسلم قائمةً بأسماء أتباعه ، فهذا ليس للسَّائل منه مصلحةٌ ، ولا يتعلَّق به بلاغ ، ولذلك لما سأله عمرو بن عبسة عمَّن تبعه؛ قال: «حرٌّ ، وعبدٌ» وهذه تورية ـ كما قال ابن كثير ـ بأن هذا اسم جنس فَهِمَ منه عمرو: أنَّه اسم عين[(٥٥٨)].

١٠ ـ في قوله: «ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعتَ بي ظَهَرْتُ؛ فائتني» ، نأخذ منه درساً في الدَّعوة: أنَّ تكديس المريدين ، والأعضاء حيث المحنة ، والإيذاء ، ليس هو الأصل؛ فهذا رسول الله (ص) يوجِّه نحو الرُّجوع إلى الأقوام ، وأمر ـ كما سنرى ـ بالهجرتين إلى الحبشة ، فذلك تخفيفٌ عن المسلمين ، وإبعادٌ عن مواطن الخطر ، وسترٌ لقوَّة المسلمين ، وإعطاء فرصةٍ للقائد حتَّى لا ينشغل ، وضمانٌ للسِّرِّيَّة ، وإفادةٌ للمكان المرسل إليه، وإعدادٌ للمستقبل، وملاحظةٌ لضمان الاستمرار ، وتجنُّب الاستئصال[(٥٥٩)].

وممَّن أسلم بسبب الحرب الإعلاميَّة ضدَّ الرَّسول (ص) ، الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيُّ ، وجاءت قصَّته مفصَّلةً في كتب السِّيرة ، ويرى الدُّكتور أكرم ضياء العمري: أنَّه لم يثبت منها إلا أنَّه دعا رسولَ الله (ص) للالتجاء إلى حصن دوسٍ المنيع ، فأبى رسول الله (ص) ذلك [مسلم (١١٦) وأحمد (٣/٣٧١)] ، وأشارت روايةٌ صحيحةٌ إلى أنَّ الطُّفيل دعا قومه إلى الإسلام ، ولقي منهم صدوداً ، حتَّى طلب الطُّفيل من رسول الله (ص) أن يدعو عليهم ، لكن رسول الله (ص) دعا لهم
بالهداية [البخاري (٢٩٣٧) ومسلم (٢٥٢٤)] وكان الرسول (ص) انئذٍ بالمدينة المنوَّرة[(٥٦٠)]..

٣ ـ إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنهما:

جاءت قريش إلى الحصين ـ وكانت تعظِّمه ـ فقالوا له: كَلِّمْ لنا هذا الرَّجل ، فإنَّه يذكر الهتنا ، ويسبُّها ، فجاؤوا معه حتَّى جلسوا قريباً من باب النَّبيِّ (ص) ، فقال: «أوسعوا للشَّيخ» ، وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك ، أنك تشتم الهتنا ، وتذكرها ، وقد كان أبوك حصينةً[(٥٦١)] ، وخيراً؟ فقال: «يا حُصَيْنُ! إنَّ أبي وأباك في النَّار ، يا حُصَيْنُ! كم تعبد من إله؟» قال: سبعاً في الأرض ، وواحداً في السَّماء. فقال: «فإذا أصابك الضرُّ مَنْ تدعو؟» قال: الَّذي في السَّماء. قال: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو؟» قال: الَّذي في السَّماء ، قال: «فيستجيب لك وحده ،

وتشركهم معه؟ أرضيته في الشُّكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدةً من هاتين. قال: وعلمت أنِّي لم أكلم مثله ، قال: «يا حصين! أسلمْ تسلمْ». قال: إنَّ لي قوماً ، وعشيرةً ، فماذا أقول؟ قال: «قل: اللَّهم أستهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني» ، فقالها حصين ، فلم يَقُمْ؛ حتَّى أسلم. فقام إليه عِمْرانُ فقبَّل رأسه ، ويديه ، ورجليه ، فلمَّا رأى ذلك النَّبيُّ (ص) ؛ بكى ، وقال: «بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلمَّا أسلم قضى حقَّه ، فدخلني من ذلك الرِّقَّة» ، فلمَّا أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه إلى منزله» فلمَّا خرج من سُدَّةِ الباب؛ رأته قريشٌ ، فقالوا: صبأ!! وتفرَّقوا عنه»[(٥٦٢)].

ولعلَّ الَّذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السُّرعة سلامة فطرته ، وحسن استعداده من ناحيةٍ ، وقوَّة حجَّة الرَّسول (ص) وسلامة منطقه من ناحية أخرى[(٥٦٣)] ، ونلاحظ: أنَّ رسول الله (ص) استخدم أسلوب الحوار مع الحصين؛ لغرس معاني التوحيد في نفسه ، ونسف العقائد الباطلة الَّتي كان يعتقدها.

٤ ـ إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه:

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه مُنْكِراً لحال الجاهليَّة ، ويأبى عبادة الأصنام ، وينكر على مَنْ يشرك بالله ، وكان يصلِّي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات ، دون أن يخصَّ قبلة بعينها بالتوجُّه ، ويظهر أنَّه

كان على نهج الأحناف ، ولما سمع بالنَّبيِّ (ص) قدم إلى مكَّة ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه اللَّيل ، فاضطجع فراه عليٌّ رضي الله عنه ، فعرف: أنَّه غريب ، فاستضافه ، ولم يسأله عن شيءٍ ، ثمَّ غادره صباحاً إلى المسجد الحرام ، فمكث حتَّى أمسى ، فراه عليٌّ فاستضافه لِلَيلة ثانية ، وحدث مثل ذلك في اللَّيلة الثَّالثة ، ثمَّ سأله عن سبب قدومه ، فلمَّا استوثق منه أبو ذرٍّ؛ أخبره بأنَّه يريد مقابلة الرَّسول (ص) ، فقال له عليٌّ: فإنَّه حقٌّ ، وهو رسول الله ، فإذا أصبحت؛ فاتَّبعْني ، فإنِّي إن رأيتُ شيئاً أخاف عليك؛ قمت كأنِّي أريق الماء ، فإن مضيت ، فاتَّبعني، فتبعه ، وقابل الرَّسول (ص) ، واستمع إلى قوله فأسلم ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتَّى يأتيك أمري» ، فقال: والَّذي نفسي بيده ، لأصرخنَّ بها بين ظَهْرَانيْهم ، فخرج حتَّى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، وثار القوم حتَّى أضجعوه ، فأتى العبَّاس بن عبد المطَّلب ، فحذَّرهم من انتقام غفار ، والتَّعرُّض لتجارتهم الَّتي تمرُّ بديارهم إلى الشَّام ، فأنقذه منهم[(٥٦٤)] ، وكان أبو ذرٍّ قبل مجيئه قد أرسل أخاه؛ ليعلم له علم النَّبيِّ (ص) ويسمع من قوله ، ثمَّ يأتيه ، فانطلق الأخ حتَّى قدم إليه

، وسمع من قوله ، ثمَّ رجع إلى أبي ذرٍّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشِّعر ، فقال: ما شفيتني[(٥٦٥)] ممَّا أردت[(٥٦٦)] ، وعزم على الذَّهاب بنفسه لرسول الله (ص) ، فقال أخوه له: «وكُن على حذرٍ من أهل مكَّة فإنَّهم قد شَنِفُوا له ، وتجهَّمُوا» [البخاري (٣٨٦١) ومسلم (٢٤٧٤)][(٥٦٧)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ شيوع ذكر رسول الله (ص) بين القبائل ، واكثر مَنْ ساهم في ذلك مشركو قريش ، بما اتَّخذوه من منهج التَّحذير والتَّشويه لرسول الله (ص) ، ولما جاء به ، حتَّى وصل ذكره قبيلة غِفار.

٢ ـ تميُّزُ أبي ذرٍّ رضي الله عنه بأنَّه رجلٌ مستقلٌّ في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات ، ولا تستفزُّه الدِّعايات ، فيقبل كل ما تنشره قريش ، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله (ص) ، بعيداً عن التَّأثيرات الإعلاميَّة.

٣ ـ شدَّة اهتمام أبي ذرٍّ بأمر الرَّسول (ص) ، فلم يكتف بالمعلومات العامَّة التَّي جاء بها أخوه أُنيس ، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إنَّ مجال البحث ليس عن رجلٍ يأمر بالخير فحسب؛ وإنما عن رجلٍ يَذكر أنَّه نبيٌّ؛ ولذلك تحمَّل المشاقَّ، والمتاعب، وشظف العيش،

والغربة عن الأهل ، والوطن في سبيل الحقِ ، فأبو ذرٍّ ترك أهله، واكتفى من الزاد بجرابٍ ، وارتحل إلى مكَّة لمعرفة أمر النُّبوَّة[(٥٦٨)].

٤ ـ التَّأنِّي والتَّريُّث في الحصول على المعلومة؛ حيث تأنَّى أبو ذرٍّ رضي الله عنه؛ لما يعرفه من كراهية قريشٍ لكلِّ مَنْ يخاطب الرَّسول (ص) ، وهذا التَّأنِّي تصرُّفٌ أمنيٌّ تقتضيه حساسية الموقف ، فلو سأل عنه؛ لعلمت به قريش ، وبالتَّالي قد يتعرَّض للأذى والطَّرد ، ويخسر الوصول إلى هدفه ، الَّذي من أجله ترك مضارب قومه ، وتحمَّل في سبيله مصاعب ، ومشاقَّ السَّفر.

٥ ـ الاحتياط والحذر قبل النُّطق بالمعلومة: حين سأل عليٌّ رضي الله عنه أبا ذرٍّ رضي الله عنه عن أمره ، وسبب مجيئه إلى مكَّة ، لم يخبره بالرَّغم من أنَّه استضافه ثلاثة أيَّامٍ؛ إمعاناً في الحذر ، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه ، وفي الوقت ذاته أن يرشده ، فهذا غايةٌ في الاحتياط ، وتمَّ ما أراده.

٦ ـ التَّغطية الأمنيَّة للتَّحرُّك: تمَّ الاتفاق بين عليٍّ وأبي ذرٍّ رضي الله عنه على إشارةٍ ، أو حركةٍ معيَّنةٍ ، كأنَّه يصلح نعله ، أو كأنه يريق الماء ، وذلك عندما يرى عليٌّ رضي الله عنه من يترصدهما ، أو

يراقبهما ، فهذه تغطيةٌ أمنيةٌ لتحرُّكهم تجاه المقرِّ (دار الأرقم) ، هذا إلى جانب أنَّ أبا ذرٍّ كان يسير على مسافةٍ من عليٍّ ، فيُعدُّ هذا الموقف احتياطاً ، وتحسُّباً لكلِّ طارأى ، قد يحدث في أثناء التَّحرُّك.

٧ . هذه الإشارات الأمنيَّة العابرة ، تدلُّ على تفوُّق الصَّحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنيَّة ، وعلى مدى توافر الحسِّ الأمنيِّ لديهم ، وتغلغله في نفوسهم ، حتَّى أصبح سمةً مميِّزةً لكلِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتهم الخاصَّة والعامَّة ، فأتت تحرُّكاتهم منظَّمةً ومدروسةً ، فما أحوجنا لمثل هذا الحسِّ ، الَّذي كان عند الصَّحابة ، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمِّيَّةٌ بالغةٌ في زوال واستمرار الحضارات[(٥٦٩)] ، وأصبحت له مدارسه الخاصَّة ، وتقنياته المتقدِّمة ، وأساليبه ، ووسائله المتطوِّرة ، وأجهزته المستقلَّة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة ، وأضحت المعلومات عامَّةً، والمعلومات الأمنيَّة خاصَّةً تباع بأغلى الأثمان ، ويُضَحَّى في سبيل الحصول عليها بالنَّفس إذا لزم الأمر!.

وما دام الأمر كذلك ، فعلى المسلمين الاهتمام بالنَّاحية الأمنية؛ حتَّى لا تصبح قضايانا مستباحةً للأعداء ، وأسرارنا في متناول أيديهم[(٥٧٠)].

٨ . صدق أبي ذرٍّ رضي الله عنه في البحث عن الحقِّ ، ورجاحة عقله ، وقوَّة فهمه ، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

٩ . حرص رسول الله (ص) واهتمامه بأمن أصحابه ، وسلامتهم؛ حيث أمر أبا ذرٍّ بالرُّجوع إلى أهله ، وكتمان أمره حتَّى يظهره الله.

١٠ . شجاعة أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، وقوَّته في الحقِّ فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش ، ومجتمعاتهم ، تحدِّياً لهم وإظهاراً للحقِّ[(٥٧١)] ، وكأنَّه فهم: أنَّ أمر النَّبيِّ (ص) له بالكتمان ، ليس على الإيجاب؛ بل على سبيل الشَّفقة عليه ، فأعلمه بأنَّ به قوَّةً على ذلك؛ ولهذا أقرَّه النَّبيُّ (ص) على ذلك ، ويؤخذ منه جواز قول الحقِّ عند من يخشى منه الأذيَّة لمن قاله ـ وإن كان السُّكوت جائزاً ـ والتَّحقيق: أنَّ ذلك مختلفٌ باختلاف الأحوال والمقاصد ، وبحسب ذلك يترتَّب وجود الأجر ، وعدمه[(٥٧٢)].

١١ . كان موقف أبي ذرٍّ رضي الله عنه مفيداً للدَّعوة ، ومساهماً في مقاومة الحرب النَّفسيَّة الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ الرَّسول (ص) ، وكانت ضربةً معنويَّةً أصابت كفار مكَّة في الصَّميم ، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذرٍّ رضي الله عنه وقدرته على التحمُّل ، فقد سالت الدِّماء من جسده ، ثمَّ عاد مرَّةً أخرى للصَّدع بالشَّهادة.

١٢ ـ مدافعة العبَّاس عن المسلمين ، وسعيه لتخليص أبي ذرٍّ من أذى قريش ، دليلٌ على تعاطفه مع المسلمين ، وكان أسلوبه في ردِّ الاعتداء يدلُّ على خبرته بنفوس كفار مكَّة؛ حيث حذَّرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم ، عندما تمرُّ بديار غِفار[(٥٧٣)].

١٣ ـ امتثل أبو ذرٍّ للترتيبات الأمنيَّة ، الَّتي اتَّخذها رسول الله (ص) في مكَّة ، فمع تعلُّق أبي ذرٍّ بالرَّسول (ص) ، وحبِّه له ، وحرصه على لقائه ، إلا أنَّه امتثل أمر رسول الله (ص) في مغادرة مكَّة إلى قومه ، واهتمَّ بصلاح ، وهداية الأهل ، ودعوتهم للإسلام ، فبدأ بأخيه ، وأمِّه وقومه.

١٤ ـ أثرُ أبي ذرٍّ الدَّعويُّ على قومه وقدرته على هدايتهم ، وإقناعهم بالإسلام ، ومع ذلك فإنَّه لا يصلح للإمارة ، روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍّ ، قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على مَنْكِبي ، ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيف ، وإنَّها أمانةٌ ،

وإنَّها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ ، إلا من أخذها بحقِّها ، وأدَّى الَّذي عليه فيها» [مسلم (١٨٢٥) وأحمد (٥/١٧٣ ، ٢٦٧)] ، فلكلِّ شخصٍ مجاله الَّذي سخَّره الله فيه ، وميدانه الَّذي يقوم بواجبه فيه ، فليس معنى: أنَّه نجح في الدَّعوة ، وإقناع النَّاس: أنَّه يصلح لكلِّ شيءٍ.

١٥ ـ تفويض أبي ذرٍّ الإمامة إلى سيِّد غفار (أيماء بن رَحضة) ـ مع تقدُّم أبي ذرٍّ عليه في الإسلام وعلوِّ منزلته ـ يدلُّ على مهارةٍ إداريَّةٍ ، وهي عدم جمع كلِّ الأعمال في يده ، وتقدير النَّاس ، وإنزالهم منازلهم[(٥٧٤)].

١٦ ـ نجاح أبي ذرٍّ الباهر في الدَّعوة؛ حيث أسلمت نصف غفار ، وأسلم نصفها الثَّاني بعد الهجرة[(٥٧٥)].

لقد فشلت محاولات التَّشويه ، والحرب الإعلاميَّة ، والحجر الفكري الَّذي كان الكفار يمارسونه على الدَّعوة الإسلاميَّة في بداية عهدها؛ لأنَّ صوت رسول الله (ص) كان أقوى من أصواتهم ، ووسائله في التَّبليغ كانت أبلغ من وسائلهم ، وثباته على مبدئه السَّامي كان أعلى بكثيرٍ ممَّا كان يتوقَّعه أعداؤه؛ فالرَّسول (ص) لم يجلس في بيته ، ولم ينزوِ في زاويةٍ من زوايا المسجد الحرام؛ ليستخفي بدعوته ، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة؛ بل إنَّه غامر بنفسه (ص) ، فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكَّة ، وكان يجهر بتلاوة القران في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقيَّة من حياةٍ ، وأثارةٍ من حرِّيَّةٍ وإباءٍ ، فيتسرَّب نور الهدى إلى مجامع لبِّه ، وسويداء قلبه[(٥٧٦)] ، وكان من هؤلاء ضماد الأزديُّ ، وعمْرُو بن عَبَسَةَ ، وأبو ذرٍّ الغفاري ، والطُّفيل بن عمرو الدَّوسي ، وحصين والد

عمران بن الحصين رضي الله عنهم ، وهذا دليلٌ قاطعٌ ، وبرهانٌ ساطعٌ ، على فشل حملات التَّشويه الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ رسول الله (ص) ، فعلينا أن نعتبر ، ونستفيد من الدُّروس ، والعبر.

ثالثاً: ما تعرَّض له رسولُ الله (ص) من الأذى والتَّعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله (ص) منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم ، وأظهره الله عليهم ، ويدلُّ على ذلك . مبلغ هذا الأذى . تلك الايات الكثيرة الَّتي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصَّبر ، وتدلُّه على وسائله ، وتنهاه عن الحزن ، وتضرب له أمثلةً من واقع إخوانه المرسلين؛ مثل قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً *} [المزمل: ١٠] ، و {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا *} [الإنسان: ٢٤] ، و {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ *} [النمل: ٧٠] ، و {مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ *} [فصلت: ٤٣].

وهذه أمثلةٌ تدلُّ على ما تعرَّض له النَّبيُّ (ص) من الإيذاء:

١ . قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهَه[(٥٧٧)] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاَّتِ والعُزَّى! لئن رأيتُهُ يفعل ذلك؛ لأطأنَّ على رقبته ، أو لأعفِّرَنَّ وجهه في التُّراب ، قال: فأتى رسول الله (ص) وهو يصلِّي ، زعم لِيَطَأ على رقبته ، قال: فما فَجِئَهُمْ[(٥٧٨)] منه إلا وهو يَنْكُصُ على عقبيه[(٥٧٩)] ويتَّقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ ، وهَولاً ، وأجنحةً ، فقال رسول الله (ص) : «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» [مسلم (٢٧٩٧)]
.

وفي حديث ابن عباسٍ قال: «كان النَّبيُّ يُصلِّي ، فجاء أبو جهل ، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟! ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النَّبيُّ (ص) ، فزبره[(٥٨٠)] ، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي ، فأنزل الله تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ *سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ *} [العلق: ١٧ . ١٨] قال ابن عباس: لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله» [الترمذي (٣٣٤٩)] .

٢ . وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «بينما رسول الله (ص) قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكم يقوم إلى جزور ال فلان ، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها ، ودمها ، وسلاها ، فيجيءُ به ، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم ، فلمَّا سجد رسول الله (ص) ؛ وضعه بين كتفيه ، وثبت النَّبيُّ (ص) ساجداً ، فضحكوا حتَّى مال

بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحك ، فانطلق مُنطلِقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ ـ وهي جُوَيرِيةٌ ـ فأقبلت تسعى ، وثبت النَّبيُّ (ص) ساجداً حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسُبُّهم ، فلمَّا قضى رسولُ الله (ص) الصَّلاة ، قال: اللَّهم عليك بقريش! اللَّهمَّ عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! ثمَّ سَمَّى: اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام ، وعُتبةَ بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأميَّة بن خلف ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، وعُمارةَ بن الوليد ، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ ، ثمَّ سحبوا إلى القَلِيب[(٥٨١)] ـ قليب بدرٍ ـ ثمَّ قال رسول الله (ص) : وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيبِ لعنةً» [البخاري (٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤)] .

وقد بيَّنت الرِّوايات الصَّحيحة الأخرى: أنَّ الَّذي رمى الرَّفث عليه هو عقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، وأنَّ الَّذي حرَّضه هو أبو جهل [مسلم (١٧٩٤)] ، وأنَّ المشركين تأثَّروا بدعوة الرَّسول (ص) عليهم ، وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنَّهم يرون أنَّ الدَّعوة بمكَّة مستجابةٌ[(٥٨٢)].

٣ ـ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرَّسول (ص) : اجتمع أشراف قريشٍ يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله (ص) فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّهَ أحلامنا ، وسبَّ الهتنا ، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم! فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ الله (ص) ، فوثبوا وثبة رجلٍ واحدٍ ، وأحاطوا به يقولون: أنت الَّذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب الهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم ، أنا الذي أقول ذلك»، ثمَّ أخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، وهو يبكي ، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّيَ الله؟! [البخاري (٣٦٨٧ و٣٨٥٦ و٤٨١٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٧٤)][(٥٨٣)].

٤ ـ كان أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ (ص) من أشدِّ النَّاس عداوةً له ، وكذلك كانت امرأته أمُّ جميلٍ ، من أشدِّ النَّاس عداوةً للنَّبيِّ (ص) ؛ فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاس بالنَّميمة ، وتضع الشَّوك في طريقه ، والقذر على بابه ، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ *} [المسد: ١ ـ ٥] ، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القران؛ أتت رسول الله (ص) وهو جالسٌ عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصدِّيق ، وفي يدها فهرٌ من حجارةٍ؛ فلمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنَّه يهجوني ، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثمَّ انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عنِّي ، وكانت تنشد: مذمَّمٌ أبينا ،

ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، وكان رسول الله (ص) يفرح؛ لأن المشركين يسبُّون مذمَّماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنِّي شتم قريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً ، وأنا محمَّد» [البخاري (٣٥٣٣)].

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنَّه كان يتبع رسول الله (ص) في الأسواق ، والمجامع ، ومواسم الحج ويكذِّبه[(٥٨٤)].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله (ص) من أذيَّة المشركين ، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله (ص) بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكِّيَّة[(٥٨٥)] ، وكان رسول الله (ص) يذكر ما لاقاه من أذى قريشٍ قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه ، يقول: «لقد أُخِفْتُ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما يُخاف

أحدٌ ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلة ، وما لي ، ولا لبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال» [الترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١)] .

ومع ما له (ص) من عظيم القدر ، ومنتهى الشَّرف ، إلا أنَّه قد حظي من البلاء بالحمل الثَّقيل ، والعناء الطَّويل ، منذ أوَّل يومٍ صدع فيه بالدَّعوة ، ولقد لقي النَّبيُّ (ص) من سفهاء قريش أذىً كثيراً ، فكان إذا مرَّ على مجالسهم بمكَّة استهزؤوا به ، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة[(٥٨٦)] ، يُكلَّم من السَّماء! وكان أحدهم يمرُّ على الرَّسول (ص) فيقول له ساخراً: أما كُلِّمْتَ اليوم من السَّماء؟![(٥٨٧)].

ولم يقتصر الأمر على مجرَّد السُّخرية ، والاستهزاء ، والإيذاء النَّفسيِ ، بل تعدَّاه إلى الإيذاء البدنيِّ ، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدوُّ الله أميَّة بن خلف في وجه النَّبيِّ (ص)[(٥٨٨)] ، وحتَّى بعد هجرته ـ عليه السَّلام ـ إلى المدينة ، لم تتوقف حدَّة الابتلاء والأذى ، بل أخذت خطّاً جديداً ، بظهور أعداءٍ جدد ، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكَّة؛ صار له (ص) أعداءٌ من المنافقين المجاورين بالمدينة ، ومن اليهود ، والفرس ، والرُّوم ، وأحلافهم ، وبعد أن كان الأذى بمكَّة شتماً ، وسخريةً ، وحصاراً ، وضرباً ، صار مواجهةً عسكريَّة مسلَّحةً ، حامية الوطيس ، فيها كرٌّ ، وفرٌّ ، وضربٌ ، وطعنٌ؛ فكان ذلك بلاءٌ في الأموال ، والأنفس على السَّواء[(٥٨٩)] ، وهكذا كانت فترة رسالته (ص) وحياته ، سلسلةً متَّصلةً من المحن ، والابتلاء ، فما وهن لما أصابه في سبيل الله ، بل صبر ، واحتسب حتَّى لقي ربَّه[(٥٩٠)].

لقد واجه الرَّسول (ص) من الفتن، والأذى، والمحن مالا يخطر على بالٍ ، في مواقف متعدِّدةٍ ، وكان ذلك على قدر الرِّسالة الَّتي حُمِّلها ، ولذلك استحق المقام المحمود ، والمنزلة الرَّفيعة عند ربِّه ، وقد صبر على ما أصابه ؛ إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأمم الماضية من العذاب؛ وليكون قدوةً للدُّعاة ، والمصلحين[(٥٩١)]، فإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسولَ الله (ص) ، فلم يعد هناك أحدٌ أكبر من الابتلاء ، والمحنة ، وتلك سنّة الله في الدَّعوات؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله! أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء ، ثمُّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبْتَلَى الرَّجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً؛ اشتدَّ بلاؤه ،

وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابتُلي حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتَّى يتركه يمشي على الأرض ، وما عليه خطيئة» [ابن ماجه (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري ، ورواه الترمذي (٢٣٩٨) ، وأحمد (١٧٢/١) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص] .

رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله (ص) من الأذى والتَّعذيب:

١ ـ ما لاقاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

تحمَّل الصَّحابة رضي الله عنهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات ، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله ، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ ، ولم يَسْلَمْ أشرافُ المسلمين من هذا الابتلاء ، فلقد أُوذي أبو بكر رضي الله عنه ، وحُثي على رأسه التُّراب ، وضُرب في المسجد الحرام بالنِّعال حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه ، وحُمِل إلى بيته في ثوبه ، وهو ما بين الحياة والموت[(٥٩٢)] ، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أنَّه لما اجتمع أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله (ص) في الظُّهور ، فقال: «يا أبا بكر! إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحُّ حتَّى ظهر رسولُ الله (ص) ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد ، كلُّ رجلٍ في عشيرته ، وقام أبو بكر في النَّاس خطيباً ورسولُ الله (ص) جالسٌ ، فكان أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله (ص) ، وثار المشركون على أبي بكر ، وعلى المسلمين ، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً ، ووُطِأَ أبو بكر ، وضُرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسقُ عتبةُ بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويُحرِّفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكرٍ رضي الله عنه ، حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه ، وجاءت بنو تَيْمٍ يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكرٍ ، وحَمَلتْ بنو تيم أبا بكرٍ في ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكُّون في موته ، ثمَّ رجعت بنو تيمٍ ، فدخلوا المسجد ، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن

ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر ، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تَيْم يكلِّمون أبا بكر حتَّى أجاب ، فتكلَّم اخر النَّهار ، فقال: ما فعل رسول الله (ص) ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، وقالوا لأمِّه أمِّ الخير: انظري أن تطعميه شيئاً ، أو تسقيه إيَّاه ، فلمَّا خلت به؛ ألحَّت عليه ، وجعل يقول: ما فعل رسول الله (ص) ؟ فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أمِّ جميل بنت الخطاب ، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل؛ فقالت: إنَّ أبا بكرٍ يسألك عن محمَّد بن عبد الله ، فقالت: ما أعرف أبا بكرٍ ، ولا محمَّد بن عبد الله ، وإن كنت تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت: نعم ، فمضت معها؛ حتَّى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً ، فدنت أمُّ جميل ، وأعلنت بالصِّياح ، وقالت: والله! إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فِسْقٍ وكفرٍ ، إنَّني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله (ص) ؟ قالت: هذه أمُّك

تسمع ، قال: فلا شيء عليك منها ، قالت: سالمٌ ، صالحٌ ، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم ، قال: فإنَّ لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، أو اتي رسولَ الله (ص) ، فأمهلتاه؛ حتَّى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس ، خرجتا به يتَّكأى عليهما ، حتَّى أدخلتاه على رسول الله (ص) ، فقال: فأكبَّ عليه رسول الله (ص) ، فقبَّله ، وأكبَّ عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول الله (ص) رقَّةً شديدة ، فقال أبو بكر: بأبي ، وأمي يا رسول الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها ، وأنت مباركٌ فادعها إلى الله ، وادعُ الله لها ، عسى الله أن يستنقذها بك من النَّار. قال: فدعا لها رسول الله (ص) ، ودعاها إلى الله فأسلمت[(٥٩٣)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ . حِرْصُ أبي بكرٍ رضي الله عنه على إعلان الإسلام ، وإظهاره أمام الكفَّار ، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه ، وشجاعته ، وقد تحمَّل الأذى العظيم ، حتَّى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته.

٢ . مدى الحبِّ الَّذي كان يُكنُّه أبو بكرٍ لرسول الله (ص) ؛ حيث إنَّه وهو في تلك الحال الحرجة ، يسأل عنه ، ويُلحُّ إلحاحاً عجيباً في السُّؤال ، ثمَّ يحلف ألاَّ يأكل ، ولا يشرب حتَّى يراه ، كيف يتمُّ ذلك ، وهو لا يستطيع المشي ، بل النُّهوض؟ ولكنَّه الحبُّ الَّذي في الله، والعزائم التي تقهر الصِّعاب ، وكلُّ مصابٍ في سبيل الله؛ ومن أجل رسوله (ص) هيِّنٌ ، ويسيرٌ.

٣ . إنَّ العصبيَّة القبليَّة ، كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث والتَّعامل مع الأفراد ، حتَّى مع اختلاف العقيدة؛ فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدِّد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكر[(٥٩٤)].

٤ ـ الحسُّ الأمنيُّ لأمِّ جميلٍ رضي الله عنها ، فقد برز في عدَّة تصرُّفاتٍ؛ لعلَّ من أهمها:

إخفاء الشَّخصيَّة ، والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سألت أمُّ الخير أمَّ جميل ، عن مكان الرَّسول (ص) ، أنكرت أنَّها تعرف أبا بكر ، ومحمَّد بن عبد الله ، فهذا تصرُّفٌ حذِرٌ سليم؛ إذ لم تكن أمُّ الخير ساعتئذٍ مسلمةً ، وأمُّ جميل كانت تخفي إسلامها ، ولا تودُّ أن تعلم به أمُّ الخير ، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرَّسول (ص) ؛ مخافةَ أن تكون عيناً لقريشٍ[(٥٩٥)].

استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأمُّ جميلٍ أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكرٍ رضي الله عنه ، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأمِّ الخير؛ إمعاناً في السِّرِّيَّة ، والكتمان ، فاستغلَّت الموقف لصالحها قائلةً: «إن

كنتِ تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك؛ فعلت» ، وقد عرضت عليها هذا الطَّلب بطريقةٍ تنم عن الذَّكاء وحسن التَّصرُّف ، فقولها: «إن كنت تحبِّين ـ وهي أمُّه ـ» وقولها: «إلى ابنك» ، ولم تقل لها: إلى أبي بكرٍ ، كلُّ ذلك يحرِّك في أمِّ الخير عاطفة الأمومة ، فغالباً ما ترضخ لهذا الطَّلب ، هذا ما تم بالفعل؛ حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتَّالي نجحت أمُّ جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

استغلال الموقف في كسب عطف أمِّ أبي بكر:

يبدو أنَّ أمَّ جميل حاولت أن تكسب عطف أمِّ الخير ، فاستغلَّت وضع أبي بكرٍ رضي الله عنه ، الَّذي يظهر فيه صريعاً دَنِفاً ، فأعلنت بالصِّياح ، وسَبَّتْ مَنْ قام بهذا الفعل بقولها: «إنَّ قوماً نالوا هذا منكَ لأهلُ فسقٍ ، وكفرٍ»؛ فلا شك أنَّ هذا الموقف من أمِّ جميلٍ يشفي بعض غليل أمِّ الخير من الَّذين فعلوا ذلك بابنها ، فقد تُكِنُّ شيئاً من الحبِّ لأمِّ جميل ، وبهذا تكون أمُّ جميل كسبت عطف أمِّ الخير ، وثقتها ، الأمر الذي يسهِّل مهمَّة أمِّ جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه[(٥٩٦)].

الاحتياط والتأنِّي قبل النُّطق بالمعلومة:

لقد كانت أمُّ جميل في غاية الحيطة ، والحذر ، من أن تتسرَّب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدَّعوة ، فهي لم تطمئن بعد إلى أمِّ الخير؛ لأنَّها ما زالت مشركةً انداك ، وبالتَّالي لم تأمن جانبها ، لذا تردَّدت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنها عن حال رسول الله (ص) ، فقالت له: هذه أمُّك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها ، فأخبرته ساعتها بأنَّ الرسول (ص) سالمٌ صالحٌ[(٥٩٧)] ، وزيادةً في

الحيطة ، والحذر ، والتكتُّم لم تخبره بمكانه ، إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

تخيُّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمَّة:

حين طلب أبو بكرٍ رضي الله عنه الذَّهاب إلى دار الأرقم ، لم تستجب له أمُّ جميل على الفور؛ بل تأخَّرت عن الاستجابة ، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن النَّاس؛ خرجت به ومعها أمُّه يتكأى عليهما ، فهذا هو أنسب وقت للتَّحرُّك ، وتنفيذ هذه المهمَّة ، حيث تنعدم الرَّقابة من قِبَلِ أعداء الدَّعوة ، ممَّا يقلِّل من فرص كشفها ، وقد نُفِّذت المهمَّةُ بالفعل دون أن يشعر بها

الأعداء ، حتَّى دخلت أمُّ جميل ، وأمُّ الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم ، وهذا يؤكِّد: أنَّ الوقت المختار كان أنسب الأوقات[(٥٩٨)].

٥ ـ قانون المنحة بعد المحنة ، حيث أسلمت أمُّ الخير أمُّ أبي بكر ، بسبب رغبة الصِّدِّيق في إدخال أمِّه إلى حظيرة الإسلام ، وطلبه من الرَّسول (ص) الدُّعاء لها؛ لِمَا رأى من برِّها به ، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على هداية الناس الاخرين فكيف بأقرب الناس إليه؟![(٥٩٩)].

٦ ـ إنَّ من أكثر الصَّحابة الَّذين تعرَّضوا لمحنة الأذى ، والفتنة بعد رسول الله (ص) ، أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ نظراً لصحبته الخاصَّة له ، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرَّض فيها للأذى من قومه ، فينبري الصِّدِّيق مدافعاً عنه ، وفادياً إيَّاه بنفسه ، فيصيبه من أذى القوم وسفههم ، هذا مع أنَّ الصِّدِّيق يُعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل ، والإحسان[(٦٠٠)].

٢ ـ بلالٌ رضيَ الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله (ص) ، ولأصحابه؛ حتَّى وصل إلى ذروة العنف وخاصَّةً في معاملة المستضعفين من المسلمين ، فنكَّلت بهم؛ لتفتنهم عن عقيدتهم ، وإسلامهم؛ ولتجعلهم عِبرةً لغيرهم ، ولتنفِّس عن حقدها ، وغضبها ، بما تصبُّه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أوَّل من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، وعمَّارٌ ، وأمُّه سميَّة ، وصهيبٌ ، وبلالٌ ، والمقداد؛ فأمَّا رسول الله (ص) ، فمنعه الله بعمِّه أبي طالبٍ ، وأمَّا أبو بكر؛ فمنعه الله بقومه ، وأمَّا سائرهم؛ فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشَّمس ، فما منهم إنسانٌ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً ، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأعطوه الولدانَ ، وأخذوا يطوفون به شعاب مكَّة ، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ» [أحمد

(٤٠٤/١) وابن ماجه (١٥٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٨١ ـ ٢٨٢)] . لم يكن لبلال رضي الله عنه ظَهْرٌ يسنده ، ولا عشيرةٌ تحميه ، ولا سيوفٌ تذود عنه ، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ يعادل رقماً من الأرقام ، فليس له دورٌ في الحياة إلا أن يخدم ، ويطيع ، ويُباع ، ويُشْترى كالسَّائمة ، أمَّا أن يكون له رأيٌ ، أو يكون صاحبَ فكرٍ ، أو صاحب دعوةٍ ، أو صاحب قضيَّةٍ ، فهذه جريمةٌ شنعاءُ في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ ، تهزُّ أركانه ، وتزلزل أقدامه ، ولكنَّ الدَّعوة الجديدة؛ الَّتي سارع لها الفتيان؛ وهم يتحدَّون تقاليد ، وأعراف ابائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرميِّ المنسيِّ ، فأخرجته إنساناً

جديداً على الوجود[(٦٠١)] ، فقد تفجَّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن امن بهذا الدِّين ، وانضمَّ إلى محمَّدٍ (ص) وإخوانه في موكب الإيمان العظيم ، وها هو الان يتعرَّض للتَّعذيب من أجل عقيدته ، ودينه ، فقصد وزيرُ رسولِ الله (ص) الصِّديقُ موقعَ التَّعذيب ، وفاوض أميَّةَ بن خلف ، وقال له: «ألا تتَّقي الله في هذا المسكين؟ حتَّى متَّى؟! قال: أنت الَّذي أفسدته ، فأنقذه ممَّا ترى! فقال أبوبكر: أفعل ، عندي غلامٌ أسود أجلد منه ، وأقوى على دينك ، أعطيكه به ، قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك ، فأعطاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه غلامه ذلك ، وأخذه ، فأعتقه»[(٦٠٢)]. وفي روايةٍ: اشتراه بسبع أواقٍ ، أو بأربعين أوقيَّةٍ ذهباً[(٦٠٣)].

ما أصبر بلالاً ، وما أصلبه رضي الله عنه! فقد كان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، ولذلك صَلُبَ ولم تَلِنْ قناتُه أمام التَّحدِّيات ، وأمام صنوف من العذاب ، وكان صبره ، وثباته ممَّا يغيظهم ، ويزيد حنقهم ، خاصَّةً: أنَّه كان الرَّجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الَّذي ثبت على الإسلام ، فلم يواتِ الكفار فيما يريدون ، مردِّداً كلمة التَّوحيد بتحدٍّ صارخٍ ، وهانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه[(٦٠٤)].

وبعد كلِّ محنةٍ منحةٌ؛ فقد تخلَّص بلالٌ من العذاب والنَّكال ، وتخلَّص من أسر العبودية ، وعاش مع رسول الله (ص) بقيَّة حياته ملازماً له ، ومات راضياً عنه مبشِّراً إيَّاه بالجنَّة ، فقد قال (ص) لبلال: «... فإنِّي سمعت الليلةَ خَشْفَ نعليك بين يديَّ في الجنة» [البخاري (١١٤٩) ومسلم (٢٤٥٨)].

وأمَّا مقامه عند الصَّحابة ، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيِّدنا» يعني: بلالاً[(٦٠٥)].

وأصبح منهج الصِّدِّيق في فكِّ رقاب المستضعفين ضمن الخطَّة الَّتي تبنَّتها القيادة الإسلامية لمقاومة التَّعذيب الَّذي نزل بالمستضعفين ، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمِّين إلى هذا الدِّين الجديد من الرِّقِّ.

«ثمَّ أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقابٍ؛ بلالٌ سابعهم: عامر بن فهيرة شهد بدراً ، وأحداً ، وقُتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأمُّ عُبيس ، وزِنّيرة ، وأُصيب بصرُها حتى أعتقها ، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات ، والعزّى. فقالت: كذبوا وبيت الله ،

ما تضرُّ اللات والعزَّى ، وما تنفعان ، فردَّ الله بصرها[(٦٠٦)]. وأعتق النَّهدية ، وبنتها ، وكانتا لامرأةٍ من بني عبد الدَّار ، فمرَّ بهما ، وقد بعثتهما سيِّدتهما بطَحينٍ لها ، وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً! فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلٌّ[(٦٠٧)] يا أمَّ فلان! فقالت: حِلٌّ ، أنت أفسدتهما ، فأعتقهما ، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا ، وكذا. قال: قد أخذتُهما ، وهما حرَّتان ، أَرْجعا إليها طَحينها. قالتا: أوَ نَفْرَغُ منه يا أبا بكر! ثمَّ نردُّه إليها؟ قال: وذلك؛ إن شئتما»[(٦٠٨)].

وهنا وقفة تأمُّل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصِّدِّيق والجاريتين حتَّى خاطبتاه ، خطابَ الندِّ للندِّ ، لا خطاب المسود للسَّيِّد ، وتقبَّل الصِّدِّيق ـ على شرفه ، وجلالته في الجاهليَّة ، والإسلام ـ منهما ذلك ، مع أنَّ له يداً عليهما بالعتق ، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتَّى تخلَّقتا بهذا الخلق الكريم ، وكان يمكنهما ، وقد أُعتقتا ، وتحرَّرتا من الظُّلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراجَ الرِّياح ، أو يأكله الحيوان ، والطَّير ، ولكنَّهما أبتا ـ تفضُّلاً ـ إلا أن تفرغا منه ، وتردَّاه إليها[(٦٠٩)].

ومرَّ الصِّدِّيق بجارية بني مُؤَمَّل ـ حيٌّ من بني عديِّ بن كعب ـ وكانت مسلمةً ، وعُمر بن الخطَّاب يُعذِّبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذٍ مشركٌ ، وهو يضربها ، حتَّى إذا ملَّ؛ قال: إني أعتذر إليك ، إنِّي لم أتركك إلا عن ملالةٍ ، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكرٍ ، فأعتقها[(٦١٠)].

هكذا كان واهب الحرِّيَّات ، ومحرِّر العبيد ، شيخ الإسلام الوقور؛ الَّذي عُرف بين قومه بأنَّه يكسب المعدوم ، ويصل الرَّحم ، ويحمل الكلَّ ، ويُقري الضَّيف ، ويعين على نوائب الحقِّ ، لم ينغمس في إثمٍ في جاهليته ، أليفٌ مألوفٌ ، يسيل قلبه رقَّةً ورحمةً على الضُّعفاء ، والأرقَّاء ، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد ، وأعتقهم لله ، وفي الله قبل أن تنزل التَّشريعات الإسلاميَّة المحبَّبة في العتق ، والواعدة عليه أجزل الثَّواب[(٦١١)].

كان المجتمع المكيُّ يتندَّر بأبي بكرٍ رضي الله عنه؛ الَّذي يبذل هذا المال كلَّه لهؤلاء المستضعفين ، أمَّا في نظر الصديق؛ فهؤلاء إخوانه في الدِّين الجديد ، فكلُّ مشركي الأرض ، وطغاتها لا يساوون عنده واحداً من هؤلاء ، وبهذه العناصر ، وغيرها تُبنَى دولةُ التَّوحيد ،

وتصنع حضارة الإسلام الرَّائدة ، والرَّائعة[(٦١٢)]. ولم يكن الصدِّيق يقصد بعمله هذا محمدةً ، ولا جاهاً ، ولا دنيا ، وإنَّما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام ، ولقد قال له أبوه ذات يومٍ: «يا بنيَّ ، إِنِّي أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنَّك إذ فعلت ما فعلت؛ أعتقت رجالاً أجْلاداً يمنعونك ، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت! إِنِّي إنَّما أريد ما أريد لله عزَّ وجلَّ». فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصِّدِّيق قراناً يتلى إلى يوم الدِّين.

قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى *إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى *وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى *فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لأِحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى *}[(٦١٣)] [الليل: ٥ ـ ٢١] .

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلاميَّة الأولى قِمَّةً من قِمَمِ الخير ، والعطاء ، وأصبح هؤلاء العبيدُ بالإسلام أصحابَ عقيدةٍ ، وفكرةٍ ، يناقشون بها ، وينافحون عنها ، ويجاهدون في سبيلها ، وكان إقدام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على شرائهم ، ثمَّ إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدِّين ، ومدى تغلغله في نفسية الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحْيُوا هذا المثل الرَّفيع ، والمشاعر السَّامية؛ ليتم التَّلاحم والتَّعايش ، والتَّعاضد بين أبناء الأمة؛ الَّتي يتعرض أبناؤها للإبادة الشَّاملة من قِبَلِ أعداء العقيدة ، والدِّين!

٣ ـ عمَّار بن ياسرٍ ، وأبوه ، وأمُّه رضي الله عنه:

كان والد عمَّار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن ، قدم مكَّة ، وأخواه: الحارثُ ، ومالكٌ يطلبون أخاً لهم ، فرجع الحارث ، ومالكٌ إلى اليمن ، وأقام ياسرٌ بمكَّة ، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزوميَّ[(٦١٣)] ، فزوَّجه أبو حذيفةَ أَمَةً له ، يقال لها: سُمَيَّة بنت خيَّاط ، فولدت له عَمَّاراً ، فأعتقه أبو حذيفة الَّذي لم يلبث أن مات ، وجاء الإسلام ، فأسلم ياسر ، وسميَّة ، وعمَّار ، وأخوه عبد الله بن ياسر ، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً ، وصبُّوا عليهم العذاب صبّاً ،

فكانوا يُخْرِجونهم إذا حميت الظَّهيرة ، فيعذِّبونهم برمضاء مكَّة[(٦١٤)] ، ويقلِّبونهم ظهراً لبطنٍ[(٦١٥)] ، فيمرُّ عليهم الرَّسول (ص) ؛ وهم يعذَّبون ، فيقول: «صبراً ال
ياسر! فإنَّ موعدكم الجنة» [الحاكم (٣/٣٨٣) والحلية (١/١٤٠) والمطالب العالية (٤٠٣٤)][(٦١٦)]. وجاء أبو جهل إلى سميَّة ، فقال لها: ما امنت بمحمَّد إلا لأنكِ عشقتِه لجماله ، فأغلظت له القول ، فطعنها بالحربة في ملمس العِفَّة ، فقتلها ، فهي أوَّل شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[(٦١٧)] ، وبذلك سطَّرت بهذا الموقف الشُّجاع أعلى ، وأغلى ما تقدِّمه امرأةٌ في سبيل الله؛ لتبقى كلُّ امرأةٍ مسلمةٍ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها ، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها ، فلا تبخل بشيءٍ في سبيل الله بعد أن جادت سميَّة بنت خيَّاط بدمها في سبيل الله[(٦١٨)].
وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلتُ مع رسول الله (ص) اخذاً بيده نتمشَّى بالبطحاء ، حتَّى أتى على ال عمَّار بن ياسر ، فقال أبو عمَّار: يا رسول الله! الدَّهر هكذا؟ فقال له النَّبيُّ (ص) : اصبر ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ اغفر لال ياسرٍ ، وقد فعلتَ» [أحمد (١/٦٢)][(٦١٩)]. ، ثمَّ لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

لم يكن في وسع النَّبيِّ (ص) أن يقدمَ شيئاً لآل ياسر ، رموز الفداء ، والتضحية ، فليسوا بأرقاء حتَّى يشتريهم ، ويعتقهم ، وليست لديه القوَّة ليستخلصهم من الأذى والعذاب ، فكلُّ ما يستطيعه (ص) أن يزفَّ لهم البشرى بالمغفرة ، والجنَّة ، ويحثَّهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوةً للأجيال المتلاحقة ، ويشهد الموكب المستمرُّ على مدار التَّاريخ هذه الظَّاهرة: «صبراً ال ياسر! فإنَّ موعدكم الجنَّة» [سبق تخريجه][(٦٢٠)] .

أمَّا عمَّارٌ رضي الله عنه ، فقد عاش بعد أهله زمناً يكابد من صنوف العذاب ألواناً ، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الَّذين لا عشائر لهم بمكَّة تحميهم، وليست لهم منعةٌ، ولا قوَّةٌ، فكانت قريش تعذِّبهم في الرَّمضاء بمكَّة في منتصف النَّهار؛ ليرجعوا عن دينهم ، وكان عمَّار يُعذَّب حتَّى لا يدري ما يقول[(٦٢١)]. ولما أخذه المشركون ليعذبوه؛ لم يتركوه حتَّى سبَّ النَّبيَّ (ص) ، وذكر الهتهم بخيرٍ ، فلمَّا أتى النَّبيَّ (ص) قال: «ما وراءك؟» قال: شرٌّ ، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك! وذكرت الهتهم بخير ، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنّاً بالإيمان ، قال: « فإن عادوا؛ فعد » [الحاكم (٢/٣٥٧) والزيلعي في نصب الراية (٤/١٥٨)][(٦٢٢)] . ونزل

الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمَّار. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [النحل: ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله (ص)[(٦٢٣)] .

وفي حادثتي بلالٍ ، وعمَّارٍ فقهٌ عظيمٌ يتراوح بين العزيمة ، والرُّخصة ، يحتاج الدُّعاة أن يستوعبوه ، ويضعوه في إطاره الصَّحيح ، وفي معاييره الدَّقيقة دون إفراطٍ ، أو تفريطٍ.

٤ ـ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه:

تعرَّض للفتنة من قِبَلِ والدته الكافرة ، فقد امتنعت عن الطَّعام ، والشَّراب حتَّى يعود إلى دينها. روى الطَّبرانيُّ: أن سعداً قال: أُنزلت فيَّ هذه الاية: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا} [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلاً بارّاً بأمِّي ، فلمَّا أسلمتُ ، قالت: يا سعد! ما هذا الدِّين الَّذي أراك قد أحدثت؟! لتدعنَّ دينك هذا ، أو لا اكل ، ولا أشرب حتَّى أموت ، فتُعيَّر بي ، فيقال: يا قاتلَ أمه! فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه ؛ فإنِّي لا أدع ديني لشيء ، فمكثتْ يوماً وليلةً لم تأكل ، فأصبحتْ ؛ وقد جهدت ، فمكثتْ يوماً اخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت وقد جهدت ، فمكثتْ يوماً اخر وليلةً أخرى لا تأكل ، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها ، فلمَّا رأيت ذلك؛ قلت: يا أُمَّه ، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفسٍ ، فخرجت نفساً نفساً؛ ما تركت ديني هذا لشيءٍ ، فإن شئت؛ فكلي ، وإن شئت؛ لا تأكلي! فأكلتْ[(٦٢٤)].

وروى مسلمٌ: أنَّ أمَّ سعدٍ حلفت ألاَّ تكلِّمه أبداً؛ حتَّى يكفر بدينه ، ولا تأكل ، ولا تشرب ، قالت: زعمْتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك ، وأنا أمُّك ، وأنا امرك بهذا ، قال: مكثتْ ثلاثاً حتَّى غُشي عليها من الجهد ، فقال ابنٌ لها ـ يقال له عُمَارَةَ ـ فسقاها ، فجعلت تدعو على سعدٍ ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في القران الكريم هذه الاية: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي}؛ وفيها: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها؛ شجروا فاها بعصاً ، ثمَّ أَوْجَرُوها [مسلم (١٧٤٨) والترمذي (٣١٨٩)][(٦٢٥)]. فمحنة سعدٍ محنةٌ عظيمةٌ ، وموقفه موقف فَذٌّ ، يدلُّ على مدى تغلغل الإيمان في قلبه ، وأنَّه لا يقبل فيه مساومةً مهما كانت النَّتيجة[(٦٢٦)].

ومن خلال تتبُّع القران المكيِّ ، نجد: أنَّه برغم قطع الولاء ، سواءٌ في الحبِّ ، أو النُّصرة بين المسلم وأقاربه الكفَّار ، فإنَّ القران أمر بعدم قطع صلتهم ، وببرِّهم ، والإحسان إليهم ، ومع ذلك فلا ولاء بينهم؛ لأنَّ الولاء للهِ ولرسوله (ص) ، لدينه ، وللمؤمنين[(٦٢٧)].

٥ ـ مصعب بن عُمَير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير أنعمَ غلامٍ بمكَّة ، وأجودَها حلَّةً ، وكان أبواه يحبّانه ، وكانت أمُّه مليئةً كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثِّياب ، وأرقَّه ، وكان أعطرَ أهل مكَّة ، يلبس الحضرميَّ ، من النِّعال[(٦٢٨)] ، وبلغ من شدَّة كلف أمِّه به: أنَّه كان يبيت وقعْبُ الحَيْس[(٦٢٩)] عند رأسه ، فإذا استيقظ من نومه؛ أكل[(٦٣٠)] ، ولما علم: أنَّ رسول الله (ص) يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ دخل عليه ، فأسلم ، وصدَّق به ، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمِّه وقومه ، فكان يختلف إلى رسول الله (ص) سرّاً، فبصر به عثمان بن طلحة[(٦٣١)] يصلِّي، فأخبر أمَّه وقومه، فأخذوه، وحبسوه ، فلم يزل محبوساً حتَّى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[(٦٣٢)].

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: لقد رأيته وقد جَهِدَ في الإسلام جهداً شديداً ، حتَّى لقد رأيت جلده يتحشَّف ـ أي: يتطاير ـ تحشُّف جلد الحيَّة عنها ، حتَّى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله ممَّا به من الجهد[(٦٣٣)] ، وكان رسول الله (ص) كلَّما ذكره ، قال: «ما رأيت بمكَّة أحداً أحسن لمِةً ، ولا أرقَّ حلَّةً ، ولا أنعم نعمةً ، من مصعب بن عمير» [الحاكم (٣/٢٠٠)][(٦٣٤)] ، ومع كلِّ ما أصابه رضي الله عنه من بلاءٍ ومحنةٍ ، ووهنٍ في الجسم ، والقوَّة ، وجفاءٍ من أقرب النَّاس إليه لم يقصِّر عن شيءٍ ممَّا بلغه أصحاب رسول الله (ص) من الخير ، والفضل ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، حتَّى أكرمه الله تعالى بالشَّهادة يوم أحدٍ[(٦٣٥)].

يُعَدُّ مصعبٌ رضي الله عنه أنموذجاً من تربية الإسلام للمترفين الشَّباب ، للمنعمين من أبناء الطَّبقات الغنيَّة المرفَّهة ، لأبناء القصور ، والمال ، والجاه ، للمعجبين بأشخاصهم ، المبالغين في تأنُّقهم ، السَّاعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيَّرت ، ووقف بعد إسلامه قويَّاً لا يضعف ، ولا يتكاسل ، ولا يتخاذل ، ولا تقهره نفسه ، وشهواته؛ فيسقط في جحيم النَّعيم الخادع[(٦٣٦)].

لقد ودَّع ماضيه بكلِّ ما فيه من راحةٍ ولذَّةٍ ، وهناءةٍ ، يوم دخل هذا الدِّين ، وبايع تلك البيعة ، وكان لابدَّ له من المرور في درب المحنة؛ لكي يصقل إيمانه ، ويتعمَّق يقينه ، وكان مصعب مطمئناً راضياً برغم ما حوله من جبروتٍ ، ومخاوف ، وبرغم ما نزل به من البؤس ، والفقر ، والعذاب ، وبرغم ما فقده من

مظاهر النَّعيم والرَّاحة[(٦٣٧)] ، فقد تعرَّض لمحنة الفقر ، ومحنة فَقْدِ الوجاهة ، والمكانة عند أهله ، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتَّعذيب ، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن ، فخرج من كلِّ تلك المحن منتصراً بدينه وإيمانه ، مطمئناً أعمق الاطمئنان ، ثابتاً أقوى الثبات[(٦٣٨)] ، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

٦ ـ خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خبَّاب رضي الله عنه قَيْناً[(٦٣٩)] بمكَّة ، وأراد الله له الهداية مبكِّراً ، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[(٦٤٠)] ، فكان من المستضعفين الَّذين عُذبوا بمكَّة لكي يرتدَّ عن دينه ، ووصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحمَّاة حتَّى ذهب ماء مَتْنه[(٦٤١)].

وكان الرَّسول (ص) يألف خباباً ، ويتردَّد عليه بعد أن أسلم ، فلمَّا علمت مولاته بذلك ، وهي أمُّ أنمار الخزاعيَّة ، أخذت حديدةً قد أحمتها ، فوضعتها على رأسه ، فشكا خبابٌ ذلك إلى رسول الله (ص) ، فقال (ص) : «اللَّهمَّ انصر خباباً!» فاشتكت مولاتُه رأسَها ، فكانت تعوي مع الكلاب ، فقيل لها: اكتوي ، فجاءت إلى خبَّابٍ ليكويها ، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها ، وإن في ذلك لعبرةً لمن أراد أن يعتبر ، ما أقرب فرج الله ، ونصره من عباده

المؤمنين الصابرين! فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويَ رأسَها[(٦٤٢)].

ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ، ولقوا منهم شدَّةً؛ جاء خبَّابٌ إلى رسول الله (ص) وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة ، فقال له: «ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟!» فقعد الرَّسول (ص) وهو محمرٌّ وجهه ، قال: «كان الرَّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيُشق باثنتين ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عَصَب ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، والله! لَيَتمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ ، لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» [البخاري (٣٦١٢) وأحمد (١٠٩/٥ و١١١) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٢٠٤/٨)] .

وللشيخ سلمان العودة ـ حفظه الله ـ تعليقٌ لطيفٌ على هذا الحديث ، هو: يا سبحان الله! ماذا جرى حتى احمرَّ وجه المصطفى (ص) ، وقعد من ضجعته ، وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القويِّ المؤثِّر ،

ثمَّ عاتبهم على الاستعجال؛ لأنهم طلبوا الدُّعاء منه (ص) ؟ كلا ، حاشاه من ذلك ، وهو الرَّؤوف الرَّحيم بأمَّته.

إنَّ أسلوب الطَّلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه ، وأنَّه صادر من قلوبٍ أضناها العذاب ، وأنهكها الجهد ، وهدَّتها البلوى ، فهي تلتمس الفرج العاجل ، وتستبطأى النَّصر، فتستدعيه ، وهو (ص) يعلم: أنَّ الأمور مرهونةٌ بأوقاتها ، وأسبابها ، وأنَّ قبل النَّصر البلاءُ ، فالرُّسل تُبتلى ، ثمَّ تكون لها العاقبة ، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ *} [يوسف: ١١٠] .

ويلمس ـ عليه السَّلام ـ من واقع أصحابه ، وملابسات أحوالهم ، بَرَمهم بالعذاب الذي يلاقون ، حتَّى يُفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التَّعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ـ بمجرَّد قراءة النَّصِّ ـ حقيقة الحال التي كانوا عليها ، حين طلبوا منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ الدُّعاء ، والاستنصار ، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات الَّتي كانت تثور في نفوسهم ، إلا أن يعيش حالاً قريباً من حالهم ، ويعاني ـ في سبيل الله ـ بعضَ ما عانوا.

لقد كان (ص) يربِّيهم على:

أ ـ التأسِّي بالسَّابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ، في تحمُّل الأذى في سبيل الله ، ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب ـ التَّعلُّق بما أعدَّه الله في الجنة للمؤمنين الصَّابرين من النَّعيم ، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدُّنيا.

ج ـ التَّطلُّع للمستقبل ، الَّذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدُّنيا ، ويذلُّ فيه أهل الكفر ، والعصيان.

وثمَّة أمرٌ اخر كبيرٌ ، ألا وهو: أنَّه (ص) مع هذه الأشياء كلِّها كان يخطِّط ، ويستفيد من الأسباب المادِّيَّة المتعدِّدة لرفع الأذى والظُّلم عن أتباعه ، وكفِّ المشركين عن فتنتهم ، وإقامة الدَّولة الَّتي تجاهد في سبيل الدِّين ، وتتيح الفرصة لكلِّ مسلمٍ أن يعبد ربَّه حيث شاء ، وتزيل الحواجز ، والعقبات الَّتي تعترض طريق الدَّعوة إلى الله[(٦٤٣)].

وقد تحدَّث خبابٌ رضي الله عنه عن بعض ما كانوا يلقونه من المشركين ، من عنتٍ ، وسوءِ معاملة ، ومساومةٍ على الحقوق ، حتَّى يعودوا إلى الكفر ، فقال: كنت رجلاً قَيْناً[(٦٤٤)] ، وكان لي على

العاص بن وائل دَيْنٌ ، فأتيته لأقتضيه ، فقال لي: لن أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد ، فقلت: لن أكفر حتَّى تموت ، وتبعث ، قال: وإِنِّي لمبعوث بعد الموت؟ فإن كان ذلك؛ فلسوف أقضيك؛ إذا رجعت إلى مالي وولدي ، فنزلت فيه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأَُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا *} إلى قوله: {وَيَأْتِينَا فَرْدًا *} [مريم: ٧٧ ـ ٨٠] [البخاري (٢٠٩١) ومسلم (٢٧٩٥)] .

وذُكِرَ: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبَّاباً عمَّا لقي في ذات الله تعالى ، فكشف خبابٌ عن ظهره ، فإذا هو قد برص ، فقال عمر: ما رأيت كاليوم ، فقال خباب: يا أميرَ المؤمنين ، لقد أوْقَدُوا لي ناراً ، ثمَّ سلقوني فيها ، ثمَّ وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري ، فما اتَّقيت الأرض ـ أو قال: برد الأرض ـ إلا بظهري ، وما أطفأ تلك النَّار إلا شحمي[(٦٤٥)].

٧ ـ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه:

كان منهج رسول الله (ص) في معاملته للنَّاس حكيماً ، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطفٍ وترفُّقٍ ، وكذلك الصِّبيان الصِّغار؛ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدِّثنا عن لقائه اللَّطيف

برسول الله (ص) يقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقْبة بن أبي مُعَيْط ، فمرَّ بي رسولُ الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، فقال: يا غلام! هل من لبنٍ؟ قلت: نعم ، ولكني مؤتمنٌ ، قال: فهل من شاةٍ لم يَنْزُ عليها فحلٌ؟ فأتيته بشاةٍ ، فمسح ضرعها ، فنزل لبنٌ فحلبه في إناءٍ ، فشرب ، وسَقَى أبا بكرٍ ، ثمَّ قال للضَّرع: اقلص ، فقلص ، قال: ثمَّ أتيته بعد هذا فقلت: يا رسولَ الله! علِّمني من هذا القول ، قال: فمسح رأسي ، وقال: «يرحمك الله! فإنَّك غُلَيِّم معلَّمٌ» [أحمد (٣٧٩/١ و٤٦٢) وأبو يعلى (٤٩٨٥) والطيالسي (٣٥٣) والحلية (١٢٥/١)][(٦٤٦)].

وهكذا كان مِفْتَاحُ إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه: «إِنِّي مؤتمن» ، والثانية: كانت من الصادق المصدوق ، حيث قال له: «إنك غُلَيِّم معلَّم».

ولقد كان لهاتين الكلمتين دورٌ عظيمٌ في حياته ، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضي الله عنهم ، ودخل عبد الله في ركب الإيمان ، وهو يمخر بحار الشِّرك في قلعة الأصنام ، فكان واحداً من أولئك السَّابقين؛ الَّذين مدحهم الله في قرانه العظيم[(٦٤٧)] ، وقد قال عنه ابن حجر: «أحد السَّابقين الأوَّلين ، أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً ، والمشاهد بعدها ، ولازم النَّبيَّ (ص) ، وكان صاحب نعليه»[(٦٤٨)].

أوَّل من جهر بالقران الكريم:

بالرَّغم من أنَّ ابن مسعودٍ رضي الله عنه كان حليفاً ، وليس له عشيرةٌ تحميه ، ومع أنَّه كان ضئيل الجسم ، دقيق السَّاقين ، فإنَّ ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته ، وقوَّة نفسه رضي الله عنه وله مواقف رائعةٌ في ذلك؛ منها ذلك المشهد المثير في مكَّة ، وإبَّان الدَّعوة ، وشدَّة وطأة قريشٍ عليها ، فلقد وقف على مَلَئِهم ، وجهر بالقران ، فقرع به أسماعهم المقفلة ، وقلوبهم المغلَّقة[(٦٤٩)] ، فكان أوَّل من جهر بالقران بعد رسول الله (ص) بمكَّة.

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله (ص) فقالوا: والله! ما سمعت قريش هذا القران يُجهر لها به قطُّ ، فَمَنْ رجلٌ يُسْمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعودٍ: أنا! قالوا: إنَّا نخشاهم عليك ، إنَّما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم؛ إن أرادوه! قال: دعوني؛ فإنَّ الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعودٍ حتَّى أتى المقام في الضُّحى؛ وقريشٌ في أنديتها؛ حتَّى قام عند المقام ، ثم قرأ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *} . رافعاً بها صوته . {الرَّحْمَانُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ *} ، قال: ثمَّ استقبلها يقرؤها ، قال: فتأمَّلوه ، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟ قال: ثمَّ قالوا:

إنَّه ليتلو بعض ما جاء به محمَّدٌ! فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتَّى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثمَّ انصرف إلى أصحابه ، وقد أثَّروا في وجهه ، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليَّ منهم الان ، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غداً! قالوا: لا! حسبُك ، قد أسمعتهم ما يكرهون[(٦٥٠)].

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أوَّل مَنْ جهر بالقران بمكَّة بعد رسول الله (ص) ، ولا غرو: أنَّ هذا العمل الَّذي قام به عبد الله يعتبر تحدِّياً عملياً لقريشٍ؛ التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف ، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التَّجربة على الرَّغم ممَّا أصابه من أذى[(٦٥١)].

٨ ـ خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالدٍ قديماً؛ لرؤيا راها عند أوَّل ظهور النَّبي (ص) ؛ إذ رأى كأنَّه وقف على شفير النَّار ، وهناك مَنْ يدفعه فيها ، والرَّسول يلتزمه لئلا يقع ، ففزع من نومه ، معتقداً: أنَّ هذه الرؤيا حقٌّ ، فقصَّها على أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، فقال له: أُرِيدَ بك خيراً ، هذا رسول الله (ص) فاتَّبعه ، فذهب إليه فأسلم ، وأخفى إسلامه خوفاً من أبيه ، لكنَّ أباه علم لما رأى كثرة تغيُّبه عنه ، فبعث إخوته الَّذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه ، فجيء به ، فأنَّبه ، وضربه بمقرعةٍ ، أو عصاً كانت في يده ، حتى كسرها على رأسه ، ثمَّ حبسه بمكَّة ، ومنع إخوته من الكلام معه ، وحذَّرهم من عمله ، ثمَّ ضيق عليه

الخناق؛ فأجاعه ، وقطع عنه الماء ثلاثة أيَّامٍ ، وهو صابرٌ محتسبٌ ، ثمَّ قال له أبوه: والله لأمنعنَّك القوت! فقال خالد: إن منعتني فإنَّ الله يرزقني ما أعيش به ، وانصرف إلى رسول الله (ص) فكان يكرمه ، ويكون معه ، ثمَّ رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرَّة الثَّانية[(٦٥٢)].

٩ ـ عثمان بن مظعونٍ رضي الله عنه:

لما أسلم عَدَا عليه قومُه بنو جمح ، فاذوه ، وكان أشدَّهم عليه وأكثرهم إيذاءً له أميةُ بن خلف ، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه[(٦٥٣)]:

أَأَخْرَجْتَنِي مِنْ بطن مكَّةَ اثماًوأَسْكَنْتَنِي فِي صَرْحٍ بَيْضَاءَ تُقْذَعُ

تَرِيْشُ نِبَالاً لاَ يُواتِيْكَ رِيْشُهَاوَتَبْرِي نِبَالاً رِيْشُهَا لَكَ أَجْمَعُ

وحَارَبْتَ أَقْواماً كِرَاماً أَعِزَّةًوأَهْلَكْتَ أَقْوَاماً بِهِمْ كُنْتَ تَفْزَعُ

سَتَعْلَمُ إِنْ نَابَتْكَ يَوْمَاً مُلِمَّةٌوأَسْلَمَكَ الأَوْبَاشُ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ

وبقي عثمان بن مظعون فترةً في الحبشة ، لكنَّه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرَّة الأولى ، ولم يستطع أن يدخل مكَّة إلا بجوارٍ من الوليد بن المغيرة ، حيث ظلَّ يغدو في جواره امناً مطمئناً ، فلمَّا رأى ما يصيب أصحاب النَّبيِّ (ص) من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، أنكر ذلك على نفسه ، وقال: والله! إنَّ غُدوِّي ، ورَواحي امناً بجوار رجلٍ من أهل الشِّرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني؛ لنقصٌ كبير في نفسي[(٦٥٤)] ، فذهب إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له: يا أبا عبد شمس! وفت ذمَّتك ، وقد ردَدت إليك جوارك! فقال: لِمَ يابن أخي؟ فلعلَّك أوذيت ، أو انتهكت ، قال: لا! ولكني أرضى بجوار الله تعالى ، ولا أريد أن أستجير بغيره ، قال: فانطلِقْ إلى المسجد فارددْ عليَّ جواري علانيةً ، كما أجرتك علانيةً ، فانطلقا إلى المسجد فردَّ عليه جواره أمام النَّاس ، ثمَّ انصرف عثمان إلى مجلسٍ من مجالس قريش ، فجلس معهم ، وفيهم لبيد بن ربيعة[(٦٥٥)] الشَّاعر ينشدهم ، فقال لبيد: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ». فقال عثمان: صدقت ، واستمرَّ لبيد في إنشاده ، فقال: «وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل» ، فقال: عثمان: كذبت ، نعيم الجنَّة لا يزول! قال لبيد: يا معشر قريش! والله ما كان يُؤْذَى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيهٌ في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله ، فردَّ عليه عثمان حتَّى شَرِيَ[(٦٥٦)] أمرُهما ، فقام إليه ذلك الرَّجل ، فلطم عينه فاخْضرَّت ، والوليد بن المغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان ، فقال: أما والله يابن أخي! إن عينك لغنيةٌ عمَّا أصابها ، ولقد

كنت في ذمَّةٍ منيعةٍ ، فقال عثمان: والله! إنَّ عيني الصَّحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنِّي لفي جوار من هو أعزُّ منك ، وأقدر يا أبا عبد شمس! ثمَّ عرض عليه الوليد الجوار مرَّةً أخرى ، فرفض[(٦٥٧)].

وهذا يدلُّ على مدى قوَّة إيمانه رضي الله عنه ، ورغبته في الأجر ، والمثوبة عند الله؛ ولذلك لما مات ، رأت أمُّ العلاء الأنصاريَّة ـ وكان عثمان ممَّن وقع في سهمها عندما اقترع الأنصار على سكنى المهاجرين ـ في المنام: أنَّ له عيناً تجري ، فجاءت رسول الله (ص) فأخبرته ، فقال: «ذلك عملُه» [البخاري (٧٠٠٤)] .

وغير هؤلاء من الصَّحابة الكرام تعرَّض للتَّعذيب ، وهكذا نرى أولئك الرَّهط من الشَّباب القرشيِّ ، قد أقبلوا على دعوة الرَّسول (ص) ، واستجابوا لها ، والتفُّوا حول صاحبها؛ على الرَّغم من مواقف ابائهم ، وذويهم ، وأقربائهم المتشدِّدة تجاههم ، فضحُّوا بكل ما كانوا يتمتَّعون به

من امتيازاتٍ قبل دخولهم في الإسلام ، وتعرَّضوا للفتنة؛ رغبةً فيما عند الله تعالى من الأجر ، والثَّواب ، وتحمَّلوا أذىً كثيراً ، وهذا فعل الإيمان في النفوس عندما يخالطها ، فتستهين بكلِّ ما يصيبها من عنتٍ ، وحرمانٍ؛ إذا كان ذلك يؤدِّي إلى الفوز برضا الله تعالى ، وجنَّته.

هذا ، ولم يكن التَّعذيب والأذى مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم ، وإنَّما طال النِّساء أيضاً قسطٌ كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنَّ ، كسميَّة بنت خياط ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، ولبيبة جارية بني المؤمِّل ، وزِنِّيرة الرُّوميَّة ، والنَّهْدية ، وابنتها ، وأمِّ عُبَيْسٍ ، وحمامةَ أمِّ بلال ، وغيرهنَّ[(٦٥٨)].

خامساً: حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ (ص) بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدِّفاع عن أنفسهم ، ويبدو: أنَّ الموقف السِّلمي أغاظ بعضهم ، وخاصَّةً الشَّباب منه ، وقد أتى عبدُ الرحمن بن عوف وأصحابُه رضي الله عنهم إلى النَّبيِّ (ص) بمكَّة ، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزَّةٍ ونحن مشركون ، فلمَّا امنَّا؛ صرنا أذلَّةً! قال: «إنِّي أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم» [(النسائي (٦/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١١) والحاكم (٢/٦٦ ـ ٦٧ و٣٠٧)][(٦٥٩)].

وتعرَّض بعض الباحثين للحكمة الرَّبَّانيَّة في عدم فرضية القتال في مكَّة ، ومن هؤلاء الأستاذ سيِّد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال: لا نجزم بما نتوصَّل إليه؛ لأنَّنا حينئذٍ نتألَّى على الله ما لم يبيِّن لنا من حكمةٍ ، ونفرض أسباباً ، وعللاً قد لا تكون هي الأسباب ، والعلل الحقيقية ، أو قد تكون.

ذلك: أنَّ شأن المؤمن أمام أيّ تكليفٍ ، أو أيّ حكمٍ من أحكام الشَّريعة هو التَّسليم المطلق؛ لأنَّ الله سبحانه هو العليم الخبير ، وإنَّما نقول هذه الحكم ، والأسباب من باب الاجتهاد ، وعلى أنَّه مجرَّد احتمال؛ لأنَّه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ولم يحدِّدها هو لنا ، ويطلعنا عليها بنصٍّ صريح[(٦٦٠)] ، ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجازٍ:

١ ـ أنَّ الكفَّ عن القتال في مكَّة ربما لأنَّ الفترة المكِّيَّة كانت فترة تربيةٍ ، وإعدادٍ ، في بيئةٍ معيَّنةٍ ، لقومٍ معيَّنين ، وسط ظروفٍ معيَّنةٍ ، ومن أهداف التَّربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربيِّ على الصَّبر ، على ما لا يصبر عليه عادة من الضَّيم حين يقع عليه ، أو على من يلوذون

به؛ ليخلص من شخصه ، ويتجرَّد من ذاته ، فلا يندفع لأوَّل مؤثِّر ، ولا يهيج لأوَّل مهيجٍ؛ ومن ثمَّ يتمُّ الاعتدال في طبيعته ، وحركته ، ثمَّ تربيته على أن يتَّبع نظام المجتمع الجديد ، بأوامر القيادة الجديدة ، حيث لا يتصرَّف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصيَّة العربيِّ المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدَّعوة السِّلميَّة أشدُّ أثراً وأنفذُ في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهيَّة والشَّرف ، والَّتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد ، ونشأة ثاراتٍ دمويةٍ جديدةٍ ، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس ، والغبراء ، وحرب البسوس ، وحينئذٍ يتحوَّل الإسلام من دعوةٍ ، إلى ثاراتٍ تُنسى معها فكرتُه الأساسيَّة.

٣ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كلِّ بيت ، فلم تكن هناك سلطةٌ نظاميَّةٌ عامَّةٌ هي التي تعذِّب المؤمنين ، وإنَّما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كلِّ فردٍ ، ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركةٌ ، ومقتلةٌ في كلِّ بيتٍ ، ثمَّ يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتَّى والإسلام يأمر بالكفِّ عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم: أنَّ محمداً يفرِّق بين الوالد ، وولده ، فوق تفريقه لقومه ، وعشيرته؛ فكيف لو كان يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي؟!

٤ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لما يعلمه الله من أنَّ كثيراً من المعاندين ، الَّذين يفتنون المسلمين عن دينهم ، ويعذِّبونهم ، سيكونون من جند الإسلام المخلصين؛ بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطَّاب من بين هؤلاء؟!

٥ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ النَّخوة العربيَّة في بيئةٍ قبليَّةٍ ، من عادتها أن تثور للمظلوم الَّذي يتحمَّل الأذى ، ولا يتراجع ، وبخاصَّةٍ إذا كان الأذى واقعاً على كرام النَّاس فيهم؛ وقد وقعت ظواهر كثيرةٌ

تثبت صحَّة هذه النَّظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغنَّة[(٦٦١)] لم يرضَ أن يترك أبا بكر ـ وهو رجلٌ كريم ـ يهاجرُ ويخرج من مكَّة ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره ، وحمايته ، واخر هذه الظَّواهر ، نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شِعْب أبي طالب.

٦ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً لقلَّة عدد المسلمين حينئذٍ ، وانحصارهم في مكَّة؛ حيث لم تبلغ الدَّعوة إلى بقيَّة الجزيرة ، أو بلغت ، ولكن بصورةٍ متناثرةٍ ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركةٍ داخليَّةٍ بين قريش وبعض أبنائها ، لترى ماذا يكون مصير الموقف؛ ففي مثل

هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتَّى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشِّرك ، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظامٌ ، ولا يوجد له كيانٌ واقعيٌّ ، وهو دينٌ جاء ليكون منهج حياةٍ ونظام دنيا واخرة.

٧ ـ أنَّه لم تكن هناك ضرورةٌ قاهرةٌ ملحَّةٌ لتجاوز هذه الاعتبارات كلِّها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأنَّ الأمر الأساسيَّ في هذه الدَّعوة كان قائماً ، ومحقَّقاً ، وهو (وجود الدَّعوة) ، ووجودها في شخص الدَّاعية محمَّد (ص) ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم ، فلا تمتدُّ إليه يدٌ إلا وهي مهدَّدة بالقطع؛ ولذلك لا يجرؤ أحدٌ على منعه من إبلاغ الدَّعوة ، وإعلانها في ندوات قريشٍ حول الكعبة ، ومِنْ فوق جبل الصفا ، وفي الاجتماعات العامَّة ، ولا يجرؤ أحدٌ على سجنه أو قتله ، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله.

إنَّ هذه الاعتبارات كلَّها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمةُ الله معه أن يأمر المسلمين بكفِّ أيديهم ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزكاة؛ لتتمَّ تربيتهم ، وإعدادهم ، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب ، وليُخرجوا أنفسهم من المسألة كلِّها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظٌّ؛ لتكون خالصةً ، وفي سبيل الله[(٦٦٢)].

وقد تعلَّم الصَّحابة من القران الكريم فقه المصالح والمفاسد ، وكيفية التَّعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع ، قال تعالى: {وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٠٨] .

وهكذا تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ المصلحة إنْ أدَّت إلى مفسدةٍ أعظمَ؛ تُتْرَكْ[(٦٦٣)] ، وفي هذا تهذيبٌ أخلاقيٌّ ، وسموٌّ إيمانيٌّ ، وترفُّعٌ عن مجاراة السُّفهاء الَّذين يجهلون الحقائق ، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه ، وقد ذكر العلماء: أنَّ الحكم باقٍ في الأمَّة على كلِّ حالٍ ، فمتى كان الكافر

في منعةٍ ، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين ، وخيفة أن يُسبَّ الإسلامُ ، أو النَّبيُّ (ص) أو اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يحلُّ لمسلمٍ أن يسبَّ صلبانهم ، ولا دينهم ، ولا كنائسهم ، ولا أن يتعرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك؛ لأنَّه فعلٌ بمنزلة التَّحريض على المعصية ، وهذا نوعٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدِّ الذَّرائع[(٦٦٤)].

والنَّاظر في الفترة المكِّيَّة ـ والَّتي كانت ثلاثة عشر عاماً ، كلُّها في تربيةٍ ، وإعدادٍ وغرسٍ لمفاهيم (لا إله إلا الله) ـ يدرك ما لأهمِّيَّة هذه العقيدة من شأنٍ في عدم الاستعجال واستباق

الزَّمن ، فالعقيدة بحاجةٍ إلى غرسٍ يُتَعَهَّد بالرِّعاية ، والعناية ، والمداومة؛ بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيبٌ ، وما أجدرَ الدُّعاةَ إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى (ص) لأصحابه على هذه العقيدة وقفةً طويلةً ، فيأخذوا منها العبرة والأسوة؛ لأنَّه لا يقف في وجه الجاهليَّة ـ أيّاً كانت قديمةً ، أو حديثةً ، أو مستقبلةً ـ إلا رجالٌ اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الرَّبَّانيَّة ، وتعَمَّقت جذور شجرة التَّوحيد في نفوسهم[(٦٦٥)].

كان رسول الله (ص) قد أمر أصحابه بضبط النَّفس والتَّحلِّي بالصَّبر ، وكان يربِّي أصحابه على عينه ، ويوجِّههم نحو توثيق الصِّلة بالله ، والتَّقرُّب إليه بالعبادة ، وقد نزلت الايات في المرحلة المكِّيَّة: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً *} [المزمل: ١ ـ ٤] ، فقد أرشدت سورة المزمّل الصَّحابة إلى حاجة الدُّعاة إلى قيام الليل ، والدَّوام على الذِّكر ، والتَّوكُّل على الله في جميع الأمور ، وضرورة الصَّبر ، ومع الصَّبر الهجر الجميل ، والاستغفار بعد الأعمال الصَّالحة.

كانت الايات الأولى من سورة المزَّمّل ، تأمر النَّبيَّ (ص) أن يخصِّص شطراً من اللَّيل للصَّلاة ، وقد خيَّره الله تعالى أن يقوم للصَّلاة نصف اللَّيل ، أو يزيد عليه ، أو ينقص منه ، فقام النَّبيُّ (ص) ، وأصحابُه معه قريباً من عامٍ ، حتَّى ورمت أقدامهم ، فنزل التَّخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه ، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه ، فرحمهم ربُّهم ، فخفَّف عنهم ، فقال: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا

الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفُرُشِ ، ومقاومة النَّوم ، ومألوفات النَّفس؛ لتربيتهم على المجاهدة ، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس تمهيداً لحمل زمام القيادة ، والتَّوجيه في عالمهم؛ إذ لابدَّ من إعدادٍ روحيٍّ عالٍ لهم ، وقد اختارهم الله لحمل رسالته ، وائتمنهم على دعوته ، واتَّخذ منهم شهداء على النَّاس ، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التَّاريخية ، كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة النَّاس إلى التَّوحيد ، وتخليصهم من الشِّرك ، وهي مهمَّةٌ عظيمةٌ يقدر على تنفيذها أولئك الذين {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}

وقد وصف الله قيام اللَّيل ، والصَّلاة فيه ، وقراءة القران ترتيلاً ـ أي: مع البيان والتُّؤدة ـ بقوله: ؛ فهو أثبت أثراً في النَّفس مع {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *} اللَّيل ، وهدأة

الخلق ، حيث تخلو من شواغلها ، وتفرغ للذِّكر والمناجاة بعيداً عن علائق الدُّنيا ، وشواغل النَّهار ، وبذلك يتحقَّق الاستعداد اللازم لتلقِّي الوحي الإلهيِّ: والقول الثَّقيل هو القران {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *} ، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدَّقيق للمسلمين الأوائل ، في قدرتهم على تحمُّل أعباء الجهاد وإنشاء الدَّولة بالمدينة ، وفي إخلاصهم العميق للإسلام ، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا النَّاس ، ونشره بين العالمين[(٦٦٦)].

لقد كان النَّبيُّ (ص) مهتمّاً بجبهته الدَّاخلية ، وحريصاً على تعبئة أصحابه بالعقيدة القويَّة ، التي لا تتزعزع ، ولا تلين ، وكان هذا مبعثاً لروح معنويَّةٍ مرتفعةٍ ، وقويَّةٍ للدِّفاع وتحمُّل العذاب والأذى في سبيل الدَّعوة ، وأصبحت الجماعة الأولى وَحْدَةً متماسكةً ، لا تؤثِّر فيها حملات العدوِّ النَّفسيَّة ، ولا تجد لها مكاناً في هذه الجماعة ، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين ، فقد أصبحت رابطة الأخوَّة في الله تزيد على رابطة الدَّم ، والنَّسب ، وتفضلها في الدِّين الإسلاميِّ.

وتعايش الرَّعيل الأوَّل بمعاني الأخوَّة الرَّفيعة ، القائمة على الحبِّ ، والمودَّة ، والإيثار ، وكانت أحاديث رسول الله (ص) تفعل فعلها في نفوس الصحابة ، فكان (ص) يحثُّ المسلمين على الأخوَّة ، والتَّرابط ، والتَّعاون وتفريج الكرب ، لا لشيءٍ إلا لرضا الله سبحانه ، لا نظير خدمةٍ مقابلةٍ ، أو نحو ذلك ، وإنَّما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده ، وهذه المبادىء هي سرُّ استمرار الأخوَّة الإسلاميَّة ، وتماسك المجتمع الإسلاميِّ[(٦٦٧)] ، وبيَّن لهم الرَّسول (ص) في الحديث القدسيِّ؛ الذي يرويه عن ربِّه سبحانه

وتعالى: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور ، يغبطهم النَّبيُّون والشُّهداء» [الترمذي (٢٣٩٠) وأحمد (٥/٢٣٩)] .

وهكذا أصبحت الأخوَّة الصَّادقة من مقاييس الأعمال ، وأصبحت المحبَّة في الله من أفضل الأعمال ، ولها أفضل الدَّرجات عند الله ، وحذَّر الرَّسول (ص) المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرَّابطة ، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها ، فقال لهم: «لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ» [البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)] .

واستعان النَّبيُّ (ص) في ربط المجتمع الدَّاخليِّ ، وتوحيد جبهته؛ لتكون قويَّة في مواجهة الحرب النَّفسيَّة الموجَّهة ضدَّها بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة ، وإعطائهم الحرِّيَّة ، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرِّيَّة ، ثمَّ كانت لهم في داخله حرِّيَّة الرأي وحرِّيَّة التعبير ،

والمشورة ، فقد أتى محمَّدٌ (ص) بمبدأ المساواة بين جميع النَّاس ، الحاكم والمحكوم ، والغنيُّ والفقير ، وبين جميع الطَّبقات ، وقد كان لهذا المبدأ العظيم أكبر الأثر في نفوس أتباع النَّبيِّ (ص) ، وجعلهم يتحابُّون ويتماسكون ، ويفتدون بأرواحهم ، ويدافعون عنه بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ وعزيمةٍ؛ فهو (ص) لم يقرَّ تفاوتاً بين البشر بسبب مولدٍ ، أو أصلٍ ، أو حسبٍ أو نسبٍ ، أو وراثةٍ ، أو لونٍ ، والاختلاف في الأنساب والأجناس ، والألوان لا يؤدِّي إلى اختلافٍ في الحقوق ، والواجبات أو العبادات؛ فالكلُّ أمام الله سواسيةٌ ، وعندما طلب أشراف مكَّة من رسول الله (ص) أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس العبيد والضُّعفاء ، حتَّى لا يضمَّهم وإيَّاهم مجلسٌ واحد؛ بيَّن الرَّسول (ص) أنَّ جميع النَّاس متساوون في تلقِّي الوحي ، والهداية.

ورفض كفَّار مكَّة ، وساداتُها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد ، ومَنْ يعتبرونهم ضعفاء أذلاَّء من أتباع محمَّدٍ (ص) ، فنزل القران الكريم بقوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *}[الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ *}[الأنعام: ٥٢.٥٣] ، بل إنَّ النَّبيَّ (ص) لما أعرض عن ابن أمِّ مكتومٍ الأعمى ، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف؛ عاتبه الله أشدَّ العتاب، كما في الايات: {عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ

الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ *فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ *}[عبس: ١-١٢].

وكان من أكبر أساليب النَّبيّ (ص) في ربطه المجتمع الإسلاميّ ، وتوحيده ، وتقويته للجبهة الدَّاخلية ، وجعلها قويَّة البنيان متماسكةً ما دعا إليه (ص) من التَّكافل المادِّيّ والمعنويِّ بين المسلمين؛ ليعين منهم القويُّ الضَّعيف ، وليعطف الغنيُّ على الفقير ، ولم يترك (ص) ثغرةً واحدةً تنفذ منها الحرب النفسيَّة إلى هذا الصَّفِّ الإسلاميِّ الأوَّل ، وأصبحت الجماعة الأولى صخرةً عظيمةً تحطَّمت عليها كلُّ الجهود والخطط؛ الَّتي بذلها زعماء مكَّة للقضاء على الدَّعوة[(٦٦٨)].

سادساً: أثر القران الكريم في رفع معنويات الصَّحابة:

كان للقران الكريم أثرٌ عظيم في شدِّ أزر المؤمنين من جانبٍ ، وتوعُّده الكفار بالعذاب من جانبٍ اخر ، ممَّا كان له وقع القنابل على نفوسهم ، وقد كان دفاع القران الكريم عن الصَّحابة يتمثَّل في نقطتين:

الأولى: حثُّ الرَّسول (ص) على رعايتهم ، وحسن مجالستهم ، واستقبالهم ، ومعاتبته على بعض المواقف الَّتي ترك فيها بعض الصَّحابة؛ لانشغاله بأمر الدَّعوة أيضاً.

الثانية: التَّخفيف عن الصَّحابة ، بضرب الأمثلة والقصص لهم ، من الأمم السَّابقة ، وأنبيائها ، وكيف لاقوا مِنْ قومهم الأذى والعذاب؛ ليصبروا ، ويستخفُّوا بما يلاقون ، وأيضاً بمدح بعض تصرُّفاتهم ، ثمَّ بوعدهم بالثَّواب ، والنَّعيم المقيم في الجنَّة ، وكذلك بالتَّنديد بأعدائهم الَّذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى[(٦٦٩)].

أما النُّقطة الأولى: حينما كان النَّبي (ص) يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه؛ مثل: خبَّاب، وعمَّار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أميَّة ، وصهيب ، وأشباههم ، فكانت قريش تهزأ بهم ، ويقول بعضهم لبعضٍ: هؤلاء أصحابه كما ترون ، ثمَّ يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحقِّ ، لو كان ما جاء به محمَّدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصَّهم الله به دوننا[(٦٧٠)].

وردَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على استهزاء هؤلاء الكفَّار ، مبيِّناً لهم: أنَّ رضا الله على عباده ، لا يتوقَّف على منزلتهم ، ولا مكانتهم بين النَّاس في الدنيا ، كما يؤكِّد لرسوله (ص) هذا المفهوم ، حتَّى لا يتأثَّر بما يقوله الكفَّار ، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصَّحابة ، ومبيِّناً له أيضاً مكانتهم ، فيقول الله تبارك وتعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ

مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ *وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤] .

وهكذا بيَّن الله لرسوله (ص) شأن هؤلاء الصحابة ، وقيمتهم ، ومنزلتهم الَّتي يجهلها ، أو يتجاهلها الكفَّار ، ويحاولون أن ينالوا منها؛ بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرَّسولَ (ص) عن طردهم ، كما يأمره بحسن تحيَّتهم ، ويأمره أيضاً أن يبشِّرهم بأنَّ الله سبحانه قد وعدهم بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الرُّوح المعنويَّة لهؤلاء؟! وكيف يجدون الأذى من الكفَّار بعد ذلك؟! إنَّهم سيفرحون بهذا الأذى؛ الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة[(٦٧١)].

ثمَّ نرى عتاب الله لرسوله (ص) في اياتٍ تتلى إلى يوم القيامة ، وكان هذا العتاب في شأن رجلٍ فقير أعمى من الصَّحابة ، أعرض عنه الرَّسول (ص) مرَّةً واحدةً ، ولم يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكَّة[(٦٧٢)].

قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *} [عبس: ١ ـ ١٠] .

إنَّه لا مجال للامتيازات في دعوة الحقِّ ، بسبب الحسب ، والنَّسب ، أو المال والجاه ، فهي إنَّما جاءت لتأصيل النَّظرة إلى الإنسان ، وبيان وحدة الأصل ، وما تقتضيه من المساواة ، والتكافؤ ، ومن هنا يمكن تعليل شدَّة أسلوب العتاب الَّذي وجَّهه الله تعالى لرسوله (ص) ، للاهتمام الكبير الَّذي أظهره لأُبيِّ بن خلف ، على حساب استقباله لابن أمِّ مكتوم الضعيف رضي الله عنه ، فابن أمِّ مكتوم يرجح في ميزان الحقِّ على البلايين من أمثال أُبيِّ بن خلف[(٦٧٣)] لعنه الله!

وكانت لهذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، استفاد منها الرَّعيل الأوَّل ومَنْ جاء بعدهم من المسلمين ، وَمِنْ أهمِّ هذه الدُّروس الإقبال على المؤمنين؛ فإنَّ على الدُّعاة البلاغ ، وليس عليهم الهداية ، ففي قصَّة الأعمى دليلٌ على نبوَّة محمَّدٍ (ص) ، فلو لم يكن نبيُّنا محمَّدٌ (ص) رسولَ الله؛ لكتم هذه الحادثة ، ولم يخبر النَّاس بها؛ لما فيها من عتابٍ له (ص) ، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الايات ،

وايات قصَّة زيدٍ ، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما[(٦٧٤)] ، فعلى الدُّعاة تقديم أهل الخير ، والإيمان[(٦٧٥)].

أما النقطة الثَّانية في دفاع القران الكريم عن الصَّحابة ، فقد كانت بالتَّخفيف عنهم ، وكان أهمَّ وسائل التَّخفيف إظهارُ: أنَّ هذا الأذى الَّذي يلقونه لم يكن فريداً من نوعه؛ وإنَّما حدث قبل ذلك مثله ، وأشدُّ منه ، كان القصص الَّذي يتحدَّث عن حياة الرُّسل في القران الكريم من لدن نوحٍ ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ـ عليهم السَّلام ـ تثبيتاً للمسلمين ، ولروح التَّضحية ، والصَّبر فيهم من أجل الدِّين ، وبيَّن لهم القدوة الحسنة الَّتي كانت في العصور القديمة؛ فالقصص القرانيُّ يحوي الكثير من العبر ، والحكم ، والأمثال.

كان أيضاً من أساليب القران في تخفيفه عن الصَّحابة ، والدِّفاع عنهم أسلوبه في مدحهم ، ومدح أعمالهم في القران الكريم ، يقرؤها النَّاس إلى أن يرث الله الأرض ، ومَنْ عليها؛ كما حدث مع الصِّدِّيق لما أعتق سبع رقابٍ من الصَّحابة؛ لينقذهم من الأذى ، والتَّعذيب ، وفي الوقت نفسه يندِّد بأميَّة بن خلف ، الَّذي كان يعذِّب بلال بن أبي رباح ، فالقران بدستوره الأخلاقي قد قدَّم قواعد الثَّواب ، والعقاب ، وشجَّع المؤمنين ، وحذَّر المخالفين ، وحمل هذا الأسلوب مغزًى عميقاً ، فقد أنار الطريق للصَّحابة ، وكان غمَّةً وكرباً على نفوس الكفار المتردِّدين؛ إذ جاء قول الله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لأَِحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى *} [الليل: ١٤ ـ ٢١] .

وكذلك خلَّد القران ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام ، برغم استهزاء الكفَّار ، ومحاولاتهم لصدِّهم عن الإسلام ، لذا نزلت فيهم بعض الايات كما يذكر بعض المؤرِّخين[(٦٧٦)] ، قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ *وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ *أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ *} [القصص: ٥٢ ـ ٥٥] .

وكانت الايات بعد ذلك تبشِّر الصَّحابة بالثَّواب العظيم ، وبالنَّعيم المقيم في الجنَّة ، جزاءً بما صبروا ، وما تحمَّلوا من الأذى ، وتشجيعاً لهم على الاستمرار في طريق الدَّعوة غير مبالين بما يسمعونه ، وما يلاقونه ، فالنَّصر ، والغلبة لهم في النِّهاية ، كما بيَّن لهم النَّبيُّ (ص) في أحاديثه ، وكما بيَّن لهم القران ،

كما بيَّن القران الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم ، كفَّار مكَّة. قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ *} [غافر: ٥١ ـ ٥٢] ، وبيَّن فضل تمسُّكهم بالقران وإيمانهم به. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ *لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ *}[فاطر: ٢٩ ـ ٣٠] .

وبيَّن ـ سبحانه ـ فضل التَّمسُّك بعبادته برغم الأذى ، والتعذيب ، وبيَّن جزاء الصَّبر على ذلك ، قال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر: ٩ ـ ١٠] .

وهكذا كان القران الكريم يخفِّف عن الصَّحابة ، ويدافع عنهم ، ويحصِّنهم ضدَّ الحرب النَّفسيَّة ، وبذلك لم تؤثِّر تلك الحملات ، ووسائل التَّعذيب على قلوب الصَّحابة بفضل المنهج القرانيّ ، والأساليب النَّبويَّة الحكيمة ، فلقد تحطَّمت كلُّ أساليب المشركين في محاربة الرَّسول (ص) وأصحابه أمام العقيدة الصَّحيحة ، والمنهج السَّليم؛ الَّذي تَشَرَّبهُ الرَّعيل الأوَّل.

سابعاً: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يوماً ، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسِّحر، والكهانة ، والشِّعر ، فليأت هذا الرَّجل الَّذي فرَّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعاب ديننا؛ فليكلِّمه ، ولينظر ماذا يردُّ عليه ؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبةَ بن ربيعة ، فقالوا: أنت يا أبا الوليد! فأتاه عتبة ، فقال: يا محمد! أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله (ص) . قال: فإن كنت تزعم: أنَّ هؤلاء خيرٌ منك؛ فقد عبدوا الالهة الَّتي عبت، وإن كنت تزعم: أنَّك خيرٌ منهم ، فتكلَّم؛ حتَّى نسمع قولك ، إنَّا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك! فرَّقت جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب؛ حتَّى لقد طار فيهم: أنَّ في قريش ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى! أن يقوم بعضنا إلى بعضٍ بالسيُّوف حتَّى نتفانى.

أيُّها الرَّجل! إن كان إنَّما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنَّما بك الباءة فاختر أيَّ نساء قريش شئت؛ فلنزوِّجك عشراً. فقال رسول الله (ص) : «فرغت؟» قال: نعم ! فقال رسول الله (ص) : {حم *تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ *} [فصلت: ١ ـ ٣] إلى أن بلغ {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ *} [فصلت: ١٣] ، فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريشٍ ، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنَّكم تكلِّمونه إلا كلَّمته ، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم [ابن هشام (٣١٣/١ ـ ٣١٤) والبيهقي في الكبرى (٢٠٣/٢ ـ ٢٠٤)][(٦٧٧)] .

وفي رواية ابن إسحاق: فلمَّا جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟! قال: ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ ! والله ما هو بالشعر ! ولا بالسِّحر ، ولا بالكهانة.. يا معشر قريش! أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونَّن لقوله الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيم ، فإن تُصِبْه العرب؛ فقد كُفيتموه

بغيركم ، وإن يَظْهَر على العرب ، فملكه مُلْككم ، وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسعدَ النَّاس به ، قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم[(٦٧٨)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ لم يدخل الرَّسول (ص) في معركةٍ جانبيَّةٍ حول أفضليته على أبيه ، وجدِّه ، أو أفضليتهما عليه ، ولو فعل ذلك لقُضِيَ الأمرُ دون أن يسمع عتبة شيئاً.

٢ ـ لم يخضْ (ص) معركة جانبيَّةً حول العُروض المغرية ، وغضبه الشَّخصيِّ لهذا الاتِّهام؛ إنَّما ترك ذلك كله لهدفٍ أبعد ، وترك عتبة يعرض كلَّ ما عنده ، وبلغ من أدبه (ص) أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟!» فقال: نعم[(٦٧٩)].

٣ ـ كان جواب رسول الله (ص) حاسماً ، وإنَّ اختياره لهذه الايات لدليلٌ على حكمته ، وقد تناولت الايات الكريمة قضايا رئيسيةً كان منها: أنَّ هذا القران تنزيلٌ من الله ، وبيان موقف الكافرين ، وإعراضهم ، وبيان مهمَّة الرَّسول (ص) ، وأنَّه بشرٌ ، وبيان: أنَّ الخالق واحدٌ هو الله ، وأنَّه خالق السَّموات والأرض ، وبيان تكذيب الأمم السَّابقة ، وما أصابها ، وإنذار قريشٍ صاعقةً مثل صاعقة عادٍ ، وثمود[(٦٨٠)].

٤ ـ خطورة المال ، والجاه ، والنِّساء على الدُّعاة ، فكم من الدُّعاة سقط في الطَّريق تحت بريق المال! وكم عُرِضت الالاف من الأموال على الدُّعاة ليكفُّوا عن دعوتهم! والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنَّبيِّ (ص) ، وخطورة الجاه واضحةٌ؛ لأنَّ الشَّيطان في هذا المجال يزيِّن ، ويغوي بطرقٍ أكبر ، وأمكر ، وأفجر ، والدَّاعية الرَّبَّانيُّ هو الَّذي يتأسَّى برسول الله (ص) في حركته ، وأقواله ، وأفعاله ، ولا

ينسى الهدف الذي يعيش ويموت من أجله: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

وأمَّا النِّساء؛ فقد قال (ص) : «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساءِ» [البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)] ، سواءٌ كانت زوجةً تثبِّط الهمَّة عن الدَّعوة ، والجهاد ، أو تسليط بعض الفاجرات عليه لِيُسْقِطْنَه في شباكهنَّ ، أو في تهيئة أجواء البغي ، والإثم ، والمجون ليرتادها ، أيّاً كانت ، فإنَّها فتنةٌ عظيمةٌ في الدِّين ، فهاهي قريش تعرض على رسول الله (ص) نساءها ، يختار

عشراً منها ، أجملهنَّ وأحسنهنَّ يكنَّ زوجاتٍ له؛ إن أرادهنَّ. إنَّ خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشدُّ من خطر السَّيف المِصْلَت على الرِّقاب[(٦٨١)] ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بسيِّد الخلق (ص) ، ويتذكَّروا دائماً قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

٥ ـ تأثُّر عتبة من موقف النَّبيِّ (ص) ، وكان هذا التأثير واضحاً لدرجة أنَّ أصحابه أقسموا على ذلك التَّأثير قبل أن يخبرهم ، فبعد أن كان العدوُّ ينوي القضاء على الدَّعوة ، إذا به يدعو لعكس ذلك ، فيطلب من قريش أن تخلِّيَ بين محمَّد (ص) ، وما يريد[(٦٨٢)].

٦ ـ استمع الصَّحابة لما حدث بين النَّبيِّ (ص) ، وعتبة ، وكيف رفض حبيبهم (ص) كلَّ عروضه المغرية ، فكان ذلك درساً تربويّاً خالط أحشاءهم ، تعلَّموا منه الثَّبات على المبدأ ، والتَّمسُّك بالعقيدة ، ووضع المغريات تحت أقدامهم.

٧ ـ تعلَّم الصَّحابة من الرَّسول الكريم (ص) الحلم ، ورحابة الصَّدر ، فقد استمع (ص) إلى تُرَّهات عتبة بن ربيعة ، ونيله منه ، وقوله عنه: «إنَّ في قريشٍ ساحراً» و: «إنَّ في قريشٍ كاهناً» ، و: «ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك» ، و: «إن كان الذي يأتيك رَئِيّاً من الجنِّ» ، فقد أعرض عنه (ص) ، وأغضَّ عن هذا السِّباب ، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته ، وتبليغه إيَّاها لسيد بني عبد شمس ، فقد كانت كلُّ كلمةٍ تصدر من سيِّد الخلق (ص) مبدأً يُحتذى ، وكلُّ تصرفٍ دِيناً يُتَّبع ، وكلُّ إغضاءٍ خُلُقاً يُتأسَّى به[(٦٨٣)].

وذكرت بعض كتب السِّيرة: أنَّ قيادات مكَّة دخلوا في مفاوضاتٍ بعد ذلك مع رسول الله (ص) ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشريَّة ، ممَّن أراد الدُّنيا وطمع في مغانمها ، إلا أنَّ رسول الله

(ص) اتَّخذ موقفاً حاسماً في وجه الباطل ، دون مراوغة ، أو مداهنةٍ ، أو دخولٍ في دهاءٍ سياسيٍّ ، أو محاولة وجود رابطة استعطافٍ، أو استلطافٍ مع زعماء قريش[(٦٨٤)]؛ لأنَّ قضية العقيدة تقوم على الوضوح ، والصَّراحة ، والبيان ، بعيدةً عن المداهنة ، والتَّنازل؛ ولذلك ردَّ رسولُ الله (ص) : «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشَّرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني

أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغْتُكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا ، والاخرة ، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبر لأمر الله حتَّى يحكم الله بيني وبينكم» [ابن هشام (٣١٦/١)][(٦٨٥)].

بهذا الموقف الإيمانيِّ الثَّابت رجع كيدهم في نحورهم ، وثبتت قضيَّةٌ من أخطر قضايا العقيدة الإسلاميَّة ، وهي خلوص العقيدة من أيِّ شائبةٍ غريبةٍ عنها ، سواءٌ في جوهرها ، أو في الوسيلة الموصلة إليها[(٦٨٦)].

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *}

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين ، واستمساكهم بدينهم ، ورفعة نفوسهم فوق كلِّ باطلٍ؛ بدأت خطوط اليأس في نفوسهم؛ من أنَّ المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ فسلكوا مهزلةً أخرى من مهازلهم الدَّالة على طيش أحلامهم ، ورعونتهم الحمقاء ، فأرسلوا إلى النَّبيِّ (ص) الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأميَّة بن خلف ، والعاص بن وائل ، فقالوا: يا محمد! هلمَّ ، فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً ممَّا نعبد؛ كنَّا قد أخذنا بحظِّنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً ممَّا تعبد؛ كنت قد أخذت بحظِّك منه ، فأنزل الله فيهم: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون: ١ ـ ٦][(٦٨٧)].

ومثل هذه السُّورة اياتٌ أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر ، وأهله؛ مثل قوله تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ *} [يونس: ٤١] .

وقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ *قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ *} [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٧].

ولقد بيَّنت سورة (الكافرون): أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ لا عوج فيه ، ولا فجاج له، إنَّه العبادة الخالصة لله وحده ربِّ العالمين ، فنزلت هذه السُّورة على الرَّسول (ص) للمفاصلة الحاسمة بين عبادةٍ ، وعبادة ، ومنهجٍ ، ومنهج ، وتصوُّرٍ ، وتصور ، وطريقٍ ، وطريق. نعم نزلت نفياً بعد نفي ، وجزماً بعد جزم ، وتوكيداً بعد توكيدٍ بأنَّه لا لقاء بين الحقِّ والباطل ، ولا اجتماع بين

النُّور والظلام ، فالاختلاف جوهريٌّ كاملٌ ، يستحيل معه الِّلقاء على شيء في منتصف الطَّريق ، والأمر لا يحتاج إلى مداهنةٍ ، أو مراوغةٍ ، نعم فالأمر هنا ليس مصلحةً ذاتيَّةً ، ولا رغبةً عابرةً ، ولاسُمَّاً في عسلٍ ، وليس «الدِّين لله ، والوطن للجميع» كما تزعم الجاهليَّة المعاصرة ، ويدَّعي المنافقون ، والمستغربون الَّذين يتَّبعون الضَّالِّين ، والمغضوب عليهم ، والملحدين أعداء الله سبحانه في كلِّ مكان.

كان الردُّ حاسماً على زعماء قريش المشركين ، ولا مساومة ، ولا مشابهة ، ولا حلول وسطاً ، ولا ترضياتٍ شخصيَّةً؛ فإنَّ الجاهليَّة جاهليَّةٌ ، والإسلام إسلامٌ ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، والفارق بينهم كبير ، كالفرق بين التِّبْرِ[(٦٨٨)] والتُّراب ، والسَّبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهليَّة بجملتها إلى الإسلام بجملته ، عبادةً وحكماً ، وإلا فهي البراءة التَّامَّة ، والمفاصلة الكاملة ، والحسم الصَّريح بين الحقِّ ، والباطل في كلِّ زمانٍ {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[(٦٨٩)]

وجاء وفدٌ اخر بعد فشل الوفد السَّابق ، يتكوَّن من: عبد الله بن أبي أميَّة ، والوليد بن المغيرة ، ومُكْرَز بن حفصٍ ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ ، والعاص بن عامرٍ[(٦٨٩)]؛ جاء ليقدِّم عرضاً اخر للتَّنازل عن بعض ما في القران ، فطلبوا من النَّبيِّ (ص) أن ينزع من القران ما يغيظهم من ذمِّ الهتهم ، فأنزل الله لهم جواباً حاسماً ، قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *}[يونس: ١٥] .

وهذه الوفود ، والمفاوضات تبيِّن مدى الفشل الَّذي أصاب زعماء قريشٍ في عدم حصولهم على التَّنازل الكلِّيِّ عن الإسلام ، الأمر الَّذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيءٍ من التَّنازل ، ويلاحظ: أنَّ التنازل الَّذي طلبوه في المرة الأولى أكبر ممَّا طلبوه في المرة الثانية ، وهذا يدلُّ على تدرُّجهم في التَّنازل من الأكبر إلى الأصغر؛ لعلَّهم يجدون اذاناً صاغيةً لدى قائد الدَّعوة ، كما أنَّهم كانوا يغيِّرون الأشخاص المتفاوضين ، فالَّذين تفاوضوا مع الرَّسول (ص) في المرَّة الأولى ، غير الَّذين تفاوضوا معه في المرَّة الثَّانية ، ما خلا الوليد بن المغيرة؛ وذلك حتَّى لا تتكرَّر الوجوه ، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات ، والعقول

المفاوضة ، فربَّما أثَّر ذلك في نظرهم بعض الشَّيء ، وفي هذا درسٌ للدَّعاة إلى يوم القيامة ، ألا تنازل عن الإسلام ـ ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً ـ فالإسلام دعوةٌ ربَّانيَّة ، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً ، مهما كانت الأسباب ، والدَّوافع ، والمبررات ، «وعلى الدُّعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض ، والإغراءات المادِّيَّة ، الَّتي قد لا تُعرض بطريقٍ مباشرٍ ، فقد تأخذ شكلاً غير مباشرٍ ، في شكل وظائف عُليا ، أو عقود عملٍ مجزيةٍ ، أو صفقاتٍ تجاريَّةٍ مربحةٍ ، وهذا ما تخطِّط له المؤسَّسات العالميَّة المشبوهة؛ لصرف الدُّعاة عن دعوتهم ، وبخاصَّةٍ القياديون منهم ، وهناك تعاونٌ تامٌّ في تبادل المعلومات ، بين هذه المؤسَّسات الَّتي تعمل من مواقع متعدِّدة لتدمير العالم الإسلامي»[(٦٩٠)] ولقد جاء في التَّقرير الَّذي قدَّمه «ريتشارد ب. ميشيل» ، أحد كبار العاملين في الشَّرق الأوسط ، لرصد الصَّحوة الإسلاميَّة ، وتقديم معلوماتٍ ، وتقارير عنها ، جاء في هذا التَّقرير ، وضع تصور لخطةٍ جديدةٍ يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلاميَّة ، فكان من بين فقرات هذا التَّقرير فقرةٌ خاصَّةٌ بإغراء قيادات الدَّعوة ، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء ما يلي:

١ ـ تعيين مَنْ يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا؛ حيث يتمُّ شغلهم بالمشروعات الإسلاميَّة فارغة المضمون ، وغيرها من الأعمال الَّتي تستنفد جهدهم ، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيّاً ومادِّياً ، وتقديم تسهيلاتٍ كبيرةٍ لذويهم ، وبذلك يتمُّ استهلاكهم محلّياً ، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيريَّة.

٢ ـ العمل على جذب ذوي الميول التِّجاريَّة والاقتصاديَّة ، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة ، الَّتي تقام في المنطقة العربيَّة لصالح أعدائها.

٣ ـ العمل على إيجاد فرص عملٍ ، وعقودٍ مجزيةٍ في البلاد العربيَّة الغنيَّة ، الأمر الَّذي يؤدِّي إلى بُعدهم عن النَّشاط الإسلاميِّ[(٦٩١)].

فالمتدبِّر في النُّقاط الثلاث السَّابقة ، يلاحظ: أنَّها إغراءاتٌ مادِّيَّةٌ غير مباشرةٍ ، وبنظرةٍ فاحصةٍ للعالم الإسلاميِّ اليوم نلاحظ: أن هذه النُّقاط تنفَّذ بِكلِّ هدوء ، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدَّعاة ، واستهلكت بعض الدُّول العربيَّة الغنية جمّاً غفيراً من الدُّعاة ، وألهت التِّجارة بعضهم[(٦٩٢)].

ثامناً: أسلوب المجادلة ، ومحاولة التَّعجيز:

كان النَّبيُّ (ص) قد أقام الحجج ، والبراهين ، والأدلَّة على صحَّة دعوته ، وكان (ص) يتقن اختيار الأوقات ، وانتهاز الفرص والمناسبات ، ويتصدَّى للردِّ على الشُّبهات مهما كان نوعها ، وقد استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرةً ، استنبطها من كتاب الله تعالى في

إقامة الحجَّة العقليَّة ، واستخدام الأقيسة المنطقيَّة ، واستحضار التَّفكير ، والتأمُّل ، ومن الأساليب الَّتي استخدمها (ص) مع كفَّار مكَّة:

١ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب التَّرغيب فيه ، والاخر هو الشَّرُّ المطلوب التَّرهيب منه ، وذلك باستثارة العقل للتفكُّر في كلا الأمرين ، وعاقبتهما ، ثمَّ الوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى تفضيل الخير ، واتِّباعه.

قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٢٢] .

قال ابن كثيرٌ في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الَّذي كان ميتاً؛ أي: في الضلالة هالكاً حائراً ، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ووفَّقه لاتِّباع رسله»[(٦٩٣)].

٢ ـ أسلوب التَّقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقليَّة إلى الإقرار بالمطلوب ، الَّذي هو مضمون الدَّعوة ، قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ *أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ *أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ *أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ *أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ *أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ *أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ *فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ *} [الطور: ٣٥ ـ ٤٥] .

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الرُّبوبية ، وتوحيد الألوهيَّة ، فقال تعالى: أي: أَوُجِدُوا من غير مُوجدٍ؟ أم {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *} أوْجَدُوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ، ولا هذا؛ بل الله هو الَّذي خلقهم ، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»[(٦٩٤)].

وهذه الاية في غاية القوَّة من حيث الحجَّة العقليَّة؛ لأنَّ «وجودهم هكذا من غير شيءٍ أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثيرٍ ، أو قليل ، أمَّا أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم؛ فأمرٌ لم يدَّعوه ، ولا يدَّعيه مخلوقٌ ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة؛ فإنَّه لا يبقى سوى الحقيقة الَّتي يقولها القران ، وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد

الَّذي لا يشاركه أحدٌ»[(٦٩٥)] والتَّعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرَّر بداهةً في العقل.

وتأمَّلْ هذا الإلزام بالإقرار بربوبيَّة الله وألوهيته ، فيما ذكره السَّعديُّ في تفسيره ، حيث قال: «وهذا استدلالٌ عليهم ، بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلا التَّسليم للحقِّ ، أو الخروج عن موجب العقل والدِّين ، وبيان ذلك: أنَّهم منكرون لتوحيد الله ، مكذِّبون لرسوله (ص) ، وذلك مُستَلزِمٌ لإنكار: أنَّ الله خلقهم ، وقد تقرَّر في العقل مع الشَّرع: أنَّ ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمورٍ: إمَّا أنَّهم خلقوا من غير شيءٍ ، أي: لا خالق خلقهم ، بل وجدوا من غير إيجادٍ ، ولا موجد ، وهذا عين المحال ، أم هم الخالقون لأنفسهم ، وهذا أيضاً محالٌ؛ فإنَّه لا يُتصوَّر أن يوجد أحدٌ نفسه ، فإذا بطل هذان الأمران ، وبان استحالتهما ، تعيَّن القسم الثَّالث ، وهو أنَّ الله هو الَّذي خلقهم ، وإذا تعيَّن ذلك عُلم: أنَّ الله هو المعبود وحده ، الَّذي لا تنبغي العبادة ، ولا تصلح إلا له تعالى»[(٦٩٦)].

٣ ـ أسلوب الإمرار ، والإبطال:

وهو أسلوبٌ قويٌّ في إفحام المعاندين أصحاب الغرور ، والصَّلَف[(٦٩٧)] بإمرار أقوالهم ، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة؛ منعاً للجدل ، والنِّزاع ، خلوصاً إلى حجَّةٍ قاطعةٍ تدمغهم ، وتبطل بها حجَّتهم تلك ، فتبطل الأولى بالتَّبع ، وفي قصَّة موسى ـ عليه السَّلام ـ مع فرعون ، نموذجٌ مطوَّلٌ لهذا الأسلوب؛ حيث أعرض موسى عن كلِّ اعتراضٍ وشبهةٍ أوردها فرعون ، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون ، من خلال إقامة الحجَّة العقليَّة الظَّاهرة على ربوبيَّة الله ، وألوهيَّته[(٦٩٨)] ، وذلك في الايات من سورة الشُّعراء ، قال تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ *قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ *قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ *قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ *قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ *}[الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩].

وهكذا كانت الأساليب القرانيَّة الكريمة ، هي الرَّكيزة ، في مجادلة رسول الله (ص) للمشركين ، ولما احتار المشركون في أمر الرَّسول (ص) ، ولم يكونوا على استعدادٍ في تصديقه: أنَّه رسولٌ من عند الله ، ليس لأنَّهم يكذِّبونه ، وإنَّما عناداً وكفراً ، كما قال تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} [الأنعام: ٣٣] ، هداهم

تفكيرُهم المعوَجُّ إلى أن يطلبوا من الرَّسول (ص) مطالب ليس الغرض منها التَّأكد من صدق النَّبيِّ (ص) ولكن غرضهم منها التعنُّت والتَّعجيز ، وهذا ما طلبوه من الرَّسول (ص) :

١ ـ أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً؛ أي: يُجري لهم الماء عيوناً جاريةً.

٢ ـ أو تكون له جنَّة من نخيل وعنبٍ يفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً؛ أي: تكون له حديقة فيها النَّخل والعنب ، والأنهار تُفَجَّرُ بداخلها.

٣ ـ أو يسقط السَّماء كسفاً عليهم؛ أي: يسقط السَّماء قطعاً كما سيكون يوم القيامة.

٤ ـ أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

٥ ـ أو يكون له بيتٌ من زُخْرُفٍ؛ أي: ذهب.

٦ ـ أو يرقى في السَّماء؛ أي: يتَّخذ سُلَّماً يرتقي عليه ، ويصعد إلى السَّماء.

٧ ـ وينزِّل كتاباً من السَّماء يقرؤونه ، يقول مجاهد: أي: مكتوبٌ فيه إلى كلِّ واحدٍ صحيفةٌ ، هذا كتابٌ من الله لفلان بن فلانٍ ، تصبح موضوعةً عند رأسه[(٦٩٩)].

٨ ـ طلبوا من رسول الله (ص) أن يدعو لهم ، فيُسَيِّر لهم الجبال ، ويقطع الأرض ، ويبعث من مضى من ابائهم من الموتى[(٧٠٠)].

إنَّ عملية طلب الخوارق والمعجزات ، هي خطَّةٌ متَّبعةٌ على مدى تاريخ البشريَّة الطَّويل ، وبرغم حرص النَّبيِّ (ص) على إيمان قومه ، وتفانيه في ذلك ، إلا أنَّه رفض طلبهم هذا؛ لأنَّه علم من ايات القران: أنَّهم إن لم يؤمنوا بعد إجابتهم لما طلبوا؛ عُذِّبُوا عذاباً شديداً ، وكانت إجابته (ص) : «ما بهذا بعثت إليكم ، إنَّما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا والاخرة ، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبرُ لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم» [سبق تخريجه][(٧٠١)].

وانصرف رسولُ الله (ص) إلى أهله حزيناً أَسِفاً لما فاته ، ممَّا طمِع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إيَّاه[(٧٠٢)] ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنُّتات ، والردَّ عليها في قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً *وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً *قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *} [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٦].

ونزل قوله سبحانه: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِْبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ *}[الرعد: ٣١].

إنَّ الحكمة في أنَّهم لم يُجابوا لما طلبوا: أنَّهم لم يسألوا مسترشدين وجادِّين ، وإنَّما سألوا متعنِّتين ، ومستهزئين ، وقد علم الحقُّ سبحانه: أنَّهم لو عاينوا ، وشاهدوا ما طلبوا ، لما امنوا ، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون ، ولظلُّوا في غيِّهم وضلالهم يتردَّدون ، قال سبحانه: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ *وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ *} [الأنعام: ١٠٩ . ١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهيَّة ، والرَّحمة الرَّبَّانيَّة ، ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنَّ سنَّته سبحانه: أنَّه إذا طلب قومٌ اياتٍ ، فأجيبوا ، ثمَّ لم يؤمنوا؛ عذَّبهم عذاب الاستئصال ، كما فعل بعادٍ ، وثمود ، وقوم فرعون.

وليس أدلَّ على أنَّ القوم كانوا متعنِّتين ، وساخرين ، ومعوِّقين لا جادِّين ، من أنَّ عندهم القران ، وهو ايةُ الايات ، وبيِّنةُ البيِّنات؛ ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الايات ، وغيرها؛ ردَّ عليهم سبحانه[(٧٠٣)] بقوله: {وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *} [العنكبوت: ٥٠ . ٥٢] .

وقد ذكر عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه روايةً ، مفادها: أنَّ قريشاً قالت للنَّبيِّ (ص) ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفا ذهباً ، ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا؛ فأتاه

جبريل ، فقال: إنَّ ربك ـ عزَّ وجلَّ ـ يقرأ عليك السَّلام ، ويقول: إن شئت؛ أصبح لهم الصَّفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين ، وإن شئت ، فتحت لهم أبواب التَّوبة ، والرَّحمة ، فقال: بل باب التَّوبة ، والرَّحمة؛ فأنزل الله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ

كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا *}[الإسراء: ٥٩]
[الحاكم (١/٥٣) و(٤/٢٤٠) والبزار (٢٢٢٤) والبيهقي (٧/٥٠)][(٧٠٤)] .

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب ، هو شنُّ حربٍ إعلاميَّةٍ ضدَّ الدَّعوة ، والدَّاعية ، وتامراً على الحقِّ؛ كي تبتعد القبائل العربيَّة عنه (ص) ؛ لأنَّهم يطالبونه بأمورٍ يدركون: أنَّها ليست طبيعة هذه الدَّعوة ، ولهذا أصرُّوا عليها ، بل لقد صرَّحوا بأن لو تحقَّق شيءٌ من ذلك ، فلن يؤمنوا أيضاً بهذه الدَّعوة ، وهذا كلُّه محاولةٌ منهم لإظهار عجز الرَّسول (ص) ، واتِّخاذ ذلك ذريعةً لمنع النَّاس عن اتِّباعه[(٧٠٥)].

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكِّيِّ ، واستعانة مشركي مكَّة بهم:

تحدَّث القران الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سورٍ كثيرةٍ ، بلغت خمسين سورةً في المرحلة المكِّيَّة ، وفي المرحلة المدنيَّة كان دور اليهود كبيراً في محاولة إطفاء نور الله ، والقضاء على دعوة الإسلام ، وعلى حياة رسول الله (ص) ، ولم تحظَ مِلَّةٌ من الملل ، ولا قومٌ من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشُّمول ، وهذه التَّفصيلات ، ما حظي به اليهود ، وحديث القران عنهم يتَّسم بمنهجٍ دقيقٍ يتناسب مع المراحل الدَّعوية الَّتي مرَّت بها دعوة الإسلام ، فقد جاءت الايات الكريمة تشير إلى أنَّ غفلة المشركين عن الحقِّ ، الَّذي جاء به رسول الله (ص) ، وعدم اكتراثهم به ، وبدعوته له نماذج بشريَّةٌ تقدَّمتهم؛ مثل: عادٍ ، وثمودٍ ، وفرعون ، وبني إسرائيل ، وقوم تُبَّعٍ ، وأصحاب الرَّس[(٧٠٦)].

اقرأ معي تلك الإشارات ، في قوله تعالى في سورة المزمَّل . وهي السُّورة الثَّالثة في ترتيب النُّزول .[(٧٠٧)]: {{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً *فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا *السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً *إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *}[المزمل: ١٥ ـ ١٩] .

وكذلك ما ورد في سورة الأعلى ، وهي السُّورة الثَّامنة في ترتيب النُّزول ، فبعد أن ذكرت

بعض الصِّفات الجليلة لله جلَّ جلاله ، وما أسبغ به من النِّعم الدُّنيويَّة والأخرويَّة على عباده ، وذكر طريق الفلاح في الدُّنيا وأنَّ الاخرة خيرٌ وأبقى ، ختمت السُّورة بقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى *صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى *} [الأعلى: ١٨ ـ ١٩] .

وفي سورة الفجر: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ *وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ *الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ *فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ *فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ *إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ *} [الفجر: ٦ ـ ١٤] .

وجاء في سورة النَّجم ذِكْرُ بني إسرائيل، كنماذج بشريَّة تعرَّضت للفتنة ، والاضطهاد، فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء ، ومنهم من صمد ، ونجح في الابتلاء.

قال الله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى *وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى *أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى *أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى *أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى *وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى *وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى *ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى *وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى *} [النجم: ٢٩ ـ ٤٢].

إنَّ تلك المبادأى مقرَّرةٌ في صحف موسى ـ عليه السَّلام ـ المرسل إلى بني إسرائيل ، فليرجعوا إليها إن كانوا في شكٍّ من أمر محمَّد (ص) ، وكذلك في صحف إبراهيم ، وهم «أي: قريش» يزعمون أنَّهم ينتمون إليه ، ويعظِّمون شرائعه؛ الَّتي توارثوها ، كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة ، وخدمة الحجيج[(٧٠٨)].

وفي سورة (ص ، ويس ، ومريم ، وطه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وما أصابهم من الفتنة والابتلاء ، وكيف أوذوا فصبروا ، وبيان سنَّة الله تعالى في أولئك المتحزِّبين المناهضين لدعوة الحقِّ: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ *وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ *إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ *وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ *وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ *اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ *} [ص: ١١ ـ ١٧] .

إنَّها إشارةٌ ذات دلالةٍ تربويَّةٍ لأصحاب النَّبيِّ (ص) مأخوذةٌ من سيرة هؤلاء الأقوام؛ الَّذين تحزَّبوا ضدَّ دعوة الحقِّ؛ لقد كذَّبوا أنبياءهم ، فحقَّ عليهم كلمة العذاب ، وانتصر أهل الحقِّ عليهم.

لم يسلم أحدٌ من الأنبياء من إيذاء الأقوام ، مهما كانت مكانتهم ، وعزَّتهم في مجتمعاتهم ، فلئن كان نوحٌ ، وهودٌ ، وموسى ، وصالحٌ ، ولوطٌ ، وشعيبٌ من عامَّة النَّاس ، فما قولك في داود صاحب القوَّة ، والسُّلطة ، والملك ، الَّذي كانت معجزاته بارزةٌ للعيان من تسبيح الجبال معه ، وحَشْرِ الطُّيور لسماعِ مزاميره ، وتلاوته؟ ماذا تقول عنه بنو إسرائيل؟ وماذا دوَّنوا في كتبهم عن سيرته؟ إنَّهم لم يتركوا نقيصةً إلا ألصقوها فيه ، وهو النَّبيُّ العابد الأوَّاب ، ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول ـ عليها وعلى ابنها السَّلام ـ وقد أورد القران الكريم حملها ، وولادتها ، والخوارق الَّتي حصلت لهما؛ حيث جعلها وابنها ايةً للعالمين: {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *} [مريم: ٢١]؛ فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم ، وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التَّوراة ، {فِيهَا هُدىً وَنُورٌ} ، فلا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحقِّ ما يدلُّ على ضلالها ، وجهلها ، إنَّها تهيئةٌ للنُّفوس ، وتثبيتٌ لها على الحقِّ لملاقاة أعدائه المفترين المكذِّبين من المشركين ومن أهل الكتاب ، ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الَّذين كذَّبوهم ولم يؤمنوا لهم؛ بل كانت لهم مواقف غريبةٌ مشينةٌ مع أعظم أنبيائهم؛ الَّذين يفتخرون بنسبتهم إليه ، وهم يزعمون: أنَّهم أهل كتابه الَّذي أنزل عليه ، وحملة شرائعه وهداياته ، إنَّه نبيُّهم موسى ـ عليه السَّلام ـ أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبةً.

وتذكر لنا سورة (طه) كيف كان الحال معه ، وما عاناه من سفههم ، وتمرُّدهم على أوامر الله ، وعصيانهم المتعمَّد ، فما كاد موسى ـ عليه السلام ـ يغادرهم لمناجاة ربِّه ، وقد ترك بين ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم ، ولا يتَّبع سبيل المفسدين ، إلا وتامروا عليه ، وجمعوا زينة القوم ليُخرج لهم السَّامريُّ عجلاً جسداً له خوار ، فيقوم النَّاس بالطَّواف به لعبادته؛ وليقولوا كلمتهم الكبيرة: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ *} [طه: ٨٨] ، ولما عرف الحقيقة ، استدعى السَّامري ليسأل عن الدَّافع له على هذا التصرُّف السَّفيه ، {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي *} [طه: ٩٦].

إنَّ قوماً يصل بهم السَّفه إلى هذا الحدِّ من الزَّيغ ، والضَّلال ، والإفساد ، فهل يُؤْمَن جانبهم ، ويُتوقَّع منهم الخير ، أو مناصرة الحقِّ؟! لقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكِّيَّة المتقدِّمة اثارٌ بعيدةُ الدَّلالة في تكوين الشَّخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة عن هذه الطَّوائف والنِّحَلِ[(٧٠٩)]. ومن لطائف الأسرار القرانيَّة ، ومن جميل وجوه المناسبات أن يأتي الحديث عن عالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة ، من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم؛

لكي يؤمنوا بالنَّبيِّ الأمِّيِّ عندما يأتيهم بدعوته العالميَّة ، وكان ذلك في سورة الأعراف ، وكان إيراد التَّفصيلات في انحرافات بني إسرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين ، بألا يتأثَّروا بموقف اليهود؛ إن هم تنكَّروا لهم ، فإنَّهم قوم بُهْت ، وتلك سيرتهم مع أنبيائهم ، فإن أعرضوا عن دعوة الإسلام ، وكذَّبوا محمَّداً (ص) ، وقد وجدوا أوصافه في كتبهم ، فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين[(٧١٠)].

قال تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *}[الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨] .

نعم ، إنَّها نقلةٌ من صعيد مكَّة ، وشعابها ، وجبالها إلى أقطار العالم جميعاً ، إنَّها نقلةٌ رُوحيَّةٌ نفسيَّةٌ كبيرةٌ؛ حيث نلاحظ سياق الايات يرسم معالم الدَّعوة العالميَّة عندما تخرَّج من مكَّة إلى الصَّعيد العالميِّ ، كما أنَّ الايات في سورة الأعراف مليئةٌ بالدُّروس التَّربويَّة العظيمة لأمَّة محمَّد (ص) ، من خلال السَّرد التَّاريخيِّ لحياة بني إسرائيل ، وما اعتورها من أحداثٍ عظامٍ ، وهذه المداخلات الَّتي تلفت النَّظر إلى أمَّة رسول الله (ص) ودورها ومهمَّتها في قيادة العالم ، وفي الوقت نفسه تحذيرٌ لها لكي تتجنَّب ما وقعت فيه بنو إسرائيل ، ويمضي السِّياق في الحديث عن الأمم الَّتي تكوَّنت من الأسباط ، وكيف فُكَّت ضائقتهم في المطعم والمشرب ، بتفجير الينابيع وإنزال المنِّ ، والسَّلوى عليهم ، وتوفير الظِّلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم ، ولكن هل أدَّوا شكر هذه النِّعم؟ وماذا كان موقفهم من التكاليف الشَّرعيَّة؟ لقد كان العناد ، والتَّحريف ، والتَّحايل ، والتمرُّد دائماً!

إنَّ إنسانيَّة الإنسان تتحقَّق باتِّباعه الوحي الرَّبَّانيَّ المنزل من خالق السَّموات والأرض ، والعبودية لله تعالى تحقِّق الكمال الإنسانيَّ ، حيث تتحقَّق الغاية الَّتي خُلق الإنسان من أجلها ، وأيُّ إهمالٍ لهذه المهمَّة ، وأيُّ ابتعادٍ عن نور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشريِّ ، ويلحقه بالدَّواب ، والأنعام ، وقد يكون أضلَّ منها؛ لأنه يسخِّر عقله لمزيد من الإسفاف ،

والانحطاط ، بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف ، والانحطاط ، وإنَّما هي مفطورةٌ على غرائز معيَّنةٍ تدفعها لتصرُّفٍ محدَّدٍ.

كانت سورة الأعراف المكِّيَّة ، تعرض لمحاتٍ تربويَّةً ، وتبيِّن توجيهاتٍ ربَّانيَّةً ، وتوضِّح سنناً إلهيةً ، من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل[(٧١١)].

عندما وجدت قريش نفسها عاجزةٌ أمام دعوة الحقِّ ، وكان المعبِّر عن هذا العجز النَّضر بن الحارث؛ الَّذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد! فانظروا في شأنكم ، فإنَّه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم!». فقرَّروا بعد ذلك إرسال النَّضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، لمعرفة حقيقة هذه الدَّعوة ، لا لكي يتَّبعوها ، ولكن لإدراكهم: أنَّ اليهود قد يمدُّونهم بأشياء تظهر عجز الرَّسول (ص) ، ولمعرفة زعماء مكَّة بحقد اليهود المنصبِّ على الأنبياء جميعاً ، وأصحاب الحقِّ أينما كانوا.

كانت بعثة المصطفى صدمةً قويَّةً لليهود؛ وذلك لأنَّهم عاشوا في جزيرة العرب على حلمٍ توارثوه طوال السِّنين الماضية ، وهو أنَّه سيبعث نبيٌّ مُخلِّص في ذلك الزَّمان والمكان ، فرجوا أن يكون منهم؛ املين أن يخلِّصهم من الفرقة ، والشَّتات؛ الَّذي كانوا فيه[(٧١٢)].

كان التقارب بين معسكر الكفر والشِّرك مع اليهود ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام ، ولذلك زوَّدوا الوفد المكيَّ ببعض الأسئلة محاولةً لتعجيز النَّبيِّ (ص) .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النَّضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم: سلوهم عن محمَّد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا؛ حتَّى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله (ص) ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا: إنَّكم أهل التَّوراة ، وقد جئناكم؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقَوِّلٌ ، فقرِّروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل ، ما كان من أمرهم؟ فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ ، وسلوه عن رجلٍ طوَّاف ، بلغ مشارق الأرض ، ومغاربها ، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح ، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك ، فإنَّه نبيٌّ فاتَّبعوه ، وإن هو لم يخبركم؛ فهو رجلٌ مُتقوِّل ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النَّضر ، وعقبة حتَّى قدما مكَّة على قريشٍ ، فقالا: يا معشر قريش! ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد ،قد أمرنا أحبار

يهود أن نسأله عن أمورٍ ، فأخبروهم بها ، فجاؤوا رسول الله (ص) فقالوا: يا محمد! أخْبِرْنا ، فسألوه عمَّا أمروهم به ، فقال لهم رسول الله (ص) : أخبركم غداً بما سألتم عنه ، ولم يستثنِ[(٧١٣)] ، فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله (ص) خمس عشرة ليلةً ، لا يحدِث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكَّة ، وقالوا: وعدنا محمَّد غداً ، واليوم خمس عشرة ، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه ، وحتَّى أحْزَنَ رسولَ الله (ص) مُكْثُ الوحي عنه ، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة ، ثمَّ جاء جبريل عليه السلام من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إيَّاه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية والرَّجل الطَّوَّاف ، وقول الله عزَّ وجلَّ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] [ابن هشام (٣٢٢/١)] ولما سمع اليهود: قالوا: كيف وقد أوتينا {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} ، ومن أوتي التَّوراة؛ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا *} [الكهف: ١٠٩].

كانت سورة الكهف قد احتوت على إجابةٍ لأسئلتهم ، وإشارةٍ إلى أنَّ كهفاً من عناية الله سوف يُؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمَّد (ص) ، كما اوى الكهف الجبليُّ الفتية المؤمنين الفارِّين بدينهم من الفتنة ، وأنَّ نفوساً ستبشُّ في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب ، بالقرب من الَّذين عاضدوا قريشاً في شكِّهم ، وحاولوا معهم طمس نور الحقِّ ، بتلقينهم المنهج التعجيزيّ في التَّثبُّت من أمر النُّبوَّة ، وهو منهجٌ غير سليم؛ فمتى كانت الأسئلة التَّعجيزيَّة وسيلة التَّحقُّق من صدق الرِّسالة ، وصاحبها؟! فهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام ، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل ، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه ، وأنكر على الخضر تصرفاته ، على الرَّغم من تعهده ألاَّ يسأله عن شيءٍ حتَّى يحدث له منه ذكراً ، على الرَّغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث ، وما دار حولها في نبوَّة موسى عليه السلام شيئاً ، ولم يشكِّك بنو إسرائيل في نبوَّته ، فَلِمَ يجعلون مثل هذه الأسئلة أسلوباً للتحقُّق من صدق الرِّسالة؟![(٧١٤)].

جعل الله هذه المناسبة وسيلةً للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة؛ ليجدوا مأوىً كما وجد الفتية المأوى وليبشَّ في وجوههم أهل المدينة ، كما بشَّ أهل المدينة في وجه أحد الفتية ، ثمَّ ذهبوا إليهم ليكرموهم ، وليخلِّدوا ذكراهم[(٧١٥)].

إنَّ القران الكريم نزل ليكوِّن خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس ، لها مقوِّماتها الذَّاتيَّة ، ومصادرها

المعرفيَّة ، ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكِّيَّة ، سورة الفاتحة ، وفيها التَّضرُّع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصِّراط المستقيم ، وتجنُّبه صراط المغضوب عليهم ـ وهم اليهود ـ وصراط الضَّالين ـ وهم النَّصارى ـ كما جاء في حديث عديٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه [الترمذي (٢٩٥٤) وأحمد (٣٧٨/٤ ـ ٣٧٩)] .

فتحديد هذا النَّهج ، وبيان الصِّراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضَّالَّة؛ حتَّى تُتَجنَّب السُّبل الأخرى المتفرِّقة؛ الَّتي تؤدِّي بصاحبها إلى المزالق ، والمهالك ، فكان التعرُّض لعقائد اليهود ، وانحرافاتهم ، ومواقفهم مع أنبيائهم أمراً تقتضيه دواعي التكوين للشخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة ، إنَّ معركتنا مع اليهود معركةٌ مستمرَّةٌ؛ لأنَّها معركةٌ بين المنهج الرَّبَّانيِّ ، والصِّراط المستقيم ضدَّ المناهج الجاهليَّة المحرِّفة لكلمات الله ، السَّاعية للإفساد في الأرض[(٧١٦)] .

عاشراً: الحصار الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ في اخر العام السَّابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش ، أمام صبر الرَّسول (ص) والمسلمين على الأذى ، وإصرارهم على الدَّعوة إلى الله ، وإزاء فشو الإسلام في القبائل ، وبلوغ الأذى قمَّته في الحصار الماديِّ ، والمعنويِّ؛ الَّذي ضربته قريشٌ ظلماً ، وعدواناً على النَّبيِّ (ص) وأصحابه ، ومَنْ عطف عليهم مِنْ قرابتهم[(٧١٧)] .

قال الزُّهريُّ: «ثمَّ إنَّ المشركين اشتدُّوا على المسلمين كأشدِّ ما كانوا؛ حتَّى بلغ المسلمين الجهد ، واشتدَّ عليهم البلاء ، وأجمعت قريش أن يقتلوا رسول الله (ص) علانيةً؛ فلمَّا رأى أبو طالب عمل القوم؛ جمع بني عبد المطلب ، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله (ص) شِعْبَهم ، ويمنعوه ممَّن أراد قتله ، فاجتمعوا على ذلك مسلمُهم وكافرُهم ، فمنهم مَنْ فعله حَمِيَّةً ، ومنهم من فعله إيماناً ، ويقيناً ، فلمَّا عرفت قريشٌ: أنَّ القوم قد منعوا رسول الله (ص) ؛ أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يَدْخُلوا بيوتهم؛ حتَّى يُسلموا رسول الله (ص) للقتل ، وكتبوا من مكرهم صحيفةً ، وعهوداً ومواثيق؛ ألا يتقبَّلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ؛ حتَّى يسلموه للقتل[(٧١٨)] .

وفي روايةٍ: «.... على ألا ينكحوا إليهم ، ولا يُنْكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يَدَعُوا سبباً من أسباب الرِّزق يصل إليهم ، ولا يقبلوا منهم صُلحاً،

ولا تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يدخلوا بيوتهم ، حتَّى يُسْلِمُوا إليهم رسولَ الله (ص) للقتل ، ثمَّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثمَّ علَّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم»[(٧١٩)] .

فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين ، واشتدَّ عليهم البلاء ، والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركون طعاماً يقدم من مكَّة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه ، فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله (ص)[(٧٢٠)] .

وكان أبو طالب إذا أخذ النَّاسُ مضاجعهم؛ أمر رسولَ الله (ص) فأتى فراشه حتَّى يراه من أراد به مكراً ، أو غائلة ، فإذا نام النَّاس؛ أخذ أحد بنيه ، أو إخوته ، أو بني عمِّه ، فاضطجع على فراش رسول الله (ص) ، وأمر رسولَ الله (ص) أن يأتي بعض فرشهم ، فيرقد عليها[(٧٢١)].

واشتدَّ الحصار على الصَّحابة ، وبني هاشم ، وبني المطلب ، حتَّى اضطروا إلى أكل ورق الشَّجر ، وحتى أصيبوا بشظف العيش ، وشدَّته إلى حدِّ أنَّ أحدهم يخرج ليبول ، فيسمع بقعقعة شيءٍ تحته ، فإذا هي قطعةٌ من جلد بعيرٍ ، فيأخذها، فيغسلها ، ثمَّ يحرقها ، ثم يسحقها ، ثمَّ يستفُّها ، ويشرب عليها الماء ، فيتقوى بها ثلاثة أيام[(٧٢٢)] ، وحتَّى لتسمع قريشٌ صوت الصِّبية يتضاغون من وراء الشِّعْب من الجوع(٤).

فلمَّا كان رأس ثلاث سنين ، قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنقض الصَّحيفة أناساً من أشراف قريشٍ ، وكان الَّذي تولَّى الانقلاب الدَّاخلي لنقض الصَّحيفة ، هشام بن عمرو الهاشمي ، فقصد زهير بن أبي أميَّة المخزومي ، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب ، فقال له: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطَّعام ، وتلبس الثِّياب ، وتنكح النِّساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يبتاعون، ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكْحون، ولا يُنْكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله ، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ، ثمَّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم؛ ما أجابك إليه أبداً ، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ ، والله لو كان معي رجلٌ اخر؛ لقمت في نقضها! فقال له: قد وجدت رجلاً ، قال: من هو؟ قال: أنا ، فقال له زهير: أبْغِنَا ثالثاً.

فذهب إلى المطْعِم بن عديٍّ ، فقال له: يا مُطْعِمُ! أقد رضيت أن يَهْلِك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريشٍ فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه؛ لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً! قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ ، قال: قد وجدت

لك ثانياً ، قال: من؟ قال: أنا ، قال: أبغنا ثالثاً ، قال: قد فعلت ، قال: مَنْ؟ قال: زهير بن أبي أميَّة ، فقال: أبغنا رابعاً ، فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً ممَّا قال للمطعم بن عديٍّ ، فقال له: ويحك! وهل نجد أحداً يعين على ذلك؟ قال: نعم ، زهير بن أبي أميَّة ، والمطعم بن عديٍّ ،

وأنا ، فقال: أبغنا خامساً ، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد ، فكلَّمه ، وذكر له قرابته ، وحقَّهم ، فقال له: وهل على هذا الأمر الَّذي تدعوني إليه من أحدٍ؟ قال: نعم ، ثمَّ سمَّى له القوم؛ فاتَّعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكَّة ، فاجتمعوا هناك ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتَّى ينقضوها ، وقال زهير: أنا أبدؤُكم ، فأكون أوَّل من يتكلَّم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أميَّة عليه حُلَّةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثمَّ أقبل على النَّاس ، فقال: أنأكل الطَّعام ، ونلبس الثِّياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! فقال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تُشقُّ ! فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كُتبت ، فقال أبو البختري: صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتب فيها ، ولا نُقِرُّ به ، فقال المطعم بن عديٍّ: صدقتما ، وكذبَ مَنْ قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ، وممَّا كُتِبَ فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك ، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قضي بليلٍ، تُشُووِرَ فيه في غير هذا المكان ، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلَّم.

وقام المطْعم بن عدِيٍّ إلى الصَّحيفة ليشقَّها ، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها ، إلا «باسمك اللَّهمَّ»[(٧٢٣)].

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله (ص) ـ قال لأبي طالب: يا عم ! إن ربي الله قد سلط الأَرَضَة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش ! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخي ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم: رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال رسول الله (ص) ، فزادهم ذلك شراً. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[(٧٢٤)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ إنَّ المتأمِّل لبنود هذه الاتِّفاقيَّة ، يجد: أنَّ قريشاً قد أحكمت البنود ، ولم تدع فيها ثُغْرَةً يمكن النفاذ من خلالها ، ممَّا يؤكد: أنَّها وُضِعت بعد مداولاتٍ ، ومشاوراتٍ على نطاقٍ واسعٍ ، وشاركت في وضعها عقولٌ مفكرةٌ ، امتزجت معها خبراتٌ عديدةٌ ، وحبكَها ذكاءٌ مفرطٌ.

٢ ـ في عدم الزَّواج بين الطَّرفين ، جانب اجتماعيٌّ مهمٌّ؛ فالزَّواج غالباً ما يؤدِّي إلى التالف ، والتاخي ، والتَّراحم ، والتَّواصل ، والتَّزاور بين أهل الزَّوجين ، فإذا تمَّ شيءٌ من ذلك؛ فسيؤدِّي إلى فشل الحصار ، وحتَّى لا يحدث ذلك نصَّتِ الوثيقةُ على عدم الزَّواج بين الطَّرفين.

٣ ـ وفي النَّهي عن البيع ، والشِّراء منهم يَظْهر جانبٌ اقتصاديٌّ بالغ الأهمِّيَّة ، فالبيع ، والشِّراء عصب الحياة الاقتصادية ، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر ، فإذا انعدم ذلك التَّعامل؛ انهار البناء الاقتصاديُّ ، وباتت الحياة الاقتصاديَّة مهدَّدةً بالخطر ، فيصبح الإنسان مفتقداً لضروريات الحياة؛ ممَّا يعرضه إلى الرُّضوخ ، والانصياع لأوامر مَنْ يملك تلك الضروريات ، ومعلومٌ أثر ذلك على الجماعة ، والأفراد ، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين ، وهذا ما وقع فعلاً ، فقد جاء: أنَّهم جُهِدوا حتَّى كانوا يأكلون ورق الشَّجر ، والجلود[(٧٢٥)].

٤ ـ وزيادةً في الحصار الاقتصاديِّ ، وضعوا بنداً يسدُّ الطَّريق أمام المسلمين في التَّعامل مع التُّجار الوافدين من خارج مكَّة ، فكانوا يغلون على المسلمين في السِّعر حتَّى لا يدرك الصَّحابة شيئاً يشترونه ، فيرجعون إلى أطفالهم الَّذين يتضاغون جوعاً؛ وليس في أيديهم شيءٌ يشغلونهم به ، فكان يُسمَعُ بُكَاء الأطفال من بعيدٍ[(٧٢٦)]. كل هذا التضييق بسبب البند الَّذي يقول: «ولا يدعوا شيئاً من أسباب الرِّزق يصل إليهم» ، كما أنَّ هذا البند يفوِّت الحجَّة على مَنْ أراد أن يهديَ شيئاً لأهل الشِّعب ، بحجة: أنَّه لا يبيع ، وإنَّما يهدي ، وحتَّى لا تبقى ذريعةٌ لإيصال الطَّعام إليهم تحت أيِّ مسمَّى وضعت قريش هذا البند[(٧٢٧)].

٥ ـ والبند التَّالي: «ولا تقبلوا منهم صلحاً» ، يسدُّ الطَّريق أمام أيِّ خيارٍ اخر سوى تسليم محمَّدٍ (ص) ، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهم ، أمَّا البند الذي يقضي «بألا تأخذهم بهم رأفةٌ» ، فهو بندٌ يضع قيوداً حتَّى على العواطف؛ كي لا يكون للرأفة ، والرَّحمة وجودٌ بين أهل الصَّحيفة تجاه المؤمنين؛ لأنَّ الرَّحمة والرَّأفة قد تقودان إلى فكِّ الحصار؛ الَّذي يؤدِّي بدوره

إلى فشل جهود قريش ، وهو ما لا تهواه ، لذا عملت على إبطال مفعول الرَّأفة بوضعها لهذا البند في الصَّحيفة.

٦ ـ وفي «عدم مجالستهم ، ومخالطتهم ، وكلامهم» ، سدُّ ثغرةٍ مهمَّةٍ ربَّما جاء من قِبَلِها خطرٌ على المقاطعة والحصار؛ لأنَّ المجالسة ، والمخالطة ، والكلام مع المسلمين ، يؤدِّي إلى النِّقاش ، وتبادل الاراء ، ووجهات النَّظر ، فقد يُقنِع المسلمون بعض أهل الصَّحيفة بخطأ ما هم عليه؛ لأنَّ المسلمين يملكون

من الحقِ والأدلَّة ما يمكن أن يقنعوا بها سواهم ، وحتَّى لا يتمَّ ذلك نصَّت الصَّحيفة على عدم المجالسة ، والمخالطة والكلام.

٧ ـ قولهم: «لا يدخلوا بيوتهم» ، بندٌ لا يختلف عمَّا سبقه؛ لأنَّ دخولهم البيوت يحرِّك الجوانب الإنسانيَّة في النَّفس ، فالإنسان عندما يرى بيتاً يخلو من أقلِّ مقومات الحياة ، وأصاب أهله الجوع ، والعري ، والمرض ، ليس لذنبٍ سوى أنَّهم اختاروا ديناً غير دين قريشٍ؛ لاشكَّ أنَّ العاطفة ستتحرَّك عندهم ، وسيحاولون رفع هذا الظُّلم ، وتلك المعاناة ، وحتَّى لا تقع قيادة قريش في مثل هذا الموقف نصَّت على عدم دخول البيوت.

٨ ـ وتعليق الصَّحيفة في الكعبة يعطيها قدسيَّةً ، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة الَّتي يجب التَّقيُّد ، والالتزام بها ، فالعرب قاطبةً تقدِّس الكعبة ، وتضع لها مكاناً سامياً من الحرمة والقدسيَّة ، لذا عمَدت قريش إلى تعليق الصَّحيفة داخل الكعبة[(٧٢٨)].

٩ ـ إنَّ مشركي بني هاشمٍ ، وبني المطَّلب تضامنوا مع رسول الله (ص) ، وحموه كأثرٍ من أعراف الجاهليَّة، ومن هنا، ومن غيره، نأخذ: أنَّه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدَّعوة ، على أن يكون ذلك مبنِيّاً على فتوى صحيحةٍ من أهلها[(٧٢٩)].

١٠ ـ إنَّ حقوق الإنسان في عصرنا ضمانٌ للمسلم ، والحرِّيَّة الدِّينيَّة في كثير من البلدان يستفاد منها ، وقوانين كثيرةٌ من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً ، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك ، وغيره من خلال موازناتٍ دقيقةٍ[(٧٣٠)].

١١ ـ من المهمِ أن تعلم: أنَّ حماية أقارب رسول الله (ص) له لم تكن حمايةً للرِّسالة الَّتي بُعِث بها ، وإنَّما كانت لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغلَّ هذه الحماية من قِبَلِ المسلمين

كوسيلةٍ من وسائل الجهاد والتغلُّب على الكافرين ، والردِّ لمكائدهم وعدوانهم؛ فأنعم بذلك من جهدٍ مشكورٍ ، وسبيلٍ ينتبهون إليها![(٧٣١)].

١٢ ـ لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التَّحالف الباغي إلا بالحرب السِّياسيَّة من جهةٍ ، ومحاولة تفتيت هذا التَّحالف ، فعمل قصيدته اللاَّمية المشهورة وفي بدايتها قال:

ولَمَّا رأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ عِنْدَهُمْوقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَا والْوَسَائِلِ

وقَدْ حَالَفُوا قَوْماً عَلَيْنَا أَظِنَّةًيَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بالأَنَامِلِ[(٧٣٢)]

وكان لهذه القصيدة أثرٌ خطيرٌ زلزل أوضاع مكَّة ، واستطاعت أن تحرِّك كامن العصبية عند أقارب بني هاشمٍ ، حيث ائتمروا سرّاً ، ودعوا إلى نقض الصَّحيفة[(٧٣٣)].

١٣ . انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشيِّ بقصائده الضَّخمة ، الَّتي هزَّت كيانه هزاً ، وتحرَّك لنقض الصَّحيفة مَنْ ذكرنا مِنْ قبل ، أولئك الخمسة الَّذين يمتُّون بصلة قرابةٍ ، أو رحمٍ لبني هاشم ، وبني المطَّلب ، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظُّلامة وهذا الحيف ، عن المسلمين ، وأنصارهم ، وحلفائهم ، وخطَّطوا له ، ونجحوا فيه ، وفي هذا الموقف إشارةٌ إلى أنَّ كثيراً من النُّفوس . والَّتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهليِّ . قد تملك في أعماقها رفضاً لهذا الظُّلم ، والبغي ، وتستغلُّ الفرصة المناسبة لإزاحته ، وعلى أبناء المسلمين أن يهتمُّوا بهذه الشَّرائح ، وينفذوا إلى أعماقها ، وتُوضِّحَ لهم حقيقة القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة ، وتبيِّن لها طبيعة العداء بين الإسلام ، واليهود ، والنَّصارى ، والعلمانيَّة ، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام[(٧٣٤)].

١٤ . ظاهرة أبي لهبٍ تستحقُّ الدِّراسة والعناية؛ لأنَّها تتكرَّر في التَّاريخ الإسلاميِّ ، فقد يجد الدُّعاة من أقرب حلفائهم مَنْ يقلب لهم ظهر المِجَنِّ ، ويبالغ في إيذاء الدُّعاة وحربهم أكثر بكثير من خصومهم الألدَّاء الأشدَّاء[(٧٣٥)].

١٥ . كانت تعليمات الرَّسول (ص) لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدوَّ ، وأن يضبطوا أعصابهم ، فلا يُشْعِلوا فتيل المعركة ، أو يكونوا وقودها؛ وإنَّ أعظم تربيةٍ في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومةٍ؛ حمزةُ ، وعمر ، وأبو بكرٍ ، وعثمان ، وغيرهم . رضي الله عنهم . سمعوا وأطاعوا ، فلقوا كلَّ هذا الأذى ، وهذا الحقد ، وهذا

الظُّلم ، فكفوا أيديهم ، وصبروا ليس على حادثةٍ واحدةٍ فقط ، أو يومٍ واحدٍ فقط ، بل ثلاث سنين عجافٍ ، تحترق أعصابهم ، ولا يسمح لهم برمية سهمٍ أو شجَّة رأسٍ[(٧٣٦)].

١٦ . أثبتت الأحداث عظمة الصَّفِّ المؤمن في التزامه بأوامر قائده ، وبُعْده عن التَّصرُّفات الطَّائشة؛ فلم يكن شيءٌ أسهلَ من اغتيال أبي جهلٍ ، وإشعال معركة غير مدروسةٍ . لا يعلم إلا الله مداها . وغير متكافئةٍ.

١٧ . كانت الدَّعوة الإسلاميَّة تحقِّق انتصاراتٍ رائعةً في الحبشة ، وفي نجران ، وفي أزْد شنوءة ، وفي دَوس ، وفي غِفار ، وكانت تتمُّ في خطٍّ واضحٍ ، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين ، ومراكز قوى يمكن أن تتحرَّك في اللَّحظة الحاسمة ، وامتدادات للدَّعوة ، تتجاوز حدود مكَّة الصَّلْدة المستعصية.

١٨ .كانت هذه السَّنوات الثلاث للجيل الرَّائد زاداً عظيماً في البناء ، والتَّربية ، حيث ساهم بعضه في تحمُّل الام الجوع ، والخوف ، والصَّبر على الابتلاء ، وضبط الأعصاب ، والضَّغط على النُّفوس ، والقلوب ، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٩ .كانت بعض الشَّخصيات في الصَّفِّ المشرك تبنى في داخلها بالتَّربية النَّبويَّة ، وتتأثر بعظمة شخصية النَّبيِّ (ص) ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادأى الَّتي يقدِّمها الدِّين الجديد ، لكن سيطرة الملأ ، وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التَّفاعل ، وهذا الحبِّ ، وهذه التَّربية ، وختام قصَّة الصَّحيفة تقدِّم لنا أجلى بيانٍ عن ذلك[(٧٣٧)].

٢٠ . قيام الحجج الدَّامغة ، والبراهين السَّاطعة ، والمعجزات الخارقة لا يؤثِّر في أصحاب الهوى ، وعبدة المصالح والمنافع؛ لأنَّهم يلغون عقولهم ، ويغلقون قلوبهم ، وعقولهم عن التدبُّر ، ويصمُّون اذانهم عن سماع الحقِّ ، ويغمضون أعينهم عن النَّظر والتأمُّل والاهتداء إلى الحقِّ بعد قيام الأدلَّة عليه ، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرَّسول (ص) بما حدث للصَّحيفة من أكل الأرَضَة لها ، وبقاء اسم الله فقط «باسمك اللَّهمَّ» ورأوا ذلك بأمِّ أعينهم ، فما امن منهم أحدٌ ، إنَّه الهوى الذي يغشي عن الحقِّ ، ويصمُّ الاذان عن سماعه[(٧٣٨)].

٢١ .كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدَّعوة والدِّعاية لها بين قبائل العرب ، فقد ذاع الخبر في كلِّ القبائل العربيَّة من خلال موسم الحجِّ ، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدَّعوة ، الَّتي يتحمَّل صاحبها وأصحابه الجوع ، والعطش ، والعزلة
لكلِّ هذا الوقت ، وأثار في نفوسهم: أنَّ هذه الدَّعوة حقٌّ ، ولولا ذلك لما تحمَّل صاحب الرِّسالة وأصحابه كلَّ هذا الأذى والعذاب.

٢٢ . أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكَّة لقسوتهم على بني هاشمٍ وبني المطلب ، كما أثار عطفهم على النَّبيِّ (ص) وأصحابه ، فما إن انفك الحصار ، حتَّى أقبل النَّاس على الإسلام ، وحتَّى ذاع أمر هذه الدَّعوة ، وتردَّد صداها في كلِّ بلاد العرب ، وهكذا ارتدَّ سلاح الحصار الاقتصاديِّ على أصحابه ، وكان عاملاً قويّاً من عوامل انتشار الدَّعوة الإسلاميَّة ، عكس ما أراد زعماء الشِّرك تماماً[(٧٣٩)].

٢٣ .كان لوقوف بني هاشم ، وبني المطَّلب مع رسول الله (ص) ، وتحمُّلهم معه الحصار الاقتصاديَّ ، والاجتماعيَّ ، أثرٌ في الفقه الإسلاميِّ؛ حيث إنَّ سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم ، وبني

المطَّلب ، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنفال: ٤١].

فيقول: «وأمَّا سهم ذوي القربى ، فإنَّه يصرف إلى بني هاشمٍ ، وبني المطَّلب؛ لأن بني المطَّلب وازروا بني هاشم في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام ، ودخلوا معهم الشِّعْب غضباً لرسول الله (ص) ، وحمايةً لهم ، مسلمُهم طاعةً لله ورسوله (ص) ، وكافرهم حميَّة للعشيرة ، وأنفةً ، وطاعةً لأبي طالب عمِّ رسول الله (ص) ؛ وأمَّا بنو عبد شمس ، وبنو نوفل ، وإن كانوا بني عمِّهم؛ فلم يوافقوهم على ذلك؛ بل حاربوهم ، ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرَّسول (ص) ؛ ولهذا كان ذمُّ أبي طالبٍ لهم في قصيدته اللاَّمية أشدَّ من غيرهم لشدَّة قربهم... وفي بعض روايات هذا الحديث: إنَّهم لم يفارقونا في جاهليةٍ ، ولا إسلامٍ [أبو داود (٢٩٨٠) والنسائي (٧/١٣٠) وأحمد (٤/٨١)]، وهذا قول جمهور العلماء: أنَّهم بنو هاشم، وبنو المطلب»[(٧٤٠)].

٢٤ ـ لما أذن الله بنصر دينه ، وإعزاز رسوله (ص) ، وفتح مكَّة ، ثمَّ حجَّة الوداع؛ كان النَّبيُّ (ص) يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة؛ ليتذكَّر ما كانوا فيه من الضِّيق ، والاضطهاد ، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم ، ودخولهم مكَّة ـ التي أُخرجوا منها ـ وليؤكِّد قضية انتصار الحقِّ ، واستعلائه ، وتمكين الله لأهله الصَّابرين[(٧٤١)] ، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ ـ في حجَّته ـ قال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟ ثمَّ قال:

نحن نازلون غداً بِخَيْف بني كنانة ، الْمُحَصَّبِ ، حيث قاسمت قريشٌ على الكفر ، وذلك: أنَّ بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم: ألاَّ يبايعوهم ، ولا يؤووهم. قال الزُّهريُّ: والخَيْفُ: الوادي. [البخاري (٣٠٥٨) ومسلم ، طرفه الأول (١٣٥١) وأحمد (٥/٢٠٢) وأبو داود (٢٠١٠) وابن ماجه (٢٩٤٢)].

٢٥ ـ على كل شَعْبٍ في أيِّ وقتٍ يسعى لتطبيق شرع الله أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار ، والمقاطعة من أهل الباطل ، فالكفر ملَّةٌ واحدةٌ؛ فعلى قادة الأمَّة الإسلاميَّة تهيئة أنفسهم ، وأتباعهم لمثل هذه الظُّروف ، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت ، وأن تفكِّر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة؛ كي تتمكَّن الأمَّة من الصُّمود في وجه أيِّ نوعٍ من أنواع الحصار[(٧٤٢)].

* * *

الفصل الرَّابع

هجرة الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء

المبحث الأوَّل

تعامل النَّبيِّ (ص) مع سنَّة الأخذ بالأسباب

من السُّنن الرَّبانيَّة الَّتي تعامل معها النَّبيُّ (ص) سنَّةُ الأخذ بالأسباب ، والأسباب: جمع سبب ، وهو كلُّ شيءٍ يُتوصَّل به إلى غيره. وسنَّةُ الأخذ بالأسباب مقرَّرةٌ في كون الله تعالى بصورةٍ واضحةٍ ، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته ، وأودع فيه من القوانين ، والسُّنن ما يضمن استقراره ، واستمراره ، وجعل المسببات مرتبطةً بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فجعل عرشه سبحانه محمولاً بالملائكة ، وأرسى الأرض بالجبال ، وأنبت الزَّرع بالماء... وغير ذلك.

ولو شاء الله ربُّ العالمين؛ لجعل كلَّ هذه الأشياء وغيرها ـ بقدرته المطلقة ـ غير محتاجةٍ إلى سبب ، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى ، وحكمته؛ الَّتي يريد أن يوجِّه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السُّنَّة؛ ليستقيم سير الحياة على النَّحو الَّذي يريده سبحانه ، وإذا كانت سنَّة الأخذ بالأسباب مبرزةً في كون الله تعالى بصورةٍ واضحة ، فإنَّها كذلك مقرَّرةٌ في كتاب الله تعالى ، ولقد وجَّه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السُّنَّة في كل شؤونهم ، الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء ، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [التوبة: ١٠٥] ، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ *} [الملك: ١٥] .

ولقد أخبرنا القران الكريم: أنَّ الله تعالى طلب من السَّيدة مريم ، أن تباشر الأسباب وهي في أشدِّ حالات ضعفها. قال تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا *} [مريم: ٢٥] .

وهكذا يؤكِّد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كلِّ الأمور ، والأحوال. ورسولُ الله (ص) كان أوعى النَّاس بهذه السُّنَّة الرَّبانيَّة ، فكان ـ وهو يؤسِّس لبناء الدَّولة الإسلامية ـ يأخذ بكلِّ
ما في وسعه من أسباب ، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً ، ولقد لمسنا ذلك فيما مضى ، وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان (ص) يوجِّه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة ، في أمورهم الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء[(٧٤٣)]. وقد كان في حسِّ الأمَّة الإسلاميَّة ، في صدرها الزَّاهر: أنَّ إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة ، وقضائه ، وقدره لا يتعارض مع اتِّخاذ الأسباب ، فلقد كانوا يدركون: أنَّ لله تعالى سنناً في هذا الكون ، وفي حياة البشر ، غيرُ قابلةٍ للتَّغيير ، ومع أنَّ لله تعالى سنناً خارقةً تملك أن تصنع كلَّ شيءٍ ، ولا يعجزها شيءٌ إلا أنَّ الله تعالى ـ جلَّت قدرته ـ قد قضى بأن تكون سنَّته الجارية ثابتةً في الحياة الدُّنيا ، وأن تكون سنَّته الخارقة استثناءً لها ، وكلتاهما معلَّقةٌ بمشيئة الله ، لذلك كان في حسِّهم أنَّه لا بدَّ لهم من مجاراة السُّنن الجارية؛ إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجةٍ معيَّنة في واقع حياتهم؛ أي: أنَّه لا بد من اتِّخاذ الأسباب المؤدِّية إلى النتائج ، بحسب تلك السُّنن الجارية[(٧٤٤)].

وإنَّ تخلُّف المسلمين اليوم عن رَكْبِ الزَّعامة العالميَّة لم يكن ظلماً نزل بهم ، بل كان العدل الإلهيُّ مع قومٍ نَسُوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأهواء ، والأوهام في مجال العلم ، والعمل على السَّواء ، وأهملوا السُّنَن الرَّبانيَّة ، وظنُّوا: أنَّ التمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام ، ولكن هيهات! {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ *} [آل عمران: ١٨٢] وربَّما سائل يقول: ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الَّذين عصوه ، فما بال الكافرين الَّذين جحدوه سبحانه بالمرَّة ، ومع ذلك فإنَّهم ممكَّنون في الأرض ـ من النَّاحية المادِّيَّة ـ غاية التمكين؟!

إنَّ هؤلاء الكفار ، لم يبلغوا ما بلغوه لأنَّهم أقرب إلى الله ، أو أرضى له ، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحرٍ ، أو بمعجزةٍ ، أو لأنَّهم خلقٌ اخر متميِّز ، ولم يقيموا الصِّناعات ، أو يجوبوا البحار ، أو يخترقوا أجواء الفضاء؛ لأنَّ عقيدتهم حقٌّ ، أو لأنَّ فكرهم سليمٌ ، إنَّهم بلغوا بذلك؛ لأنَّ السبيل إلى هذا التَّقدُّم دربٌ مفتوح لجميع خلق الله ، مؤمنهم ، وكافرهم ، برِّهم ، وفاجرهم. قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ *} [هود: ١٥] .

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل التَّمكين في الحياة يمضي بالجهد البشريِّ ، وبالطَّاقة البشريَّة ، على سُننٍ ربَّانيَّةٍ ثابتةٍ ، وقوانين لا تتبدَّل ، ولا تتحوَّل؛ فمن يُقدِّم الجهد الصَّادق ، ويخضع لسنن الحياة؛ يصل على قدر جهده ، وبذله ، وعلى قدر سعيه ، وعطائه.

إنَّها السُّنَّة الَّتي أرادها الله في هذه الحياة ، إنَّها مشيئته ، وسنَّته ، وإرادته صحيحٌ: أنَّ هذا التَّقدُّم كلَّه لا يفتح للكافرين أبواب الجنَّة ، ولا يغني عنهم شيئاً ، ولكنَّ التَّقصير من جانب المسلم إثمٌ يحاسب عليه[(٧٤٥)].

التَّوكُّل على الله والأخذ بالأسباب:

التَّوكُّل على الله ـ تعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب ، فالمؤمن يتَّخذ الأسباب من باب الإيمان بالله ، وطاعته فيما يأمر به من اتِّخاذها ، ولكنَّه لا يجعل الأسباب هي الَّتي تنشأى النَّتائج ، فيتوكَّل عليها.

إنَّ الَّذي ينشأى النَّتائج ـ كما ينشأى الأسباب ـ هو قدر الله ، ولا علاقة بين السَّبب والنَّتيجة في شعور المؤمن.. اتِّخاذ السَّبب عبادةٌ بالطاعة ، وتحقُّق النتيجة قدرٌ من الله مستقلٌ عن السَّبب ، لا يقدر عليه إلا الله ، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التعبُّد للأسباب والتَّعلُّق بها ، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاعته؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها[(٧٤٦)].

ولقد قرَّر النَّبيُّ (ص) في أحاديث كثيرةٍ ضرورة الأخذ بالأسباب مع التَّوكُّل على الله تعالى ، كما نَبَّهَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ على عدم تعارضهما.

يروي أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ رجلاً وقف بناقته على باب المسجد ، وهمَّ بالدُّخول ، فقال: يا رسول الله! أرسلُ راحلتي ، وأتوكل؟... وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التَّوكُّل على الله تعالى ، فوجَّهه النَّبيُّ (ص) إلى أنَّ مباشرة الأسباب أمرٌ مطلوبٌ ، ولا ينافي ـ بحالٍ من الأحوال ـ التَّوكُّل على الله تعالى ، ما صدقت النِّيَّة في الأخذ بالأسباب ، فقال له (ص) : «بل قيِّدها وتوكَّل» [الحاكم (٦٢٣/٣) ومجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وبلفظ: (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي (٢٥١٧)].

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي تبيِّن: أنَّه لا تعارض بين التَّوكُّل ، والأخذ بالأسباب بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب ، والاعتماد عليها ، ونسيان التَّوكُّل على الله. وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله (ص) : «لو أنكم توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله؛ لرزقكم كما يرزق الطَّير ، تغدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً» [أحمد (٣٠/١ ، ٥٢) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) وأبو يعلى (٢٤٧) والحاكم (٣١٨/٤)].

وفي هذا الحديث الشَّريف حثٌّ على التَّوكُّل ، مع الإشارة إلى أهمِّية الأخذ بالأسباب؛ حيث أثبت الغدوَّ ، والرَّواح للطَّير مع ضمان الله تعالى الرِّزق لها.

ويمكن تلخيص نظرة الإسلام في هذه القضيَّة ، في النُّقاط التَّالية:

١ ـ يقرِّر الإسلام مبدأ الأخذ بالأسباب ، ذلك؛ لأنَّ تعطيل الأخذ بالأسباب تعطيلٌ للشَّرع ، ولمصالح الدُّنيا.

٢ ـ الاعتماد علىالأخذ بالأسباب وحدها ، مع ترك التوكُّل على الله ، شركٌ.

٣ ـ يربط الإسلام اتخاذ الأسباب بالتَّوحيد ، مع الاعتقاد بأنَّ أمر الأسباب كلِّها بيد الله.

٤ ـ المطلوب من المسلم إذاً ، هو اتِّخاذ الأسباب مع التوكُّل على الله تعالى[(٧٤٧)].

ولا بدَّ للأمَّة الإسلاميَّة ، أن تدرك: أنَّ الأخذ بالأسباب للوصول إلى التَّمكين أمرٌ لا محيص عنه ، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنَّته الَّتي لا تتخلَّف ، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ: أنَّه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب ، ولم يطلب منهم أن يُعِدُّوا العُدَّة التي تكافأى تجهيز الخصم ، ولكنَّه سبحانه قال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الانفال: ٦٠] .

فكأنه تعالى يقول لهم: افعلوا أقصى ما تستطيعون ، احشدوا أقصى إمكاناتكم؛ ولو كانت دون إمكانات الخصوم ، فالاستطاعة هي الحدُّ الأقصى المطلوب ، وما يزيد على ذلك يتكفَّل الله تعالى به ، بقدرته الَّتي لا حدود لها؛ وذلك لأنَّ فعل أقصى المستطاع هو برهان الإخلاص ، وهو الشَّرط المطلوب؛ لينزل عون الله ، ونصره[(٧٤٨)].

إنَّ النِّداء اليوم موجَّهٌ لجماهير الأمَّة الإسلاميَّة ، بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن ، والغثاء ، إلى مرحلة القوَّة ، والبناء ، وأن يودِّعوا الأحلام ، والأمنيات ، وينهضوا للأخذ بكلِّ الأسباب؛ الَّتي تعينهم على إقامة دولة الإسلام ، وصناعة حضارة الإنسان الموصول بربِّ العالمين.

وعلى الأمَّة أن تراعي سُنن الله المبثوثة في كونه ، والظَّاهرة في قرانه الكريم؛ وذلك لتسير على طريق النُّهوض بنورٍ من الله تعالى.

إنَّ النَّبيَّ (ص) أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتَّى وفاته ، ولم يفرِّط في أيٍّ منها ، فتعامل مع سنَّة الله في تغيير النُّفوس ، وسنَّة التَّدافع مع الباطل ، وسنَّة التَّدرُّج في بناء الجماعة ، ثمَّ الدولة ، وسنَّة الابتلاء ، واستفرغ (ص) جهده في الأخذ بالأسباب الَّتي توصل للتَّمكين ، فكانت
هجرتا الحبشة ، وذهابه للطَّائف ، وعرضه للدَّعوة على القبائل ، ثمَّ هجرته إلى المدينة ، فأقام الدَّولة ، وحافظ عليها ، وسار أصحابه من بعده على نهجه ، وتعاملوا مع السُّنن بوعيٍ ، وبصيرةٍ ، وصنعوا حضارةً لم يعرف التَّاريخُ البشريُّ مثلها حتَّى يومنا هذا.
إنَّ حركة النَّبيِّ (ص) في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة نورٌ يُهتدى به ، وسنَّةٌ يُقتدى بها في هذه البحور المتلاطمة ، والمناهج المتغايرة ، والظَّلام البهيم ، وإنَّها ليسيرةٌ على من يسَّرها الله عليه.

* * *

المبحث الثَّاني

الهجرة إلى الحبشة[(٧٤٩)]

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *} [النحل: ٤١].
فقد نقل القرطبيُّ ـ رحمه الله! قول قتادة ـ رحمه الله! ـ: «المراد أصحاب محمَّد (ص) ، ظلمهم المشركون بمكَّة ، وأخرجوهم؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشة ، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين»[(٧٥٠)].
وقال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر: ١٠].
قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يريد جعفر بن أبي طالبٍ ، والَّذين خرجوا معه إلى الحبشة[(٧٥١)].

قال تعالى: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ *} [العنكبوت: ٥٦] .

قال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ: «هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الَّذي لا يقدرون فيه على إقامة الدِّين إلى أرض الله الواسعة؛ حتَّى يمكن إقامة الدِّين... إلى أن قال: ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكَّة مقامهم بها؛ خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة؛ ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنْزِلين هناك ، أصحمةَ النَّجاشيَّ ملك الحبشة ، رحمه الله تعالى!»[(٧٥٢)].

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

١ ـ أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله (ص) ، وجعل الكفَّار يحبسونهم ، ويعذِّبونهم بالضَّرب ، والجوع ، والعطش ، ورمضاء مكَّة ، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌ بالإيمان ، ومنهم من تصلَّب في دينه ، وعصمه الله منهم ، فلمَّا رأى رسولُ الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله ، ومن عمِّه أبي طالب ، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ ، وهي أرض صِدْقٍ ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه» ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) إلى أرض الحبشة ، مخافةَ الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أوَّل هجرةٍ كانت في الإسلام». [ابن هشام (١/٣٤٤)][(٧٥٣)].

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدةً في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ منها: ما ذكرت ، ومنها: ظهور الإيمان: حيث كثُر الدَّاخلون في الإسلام ، وظهر الإيمان ، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثر المسلمون ، وظهر الإيمان ، فتُحدِّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن امن من قبائلهم ، يعذِّبونهم ، ويسجنونهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله (ص) ؛ قال لِلَّذين امنوا به: «تفرَّقوا في الأرض» ، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا» ، وأشار إلى أرض الحبشة[(٧٥٤)].

ومنها: الفرار بالدِّين:

كان الفرار بالدِّين خشية الافتتان فيه سبباً مهماً من أسباب هجرتهم للحبشة. قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) ، إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم»[(٧٥٥)].

ومنها: نشر الدَّعوة خارج مكَّة:

قال الأستاذ سيِّد قطب: «وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّسول (ص) يبحث عن قاعدةٍ أخرى غير مكَّة ، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة ، وتكفل لها الحرِّيَّة ، ويتاح فيها أن تتخلَّص من هذا التجميد؛ الذي انتهت إليه في مكَّة ، حيث تظفر بحرية الدَّعوة ، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد ، والفتنة ، وهذا

في تقديري ، كان هو السَّبب الأوَّل ، والأهمَّ للهجرة ، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنَّهم هاجروا إليها لمجرَّد النَّجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويَّةٍ ، فلو كان الأمر كذلك؛ لهاجر إذاً أقلُّ الناس وجاهةً ، وقوَّةً ، ومنعةً من المسلمين ، غير أنَّ الأمر كان على الضدِّ من هذا ، فالموالي المستضعفون الَّذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد ، والتَّعذيب ، والفتنة لم يهاجروا؛ إنَّما هاجر رجالٌ ذوو عصبياتٍ ، لهم من عصبيتهم ـ في بيئة قبليَّةٍ ـ ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ، وكان عدد القرشيين يؤلِّف غالبية المهاجرين»[(٧٥٦)].

ووافق الغضبان سيِّداً فيما ذهب إليه ، يقول: «وهذه اللَّفتة العظيمة من (سيِّد) ـ رحمه الله! ـ: لها في السِّيرة ما يعضُدها ، ويساندها ، وأهمُّ ما يؤكِّدها في رأيي هو الوضع العامُّ الَّذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة ، فلم نعلم أنَّ رسول الله (ص) قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة ، حتَّى مَضَتْ هجرةُ يثرب ، وبدرٌ ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، فلقد بقيت يثرب معرَّضةً لاجتياحٍ كاسحٍ من قريش خمس سنوات ، وكان اخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق ، وحين اطمأنَّ رسول الله (ص) إلى أنَّ المدينة قد أصبحت قاعدةً أمينةً للمسلمين ، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين ، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة ، فلم يعد ثمَّة ضرورةٌ لهذه القاعدة الاحتياطيَّة ، الَّتي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله (ص) ، ولو سقطت يثرب في يد العدوِّ»[(٧٥٧)].

ويميل الأستاذ دروزة إلى أنَّ فتح مجالٍ للدَّعوة في الحبشة ، كان سبباً من أسباب هجرة الحبشة؛ حيث يقول: «بل إنَّه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النَّصرانيَّة أمل وجود مجالٍ للدَّعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متَّصلاً بهذا الأمل»[(٧٥٨)]. وذهب إلى هذا القول الدُّكتور سليمان بن حمد العودة: «وممَّا يدعم الرَّأي القائل بكون الدَّعوة للدِّين الجديد في أرض الحبشة سبباً ، وهدفاً من أسباب الهجرة إسلامُ النَّجاشيِّ ، وإسلام اخرين من أهل الحبشة ، وأمرٌ اخر ، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النَّبيِّ (ص) ، وتوجيهه ، فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمرِ النَّبيِّ

(ص) وتوجيهه ، وفي صحيح البخاريِّ: فقال جعفر للأشعريّين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله (ص) بعثنا هنا ، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا» [البخاري (٤٢٣٠)] .

وهذا يعني: أنَّهم ذهبوا لمهمَّة معيَّنةٍ ـ ولا أشرف من مهمَّة الدَّعوة لدين الله ـ وأنَّ هذه المهمَّة قد انتهت حين طُلِب المهاجرون[(٧٥٩)].

ومنها البحث عن مكانٍ امنٍ للمسلمين:

كانت الخطَّة الأمنيَّة للرَّسول (ص) تستهدف الحفاظ على الصَّفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرَّسول (ص) : أنَّ الحبشة تعتبر مكاناً امناً للمسلمين ، ريثما يشتدُّ عود الإسلام ، وتهدأ العاصفة ، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمَّنهم ، وطمأنهم ، وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: «لما نزلنا أرض الحبشة؛ جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النَّجاشيَّ ، أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤْذَى»[(٧٦٠)].

٢ ـ لماذا اختار النَّبيُّ (ص) الحبشة؟

هناك عدَّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السُّؤال؛ منها:

أ ـ النَّجاشيُّ العادل:

أشار النَّبيُّ (ص) إلى عدل النَّجاشيِّ بقوله لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحدٌ»[(٧٦١)].

ب ـ النَّجاشيُّ الصَّالح:

فقد ورد عن النَّبيِّ (ص) ثناؤه على ملك الحبشة ، بقوله: «قد تُوفي اليوم رجلٌ صالحٌ من الحبشة ، فهَلُمَّ فَصَلُّوا عليه» [البخاري (١٣٢٠) ومسلم (٩٥٢/٦٦)] ويظهر هذا الصَّلاح في حمايته للمسلمين ، وتأثُّره بالقران الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه ، وكان معتقده في عيسى ـ عليه السَّلام ـ صحيحاً.

ج ـ الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجارة كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ ، والحبشة تُعَدُّ من مراكز التِّجارة في الجزيرة ، فربَّما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التِّجارة ، أو ذكرها لهم مَنْ ذهب إليها قبلهم ، وقد ذكر الطَّبريُّ في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجراً
لقريش ، يتَّجرون فيها ، يجدون فيها رَفَاغاً[(٧٦٢)] من الرِّزق ، وأمناً ، ومتجراً حسناً»[(٧٦٣)].

كما ذكر ابن عبد البرِّ: أنَّ رسول الله (ص) حين دخل الشِّعْب ، أمر مَنْ كان بمكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكانت متجراً لقريش[(٧٦٤)].

وذكر ابن حبَّان ـ ضمن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة ـ: أنَّها كانت أرضاً دفيئة ، ترحل إليها قريش رحلة الشِّتاء[(٧٦٥)].

د ـ الحبشة البلد الامن:

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطَّاعة لقريش ، وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب ؛ إذ لها نفوذٌ عليها ، وكانت القبائل في حاجةٍ لقريش في حَجِّها ، وتجارتها ، ومواسمها ، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشاً في حرب الدَّعوة ، وعدم الاستجابة للنبيِّ (ص) ، وقد أشار ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الَّذين رفضوا عرضه ، ودعوته[(٧٦٦)] ، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة ، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدٌ أكثر أمناً من بلاد الحبشة ، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانبٍ ، كما أنَّها لا تدين لقريشٍ بالاتِّباع كغيرها من القبائل[(٧٦٧)]. وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيارالحبشة مكاناً للهجرة: أنَّها: أرض صِدْقٍ ، وأن بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ[(٧٦٨)] ، فهي أرض صدقٍ ، وملكها عادلٌ ، وتلك من أهمِّ سمات البلد الامن[(٧٦٩)].

هـ محبة الرَّسول (ص) للحبشة ، ومعرفته بها:

ففي حديث الزُّهريِّ: أنَّ الحبشة كانت أحبَّ الأرض إلى رسول الله (ص) أن يهاجر إليها[(٧٧٠)] ، ولعلَّ تلك المحبة لها أسبابٌ منها:

* حكم النَّجاشيِّ العادل.

* التزام الأحباش بالنَّصرانيَّة ، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنيَّة؛ ولذلك فرح المؤمنون

بانتصار الروم النَّصارى على فارسٍ المجوس المشركين ، في الفترة المكِّية سنة ثمانٍ من البعثة ، كما في القران[(٧٧١)].

* معرفة الرَّسول (ص) بأخبار الحبشة ، من خلال حاضنته أمِّ أيمن رضي الله عنها، وأمُّ أيمن هذه ثبت في صحيح مسلمٍ ، وغيره: أنَّها كانت حبشيَّةً [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)] ، ونُقل ذلك عن ابن شهابٍ، وفي سنن ابن ماجه: أنَّها كانت تصنع للنَّبيِّ (ص) طعاماً ، فقال: ما هذا؟ فقالت: طعام نصنعه بأرضنا ، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفاً. [ابن ماجه (٣٣٣٦)] .

ولم تستطع أن تغيِّر لكنتها الحبشية ، ورخَّص لها النَّبيُّ (ص) فيما لا تستطيع نطقه ، فلا يُستبعد حديثها للنَّبيِّ (ص) عن طبيعة أرضها ، ومجتمعها ، وحكَّامها[(٧٧٢)] ، كما أنَّ النَّبيَّ (ص) كان خبيراً بطبائع وأحوال الدُّول الَّتي كانت في زمانه.

٣ ـ وقت خروج المهاجرين ، وسرِّيَّة الخروج ، والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله (ص) مكَّة في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة ، وكانوا عشرة رجالٍ ، وأربع نسوةٍ ، وقيل: خمس نسوةٍ ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكَّة ، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر ، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا ، متوجِّهين إلى الحبشة[(٧٧٣)].

وعند التأمُّل في فقه المرويَّات يتبيَّن لنا سِرِّيَّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقديِّ: «فخرجوا متسلِّلين سرّاً»[(٧٧٤)] ، وعند الطَّبريِّ[(٧٧٥)] ، وممَّن يذكر السِّرِّيَّة في الهجرة: ابن سيِّد النَّاس[(٧٧٦)] ، وابن القيِّم[(٧٧٧)] ، والزُّرقانيُّ[(٧٧٨)]. ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشيُّ مثواهم ، وأحسن لقاءهم ، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة ، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم ، وأهليهم ، فعن أمِّ سلمة زوج النَّبيِّ (ص) قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة ، جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ ـ النَّجاشيَّ ـ أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله لا نُؤْذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه» [سبق تخريجه] .

أسماء أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة:

*الرجال:

ـ عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس.

ـ عبد الله بن عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة.

ـ الزُّبير بن العوَّام بن خُوَيلد بن أسد.

ـ أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

ـ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

ـ أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ـ عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح.

ـ عامر بن ربيعة، حليف آل الخطَّاب من عَنْز بن وائل.

ـ سُهَيل بن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث.

ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس عبد وُدَّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أوَّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة.

*النساء:

. رقيَّة بنت النَّبيِّ (ص).

. سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والَّتي هاجرت مع زوجها أبي حذيفة، وولدت له بأرض الحبشة محمَّد بن أبي حذيفة.

. أمُّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة.

. ليلى بنت أبي حَثمة بن حذافة بن غانم (بن عامر) بن عبد الله بن عوف بن عبيد ابن عويج بن عديِّ بن كعب، امرأة عامر بن ربيعة.

. أمُّ كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، امرأة أبي سَبْرة بن أبي رُهْم[(٧٧٩)].

وكان أول من هاجر منهم، عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله (ص)، فقد روى يعقوب بن سفيان: «إنَّ عثمان لأوَّلُ مَنْ هاجر بأهله بعد لوطٍ» [ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)][(٧٧٩)] .

إنَّ المتأمِّل في الأسماء سالفة الذِّكر لا يجد فيهم أحداً من الموالي ، الَّذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشدُّ من غيرهم ، كبلال ، وخبَّاب ، وعمَّار رضي الله عنهم ، بل نجد غالبيتهم من ذوي النَّسب ، والمكانة في قريشٍ ، ويمثِّلون عدداً من القبائل ، صحيحٌ: أنَّ الأذى شمل ذوي النَّسب والمكانة ، كما طال غيرهم ، ولكنَّه كان على الموالي أشدَّ في بيئةٍ تقيم وزناً للقبيلة ، وترعى النَّسب ، وبالتَّالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السَّبب في الهجرة؛ لكان هؤلاء الموالي المعذَّبون أحقَّ بالهجرة من غيرهم ، ويؤيِّد هذا: أنَّ ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[(٧٨٠)].

ويصل الباحث إلى حقيقةٍ مهمَّةٍ ، ألا وهي: أن ثَمَّةَ أسباباً أخرى تدفع للهجرة غير الأذى ، اختار لها النَّبيُّ (ص) نوعيةً من أصحابه ، تُمثِّل عدداً من القبائل ، وقد يكون لذلك أثرٌ في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانبٍ ، وتهزُّ هجرتهم قبائل قريش كلَّها ، أو معظمها من جانبٍ اخر ، فمكَّة ضاقت بأبنائها ، ولم يجدوا بُدّاً من الخروج عنها بحثاً عن الأمن في بلدٍ اخر ، ومن جانبٍ ثالثٍ يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الافاق ، وقد تكون محلاً أصوب ، وأبرك للدَّعوة إلى الله ، فتنفتح عقولٌ وقلوبٌ حين يستغلق سواها[(٧٨١)].

ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى:

١ ـ شبهة عودة المهاجرين بسبب قصَّة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرِّخين والمفسِّرين عودة المسلمين من الحبشة بعد الهجرة إلى مكَّة لأسطورة راجت كثيراً ، واحتلَّت مساحاتٍ واسعةً من كتب المستشرقين ، قاصدين بذلك ترويجها ، وجعلها حقيقةً واقعةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة.

إنَّ الَّذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون حيالها مناهج شتَّى؛ فمنهم مَنْ يذكرها ، ويسكت عنها ، لا ينفيها ، ولا يثبتها ، ومنهم مَنْ يحاول إثباتها ، ومنهم مَنْ يورد الأدلَّة على بطلانها[(٧٨٢)].

وتلك الأسطورة تتلخَّص في: أنَّ رسول الله (ص) جلس يوماً عند الكعبة ، وقرأ سورة النَّجم ، حتَّى بلغ قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى *وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى *} [النجم: ١٩ ـ ٢٠] .

قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العُلا ، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» ، فقال المشركون: ما ذكر الهتنا بخيرٍ قبل اليوم ، وقد علمنا أنَّ الله يرزق ، ويحيي ، ويميت ، ولكنَّ الهتنا تشفع عنده ، فلمَّا بلغ السَّجدة سجد ، وسجد معه المسلمون ، والمشركون كلُّهم ، إلا شيخاً من قريش ، رفع إلى جبهته كفّاً من حصى ، فسجد عليه[(٧٨٣)].

وصَافَ المشركون رسول الله (ص) ، وكفُّوا عن أذى المسلمين ، وشاع ذلك حتَّى بلغ مَنْ في الحبشة ، فاطمأنُّوا إلى حسن إقامتهم في مكَّة ، وممارستهم عباداتهم امنين ، فعادوا إلى مكَّة.

تلك خلاصة الأسطورة ، والَّذين ذكروا القصَّة ـ مع اختلاف مواقفهم منها ـ يقولون: إنَّ رسول الله (ص) لما قالت قريش: «إمَّا جعلت لالهتنا نصيباً ، فنحن معك» كبر عليه ذلك، وجلس في بيته حتَّى أمسى، ثمَّ أتاه جبريل، فقرأ عليه سورة النَّجم ، فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ يقصد «تلك الغرانيق العلا ، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» فحزن الرَّسول (ص) حزناً شديداً ، وخاف من ربِّه ، فأنزل الله عليه: [(٧٨٤)] {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [الحج: ٥٢] ، وحينئذٍ عاد الرَّسول (ص) إلى عيب الهتهم ، وتسفيه عقولهم ، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

٢ ـ تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصَّة الكثير من علماء الإسلام السَّابقين ، والمحْدَثين ، نقلاً ، وعقلاً؛ وذلك لأنَّها تتنافى مع عصمة الرَّسول (ص) ؛ بل وتطعن في نبوَّته (ص) ، كما أنَّها تتهاوى أمام البحث العلميِّ ، ومن الأدلة النقليَّة على بطلانها:

أ ـ أنَّ القران الكريم بيَّن بوضوح: أنَّ النبي (ص) لا يستطيع أن يتقوَّل على الله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *} [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

ب ـ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أخبر أنَّه يحفظ القران من أن يُدخل عليه ما ليس منه ، أو يُنقص منه شيءٌ ، أو يُحرَّف عن مواضعه. قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *} [الحجر: ٩].

ولو صحَّ: أنَّ الرَّسول (ص) نطق في أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين ، لدخل في القران ما ليس منه ، فلا يكون هناك حفظٌ ، وهو مخالفٌ للنَّصِّ.

ج ـ قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٩٩] ، وهل هناك بشرٌ أصدق إيماناً ، وأشدُّ توكُّلاً على الله من الأنبياء ، ولا سيَّما خاتمهم (ص) ؟! وقد أقرَّ رئيس الشَّياطين بأنَّه لا سلطان له على عباد الله المخلصين ، قال تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *} [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وَمَنْ أحقُّ من الأنبياء بالاصطفاء؟! ومن أشدُّ إخلاصاً منهم لله؟! ونبيُّنا محمَّد (ص) على رأس المصطفين الأخيار ، وفي الذِّروة منهم إخلاصاً لله[(٧٨٥)].

وقد ذكر القاضي عياض: أنَّ مَنْ ذكرها من المفسرين ، وغيرهم لم يسندها أحدٌ منهم ، ولا رفعها إلى صاحبٍ ، إلا رواية البزَّار ، وقد بيَّن البزَّار: أنَّه لا يعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى ما ذكره ، وفيه ما فيه[(٧٨٦)].

ورأى ابن حجر: وما قيل من أنَّ ذلك ـ السُّجود من المشركين ـ بسبب إلقاء الشَّيطان في أثناء قراءة رسول الله (ص) لا صحَّة له عقلاً ، ولا نقلاً[(٧٨٧)].

ورأى ابن كثير: أنه قد ذكر كثيرٌ من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثيرٍ من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنَّاً منهم: أنَّ مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنَّها من طرقٍ كلِّها مرسلةٌ ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيح. والله أعلم[(٧٨٨)].

* وأمَّا بطلان القصَّة من جهة العقل: فقد قام الدَّليل العقليُّ ، وأجمعت الأمَّة ، على عصمته (ص) من مثل هذا؛ إذ لو جاز هذا من الرَّسول (ص) لجاز عليه الكذب ، والكذب على الرَّسول (ص) محالٌ؛ إذ صدور مثل هذه القصَّة عن الرَّسول (ص) محالٌ ، ولو قاله عمداً ، أو سهواً لم يكن هناك عصمةٌ ، وهو مردودٌ ، كما أنَّ القصَّة تخالف عقيدة التَّوحيد الَّتي من أجلها بَعَثَ اللهُ نبيَّه (ص) .

* وأمَّا بطلان القصَّة لغويّاً: فلأنَّه لم يرد قطُّ عن العرب أنَّهم وصفوا الهتهم بـ (الغرانيق) ، في الشِّعر ، ولا في النَّثر ، والَّذي تعرفه اللغة أنَّ (الغُرْنُوق) اسم لطائرٍ مائيٍّ أسود ، أو أبيض ، ومن معانيه: الشَّابُّ الأبيض الجميل[(٧٨٩)] ، ولا شيء من معانيه اللُّغويَّة يلائم معنى الالهة والأصنام حتَّى يطلق عليهما في فصيح الكلام؛ الَّذي يُعرَض على أمراء الفصاحة والبيان ، فكيف
يفرح به المشركون ، ويعتبرونه ذكراً لالهتهم بالخير؟![(٧٩٠)].
إنَّ قصَّة الغرانيق لا تثبت من جهة النَّقل ، وهي مخالفةٌ للقران الكريم ، ولما قام عليه الدَّليل العقلي ، كما أنكرتها اللُّغة ، وهذا ممَّا يدلُّنا على أنَّ حديث الغرانيق مكذوبٌ ، اختلقته الزَّنادقة ، الَّذين يسعون لإفساد العقيدة والدِّين ، والطَّعن في سيِّد الأنبياء ، وإمام المرسلين (ص)[(٧٩١)] .
٣ ـ الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين:
عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة ، وحدث تغيُّر كبيرٌ على حياة المسلمين في مكَّة ، ونشأت ظروفٌ لم تكن موجودةً من قبل ، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدَّعوة في مكَّة؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله (ص) ؛ عصبيَّةً لابن أخيه ، ثمَّ شرح الله صدره للإسلام؛ فثبت عليه ، وكان حمزةُ أعزَّ فتيان قريش ، وأشدَّهم شكيمةً ، فلمَّا دخل في الإسلام؛ عرفت قريش: أنَّ رسول الله (ص) قد عزَّ ، وامتنع ، وأنَّ عمه سيمنعه ، ويحميه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[(٧٩٢)].
وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وكان عمر ذا شكيمةٍ لا يرام ، فلمَّا أسلم؛ امتنع به أصحاب رسول الله (ص) ، وبحمزة؛ حتَّى عازُّوا قريشاً[(٧٩٣)].
كان إسلام الرَّجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة ، فكان إسلامهما عزَّةً للمسلمين ، وقهراً للمشركين ، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله (ص) على المجاهرة بعقيدتهم.
قال ابن مسعودٍ: «إنَّ إسلام عمرَ كان فتحاً ، وإنَّ هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمةً ، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً؛ حتَّى صلَّى عند الكعبة ، وصلَّينا معه»[(٧٩٤)].
وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمر؛ قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن مَعْمر الجُمَحي ، قال: فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت معه أتبع أثره ، وأنظر ماذا يفعل ، حتَّى جاءه ، فقال له:

أعلمت يا جميل! أنِّي أسلمت ، ودخلت في دين محمَّد؟ قال: فوالله ما راجعه حتَّى قام يجرُّ رداءه ، وتبعه عمر ، واتَّبعتُ أبي؛ حتَّى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى
صوته: يا معشر قريش! . وهم في أنديتهم حول الكعبة . ألا إن ابن الخطَّاب قد صبأ[(٧٩٥)]. قال: يقول عمر مِنْ خلفه: كذب! ولكنِّي أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً عبده ، ورسوله. وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ، ويقاتلونه ، حتَّى قامت الشَّمس على رؤوسهم ، وَطَلِحَ (أي: أعيا) فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئةٍ ، لقد تركناها لكم ، أو تركتموها لنا[(٧٩٦)].

«لقد أصبح المسلمون إذاً في وضعٍ غير الَّذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة ، فقد امتنعوا بحمزة ، وعمر رضي الله عنهما ، واستطاعوا أن يصلُّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك ، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين ، حتَّى دخلوا المسجد ، وَكَفَّت قريش عن إيذاءهم بالصُّورة الوحشيَّة الَّتي كانت تعذِّبهم بها قبل ذلك ، فالوضع قد تغيَّر بالنسبة للمسلمين ، والظُّروف الَّتي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحوَّلت إلى أحسن ، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟! وهل تظنُّ: أنَّ هذه التَّغييرات الَّتي جرت على حياة المسلمين في مكَّة لم تصل إلى أرض الحبشة ، ولو عن طريق البحَّارة الَّذين كانوا يمرُّون بجدَّة؟!

لا بدَّ: أنَّ كلَّ ذلك قد وصلهم ، ولا شكَّ: أنَّ هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيراً ، ولا يستغرب أحدٌ بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن . وهو فطرةٌ فطر الله عليها جميع المخلوقات . قد عاودهم ، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز ، مكَّة أمُّ القرى ، وإلى حيث يوجد الأهل ، والعشيرة ، فعادوا إلى مكَّة في ظلِّ الظُّروف الجديدة ، والمشجِّعة ، وتحت إلحاح النَّفس ، وحنينها إلى حرم الله ، وبيته العتيق»[(٧٩٧)].

لقد رجع المهاجرون إلى مكَّة بسبب ما علموا من إسلام حمزة ، وعمر ، واعتقادهم: أنَّ إسلام هذين الصَّحابيَّيْن الجليلين ، سيعتزُّ به المسلمون ، وتقوى به شوكتُهم.

ولكنَّ قريشاً واجهت إسلام حمزة ، وعمر رضي الله عنهما ، بتدبيراتٍ جديدة ، يتجلَّى فيها المكر والدَّهاء من ناحيةٍ ، والقسوة ، والعنف من ناحيةٍ أخرى ، فزادت في أسلحة الإرهاب الَّتي تستعملها ضدَّ النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه رضي الله عنهم ، سلاحاً قاطعاً ، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية . وقد

تحدَّثت عنه . وكان من جرَّاء ذلك الموقف العنيف ، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرَّةً ثانيةً ، وانضمَّ إليهم عددٌ كبير ممَّن لم يهاجروا قبل ذلك[(٧٩٨)].

ثالثاً: هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة:

قال ابن سعدٍ: قالوا: لما قدم أصحاب النَّبيِّ (ص) مكَّة من الهجرة الأولى؛ اشتدَّ عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذىً شديداً ، فأذن لهم رسول الله (ص) في الخروج إلى أرض الحبشة مرَّةً ثانيةً ، فكانت خرجَتُهم الثَّانية أعظمها مشقَّةً ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى ، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النَّجاشي من حسن جواره لهم ، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولى وهذه الاخرة ولست معنا ؟ فقال رسول الله (ص) : « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى ، وإليَّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[(٧٩٩)]!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم ، وعدَّتهم .كما قال ابن إسحاق وغيره . ثلاثةٌ وثمانون رجلاً؛ إن كان عمَّار بن ياسر فيهم ، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّهيلي: وهو الأصحُّ عند أهل السِّير كالواقديِّ ، وابن عقبة ، وغيرهما[(٨٠٠)]، وثماني عشرة امرأةً: إحدى عشرة قرشيَّاتٌ ، وسبعٌ غير قرشيَّاتٍ ، وذلك عدا أبنائهم الَّذين خرجوا معهم صغاراً ، ثمَّ الذين وُلِدوا لهم فيها[(٨٠١)].

١ . سعي قريش لدى النَّجاشيِّ في ردِّ المهاجرين:

لما رأت قريش: أنَّ أصحاب رسول الله (ص) قد أمنوا ، واطمأنُّوا بأرض الحبشة ، وأنَّهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً ، وحُسْنَ جوارٍ من النَّجاشيِّ ، وعبدوا الله ، لا يؤذيهم أحدٌ ؛ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنَّجاشيِّ لإحضار مَنْ عنده من المسلمين إلى مكَّة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة ، إلا أنَّ هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري ، فقد أسفرت مكيدته عند النَّجاشيِّ عن حوارٍ هادف ، دار بين أحد المهاجرين ، وهو جعفر بن أبي طالب ، وبين ملك الحبشة ، أسفر هذا الحوار عن إسلام النَّجاشيِّ ، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[(٨٠٢)].

فعن أمِّ سلمة بنت أبي أميَّة بن المغيرة زوج النَّبيِّ (ص) قالت: لما نزلنا أرض الحبشة ، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ (النَّجاشيِّ)؛ أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤْذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلمَّا بلغ ذلك قريشاً؛ ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجاشي فينا رجلين جَلْدين[(٨٠٣)] ، وأن يُهْدوا

للنَّجاشيِّ هدايا ممَّا يستطرف من متاع مكَّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأَدَم[(٨٠٤)] ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته[(٨٠٥)] بِطْريقاً إلا أَهْدَوْا له هديَّةً ، ثمَّ بعثوا بذلك عبد

الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزوميَّ ، وعمرو بن العاص بن وائل السَّهميَّ ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النَّجاشيَّ فيهم ، ثمَّ قدِّما للنَّجاشيِّ هداياه ، ثمَّ سلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. قالت: فخرجا ، فقدما على النَّجاشيِّ ، ونحن عنده بخير دارٍ ، وخير جارٍ ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النَّجاشيَّ ، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنَّه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم من ابائهم ، وأعمامهم؛ لتردُّوهم إليهم ، فإذا كلَّمنا الملك فيهم؛ فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهم إلينا ، ولا يكلِّمهم ، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[(٨٠٦)] ، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم . ثمَّ إنهما قرَّبا هداياهما إلى النَّجاشيِّ ، فقبلها منهما ، ثمَّ كلَّماه ، فقالا له: أيها الملك! إنَّه قد صبأ إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنت ، وقد بَعَثَنَا فيهم أشرافُ قومهم من ابائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النَّجاشيُّ كلامهم ، فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك! قومُهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأَسْلِمْهم إليهما ، فليردَّاهم إلى بلادهم ، وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشيُّ ، ثمَّ قال: لا هَيْمُ[(٨٠٧)] الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[(٨٠٨)] ، قوماً جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على مَنْ سواي ، حتَّى أدعوهم ، فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون؛ أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك؛ منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ، ما جاوروني[(٨٠٩)].

٢ . حوارٌ بين جعفر ، والنَّجاشيِّ:

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله (ص) ، فدعاهم ، فلمَّا جاءهم رسوله؛ اجتمعوا ، ثمَّ قال بعضهم لبعضٍ: ما تقولون للرَّجل؛ إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علَّمنا ، وما أَمَرَنا به نبيُّنا (ص) ، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلمَّا جاؤوه ، وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته[(٨١٠)] ، فنشروا مصاحفهم[(٨١١)] حوله ، سألهم ، فقال: ما هذا الدِّين الَّذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له: أيُّها الملك! كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسِيء الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف ، فكنَّا على ذلك ، حتَّى بعث اللهُ إلينا رسولاً نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن واباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزُّور ، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصَّلاة ، والزَّكاة ، والصِّيام. قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام . فصدَّقناه ، وامنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومُنا ، فعذَّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث ، فلمَّا قهرونا ، وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملك[(٨١٢)].

قالت: فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قال له جعفر: نعم ، فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من {كهيعص *} ، قالت: فبكى ، والله النَّجاشيُّ ، حتَّى أَخْضَلَ[(٨١٣)] لحيته ، وبكت أساقفته ، حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا ـ والله! ـ والَّذي جاء به موسى ، ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ ، انطلقا؛ فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبداً ، ولا يُكادون[(٨١٤)].

٣ ـ محاولة أخرى للدَّس بين المهاجرين والنَّجاشيِّ:

قالت: فلمَّا خرج كلٌّ من: عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، من عند النَّجاشيِّ؛ قال عمرو بن العاص: والله! لاتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[(٨١٥)]. قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقى الرَّجلين فينا ـ: لا تفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله! لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبدٌ ، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك! إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم ، فاسألهم عمَّا يقولون فيه ، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه ، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قطُّ ، فاجتمع القوم ، فقال بعضهم لبعضٍ:

ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول ـ والله! ـ فيه ما قاله الله ، وما جاء به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلمَّا دخلوا عليه؛ قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ: نقول فيه الَّذي جاء به نبيُّنا ، هو عبد الله ، ورسولُه ، وروحه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء[(٨١٦)] البَتُول[(٨١٧)].

قالت: فضرب النَّجاشي يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثمَّ قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود ، فتناخرت[(٨١٨)] بطارقتُه حوله حين قال ما قال ، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي (والشُّيوم الامنون)؛ من سبَّكم غَرِمَ ، ثمَّ من سبَّكم غرم ، فما أُحِبُّ أن لي دَبَراً ذهباً ، وأنِّي اذيتُ رجلاً منكم ، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل ، ردُّوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لنا بها ، فوالله! ما أخذ اللهُ مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلْكي؛ فاخذَ الرَّشوة فيه ، وما أطاع النَّاس فيَّ ، فأطيعهم فيه ، قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْنِ ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ. [أحمد (١/٢٠٢ ـ ٢٠٣) و(٥/٢٩٠ ـ ٢٩٢) وابن هشام (١/٣٥٧ ـ ٣٦٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٩٤) والبيهقي في الدلائل (٢/٣٠١ ـ ٣٠٤)] .

٤ ـ إسلام النَّجاشيّ:

وقد أسلم النَّجاشيُّ ، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ (ص) ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لِمَا علمه فيهم من الثَّبات على الباطل ، وحرصهم على الضَّلال ، وجمودهم على العقائد المنحرفة ـ وإن صادمت العقل ، والنَّقل ـ [البخاري (١٢٤٥) ومسلم (٩٥١/٦٢ و٦٣)] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله (ص) نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيراتٍ»[(٨١٩)] ، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ (ص) حين مات النَّجاشيُّ: «مات اليوم رجلٌ صالحٌ؛ فقوموا ، فصلُّوا على أخيكم أصحمة» [البخاري (٣٨٧٧)] . وكانت وفاته ـ رحمه الله! ـ سنة تسعٍ عند الأكثر ، وقيل: سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»[(٨٢٠)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم ، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار ، والضَّالون أنواع العذاب ، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم ، وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسموِّ نفوسهم ، وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير ، واطمئنان النَّفس والعقل. وما يأملونه من رضا الله ـ جلَّ شأنُه ـ ، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم ، من تعذيبٍ ، وحرمانٍ ، واضطهادٍ؛ لأنَّ السيطرة في المؤمنين الصَّادقين ، والدُّعاة

المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم ، لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم ، من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم ، من راحةٍ ، وشبعٍ ، ولذَّةٍ ، وبهذا تنتصر الدَّعوات ، وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات ، والجهالات[(٨٢١)].

٢ ـ ممَّا يتبادر إلى الذِّهن من هذه الهجرة العظيمة ، شفقة الرَّسول الكريم (ص) على أصحابه ، ورحمته بهم ، وحرصه الشَّديد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم ، ولذلك أشار عليهم بالذَّهاب إلى الملك العادل؛ الَّذي لا يُظْلم أحدٌ عنده ، فكان الأمر كما قال (ص) ، فأمنوا في دينهم ، ونزلوا عنده في خير منزلٍ[(٨٢٢)] ، فالرَّسول (ص) هو الَّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الَّذي اختار المكان الامن لجماعته ، ودعوته؛ كي يحميها من الإبادة ، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ ، وبُعْد نظرٍ لحماية الدَّعوة ، والدُّعاة ، وتبحث عن الأرض الامنة الَّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة ، ومركزاً من مراكز انطلاقها . فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر ، أو وقع احتمال اجتياحه . فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقية ، وهم الَّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم ، وحمايتهم دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ في أرواحهم ، وأمنهم ، ومسلمٌ
واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله ، وتوحيده[(٨٢٣)].

٣ ـ كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً ، ولذلك حرص النَّبيُّ (ص) على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف ، كشرح قضيَّة الإسلام ، وموقف قريشٍ منه ، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ ، يشرح قضاياها ، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها[(٨٢٤)] ، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة ، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر ، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب ، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[(٨٢٥)].

٤ ـ إنَّ وجود ابن عمِّ رسول الله (ص) جعفر ، وصهره عثمان ، وابنته رقيَّة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ في مقدِّمة المهاجرين له دلالةٌ عميقةٌ ، تشير إلى أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد ، وأهله ، ورحمه ، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأىً عن الخطر ، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ (ص) (٣).

٥ ـ مشروعية الخروج من الوطن ـ وإن كان الوطن مكَّة على فضلها ـ إذا كان الخروج فراراً بالدِّين ـ وإن لم يكن إلى دار إسلام ـ فإنَّ أهل الحبشة كانوا نصارى ، يعبدون المسيح ، ولا يقولون: هو عبد الله ، وقد

تبيَّن ذلك في هذا الحديث ـ يعني: حديث أمّ سلمة المتقدِّم ـ وسُمُّوا بهذه مهاجرين ، وهم أصحاب الهجرتين الَّذين أثنى الله تعالى عليهم بالسَّبق ، فقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ}

وجاء في التفسير: إنَّهم هم الذين شهدوا بيعة الرِّضوان[(٨٢٦)] ، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة ، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر لما كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم ، ورجاء أن يُخلي بينهم وبين عبادة ربهم؛ يذكرونه امنين مطمئنين ، وهذا حكمٌ مستمرٌّ متى غلب المنكر في بلدٍ ، وأوذي على الحقِّ مؤمنٌ ، ورأى الباطل قاهراً للحقِّ ، ورجا أن يكون في بلدٍ اخر ـ أيَّ: بلدٍ كان ـ يخلَّى بينه وبين دينه ، ويظهر فيه عبادة ربِّه؛ فإن الخروج على هذا الوجه حقٌّ على المؤمن ، هذه هي الهجرة؛ الَّتي لا تنقطع إلى يوم القيامة: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ١١٥][(٨٢٧)].

٦ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواءٌ كان المجِير من أهل الكتاب كالنَّجاشي؛ إذ كان نصرانيّاً عندئذٍ ، ولكنَّه أسلم بعد ذلك، أو كان

مشركاً؛ كأولئك الَّذين عاد المسلمون إلى مكَّة في حمايتهم، عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالبٍ عمِّ رسول الله (ص) ، وكالمطْعِم بن عديٍّ، الذي دخل الرَّسولُ (ص) مكةَ في حمايته عندما رجع من الطَّائف[(٨٢٨)].

وهذا مشروطٌ ـ بحكم البداهة ـ بألاَّ تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدَّعوة الإسلاميَّة ، أو تغييراً لبعض أحكام الدِّين ، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرَّمات ، وإلاَّ لم يَجُزْ للمسلم الدُّخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه (ص) حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسه ، ولا يحمِّله ما لا يطيق ، فلا يتحدَّث عن الهة المشركين بسوءٍ ، فقد وطَّن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمِّه ، وأَبى أن يسكت عن شيٍ ممَّا يجب عليه بيانه ، وإيضاحه[(٨٢٩)].

٧ ـ إنَّ اختيار الرَّسول (ص) الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ ، تمثَّلت في معرفة الرَّسول (ص) بما حوله من الدُّول ، والممالك ، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها ، وعادلها مِنْ ظالمها ، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ امنةٍ لهجرة أصحابه ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله ، مطَّلعاً على أحوال ، وأوضاع الأمم ، والحكومات[(٨٣٠)].

٨ ـ يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرَّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى ، وكيفية الخروج ، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسلُّلاً ، وخفيةً ؛ حتَّى لا تفطن له قريشٌ ، فتحبطه ، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضيِّقٍ ، لم يزد على ستة عشر فرداً ، فهذا العدد لا يلفت النَّظر في حالة تسلُّلهم ، فرداً ، أو فردين ، وفي الوقت ذاته يساعد على السَّير بسرعةٍ ، وهذا ما يتطلَّبه الموقف؛ فالرَّكب يتوقَّع المطاردة ، والملاحقة في أيِّ لحظةٍ ، ولعلَّ السِّرِّيَّة المضروبة على هذه الهجرة ، فوَّتت على قريشٍ العلم بها في حينها ، فلم تعلم بها إلا مؤخَّراً ، فقامت في إثرهم؛ لتلحق بهم ، لكنَّها أخفقت في ذلك ، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً ، وهذا ممَّا يؤكِّد على أنَّ الحذر هو ممَّا يجب أن يلتزمه المؤمن في تحرُّكاته الدَّعوية ، فلا تكون التَّحرُّكات كلُّها مكشوفةً ، ومعلومةً للعدوِّ؛ بحيث يترتَّب عليها الإضرار به وبالدَّعوة[(٨٣١)].

٩ ـ لم ترضَ قريشٌ بخروج المسلمين إلى الحبشة ، وشعرت بالخطر الَّذي يهدِّد مصالحها في المستقبل ، فربَّما تكبر الجالية هناك ، وتصبح قوَّةً خطرةً ، ولذلك جدَّ المشركون ، وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين ، وبدأت قريشٌ تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع

هذا الموقع الجديد منهم في تخطيطٍ محكمٍ ذكيٍّ؛ بالهدايا إلى النَّجاشيِّ ، والهدايا إلى بطارقته، ووُضِعتِ الخطَّة داخل مكَّة، وكيف تُوزَّع الهدايا ، وما نوعية الكلام الَّذي يرافق الهدايا ، وصفات السُّفراء ، فعمرٌو من أصدقاء النَّجاشي ومعروفٌ بالدَّهاء . ما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدوَّنا ، وألا ننام عن مخطَّطاته ، وأن نعطيه حجمه الحقيقيَّ ، وندرس تحرُّكاته؛ لنستعدَّ لمواجهة مخطَّطاته الماكرة![(٨٣٢)].

١٠ ـ نُفِّذت خطَّة قريشٍ بحذافيرها كاملةً ، ولكنَّها فشلت؛ لأنَّ شخصية النَّجاشيِّ الَّتي تمَّ جوارها رفضت أن تسلِّم المسلمين قبل السَّماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين؛ ليعرضوا قضيَّتهم العادلة ، ودينهم القويم.

١١ ـ اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي ، طلب منهم الحضور ، وتدارسوا الموقف ، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم ، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنَّه يضمُّ خلاصة عقولٍ كثيرةٍ. وتبدو مظاهر السُّموِّ التَّربويِّ في كون الصَّحابة لم يختلفوا ، بل أجمعوا على رأيٍ واحدٍ ، ألا وهو: أن يُعرض الإسلامُ كما جاء به رسولُ الله (ص) ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، وعزموا على عرض الإسلام بعزةٍ؛ وإن كان في ذلك هلاكهم[(٨٣٣)].

١٢ ـ كان وَعْيُ القيادة النَّبويَّة على مستوى الأحداث ، ولذلك وُضِع جعفر بن أبي طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة ، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛

وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص ، وقد امتازت شخصيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ ، جعلتها تتقدَّم لسدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها: أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ من ألصق النَّاس برسول الله (ص) ، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة ، وسيِّد الأمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة.

وهذا الموقف بين يدي النَّجاشيِّ يحتاج إلى بلاغةٍ ، وفصاحةٍ ، وبنو هاشم قمَّةُ قريش نسباً ، وفضلاً ، وجعفر في الذُّؤابة[(٨٣٤)] من بني هاشم ، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة ، واختار نبيَّه من بني هاشم؛ فهو أفصح النَّاس لساناً ، وأوسطهم نسباً.

وهو ابن عمِّ رسول الله (ص) ، وهذا يجعل النَّجاشيَّ أكثر اطمئناناً ، وثقةً بما يعرض عن ابن عمِّه[(٨٣٥)].

خُلُقُ جعفر المقتبس من مشكاة النُّبوَّة ، وجمال خَلْقِه المنحدر من أصلاب بني هاشم ، فقد قال رسولُ الله (ص) لجعفر: «أشبهت خَلْقي ، وخُلُقي» [البخاري (٢٦٩٩) والترمذي (٣٧٦٥)] فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسفراء المسلمين على مرِّ الزَّمان ، وكرِّ العصور ، فقد اتَّصف بسمات السُّفراء المسلمين؛ كالإسلام ، والانتماء إليه ، والفصاحة ، والعلم ، وحسن الخلق ، والصَّبر ، والشَّجاعة ، والحكمة ، وسعة الحيلة ، والمظهر الجذَّاب[(٨٣٦)].

١٣ ـ كان عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو يمثِّل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله (ص) على مستوىً كبيرٍ من الذَّكاء ، والدَّهاء ، والمكر ، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كلَّ ما لديه من حُجَّةٍ ، وألقى بها بين يدي النَّجاشيِّ ، من خلال النقاط الاتية: تحدَّث عن بلبلة جوِّ مكة ، وفساد ذات بينها ، من خلال دعوة محمَّد (ص) ، وهو سفير مكَّة ، وممثِّلها بين يدي النَّجاشيِّ ، فكلامه مصدَّقٌ ، لا يعتريه الشَّكُّ ، وهو عند النَّجاشيِّ موضع ثقةٍ.

وقد تحدث عن خطورة أتباع محمَّد (ص) ، فربما يزلزلون الأرض تحت قدمي النَّجاشيِّ ، كما أفسدوا جوَّ مكَّة ، ولولا حبُّ قريش للنَّجاشيِّ ، وصداقتها معه؛ ما تعنَّوا هذا العناء لنصحه: «وأنت لنا عَيْبَة صدقٍ ، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقلَّ من ردِّ المعروف بمثله ، وتحذيره من هذه الفتنة المخيفة.

وأخطر ما في أمرهم هو خروجهم على عقيدة النَّجاشيِّ ، وكفرهم بها: فهم لا يشهدون: أنَّ عيسى ابن مريم إلهٌ ، فليسوا على دين قومهم ، وليسوا على دينك؛ فهم مبتدعةٌ ، دعاة فتنةٍ.

ودليل استصغارهم لشأن الملك ، واستخفافهم به: أنَّ كل النَّاس يسجدون للملك لكنَّهم لا يفعلون ذلك ، فكيف يتمُّ إيواؤهم عندك ، وهو عودةٌ إلى إثارة الرُّعب في نفسه من عدم احترام الدُّعاة له ، حين يستخفُّون بملكه ، ولا يسجدون له ، فكان على جعفر أن يفنِّد كلَّ الاتِّهامات الباطلة ، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[(٨٣٧)].

١٤ ـ كان ردُّ جعفر على أسئلة النَّجاشيِّ في غاية الذَّكاء ، وقِمَّة المهارة السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والدَّعويَّة ، والعقديَّة؛ فقد قام بالتَّالي:

* عدَّد عيوب الجاهليَّة ، وعرضها بصورةٍ تنفِّر السَّامع ، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك ، وركَّز على الصِّفات الذَّميمة؛ الَّتي لا تُنتزع إلا بنبوَّة.

* عرض شخصيَّة الرَّسول (ص) ، في هذا المجتمع الاسن[(٨٣٨)] ، المليء بالرَّذائل ، وكيف كان بعيداً عن النَّقائص كلِّها ، ومعروفاً بنسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فهو المؤهَّل للرِّسالة.

* أبرز جعفر محاسن الإسلام ، وأخلاقه ، الَّتي تتَّفق مع أخلاقيَّات دعوات الأنبياء؛ كنبذ عبادة الأوثان ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم ، والدِّماء ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة؛ وكون النَّجاشي وبطارقته موغلين في النَّصرانية؛ فهم يدركون: أنَّ هذه رسالات الأنبياء؛ الَّتي بعثوا بها من لدن موسى ، وعيسى عليهما الصَّلاة ، والسَّلام.

* فضح ما فعلته قريشٌ بهم ؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان ، وامنوا بما نُزِّل على محمَّد (ص) ، وتخلَّقوا بخلقه.

* أحسن الثَّناء على النَّجاشيِّ بما هو أهله ، بأنَّه لا يُظْلم عنده أحدٌ ، وأنَّه يقيم العدل في قومه.

* وأوضح: أنَّهم اختاروه كهفاً من دون النَّاس ، فراراً من ظلم هؤلاء الَّذين يريدون تعذيبهم. وبهذه الخطوات البيِّنة الواضحة دَحَرَ بلاغة عمرٍو ، وفصاحته ، واستأثر بلُبِّ النَّجاشي ، وعقله ، وكذلك استأثر بلُبِّ وعقل البطارقة ، والقسِّيسين الحاضرين.

وعندما طلب الملك النَّجاشيُّ شيئاً ممَّا نُزِّل على محمَّد (ص) ؛ جاء صدر سورة مريم ، في غاية الإحكام والرَّوعة ، والتأثير ، حتَّى بكى النَّجاشيُّ ، وأساقفته ، وبلَّلُوا لحاهم ، ومصاحفهم من الدُّموع ، واختيار جعفر لسورة مريم يُظْهر بوضوحٍ حكمة وذكاء مندوب المهاجرين ، فسورة مريم تتحدَّث عن مريم وعيسى عليهما السَّلام[(٨٣٩)].

إنَّ عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع ، والزَّمن المناسب ، والقلب المتفتِّح ، والشُّحنة العاطفيَّة أدت إلى أن يربح الملكَ إلى جانبه[(٨٤٠)].

كان ردُّه في قضية عيسى ـ عليه السَّلام ـ دليلاً على الحكمة ، والذَّكاء النَّادر ، فقد ردَّ بأنهم لا يُؤَلِّهون عيسى ابن مريم ، ولكنَّهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم ـ عليها السَّلام ـ كما يخوض الكاذبون؛ بل عيسى ابن مريم كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطَّاهرة ، وليس عند النَّجاشي زيادة عمَّا قال جعفر ، ولا مقدار هذا العود[(٨٤١)].

هم لا يسجدون للنَّجاشي ، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله شيئاً! ولا ينبغي السُّجود إلا لله؛ لكنَّهم لا يستخفُّون بالملك؛ بل يوقِّرونه ، ويسلِّمون عليه كما يسلِّمون على نبيِّهم ، ويحيُّونه بما يُحيي أهلُ الجنَّة أنفسَهم به في الجَنَّة(٣).

انتهى الأمر بأن أعلن النَّجاشيُّ صدق القوم ، وأيقن بأنَّ هؤلاء صدِّيقون ، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله (ص) ، الَّذي يأتيه ناموسٌ كناموس موسى ، وأن يتقرَّب إلى الله بحماية أصحابه ، وأكَّد لعمرٍو: أنَّه لا يضيره تجارة قريش ، ولا مال قريش ، ولا جاهها ، ولو قطعت علاقتها معه[(٨٤٢)].

١٥ ـ انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيّاً ، ومعنويّاً ، وإعلاميّاً أمام مقاومة المسلمين الموفَّقة ، وخطواتهم ، وأساليبهم الرَّصينة.

١٦ ـ كان موقف جعفر ، وإخوانه مثالاً تطبيقيّاً لقول رسول الله (ص) : «من التمس رضا الله بسخط النَّاس؛ كفاه الله مُؤْنَة النَّاس ، ومن التمس رضا النَّاس بسخط الله؛ وَكَلَهُ الله إلى النَّاس» [الترمذي (٢٤١٤) وابن حبان (٢٧٦) وابن المبارك في الزهد (٦٦)] فهؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع أنَّ الظَّاهر في الأمر: أنَّه يترتَّب عليه في هذه القضيَّة سخط أولئك النَّصارى ، وهم الَّذين لهم الهيمنة عليهم ، فكانت النَّتيجة: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سخَّر لهم ملك الحبشة ، حتَّى نطق بالحقِّ الموافق لدعوة النَّبيِّ (ص) ، مع مخالفته الصَّريحة لمعتقدهم المنحرف؛ الَّذي قام عليه مُلْكُهُم ، وما يغلب على الظَّنِّ من ثورة النَّصارى المتعصِّبين عليه[(٨٤٣)].

١٧ ـ كان عند بعض النَّصارى إيمانٌ صحيحٌ بدينهم ، ولكنَّهم يكتمون ذلك ، لكون الغلبة والسِّيادة في الأرض لأصحاب الدِّين المحرَّف ، ومن الَّذين كانوا على الاعتقاد الصَّحيح ملك الحبشة ، وكان يخفي إيمانه هذا مداراةً لقومه ، وإبقاءً على نفسه ، وملكه ، فلمَّا وقع في هذا الابتلاء؛ أظهر إيمانه ، إرضاءً

لربِّه ، وإراحةً لضميره ، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين ، مهما ترتَّب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التَّاريخ[(٨٤٤)].

١٨ . ومن دروس هجرة الحبشة: أنَّ الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحةٍ لا يضرُّ. قال ابن تيميَّة . رحمه الله! .: وهو يقرِّر العذر بالجهل: «ولما زِيدَ في صلاة الحضر حين هاجر النَّبيُّ (ص) إلى المدينة ، كان مَنْ بعيداً عنه . مثل من كان بمكَّة ، وبأرض الحبشة . يصلُّون ركعتين ، ولم يأمرهم النَّبيُّ (ص) بإعادة الصَّلاة»[(٨٤٥)].

وقال الذَّهبيُّ: «فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم ، وبعد قيام الحجَّة ، وقد كان سادة الصَّحابة بالحبشة ينزل الواجب ، والتَّحريم على النَّبيِّ (ص) ، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر ، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل ، حتَّى يبلغهم النَّصُّ»[(٨٤٦)].

١٩ . ومن دروس هجرة الحبشة تفاضل الجهاد حسب الحاجة ، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهاداً ، ميَّز الله أصحابها ، وخصَّهم بالذِّكر ، والفضيلة ، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة ، وإن تأخر لحوقهم بالنَّبيِّ (ص) حتَّى فتح خيبر ، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة ، وهذا ما أكَّده النَّبيُّ لأصحاب السَّفينتين[(٨٤٧)] ، فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: ودخلت أسماءُ بنت عُمَيس . وهي ممَّن قدم معنا . على حفصةَ زوج النَّبيِّ (ص) زائرةً ، وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة . وأسماء عندها . فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنت عُمَيس ، قال عمر: الحبشيةُ هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم ، قال: سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله (ص) منكم ، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله (ص) يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنَّا في دار . أو في أرض . البُعَداء الْبُغَضَاءِ بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله (ص) . وايمُ الله لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شَراباً ، حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله (ص) ، ونحن كنا نُؤْذَى ، ونُخاف ، وسأذكر ذلك للنَّبيِّ (ص) ، وأسأله، والله! لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاء النَّبيُّ (ص) قالت: يا نبيَّ الله! إنَّ عمرَ قال: كذا ، وكذا. قال: «فما قلت له؟» قالت: قلتُ له: كذا ، وكذا. قال: «ليس بأحقَّ بي منكم ، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم أهل السَّفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسى ، وأصحاب السَّفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظم في أنفسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ (ص) . [البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢ و٢٥٠٣)] .

٢٠ ـ كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة ، وهذا بلا شكٍّ أثرٌ من اثار الهجرة للحبشة ، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاسب للدَّعوة ، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة ، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتَّجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النَّجاشيِّ ، وهو المشهور كما يقول ابن حجر[(٨٤٨)] ، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسلم صحابيٌّ على يد تابعيٍّ ، كما يقول الزُّرقاني[(٨٤٩)] ، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

٢١ . يرتبط زواج الرَّسول (ص) بأمِّ حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطاً وثيقاً ، ويحمل هذا الزَّواج منه (ص) لإحدى المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً ، وكان عقد الزَّواج على أمِّ حبيبة رضي الله عنها؛ وهي في أرض الحبشة ، وجاء تأكيده في كتب السُّنَّة ، فقد روى أبو داود في سننه بسندٍ صحيح عن أمِّ حبيبة رضي الله عنها: أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش ، فمات بأرض الحبشة ، فزوَّجها النَّجاشيُّ النَّبيَّ (ص) ، وأمهرها عنه أربعة الاف ، وبعث بها إلى الرَّسول (ص) مع شُرَحبيل بن حسنة. [أبو داود (٢١٠٧)].
ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهمِّ ، متابعةَ الرَّسول (ص) لأحوال المهاجرين ، ومشاركتهم في مصابهم ، وتطييب أنفس الصَّابرين ، وتقدير ثبات الثَّابتين. وبالتَّتبُّع لأحوال المهاجرات ، لا نجد (أمَّ حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة الَّتي يُعنى الرَّسول الكريم (ص) بأمرها ، ويواسيها في مصابها ، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[(٨٥٠)] ، فلمَّا رجعت مع زوجها إلى مكَّة من الحبشة ، توفِّي زوجها السَّكران بن عمرو ، فلمَّا حلَّت؛ أرسل إليها (ص) ، وخطبها ، فقالت: أمري إليك يا رسول الله! فقال رسول الله (ص) : «مُري رجلاً من قومك يزوِّجك ، فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ ، فزوَّجها ، فكانت أوَّل امرأة تزوَّجها رسول الله (ص) بعد خديجة[(٨٥١)].
وهذان الحدثان مؤشِّران من مؤشِّرات حِكَم تعدُّده (ص) في الزَّواج بشكلٍ عامٍّ ، ولهما دلالتهما ، وحكمتهما بالاهتمام بالنِّساء المجاهدات بشكلٍ خاصٍّ ، هذا فضلاً عمَّا يمكن أن يقال من أنَّ الرَّسول (ص) كان يهدف أيضاً من وراء الزَّواج بأمِّ حبيبة ، تخفيف عداوة «بني أميَّة» بشكلٍ عامٍّ ، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكلٍ أخصَّ للإسلام ، ونبيِّه ، والمسلمين[(٨٥٢)].
فالتَّأليف للإسلام واردٌ في السِّيرة ، والرَّسول (ص) كان حريصاً على قومه بكلِّ وسيلةٍ لا تتنافى مع قيم الإسلام[(٨٥٣)].

٢٢ . يرى بعض الباحثين: أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يكن يحبُّ أن يهاجر إلى الحبشة ، لأسبابٍ كثيرة؛ منها:

ـ أنَّه ثبت ـ كما سيجيء ـ رؤية النَّبيِّ (ص) دار الهجرة: أرضاً ذات نخلٍ ، بين حرَّتين ، وأنَّه ظنَّها هجر[(٨٥٤)].

ـ طبيعة الوضع الجغرافيِّ للحبشة؛ الَّذي يعوق انتشار الدَّعوة ، وبسط سلطانها على العالم.

ـ أنَّ اختيار الجزيرة العربيَّة ومكَّة بالذَّات ، ثمَّ المدينة لنزول الوحي ، وانطلاق الدِّين لم يكن اتِّفاقاً ، بل كان لمميزاتٍ كثيرة[(٨٥٥)].

ـ أنَّ هذه البيئة الحبشيَّة لم تكن لتسمح لهذا الدِّين اللاجأى أن ينمو إلى جوار المسيحيَّة ، ولم تكن الرُّومان ـ وهي المهيمنة على المسيحيَّة في العالم ـ لتسمح للحبشة بذلك[(٨٥٦)].

٢٣ ـ كان للهجرة إلى الحبشة أثرٌ في الحطِّ من مكانة القرشيِّين عند سائر العرب ، وإدانة موقفهم من الدَّعوة ، وحملتها؛ إذ كانت البيئة العربيَّة تفتخر بإيواء الغريب ، وإكرام الجار ، وتتنافس في ذلك ، وتحاذر السُّبَّة ، والعار في خلافه ، فهاهم الأحباش يسبقون قريشاً ، ويُؤوون مَنْ طردتهم وأساءت إليهم من أشراف النَّاس ، ومن ضعفائهم ، ومن غربائهم[(٨٥٧)].

* * *

المبحث الثَّالث

عام الحزن ومحنة الطَّائف

أولاً: عام الحزن:

١ ـ وفاة أبي طالبٍ:

كانت وفاة أبي طالبٍ بعد مغادرة بني هاشمٍ شِعْبه ، وذلك في اخر السَّنة العاشرة من المبعث[(٨٥٨)]. وقد كان أبو طالب «يحوط النَّبيَّ (ص) ، ويغضبُ له» [البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩)] و«ينصره» [مسلم (٢٠٩/٣٥٨)] ، وكانت قريش تحترمه ، وعندما حضرته الوفاة ، جاء

زعماء الشِّرك ، وحرَّضوه على الاستمساك بدينه ، وعدم الدُّخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! وعرض عليه رسول الله (ص) الإسلام قائلاً: قل: «لا إله إلا الله» أشهد لك بها يوم القيامة ، فقال أبو طالب: لولا تعيِّرني بها قريش ، يقولون: إنَّما حمله عليها الجزع؛ لأقررت بها عينك ، فأنزل الله: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *} [القصص: ٥٦] [مسلم (٢٥) والترمذي (٣١٨٨) وأحمد (٢/٤٣٤)] .

كانت أفكار الجاهليَّة راسخةً في عقل أبي طالبٍ ، ولم يتمكَّن من تغييرها ، فهو شيخٌ كبيرٌ يصعب عليه تغيير فكره ، وما ألفه عن ابائه ، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره؛ فأثَّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه ، وتأثير ذلك على قومه[(٨٥٩)].

٢ ـ وفاة السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

أمَّا السَّيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها ، فقد توفِّيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[(٨٦٠)]في العام نفسه لوفاة أبي طالبٍ[(٨٦١)].

وبموت أبي طالبٍ؛ الَّذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها ، تضاعف الأسى ، والحزن على رسول الله (ص) ، بفقد هذين الحبيبين؛ اللَّذين كانا دعامتين من دعائم سير الدَّعوة في أزماتها، فقد كان أبو طالب السَّندَ الخارجيَّ الَّذي يدفع عنه القوم ، وكانت خديجة رضي الله عنها السَّند الدَّاخلي الَّذي يخفِّف عنه الأزمات والمحن، فتجرَّأ كفار قريش على رسول الله (ص) ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالبٍ[(٨٦٢)]. وابتدأت مرحلةٌ عصيبةٌ في حياة الرَّسول (ص) واجه فيها كثيراً من المشكلات ، والمصاعب، والمحن، والفتن حينما أصبح في السَّاحة وحيداً لا ناصر له إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع هذا؛ فقد مضى في تبليغ رسالة ربِّه إلى النَّاس كافَّةً، على ما يلقى من الخلاف والأذى الشَّديد؛ الَّذي أفاضت كتب الحديث ، وكتب السِّير ، بأسانيدها الصَّحيحة الثَّابتة في الحديث عنه ، وتحمَّل (ص) من ذلك ما تنوء الجبال بحمله. ولما تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله (ص) في بلده الَّذي نبت فيه ، وبين قومه الَّذين يعرفون عنه كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، عزم (ص) على أن ينتقل إلى بلدٍ غير بلده ، وقومٍ غير قومه؛ ليعرضَ عليهم دعوته ، ويلتمس منهم نصرتهم؛ رجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فخرج إلى الطَّائف ، وهي من أقرب البلاد إلى مكَّة[(٨٦٣)].

ثانياً: رحلة الرَّسول (ص) إلى الطَّائف[(٨٦٤)]:

كان النَّبيُّ (ص) ، يقتدي بالأنبياء والمرسلين الَّذين سبقوه في الدَّعوة إلى الله ، فهذا نوح لبث في قومه داعياً {أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤] ، فكانت هذه الأعوام الطَّويلة عملاً دائباً ، وتنويعاً متكرِّراً: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ *يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا *فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *} [نوح: ١ ـ ٩] ، ومع امتداد الزَّمن الطَّويل ما توقف عن الدَّعوة ، ولا ضَعُفَتْ همَّته في تبليغها ، ولا ضَعُفَتْ بصيرته ، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها. قال الالوسي في تفسيره: أي: إلى الإيمان والطَّاعة{رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي} ، أي: دائماً من غير فتورٍ{لَيْلاً وَنَهَارًا *} ، ولا توانٍ ، ثمَّ وصف إعراضهم الشَّديد ، وإصرارهم العنيد ، ثمَّ علَّق على قوله تعالى: فقال: أي دعوتهم مرَّةً بعد مرَّةٍ{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *} ، وكرَّةً غِبَّ كرَّةٍ على وجوهٍ مختلفةٍ ، وأساليب متفاوتةٍ ، وهو تعميمٌ لوجوه الدَّعوة ، بعد
تعميم الأوقات ، وقوله: يُشْعِر بمسبوقية الجهر {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *} ، وهو الأليق بِمَنْ همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللُّطف بالمدعوِّ[(٨٦٥)].

فكان النبي (ص) ينوِّع ، ويبتكر في أساليب الدَّعوة ، فدعا سرّاً وجهراً ، وسلماً وحرباً ، وجمعاً وفرداً ، وسفراً وحضراً ، كما أنَّه (ص) قصَّ القصص ، وضرب الأمثال ، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض ، وغيره ، كما رغَّب وبشَّر ، ورهَّب وأنذر ، ودعا في كلِّ انٍ ، وعلى كلِّ حالٍ ، وبكلِّ أسلوبٍ موثِّرٍ فعَّالٍ[(٨٦٦)] ، فها هو (ص) ينتقل إلى الطَّائف ، ثمَّ يتردَّد على القبائل ، ثمَّ يهاجر ، ويستمرُّ في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسول الله (ص) يسعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة ، وطلبَ النُّصْرة من ثقيفٍ ، لكنَّها لم تستجب له ، وأغرت به صبيانها ، فرشقوه بالحجارة ، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصرانيّاً ، فأسلم ، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شوَّال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب ، وخديجة ، وذكر: أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف ، كانت عشرة أيام[(٨٦٧)].

١ ـ لماذا اختار الرَّسول (ص) الطَّائف؟:

كانت الطَّائف تمثل العمق الاستراتيجيَّ لملأ قريش؛ بل كانت لقريش أطماعٌ في الطَّائف ، ولقد حاولت في الماضي أن تضمَّ الطَّائف إليها ، ووثبت على وادي وَجٍّ؛ وذلك لما فيه من الشَّجر ، والزَّرع؛ حتَّى خافتهم ثقيفٌ ، وحالفتهم ، وأدخلت معهم بني دَوْسٍ[(٨٦٨)]. وقد كان كثيرٌ من أغنياء مكَّة يملكون الأملاك في الطَّائف ، ويقضون فيها فصل الصَّيف ، وكانت قبيلة بني هاشمٍ ، وعبد شمسٍ على اتِّصال مستمرٍ مع الطَّائف ، كما كانت تربط مخزوماً مصالحُ ماليَّةٌ مشتركة بثقيفٍ[(٨٦٩)] ، فإذا اتَّجه الرَّسول (ص) إلى الطَّائف ، فذلك توجُّهٌ مدروسٌ ، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدمٍ ، وعصبةً تناصره ، فإنَّ ذلك سيفزع قريشاً ، ويهدِّد أمنها ، ومصالحها الاقتصاديَّة تهديداً مباشراً ، بل قد يؤدِّي لتطويقها ، وعزلها عن الخارج. وهذا التَّحرك الدَّعويُّ السِّياسيُّ الاستراتيجيُّ ، الَّذي قام به الرَّسول (ص) يدلُّ على حرصه في الأخذ بالأسباب ، لإيجاد دولةٍ مسلمةٍ ، أو قوَّةٍ جديدةٍ ، تطرح نفسها داخل حلبة الصِّراع؛ لأنَّ الدَّولة ، أو إيجاد القوَّة الَّتي لها وجودها من الوسائل المهمَّة في تبليغ دعوة الله إلى النَّاس.

عندما وصل النبي (ص) إلى الطائف ، اتجه مباشرة إلى مركز السلطة ، وموضع القرار السياسي في الطائف[(٨٧٠)].

٢ ـ أين كان موضع السُّلطة في الطَّائف؟

كان بنو مالكٍ ، والأحلاف ـ بحكم أسبقيتهم الزَّمنيَّة للاستيطان ـ هما المسيطرين عليها ، وتنتهي إليهما قيادتُها ، فكانت لهما الرِّئاسة الدِّينية المتمثِّلة في رعاية المسجد ، وبالإضافة إلى الزَّعامة السِّياسيَّة العامَّة ، والعلاقة الخارجيَّة ، والنُّفوذ الاقتصاديّ؛ إلا أنَّهما مع ذلك لم يكونا في وضعٍ يمكنهما من الدِّفاع عن منطقة الطَّائف؛ الَّتي كانت من أخصب بلاد العرب ، وأكثرها جذباً للأنظار والأطماع ، فكانا يخافان قبيلة هوازن ، ويخافان قريشاً ، ويخافان بني عامر ، وكلُّها قبائل قويَّةٌ وقادرةٌ على الانقضاض والاستلاب ، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطَّائف على سياسة المهادنة ، وحفظ الاستقرار السِّياسيّ عن طريق المعاهدات والموازنات ، وهي الطَّريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش ، فصار بنو مالكٍ يوثِّقون علاقاتهم مع هوازن؛ ليأمنوا شرَّها ، وصار الأحلاف يرتبطون بقريشٍ ليأمنوا جانبها[(٨٧١)].

هذا، ولم يكن الرَّسول (ص) غافلاً عن هذه الشَّبكة من العلاقات ، والمعاهدات ، وهو يتَّجه إلى الطائف ، بل كان يعرف: أنَّ الطَّائف لم تكن توجد بها سلطةٌ مركزيَّةٌ واحدةٌ ، وإنما يقتسم السُّلطة فيها بطنان من بطون العرب ، بموجب اتفاقيَّةٍ داخليَّةٍ ، وأنَّ أيّاً منهما كان يدور في فلك قبيلةٍ خارجيَّةٍ أقوى

، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيّاً منهما ، فسوف يكون لذلك أثرٌ كبير في ميزان القوى السِّياسيَّة ، هذا على وجه العموم ، أمَّا إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف ، وهو المعسكر المتحالف مع قريشٍ؛ فإنَّ خطَّته تكون قد بلغت تمامها ، وهو أمرٌ غير مستحيلٍ ، فهو يعلم أنَّ موادَّة هذا المعسكر لقريشٍ لا تقوم على القناعة المذهبيَّة ، أو الولاء الدِّينيِّ ، بقدر ما تقوم على أساس التَّخوُّف من قريشٍ ، وعلى هذا التَّقدير للوضع السِّياسيِّ ، اتجه الرَّسول (ص) مباشرةً ـ حينما دخل الطَّائف ـ إلى بني عمرو بن عمير ، الَّذين يترأسون الأحلاف ، ويرتبطون بقريشٍ ، ولم يذهب إلى بني مالكٍ الَّذين يتحالفون مع هوازن[(٨٧٢)].

قال ابن هشام في السِّيرة: لما انتهى رسولُ الله (ص) إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ ، هم يومئذٍ سادة ثقيف ، وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبد يا لَيْل بن عمرو ابن عُميرٍ ، ومسعود بن عمرو بن عُميرٍ ، وحَبيب بن عمرو بن عُمَير بن عُقْدة بن غِيَرَة بن عَوْف بن ثقيف ، وعند أحدهم

امرأةٌ من قريش من بني جُمح[(٨٧٣)]؛ غير أنَّ بني عمرٍو كانوا شديدي الحذر ، وكثيري التَّخوُّف ، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول (ص) ؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه ، فقام رسول الله (ص) من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيفٍ ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عنِّي»[(٨٧٤)] ، وكره رسول الله (ص) أن يبلغ قومه عنه فيُذْئرهم[(٨٧٥)] ذلك عليه ، فقد كان رسول الله (ص) يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جوٍّ من السِّرِّيَّة ، وألا تنكشف تحرُّكاته لقريشٍ[(٨٧٦)]؛ فقد كان النَّبيُّ (ص) يهتمُّ كثيراً بجوانب الحيطة ، والحذر ، فقد:

أ ـ كان خروجه من مكَّة على الأقدام ، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكباً؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة ، والشُّكوك ، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما ، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

ب ـ واختيار الرَّسول (ص) زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّةٌ؛ فزيد هو ابن رسول الله (ص) بالتَّبنِّي ، فإذا راه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ من الشَّكِّ ، لقوَّة الصِّلة بينهما ، كما أنَّه (ص) عرف زيداً عن قربٍ ، فعلم فيه الإخلاص ، والأمانة ، والصِّدق ، فهو إذاً مأمونُ الجانب ، فلا يُفشي سرّاً ، ويُعتَمد عليه في الصُّحبة ، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النَّبيَّ (ص) من الحجارة بنفسه ، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

ج ـ وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائف ردّاً قبيحاً مشُوباً بالاستهزاء ، والسُّخرية ؛ تحمَّله الرَّسول (ص) ، ولم يغضب ، أو يَثُرْ؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه ، فهذا تصرُّفٌ غايةً في الحيطة ، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال ، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما شدَّدت عليه في العذاب ، والاضطهاد ، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل ، وخارج مكَّة[(٨٧٧)].

٣ ـ تضرُّعٌ ودعاءٌ:

كان بنو عمرو لئاماً ، فلم يكتموا خبر الرَّسول (ص) ؛ بل أَغْرَوْا به سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبُّونه ، ويرمون عراقيبه بالحجارة ، حتَّى دميت عقباه ، وتلطَّخت نعلاه ، وسال دمه الزَّكي على أرض الطَّائف ، وما زالوا به ، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤوهما إلى حائطٍ (أي: بستان) لعتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ ، فجلس فيه هو وصاحبه زيد ، ريثما يستريحان من عنائهما ، وما أصابهما ،

وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويَرَيَان ما لقي من سفهاء أهل الطَّائف ، ولم يحرِّكا ساكناً ، وفي هذه الغمرة من الأسى ، والحزن ، والالام النفسيَّة ، والجسمانية توجه الرَّسول (ص) إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً ، ويقيناً ، ورضاً بما ناله في الله ، واسترضاء الله: «اللَّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي ، وقِلَّة حيلتي ، وهواني على النَّاس ، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى مَنْ تكِلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟[(٨٧٨)] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك؛ الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدُّنيا والاخرة ، من أن تُنزل بي غضَبك ، أو يحلَّ عليَّ سخطُك ، لك العُتْبى[(٨٧٩)] حتَّى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك!» [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٦١ ـ ٦٢) والقرطبي في تفسيره (١٦/١٩٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/٣٤٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٥)][(٨٨٠)] .

وإنَّا لنلمح في هذا الدُّعاء عمق توحيد النَّبيِّ (ص) ، ومبلغ تجرُّده لله ـ جلَّ وعلا ـ فهو لم يشعر بهذا الحزن المفضي ، والهمِّ المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى ، أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء ، والنَّعيم؛ بل هو يستعذب كلَّ هذا الأذى من أجل الله تعالى ، غير أنَّه مشفقٌ من غضب ربِّه سبحانه أن يكون قصَّر في أمرٍ من أمور الدَّعوة ، من غير أن يشعر ، فيتعرَّض لشيءٍ من غضب مولاه ـ جلَّ وعلا ـ فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله (ص) ، وهو المطلب الأعظم الَّذي

تُسَخَّر له كلُّ المطالب ، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحلَّ رضاه ، وينجلي سخطه؛ فأهلاً بالبلاء ، فهو ساعتئذٍ نعمةٌ ، ورخاء.

وختم رسول الله (ص) دعاءه بالكلمة العظيمة ، الَّتي يقولها ، وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره: «ولا حول ولا قوة إلا بك!» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشِّدَّة إلى حال الرَّخاء ، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى ، ولا قوَّة على مواجهة الشَّدائد ، وتحمُّل المكاره ، إلا بالله جلَّ وعلا[(٨٨١)].

إنَّ الدُّعاء من أعظم العبادات ، وهو سلاحٌ فعَّال في مجال الحماية للإنسان ، وتحقيق أمنه ، فمهما بلغ العقل البشريُّ من الذَّكاء ، والدَّهاء؛ فهو عرضةٌ للزَّلل ، والإخفاق ، وقد تمرُّ على

المسلم مواقف يعجز فيها عن التَّفكير ، والتَّدبير تماماً ، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدُّعاء؛ ليجد فرجاً ، ومخرجاً ، فعندما لحق برسول الله (ص) من أهل الطَّائف الأذى ، والطَّرد ، والسُّخرية ، والاستهزاء ، وأصبح هائماً على وجهه؛ لجأ إلى الله بالدُّعاء ، فما أن انتهى من الدُّعاء ، حتَّى جاءت الإجابة من ربِّ العالمين ، مع جبريل وملك الجبال[(٨٨٢)].

٤ ـ الرَّحمة ، والشَّفقة النَّبويَّة:

كانت رحمته ، وشفقته العظيمة هي الَّتي تغلب في المواقف العصيبة؛ الَّتي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها ، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو ، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم ، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ، ورحمته العظيمة ، هي الغالبة[(٨٨٣)].

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ (ص) ، أنَّها سألت رسول الله (ص) : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من أُحُد؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابْنِ عَبْدِ يَالَيْلِ بْنِ عَبْدِ كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أَسْتفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب[(٨٨٤)] ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال ، فسلَّم عليَّ ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ. فقال النَّبيُّ (ص) : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحدَه لا يشرك به شيئاً. [البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

كانت إصابته (ص) يوم أحدٍ ، أبلغ من النَّاحية الجسميَّة ، أمَّا من النَّاحية النفسيَّة؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائف أبلغ ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه ، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً ، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائف إلى قَرْن الثَّعالب[(٨٨٥)].

٥ ـ من مناهج التَّغيير:

كان مُقْتَرَحَ ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين ، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال ، وقد نفذ في قوم نوحٍ ، وعادٍ ، وثمودٍ ، وقوم لوطٍ. قال تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *} [العنكبوت: ٤٠].

وكان هناك اقتراحٌ اخر ، وهو أن يستمرَّ في هجرته ، والابتعاد عن مكَّة ، والطَّائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته ، والثَّانية خذلته ، وعرض ذلك الأمرَ زيدُ بن حارثة على رسول الله (ص) . قال ابن القيِّم: إنَّ رسول الله (ص) بعد أن لم يجد ناصراً في الطَّائف ، انصرف إلى مكَّة؛ ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً ، وهو يدعو بدعاء الطَّائف المشهور ، فأرسل ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ مَلَكَ الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكَّة ، وهما جبلاها اللَّذان كانت بينهما ، فقال: «لا ، بل أستأني بهم؛ لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً» ، وأقام بنخلةَ أياماً ، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم؛ وقد أخرجوك ـ يعني: قريشاً ـ وخرجت تستنصر ، فلم تُنصر ـ يعني: الطَّائف ـ فقال (ص) : «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ، ومخرجاً ، وإنَّ الله ناصرٌ دينَهُ ، ومظهرٌ نبيَّه»[(٨٨٦)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) رفض منهج الاستئصال ، وامتنع عن فكرة الاعتزال ، أو الهجرة المستمرَّة ، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان ، وقرَّر الدُّخول إلى مكَّة الكافرة ليواصل جهاده الميمون ، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد ، لم يَخْتَرِ النَّبيُّ (ص) أحد المنهجين السَّابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذي عزم عليه ، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكَّة الكافرة ، وليس الانسحاب منها ، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها ، الَّتي يقف عليها الكافرون ، واعتصار مؤسَّساتها ، واستثمار علاقاتها ، وتحوير غاياتها؛ ليتغذَّى بكلِّ ذلك مجتمع المؤمنين ، الَّذي سيولد من أحشائها؛ أي: أنَّه كان (ص) يريد أن يتَّخذ من أصلاب الكافرين ، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين ، المقاتلين في سبيل الله ، فالنَّظر النَّبويُّ هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورةٍ جليَّةٍ ، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[(٨٨٧)].

كان النَّبيُّ (ص) قد عزم على دخول مكَّة مرَّةً ثانية ، غير أنَّ ظاهر الأحوال تدلُّ على أنَّ دخول مكَّة لم يكن أمراً هيناً ، ولا امناً ، وهنالك احتمالٌ كبيرٌ للغدر به ، أو اغتياله من قِبَلِ قريش ، الَّتي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها ، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى ، ويوقع بينها ، وبين حلفائها؛ ثمَّ إنَّه حتَّى لو لم تكن هناك خطورةٌ على شخصه؛ فإنَّ دخوله إلى مكَّة بصورة «عادية» وقد طردته الطَّائف ، سيجعل أهل مكة يصوِّرون الأمر كهزيمةٍ كبيرةٍ أصابت المسلمين ، ويجترئون عليهم ، ويزدادون سفهاً؛ ولذلك فقد اتَّجه نظر الرَّسول (ص) هذه المرَّة ، إلى تفجير مكَّة من الدَّاخل ، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي: أنَّه أراد أن يتغلغل في داخل
بطون قريش ذاتها ، ويُوجِدُ له حلفاء من بينهم ، ويُكَوِّن له وجوداً في قلبها[(٨٨٨)].
قال ابن القيِّم في كتابه زاد المعاد: ثمَّ إنَّه (ص) لما انصرف من الطَّائف ، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، من تصديقه ، ونصرته ، صار إلى حِراء ، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال: أنا حليف ، والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو ، فقال له: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديٍّ ـ سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف ـ بعث إليه رجلاً من خُزاعة: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم. ودعا بنيه ، وقومه ، فقال: البَسوا السِّلاح ، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنِّي قد أجرت محمَّداً ، فدخل رسول الله (ص) ، ومعه زيد بن حارثة ، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام؛ فقام الْمُطْعِم بن عديٍّ على راحلته ، فنادى: «يا معشرَ قريش! إنِّي قد أجرت محمَّداً؛ فلا يَهِجْه أحدٌ منكم» ، فانتهى رسولُ الله (ص) إلى الرُّكن ، فاستلمه ، وصلَّى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والْمُطْعِم بن عديٍّ وولده محدقون به بالسِّلاح ، حتَّى دخل بيته[(٨٨٩)].
وفي جواب الأخنس ، وسهيلٍ نظرٌ؛ لأنهما لو لم يكونا ممَّن يجير؛ لما سألهما رسول الله (ص) ذلك؛ لمعرفته (ص) لأعراف قومه ، وعاداتهم ، كيف وعامرٌ ـ الَّذي هو جدُّ سهيل ـ وكعبٌ أخوان ، أبوهما لؤيٌّ ، فهما سواء في مكانهما ، يجير أحدهما على الاخر؟! هكذا قال الزُّرقانيُّ[(٨٩٠)].
لقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرَّسول (ص) الجديدة ، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزماً ، مختفياً ، دخلها ويحرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش ، على مسمعٍ منهم ، ومرأى ، هذا ونلاحظ: أنَّ الرَّسول (ص) قد اختار رجلاً من خزاعة ، فبعثه رسولاً ، وفي هذين الاختيارين حُنْكَةٌ سياسيَّة مدهشةٌ ، ووعيٌ تاريخيٌّ ، ودبلوماسيٌّ عميقٌ؛ لأنَّ نوفلاً ـ وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل الَّتي يتزعَّمها الْمُطْعِم بن عديٍّ انذاك ـ كان خصيماً لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله (ص) في الجاهليَّة ، فقد وثب على أفنيةٍ ،

وساحاتٍ كانت لعبد المطَّلب ، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطَّلب لذلك ، واستنهض قومه ، فلم ينهض كبير أحدٍ منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النَّجار من الخزرج قصيدةً يستنصرهم؛ فقدم عليه منهم جمع كثيف ، فأناخوا بفِناء الكعبة ، وتنكَّبوا القسيَّ ، وعلَّقوا التِّراس؛ فلمَّا راهم نوفل؛ قال: لِشَرٍّ ما قدم هؤلاء؟ فكلَّموه ، فخافهم ، وردَّ أركاح عبد المطلب إليه؛ فلمَّا نصر بنو الخزرج عبد المطَّلب ، قالت خزاعة ـ وهم قد قووا ، وعزُّوا ـ: والله! ما رأينا بهذا الوادي أحداً أحسن وجهاً ، ولا أتمَّ خلقاً ، ولا أعظم حِلماً من هذا الإنسان ، يعنون: عبد المطلب ، وقد نصره أخواله من الخزرج ، ولقد ولدناه كما ولدوه ، وإنَّ جدَّه عبد مناف سيِّد خزاعة ، ولو بذلنا له؛ نَصَرَنا ، وحَالَفَنا ، وانتفعنا به ، وبقومه ، وانتفع بنا. فأتاه وُجُوهُهُم ، فقالوا: يا أبا الحارث! إنَّا قد ولدناك كما ولدك قومٌ من بني النَّجار ، ونحن بعد متجاورون في الدَّار ، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريشٍ من الأحقاد ، فهلمَّ فنحالفك ، فأعجب ذلك عبد المطَّلب ، وقَبِلَهُ ، وسارع إليه ، ولم يحضر أحدٌ من بني نوفل ، ولا عبد شمس[(٨٩١)].

هذا النَّص يشير إلى جذور الصِّراع التَّاريخيِّ القديم بين خزاعة ، وقريش ، حينما جمع قصيٌّ بن كلاب قريشاً من متفرقات المواقع ، وقاتل بهم خزاعة الَّتي كان لديها رئاسة البيت ، وسيادة العرب ، فأخرج خزاعة من البيت ، وقسم مكَّة أرباعاً على قريشٍ ، فما زالت خزاعة مبغضةً لقريش ، كارهين لها؛ ولما اضطرب الأمر بين قريشٍ ، وعبد المطلب؛ تحالفت خزاعة مع عبد المطَّلب؛ نكايةً بقريش ، وإضعافاً لها؛ وليس صحيحاً: أنَّ الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريشٍ من الأحقاد ، كما ذكر وفدهم؛ بل الصَّحيح: أنَّ الأحقاد لم تزل حيَّةً ، والصِّراع لم يزل مستمرّاً ، وممَّا يدل على ذلك: أنَّ بني نوفل ، وبني عبد شمس لم يدخلا ، ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ إنَّه حلفٌ مضادٌّ لهما.

فإذا بعث الرَّسول (ص) رجلاً من خزاعة ، إلى سيِّد قبيلة بني نوفل ، فإنَّ هذا الفعل إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تلك الوقائع التَّاريخية الَّتي ذكرناها ، كما أنَّ فيها تذكيراً بالحلف القديم بين عبد المطلب ، وخزاعة ضدَّ بني نوفل ، وعبد شمس؛ ليفهم من ذلك: أنَّ الرسول (ص) لا يقف معزولاً في مكَّة ، وأنَّه قد يفعل ما فعله جدُّه عبد المطَّلب ، فيتحالف مع خزاعة ، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرَّسول (ص) لم يكن في الواقع يستعطف الْمُطْعِم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل؛ ليدخل في جواره بقدر ما كان يهدِّده ، ويثير مخاوفه ، وحماية الْمُطْعِم بن عَدِيٍّ لرسول الله (ص) لم تكن مجرَّد أَرْيَحِيَّةٍ ، ونبلٍ بقدر ما كانت رعايةً لمصلحته ،

وحمايةً لوضعه ، وصَمْتُ قريشٍ . وهي ترى محمَّداً (ص) يدخل في جوار بني نوفل ، وهم يحرسونه بالسِّلاح . لم يكن خوفاً من سلاح نوفل ، وإنَّما خوفاً من سلاح خزاعة ، وقسيِّ الخزرج[(٨٩٢)].

كما لا ننسى: أنَّ المطعم ممَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة . مع من ذكرنا فيما مضى . وممَّن تحسَّن موقفه بعد تقريع أبي طالبٍ له ، عندما قال:

أَمُطْعِمُ لمْ أخذلْكَ فِيْ يَوْمِ نَجْدَةٍولا مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلائِلِ

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفلاًعُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ اجلِ[(٨٩٣)]

وقد حفظ رسولُ الله (ص) صنيع مُطْعِم بن عديٍّ ، وعرف مدى الخطورة الَّتي عرَّض نفسه ، وولده ، وقومه لها من أجله ، فقال عن أُسارَى بدرٍ السَّبعين يوم أسرهم: «لو كان الْمُطْعِمُ بنُ عديٍّ حيّاً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لتركتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) وأبو داود (٢٦٨٩) وأحمد (٤/٨٠)] .

فرغم العداء العقديّ؛ فرسول الله (ص) يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة ، ويحارُبها ، ومن يناصِرُها ، ويسالمها ، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة النُّبوَّة أن تتنكَّر للجميل[(٨٩٤)].

وقد أثنى شاعر الرَّسول (ص) ، حسَّان بن ثابتٍ على موقف المطعم ، فقال في مدحه:

فَلَو كَانَ مَجْدٌ مُخْلِدَ اليَوْمَ وَاحدَاًمِنَ النَّاسِ نجَّى مَجْدُه اليومَ مُطْعِمَا

أَجَرْتَ رَسُولَ اللهِ مِنْهمْ فَأَصْبَحُواعِبَادَك مَا لبَّى مُحِلٌّ وَأَحْرَمَا

فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَعَدٌّ بِأَسْرِهَاوَقَحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّة جُرْهُمَا

لَقَالُوا هُوَ الموفِي بِخُفْرَةِ جَارِهِوَذِمَّتِه يَوْماً إذَا مَا تجشَّمَا

وَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ المنِيْرَةُ فَوْقَهُمْعَلَى مِثْلِهِ فِيْهِمْ أَعَزَّ وَأَكْرَمَا

إِبَاءٌ إذا يَأبَى وَأَلْيَنُ شِيْمَةًوَأَنْوَمُ عَنْ جارٍ إِذَا اللَّيْلُ أظْلَمَا[(٨٩٥)]

إنَّ كون النَّبيِّ (ص) أقرَّ حسَّان بن ثابت في ثنائه البالغ على المطْعِم بن عديٍّ ، وكونه (ص) أثنى عليه أيضاً؛ إلى حدِّ أنَّه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى؛ لو كان المطعم حيّاً ، وكلَّمه فيهم لدليلٌ واضحٌ على أنَّ من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل ، والثَّناء عليهم بما لهم من معروفٍ ؛ وإن كانوا غير مسلمين[(٨٩٦)].

وهكذا كان (ص) يوظِّف الأعراف ، والتَّقاليد الَّتي في مجتمعه لمصلحة الإسلام ، فكان ينظر للبناء الاجتماعيِّ القائم ، باعتباره حقيقةً موضوعيَّةً تاريخيَّةً ، وينظر للإنسان الكافر ليس باعتباره رقماً حسابيّاً منقطعاً ، وإنَّما ينظر إليه كفردٍ في شبكةٍ اجتماعيَّةٍ متداخلة العلاقات ، ومتنوعة الدَّوافع ، وإنَّ

الإنسان يملك الفرصة ، والإمكان لأن يتحوَّل هو نفسه ، وطوع إرادته إلى قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ مؤثِّرةٍ ، وله وزنٌ في اتِّخاذ القرار ، ونقضه وَفْقاً للقيم الَّتي يختارها، والمطعم بن عديٍّ لم يكن فرداً ، وإنَّما كان مؤسَّسةً ، وهي مؤسَّسةٌ لم تولد بميلاده ، وإنَّما يرجع وجودها إلى تاريخٍ قديمٍ ، تصارعت فيها قيم التَّوحيد ، والإشراك ، فإن صارت مؤسَّسةً
خالصةً للكافرين الان ، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها ، وتسخيرها للعودة للإيمان ، والتَّوحيد[(٨٩٧)].

٦ ـ قصَّة عَدَّاس النَّصرانيّ ، وإسلام الجنّ:

لقد حقَّقت رحلة النَّبيّ (ص) انتصاراتٍ دعويَّةً رفيعةَ المستوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصرانيُّ عَدَّاس؛ الَّذي أسلم[(٨٩٨)] ، كما وصلت الدَّعوة إلى الجنِّ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا ، ثمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرِين.

أ ـ قصة عَدَّاس:

لما تعرَّض رسولُ الله (ص) للأذى من أهل الطَّائف ، وخرج من عندهم ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، وراه عتبة ، وشيبة؛ رَقَّا له ، ودَعَوا غلاماً لهما نصرانيّاً يقال له: (عَدَّاس) ، فقالا له: خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطَّبق ، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل ، فقل له يأكل منه. ففعل عدَّاس ، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله (ص) ، ثمَّ قال له: كُلْ. فلمَّا وضع رسولُ الله (ص) فيه يَدَهُ ؛ قال: بسم الله ، ثمَّ أكل ، فنظر عَدَّاسٌ في وجهه ، ثمَّ قال: والله! إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله (ص) : ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس؟! وما دينك؟ قال: نصرانيٌّ، وأنا رجلٌ من أهل نِينوى.

فقال رسول الله (ص) : من قرية الرَّجل الصَّالح يونس بن مَتَّى. فقال له عداسٌ: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله (ص) : ذاك أخي ، كان نبيّاً ، وأنا نبيٌّ ، فأكبَّ عدَّاس على رسول الله (ص) يقبِّل رأسه ، ويديه ، وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمَّا غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلمَّا جاءهما عدَّاسٌ؛ قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل ، ويديه ، وقدميه؟! قال: يا سيِّدي ، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالا له: ويحك يا عداس! لا يصرفنَّك عن دينك ، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه. [ابن هشام (٢/٦٢ ـ ٦٣) وتفسير القرطبي (١٦/١٩٥ ـ ١٩٦)][(٨٩٩)].

* إنَّ تسمية النَّبيِّ (ص) قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة ، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيُّ إلى الإسلام ، فما إن ذكر رسول الله (ص) اسم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولى النَّصرانيِّ ، وجاشت مشاعره ، فأخبر النَّبيَّ (ص) بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إنَّ التَّسمية قبل الأكل ـ كسائر السُّنن الظَّاهرة ـ من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار ، ويدفعهم إلى السُّؤال عن سبب ذلك ، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميِّ ، والانجذاب إليه[(٩٠٠)].

*كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسول الله قويّاً ، يدلُّ على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة ، وشيبة ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدرٍ ، وأمراهُ بالخروج معهما ، حيث قال لهما: قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال ، فقالا: ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه[(٩٠١)].

* في قول عدَّاس: «والله ما على الأرض خير من هذا» مواساةٌ عظيمةٌ ، فلئن اذاه قومه ، فهذا وافد من العراق ، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه ، ورجليه ، ويقبِّلهما ، ويشهد له بالرِّسالة ، وإنَّ هذا لقَدَرٌ رَبَّانيٌّ ، يسوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورسوله؛ حيث كان الصَّدُّ من أقرب الناس إليه![(٩٠٢)].

ب ـ إسلام الجنِّ:

لما انصرف النَّبيُّ (ص) من الطَّائف ، راجعاً إلى مكَّة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيل يصلِّي ، فمرَّ به النَّفر من الجنِّ ، الَّذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرَّسول (ص) ؛ فلما فرغ من صلاته ، ولَّوْا إلى قومهم مُنذرِين؛ قد امنوا ، وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقصَّ الله تعالى خبرهم على النَّبيِّ (ص) ، فقال: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ *قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ *} [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠] .

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبيِّ (ص) وهو يقرأ ببطن نخلة ، فلمَّا سمعوه؛ قالوا: {أَنْصِتُوا}

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائف تنتقل إلى عالمٍ اخر ، هو عالم الجنِّ ، فتلقَّوا دعوة النَّبيِّ (ص) ، ومضوا بها إلى قومهم ، كما مضى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه ، والطفيل بن عمرٍو إلى قومه ،

وضِمَادُ الأزديُّ إلى قومه ، فأصبح في عالم الجنِّ دعاةٌ ، يبلغون دعوة الله تعالى: {يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *} [الأحقاف: ٣١] .

وأصبح اسم محمَّد (ص) تهفو إليه قلوب الجنِّ ، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط ، وأصبح من الجنِّ حواريُّون ، حملوا راية التَّوحيد ، ووطَّنوا أنفسهم دعاةً إلى الله ، ونزل في حقهم قرانٌ يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا *يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا *وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا *وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا *وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا *وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا *وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا *وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا *وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا *وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا *وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا *} [الجن: ١ ـ ١٣] .

كان هذا الفتح الرَّبانيُّ في مجال الدَّعوة؛ ورسولُ الله (ص) ببطن نخلة عاجزٌ عن دخول مكَّة ، فهل يستطيع عتاة مكَّة ، وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجنِّ ، ويُنزلوا بهم ألوان التَّعذيب؟![(٩٠٣)]

وعندما دخل النَّبيُّ (ص) مكَّة في جوار المطعم بن عدي ، كان يتلو على صحابته سورة الجنِّ ، فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً ، وتأثُّراً من روعة الفتح العظيم في عالم الدَّعوة ، وارتفاع راياتها ، فليسوا هم وحدهم في المعركة ، هناك إخوانهم من الجنِّ يخوضون معركة التَّوحيد مع الشِّرك.

وبعد عدَّة أشهرٍ من لقاء الوفد الأول من الجنِّ برسول الله (ص) ، جاء الوفد الثَّاني متشوِّقاً لرؤية الحبيب المصطفى (ص) ، والاستماع إلى كلام ربِّ العالمين[(٩٠٤)]. فعن علقمةَ قال: سألت ابن مسعود ، فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله (ص) ليلة الجنِّ؟ قال: لا ، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله (ص) ذات ليلةٍ ، ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب ، فقلنا: اسْتُطِيرَ ، أو اغْتِيلَ ، قال: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فلمَّا أصبحنا؛ إذا هو جاء من قِبَلِ حِرَاءٍ ، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك ، فطلبناك ، فلم نجدك ، فبتنا شرَّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فقال: «أتاني داعي الجنِّ ، فذهبت معه ، فقرأت

عليهم القران» ، قال: فانطلَقَ بنا ، فأرانا اثارهم ، واثار نيرانهم. وسألوه الزَّاد ، فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه ، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً ،
وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله (ص) : «فلا تستنجوا بهما؛ فإنَّهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (٤٥٠) وأبو داود (٨٥) والترمذي (١٨)] .

كان هذا الفتح العظيم ، والنَّصر المبين ، في عالم الجنِّ ، إرهاصاً ، وتمهيداً لفتوحاتٍ وانتصاراتٍ عظيمة في عالم الإنس ، فقد كان اللِّقاء مع وفد الأنصار بعد عدَّة أشهر[(٩٠٥)].

وقد علَّق الدكتور البوطي على سماع الجنِّ من رسول الله (ص) ، في عودته من الطَّائف، فقال: «والَّذي يهمُّنا أن نعلمه بعد هذا كلِّه هو: أنَّ على المسلم أن يؤمن بوجود الجنِّ ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعبادته ، كما كلَّفنا بذلك ، ولئن كانت حواسُّنا ، ومداركنا لا تشعر بهم، فذلك؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل وجودهم غير خاضعٍ للطَّاقة البصريَّة، الَّتي بثَّها في أعيننا، ومعلومٌ: أن أعيننا إنَّما تبصر أنواعاً معيَّنةً من الموجودات ، بقدرٍ معيَّنٍ ، وبشروطٍ معيَّنةٍ.

إنَّ وجود هذه المخلوقات مسندٌ إلى أخبار يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكتاب ، والسُّنَّة ، وصار وجود هذه المخلوقات أمراً معلوماً من الدِّين بالضَّرورة ، والتَّكذيب بوجودها تكذيباً للخبر الصَّادق المتواتر إلينا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعن رسوله (ص) .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشدِّ مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم: أنَّه لا يؤمن إلا بما يتَّفق مع العلم ، فيمضي يتبجَّح بأنَّه لا يعتقد بوجود الجانِّ ، من أجل أنَّه لم يرَ الجانَّ ، ولم يحسَّ بهم.

إنَّ من البداهة بمكانٍ: أنَّ مثل هذا الجاهل المتعالم يستدعي إنكار كثيرٍ من الموجودات اليقينيَّة لسببٍ واحدٍ ، هو عدم إمكان رؤيتها ، والقاعدة العلميَّة المشهورة تقول: عدم شعوري بالشَّيء لا يستلزم عدم الوجود؛ أي: عدم رؤيتك لشيءٍ تفتِّش عنه لا يستلزم أن يكون بحدِّ ذاته مفقوداً ، أو غير مفقودٍ»[(٩٠٦)] .

وبعد هذا التَّكرُّم الرَّبانيُّ ، الَّذي خُصَّ به النَّبيُّ (ص) ، في عالم الثَّقلين : الإنس ، والجن حان وقت الحديث عن رحلته (ص) إلى عالم السَّموات العلا ، إلى عالم الملائكة ، إلى حضرة الجليل سبحانه ، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً ، ثُمَّ يعيده إليهم ، فيحدثهم بما رأى في هذه الرِّحلة الميمونة الخالدة ، الَّتي لم تعرف البشريَّة لها مثيلاً ، ولن تعرف حتَّى يرث اللهُ الأرض ، ومَنْ عليها[(٩٠٧)].

* * *

المبحث الرَّابع

الإسراء والمعراج.. ذروة التَّكريم

كان وجود أبي طالبٍ بجانب رسول الله (ص) ، سياجاً واقياً له يمنع عنه أذى قريش؛ لأنَّ قريشاً ما كانت تريد أن تخسر أبا طالبٍ ، ولما تُوفي أبو طالب؛ انهار هذا الحاجزُ ، ونال رسولَ الله (ص) من الضَّرر الجسديِّ الشيءُ الكثير.

وكانت خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله (ص) البلسم الشَّافي لما يصيب رسول الله (ص) من الجراح النَّفسيَّة الَّتي يُلحقها به المشركون ، ولما توفيت فَقَدَ رسولُ الله (ص) هذا البلسمَ.

وخرج رسول الله (ص) إلى الطَّائف بعدما اشتدَّ عليه أذى قريش ، وأمعنوا في التَّضييق عليه ، يطلب من زعمائها نصرة الحقِّ الذي يدعو إليه ، وحمايته ، حتى يبلِّغ دين الله ، فما كان جوابهم إلا أن ردُّوه أقبح ردٍّ ، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمَّد (ص) ، فتجهَّمت له قريش ، وأضمرت له الشَّرَّ ، فلم يستطع رسول الله (ص) دخول مكَّة إلا في جوار رجلٍ كافر ، لقد تجهَّمت له قريش ، وأحدقت برسول الله (ص) ، فزادتْ حزنَه ، وهمَّه؛ حتَّى سُمِّي ذلك العام بالنِّسبة لرسول الله (ص) بـ(عام الحزن)[(٩٠٨)].

وبعد هذا كلِّه حصلتْ معجزةُ اللهِ لرسوله ، ألاَ وهي: الإسراء والمعراج.

أمَّا هدف هذه المعجزة ، فيتمثل في أمورٍ؛ من أهمِّها:

أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أراد أن يتيح لرسوله (ص) فرصة الاطِّلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتَّى يملأ قلبه ثقةً فيه ، واستناداً إليه؛ حتَّى يزداد قوَّةً في مهاجمة سلطان الكفَّار القائم في الأرض ، كما حدث لموسى عليه السلام ، فقد شاء أن يريه عجائب قدرته. قال تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى *قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى *قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى *فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى *قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُوْلَى *وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى *} [طه: ١٧ ـ ٢٢] فلمَّا ملأ قلبه بمشاهدة هذه الايات الكبرى ، قال له بعد ذلك: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى *} [طه: ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه (ص) على هذه الايات الكبرى ، توطئةً للهجرة ، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التَّاريخ للكفر ، والضَّلال ، والفسوق. والايات التي راها رسول الله (ص) كثيرةٌ؛ منها: الذَّهاب إلى بيت المقدس ، والعروج إلى السَّماء ، ورؤية الأنبياء ، والمرسلين ، والملائكة ، والسَّموات ، والجنَّة ، والنار ، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

كان حديث القران الكريم عن الإسراء في سورة الإسراء ، وعن المعراج في سورة النَّجم ، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [الإسراء: ١] وفي سورة النجم بقوله: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى *} [النجم: ١٨]. وفي الإسراء والمعراج علومٌ ، وأسرارٌ ، ودقائق ،ودروسٌ ، وَعِبَرٌ[(٩٠٩)].

يقول الأستاذ أبو الحسن النَّدوي: «لم يكن الإسراء مجرَّد حادثٍ فرديٍّ بسيطٍ رأى فيه رسول الله (ص) الايات الكبرى ، وتجلَّى له ملكوت السَّموات ، والأرض مشاهدةً ، عياناً؛ بل ـ زيادةً إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرِّحلة النَّبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ ، وشاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضمَّت قصَّةُ الإسراء ، وأعلنت السُّورتان الكريمتان اللَّتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و«النَّجم»: أنَّ محمّداً (ص) هو نبيُّ القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه ، وفي إسرائه مكةُ بالقدس ، والبيتُ الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلَّى بالأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته ، وخلود إمامته ، وإنسانيَّة تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزَّمان ، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النَّبي (ص) ، ووصف إمامته ، وقيادته ، وتحديد مكانة الأمَّة التي بعث فيها ، وامنت به ، وبيان رسالتها ودورها الَّذي ستمثِّله في العالم ، ومن بين الشُّعوب ، والأمم»[(٩١٠)].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «أُتيتُ بالبُرَاق ـ وهو دابّةٌ أبيضُ طويلٌ ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طَرْفه ـ قال: فركبتهُ حتَّى أتيت بيت المقدس ، قال: فربطته بالحلقة[(٩١١)]؛ الَّتي يَرْبِطُ به الأنبياءُ. قال: ثمَّ دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين ، ثمَّ خرجت ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، فاخترتُ
اللَّبن ، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة»[(٩١٢)]... فذكر الحديث [مسلم (١٦٢)] .

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله (ص) حدَّثهُ عن ليلة أسري به ، قال: «بينما أنا في الحطيم[(٩١٣)] ـ وربما قال في الحِجر ـ مضطجعاً؛ إذ أتاني اتٍ[(٩١٤)] ، فَقَدَّ ـ قال: وسمعته يقول: فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرةِ نحرِهِ[(٩١٥)] إلى شِعْرَته[(٩١٦)] وسمعته يقول: من قَصِّهِ[(٩١٧)] إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً ، فَغُسِلَ قلبي ، ثمَّ حُشيَ ، ثمَّ أُعِيدَ ، ثمَّ أُتيتُ بدابةٍ دون البغل ، وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود: هو البُرَاقُ يا أبا حمزة؟! قال: أنسٌ: نعم ـ يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[(٩١٨)] ، فحُمِلتُ عليه ، فانطَلَقَ بي جبريلُ حتَّى أتى السَّماء الدُّنيا ، فاستفتحَ[(٩١٩)] فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيلَ: ومن معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به[(٩٢٠)] ، فنعم المجيءُ جاء ، فَفَتَح ، فلما خَلَصتُ؛ فإذا فيها ادمُ ، فقال: هذا أبوك ادمُ ، فَسَلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ السلام ، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح. ثمَّ صعِد بي حتَّى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، فَفَتَح ، فلمَّا خَلَصتُ؛ إذا يحيى ، وعيسى ـ وهما ابنا خالةٍ ـ قال: هذا يحيى ، وعيسى ، فسلِّمْ عليهما ، فسلَّمتُ فَرَدَّا ، ثمَّ قالا: مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعد بي إلى السَّماء الثَّالثة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت؛ إذا يوسفُ ، قال: هذا يوسُفُ فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتْ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الرَّابعة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: أَوَ قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ،

ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إدريس ، قال: هذا إدريس فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الخامسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت؛

فإذا هارون ، قال: هذا هارون ، فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء السَّادسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء. فلمَّا خلصت؛ فإذا موسى ، قال: هذا موسى فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ؛ فلمَّا تجاوزتُ ؛ بكى ، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي؛ لأنَّ غلاماً[(٩٢١)] بُعِثَ بعدي يدخل الجنَّةَ من أمَّته أكثرُ مِمَّن يَدْخُلها من أمَّتي.

ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، ونعم المجيء جاء ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إبراهيم ، قال: هذا أبوك ، فسلِّم عليه ، قال: فسلَّمت عليه ، فردَّ السَّلام ، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ، ثمَّ رُفِعَتْ لي[(٩٢٢)] سِدرةُ المنتهى ، فإذا نَبقُها[(٩٢٣)] مثل قِلالِ هَجَر[(٩٢٤)] ، وإذا ورقُها مثل اذانِ الفيلة ، قال: هذه سِدرة المنتهى ، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت: ما هذان يا جبريل؟! قال: أمَّا الباطنان؛ فنهران في الجنَّة ، وأمَّا الظاهران؛ فالنِّيلُ والفراتُ ، ثمَّ رُفعَ لي البيتُ المعمور.

ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، وإناءٍ من عسلٍ ، فأخذتُ اللَّبنَ ، فقال: هي الفطرةُ[(٩٢٥)]؛ الَّتي أنت عليها ، وأمَّتُك.

ثمَّ فُرِضتْ عليَّ الصَّلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، فرجعتُ ، فمررتُ على موسى ، قال: بِمَ أُمِرت؟قال: أُمرت بخمسين صلاةً كلَّ يومٍ. قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، وإنِّي والله! قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة[(٩٢٦)] ، فارجعْ إلى

ربِّك ، فاسأله التَّخفيف لأمَّتك ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فأُمرت بعشر صلوات كلَّ يومٍ ، فرجعت ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، فرجعت إلى موسى ، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: أمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، قال: إنَّ أمتك لا تستطيع خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتَّك ، قال: سألت ربِّي حتى استحييتُ

، ولكن أرضى ، وأسلِّم ، قال: فلمَّا جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخففت عن عبادي» [البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤)] .

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ـ عليه السَّلام ـ بسنةٍ ، هكذا قال القاضي عياض في الشِّفا[(٩٢٧)].

ولما رجع رسول الله (ص) من رحلته الميمونة؛ أخبر قومه بذلك ، فقال لهم في مجلسٍ حضره المطعم بن عديٍّ ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة: إنِّي صليت اللَّيلة العشاء في هذا المسجد ، وصليت به الغداة ، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس ، فَنُشِر لي رهطٌ من الأنبياء؛ منهم: إبراهيم ، وموسى وعيسى ، وصلَّيت بهم ، وكلَّمتهم ، فقال عمرو بن هشام كالمستهزأى به: صِفْهم لي ، فقال: أمَّا عيسى: ففوق الرَّبعة ، ودون الطول ، عريض الصَّدر ، ظاهر الدَّم ، جعدٌ ، أشعرٌ ، تعلوه صُهْبَةٌ[(٩٢٨)] ، كأنَّه عروة بن مسعود الثَّقفي. وأمَّا موسى: فضخمٌ ادَمُ ، طوالٌ ، كأنَّه من رجال شَنُوءَةَ ، متراكب الأسنان ، مقلَّص الشَّفة ، خارج اللَّثة ، عابسٌ ، وأمَّا إبراهيم: فوالله إنه لأشبه النَّاس بي ، خَلْقاً ، وخُلُقاً[(٩٢٩)].

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس ، قال: «دخلت ليلاً ، وخرجت منه ليلاً» ، فأتاه جبريل بصورته في جناحه ، فجعل يقول: «بابٌ منه كذا ، في موضع كذا ، وبابٌ منه كذا ، في موضع كذا».

ثمَّ سألوه عن عيرهم ، فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالرَّوحاء ، قد ضَلَّتْ ناقةٌ لهم ، فانطلقوا في طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم ، ليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء ، فشربت منه ، فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله ايةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلان ، فنفرت منِّي الإبل ، وبرك منها جملٌ أحمر ، عليه جُوالِق[(٩٣٠)] مخطَّطٌ ببياض ، لا أدري أكسر البعير ، أم لا؟

فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله ايةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلانٍ في التَّنعيم ، يقدمها جملٌ أورق[(٩٣١)] ، وها هي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة»[(٩٣٢)] فقال الوليد بن المغيرة: ساحرٌ ، فانطلقوا ، فنظروا ، فوجدوا الأمر كما قال ، فرموه بالسِّحر ، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [المطالب العالية (٤/٢٠١ ـ ٢٠٤) ، ومجمع الزوائد (١/٧٥ ـ ٧٦) وابن هشام في السيرة النبوية (٢/١١)] .

كانت هذه الحادثة فتنةً لبعض النَّاس ، مِمَّن كانوا امنوا ، وصدَّقوا بالدَّعوة ، فارتدُّوا ، وذهب بعض النَّاس إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم: أنَّه أسري به اللَّيلة إلى بيت المقدس!

قال: أَوَ قَال ذلك؟! قالوا: نعم! قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق! قالوا: أو تصدِّقه: أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم ، إنِّي لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السَّماء ، في غدوةٍ أو روحة . فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيق [الحاكم (٣/٦٢)] .

ثانياً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ . بعد كلِّ محنةٍ منحةٌ ، وقد تعرَّض رسول الله (ص) لمحنٍ عظيمةٍ ، فهذه قريش قد سدَّت الطَّريق في وجه الدَّعوة في مكَّة ، وفي ثقيفٍ ، وفي قبائل العرب ، وأحكمتْ الحصار ضدَّ الدعوة ورجالاتها من كلِّ جانبٍ ، وأصبح النَّبيُّ (ص) في خطرٍ بعد وفاة عمِّه أبي طالبٍ أكبر حُماته ، ورسولُ الله (ص) ماضٍ في طريقه ، صابرٍ لأمر ربِّه ، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ ، ولا حربُ محاربٍ ، ولا كيدُ مستهزىءٍ ، فقد ان الأوان للمحنة العظيمة ، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج ، على قَدَرٍ من ربِّ العالمين ، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً ، ويكرمه على صبره ، وجهاده ، ويلتقي به مباشرة دون رسولٍ ، ولا حجابٍ ، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافَّةً ، ويجمعه مع إخوانه من الرُّسل في صعيدٍ واحدٍ ، فيكون الإمام ، والقدوة لهم ، وهو خاتمهم ، واخرهم (ص)[(٩٣٣)] .

٢ . إنَّ الرَّسول (ص) كان مُقْدِماً على مرحلةٍ جديدةٍ ، مرحلة الهجرة ، والانطلاق لبناء الدَّولة ، يريد اللهُ تعالى لِلَّبِنَات الأولى في البناء أن تكون سليمةً قويَّةً ، متراصَّةً متماسكةً ، فجعل الله هذا الاختبار والتَّمحيص ؛ ليُخلِّص الصَّفَّ من الضِّعاف المتردِّدين ، والَّذين في قلوبهم مرضٌ ، ويُثبِّت المؤمنين الأقوياء والخلَّص؛ الذين لمسوا عياناً صدق نبيِّهم بعد أن

لمسوه تصديقاً ، وشهدوا مدى كرامته على ربِّه ، فأيُّ حظٍّ يحوطهم ، وأيُّ سعدٍ يغمرهم ، وهم حول هذا النَّبيِّ المصطفى ، وقد امنوا به ، وقدَّموا حياتهم فداءً له ، ولدينهم؟! كم يترسَّخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الَّذي تمَّ بعد وعثاء الطَّائف؟! وبعد دخول مكَّة في جوارٍ ، وبعد أذى الصِّبيان ، والسُّفهاء؟![(٩٣٤)].

٣ . إنَّ شجاعة النَّبيِّ (ص) العالية ، تتجسَّد في مواجهته للمشركين بأمرٍ تنكره عقولهم ، ولا تدركه في أوَّل الأمر تصوُّراتهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم ، وتلقِّي نكيرهم ، واستهزائهم ، فضرب بذلك (ص) لأمَّته أروع الأمثلة في الجهر بالحقِّ أمام أهل الباطل ، وإن تحزَّبوا ضدَّ الحقِّ ،

وجنَّدوا لحربه كلَّ ما في وسعهم ، وكان من حكمة النَّبيِّ (ص) في إقامة الحجَّة على المشركين أنْ حدَّثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس ، وأظهر الله له علاماتٍ تُلزِم الكفَّار بالتَّصديق ، وهذه العلامات هي:

* وصف النَّبيِّ (ص) بيت المقدس ، وبعضهم قد سافر إلى الشَّام ، ورأى المسجد الأقصى ، فقد كشف الله لنبيِّه (ص) المسجد الأقصى حتَّى وصفه للمشركين ، وقد أقرُّوا بصدق الوصف ، ومطابقته للواقع الَّذي يعرفونه.

* إخباره عن العير التي بالرَّوحاء ، والبعير الَّذي ضَلَّ ، وما قام به من شرب الماء الَّذي في القدح.

* إخباره عن العير الثَّانية الَّتي نفرت فيها الإبل ، ووصفه الدَّقيق لأحد جمالهم.

* إخباره عن العير الثَّالثة الَّتي بالأبواء ، ووصفه الجمل الَّذي يقدمها ، وإخباره بأنَّها تطلع ذلك الوقت من ثَنِيَّة التَّنعيم ، وقد تأكَّد المشركون ، فوجدوا أنَّ ما أخبرهم به الرَّسول (ص) كان صحيحاً ، فهذه الأدلَّة الظَّاهرة كانت مفحِمةً لهم ، ولا يستطيعون معها أن يتَّهموه بالكذب. كانت هذه الرِّحلة العظيمة تربيةً ربَّانيَّة رفيعة المستوى وأصبح (ص) يرى الأرض كلَّها ، بما فيها من مخلوقاتٍ نقطةً صغيرةً في ذلك الكون الفسيح ، ثمَّ ما مقام كفار مكَّة في هذه النقطة؟! إنَّهم لا يمثِّلون إلا جزءاً يسيراً جدّاً من هذا الكون ، فما الَّذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه ، وخصَّه بتلك الرِّحلة العلويَّة الميمونة ، وجمعه بالملائكة والأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وأراه السَّموات السَّبع ، وسدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، وكلَّمه جلَّ وعلا[(٩٣٥)]؟

٤ ـ يظهر إيمان الصِّدِّيق رضي الله عنه القويُّ في هذا الحدث الجَلَلِ ، فعندما أخبره الكفَّار ، قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك ؛ لقد صدق! ثمَّ قال: إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السَّماء في غدوةٍ ، أو روحةٍ ، وبهذا استحقَّ لقب الصِّدِّيق ، وهذا منتهى الفقه ، واليقين ، حيث وازن بين هذا الخبر ، ونزول الوحي من السَّماء ، فبيَّن لهم: أنَّه إذا كان غريباً على الإنسان العاديِّ ، فإنَّه في غاية الإمكان بالنِّسبة للنَّبيِّ (ص)[(٩٣٦)] .

٥ ـ إنَّ الحكمة في شقِّ صدر النَّبيِّ (ص) ، وملء قلبه إيماناً وحكمةً؛ استعداداً للإسراء تظهر في عدم تأثُّر جسمه بالشَّقِّ ، وإخراج القلب ممَّا يؤمِّنه من جميع المخاوف العادية الأخرى ، ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة يجب التَّسليم لها دون التَّعرُّض لصرفها عن حقيقتها؛ لمقدرة الله تعالى ، الَّتي لا يستحيل عليها شيءٌ[(٩٣٧)].

٦ . إنَّ شُرْب رسول الله (ص) اللَّبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر ، وبشارة جبريل عليه السلام: «هُديتَ للفطرة» ، تؤَكِّد: أنَّ هذا الإسلام دين الفطرة البشريَّة؛ الَّتي ينسجم معها ، فالَّذي خلق الفطرة البشريَّة خلق لها هذا الدِّين ، الَّذي يلبِّي نوازعها ، واحتياجاتها ، ويحقِّق طموحاتها ، ويكبح جماحها: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [الروم: ٣٠] .

٧ . كان إسراء النَّبيِّ (ص) ، بالرُّوح والجسد يقظةً إلى بيت المقدس ، وعلى هذا جماهير السَّلف ، والخلف ، ولا يُعوَّل على مَنْ قال: إنَّ الإسراء كان بروحه ، وأنَّه رؤيا منام؛ إذ لو كان الإسراء مناماً؛ لما كانت فيه ايةٌ ، ولا معجزةٌ ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذَّبوه؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر[(٩٣٨)] ، ثمَّ إنَّ في قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} ، والمقصود بعبده: سيدنا محمَّدٍ (ص) ، وكلمة «بعبده» تشمل روحه ، وجسده[(٩٣٩)].

٨ . إنَّ صلاة النَّبيِّ (ص) بالأنبياء دليلٌ على أنَّهم سلَّموا له القيادة ، والرِّيادة ، وأنَّ شريعة الإسلام نسخت الشَّرائع السَّابقة ، وأنَّه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم ، أن يسلِّموا القيادة لهذا الرَّسول (ص) ، ولرسالته الَّتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها.

إنَّ على الَّذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة ، ويدعوا إليها ، وهي ضرورة الانخلاع من الدِّيانات المنحرفة ، والإيمان بهذا الرَّسول (ص) ورسالته ، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدَّعوات المشبوهة ، الَّتي تخدم وضعاً من الأوضاع ، أو نظاماً من الأنظمة الجاهليَّة.

وأيُّ تقريب بين عقيدةٍ منحرفةٍ تعتقد: أنَّ الله هو المسيح ، وأنَّ المسيح ابن الله ، وأنَّ الله ثالث ثلاثةٍ ، أو بين مَنْ يعتقد: أنَّ عزيراً ابنُ الله ، ويحرِّف كلام الله ، وبين من يعتقد: أنَّ الله واحدٌ لا شريك له ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا زوجة له . وهو عبثٌ من القول[(٩٤٠)].

٩ . إنَّ الرَّبط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام وراءه حِكَمٌ، ودلالاتٌ، وفوائد؛ منها:

* أهمِّيَّة المسجد الأقصى بالنِّسبة للمسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم (ص) ، ومعراجه إلى السَّموات العلا ، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكِّيَّة ، وهذا توجيهٌ وإرشادٌ للمسلمين بأن يحبُّوا المسجد الأقصى ، وفلسطين؛ لأنَّها مباركةٌ ، ومقدَّسةٌ.

* الرَّبط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، بمسؤوليَّة تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشِّرك ، وعقيدة التَّثليث ، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام ، من أوضار الشِّرك ، وعبادة الأصنام.

* الرَّبط يشعر بأنَّ التَّهديد للمسجد الأقصى ، هو تهديدٌ للمسجد الحرام ، وأهله ، وأنَّ النَّيْل من المسجد الأقصى ، توطئةٌ للنَّيْل من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصى بوابة الطَّريق إلى المسجد الحرام ، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين ، ووقوعه في أيدي اليهود ، يعني: أن المسجدالحرام والحجاز قد تهدَّد الأمن فيهما ، واتَّجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتَّاريخ قديماً وحديثاً يؤكِّد هذا ، فإنَّ تاريخ الحروب الصَّليبيَّة يخبرنا: أنَّ (أرناط) الصَّليبيَّ صاحب مملكة الكرك ، أرسل بعثةً للحجاز للاعتداء على قبر الرَّسول (ص) ، وعلى جُثمانه في المسجد النَّبويِّ ، وحاول البرتغاليُّون (النَّصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشَّريفين؛ لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصَّليبيُّون ، ولكن المقاومة الشَّديدة الَّتي أبداها المماليك ، وكذا العثمانيُّون ، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنميِّ ، وبعد حرب (١٩٦٧ م) ، الَّتي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماؤهم بأنَّ الهدف بعد ذلك احتلال الحجاز ، وفي مقدِّمة ذلك مدينة رسول الله (ص) ، وخيبر.

لقد وقف دافيد بن جوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس ، يستعرض جنوداً وشبَّاناً من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى ، ويُلقي فيهم خطاباً ناريّاً ، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس ، ونحن في طريقنا إلى يثرب»[(٩٤١)].

ووقفت جولدا مائير رئيسة وزراء اليهود ، بعد احتلال بيت المقدس ، وعلى خليج إيلات
العقبة ، تقول: «إنَّني أشمُّ رائحة أجدادي في المدينة ، والحجاز ، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»[(٩٤٢)].

وبعد ذلك نشر اليهود خريطةً لدولتهم المنتظرة؛ الَّتي شملت المنطقة من الفرات إلى النِّيل ، بما في ذلك الجزيرة العربيَّة ، والأردن ، وسورية ، والعراق ، ومصر ، واليمن ، والكويت ، والخليج العربي كلِّه، ووزَّعوا خريطة دولتهم هذه بعد انتصارهم في حرب (١٩٦٧) م في أوروبة[(٩٤٣)].

١٠ . يرى القارأى في سورة الإسراء: أنَّ الله ذكر قصَّة الإسراء في ايةٍ واحدةٍ فقط. قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *} [الإسراء: ١] ثمَّ أخذ في ذكر فضائح اليهود ، وجرائمهم ، ثمَّ نبَّههم إلى أنَّ هذا القران يهدي لِلَّتي هي أقوم ، والارتباط بين الايات في سورة الإسراء ، يشير إلى أنَّ اليهود سيُعزَلون عن منصب قيادة الأمَّة الإنسانيَّة؛ لما ارتكبوا من الجرائم الَّتي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّه سيصير إلى رسوله (ص) ، ويُجمَع له مركزا الدَّعوة الإبراهيمية كلاهما[(٩٤٤)].

إنَّ سورة الإسراء تعرَّضت للاستبداد الإسرائيليّ ، وبيَّنت كيف تهاوى بين مخالب القوى الدَّولية الكبرى في ذلك الزَّمان «الفرس ، والروم»؛ ولذلك فإنَّ من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله (ص) وأمَّته رؤية بعض ايات الله؛ لأنَّ من أوضح ايات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى هي اياته التَّاريخيَّة الَّتي كان يعكسها الصِّراع الرُّومانيُّ الفارسيُّ ـ الإسرائيليُّ قبل الإسراء[(٩٤٥)].

قال تعالى: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً *ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً *ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا *إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا *} [الإسراء: ٢ ـ ٧] .

ذكر ابن كثيرٍ في البداية والنِّهاية: أنَّ (بختنصر) بأمرٍ من ملك الفرس[(٩٤٦)] ، قد قام بتخريب مملكة اليهود ، وجاس خلال الدِّيار ، وتفرَّقت بسبب ذلك بنو إسرائيل ، فنزلت طائفةٌ الحجاز ، وطائفةٌ يثرب ، وطائفةٌ بوادي القرى ، وذهبت شرذمةٌ لمصر[(٩٤٧)] ، وقد وقع هذا الدَّمار الفارسيُّ لدولة اليهود ، في القرن السَّادس قبل الميلاد (٥٩٧ق.م) [(٩٤٨)].

أمَّا الدَّمار الثاني ، وهو الدَّمار الرُّوماني للدَّولة اليهوديَّة «بعد أن أعيد بناؤها» ، فقد وقع في القرن الميلادي الأوَّل (٧٠ م) ، وذلك حين هدم القائد الرُّوماني (تيتوس) هيكل أورشليم ، وفرَّ اليهود من وجه الاضطهاد الرُّومانيِّ السِّياسيِّ الدِّينيّ ، وتتابعت هجرتهم ، وانتهى بعضهم إلى جنوب الجزيرة العربية ، حيث سبقهم أجدادهم الأوائل[(٩٤٩)].

فالشَّتات اليهوديُّ في أطراف الجزيرة العربيَّة ، ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض ، فإذا كان الرَّسول (ص) قد استوعب الظَّاهرة القرشيَّة ، واستعدَّ لها ، فعليه أن يحلِّل الظاهرة اليهوديَّة ، ويستعدَّ

لها[(٩٥٠)] ، فاليهود ليسوا مجرَّد أمَّةٍ تاريخيَّةٍ ، كعاد ، وثمود ، تُورَد أخبارها للإرشاد ، والاعتبار ، وإنَّما هم أمَّةٌ لها حضورٌ كثيفٌ في الواقع العربيّ الَّذي يعيش فيه الرَّسول (ص) ، ويتحرَّك فيه لإقامة دولة الإسلام ، فقد كانوا يشكِّلون ـ فوق مكانتهم الاقتصاديَّة ـ مركز سلطةٍ فكريَّةٍ؛ لما لهم من أحبارٍ ، وأخبارٍ ، وكتب تراثٍ نبويٍّ ، تؤهِّلهم لتحديد مواصفات النُّبوَّة ، وطلب المعجزات ، ووضع الشُّروط لصدق الرُّسل وصحَّة الرسالات ، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام ، فإنَّ اليهود كانوا يستخدمون التَّوراة لمحاربة القران ، وإذا كان محمَّد (ص) يتوقَّع معركةً مع قريشٍ؛ فعليه أن يتوقَّع معارك مع اليهود[(٩٥١)].

لقد صوَّرت سورة الإسراء جانباً من الصِّراع الدَّولي بين الفرس ، والرُّوم ، واليهود ، ونزلت بعدها سورة الرُّوم ، وهي كذلك تتحدَّث عن الصِّراع الدَّولي.

قال الله تعالى: {الم *غُلِبَتِ الرُّومُ *فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ *} [الروم: ١ ـ ٧] .

كان مشركو قريشٍ يحبُّون أن يظهر أهل فارس على الرُّوم ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل أوثانٍ ، بينما كان المسلمون يحبُّون أن تظهر الرُّوم على فارس؛ لأنَّهم أهل كتاب ، كما أورد المفسِّرون تفصيلاتٍ كثيرةً عن الرِّهَان الَّذي جرى بين أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وبعض مشركي مكَّة حول المعركة القادمة بين الفرس ، والرُّوم؛ الَّتي جزم فيها القران بانتصار الرُّوم ، وهزيمة الفرس[(٩٥٢)].

وذهب ابن عطيَّة إلى رأيٍ اخر ، يستحقُّ التدبُّر؛ حيث قال: «الأقرب أن يُعَلَّل ذلك ـ أي: فرح المؤمنين ـ بما يقتضيه النَّظر من محبَّة أن يغلب العدوُّ الأصغر ـ الرُّوم ـ لأنَّه أيسر مؤنةً ـ ومتى غلب الأكبرُ ـ الفرس ـ كثر الخوف منه. فتأمَّل هذا المعنى؛ مع ما كان رسول الله (ص) يرجوه من ظهور دينه ، وشرع الله الَّذي بعثه به ، وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكَّة أن يرميه بملكٍ يستأصله ، ويريحهم منه»[(٩٥٣)].

فابن عطيَّة يرى: أنَّ فرح المؤمنين الأكبر ، ليس سببه أنَّ الروم أهل كتاب ، أو أن انتصارهم على الفرس سيكون دليلاً ماديّاً على صدق الخبر القرانيّ؛ وإنَّما سببه هو أنَّ الله تعالى وظَّف القوَّة الجهازية الرُّومانية لصالح المسلمين الَّذين لم يقم لهم سلطانٌ جهازيٌّ بعد؛ إذ إنَّه بعد أن يسلِّط الروم على الدَّولة الفارسيَّة

، فيحطِّموها ، ويخضدوا شوكتها سيخرجون من المعارك منتصرين ، ولكنَّهم منهكو القوَّة ، ممَّا سيمهد طريقاً لنصر المسلمين عليهم ، وينفتح للإسلام بذلك طريقٌ للبروز كقوَّة عالميَّةٍ جديدةٍ على أنقاض القوَّتين المندحرتين[(٩٥٤)].

١١ ـ أهمِيَّة الصَّلاة ، وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السُّنَّة النَّبويَّة: أنَّ الصَّلاة فُرضت على الأمَّة الإسلاميَّة في ليلة عروجه (ص) إلى السَّموات ، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناءٌ عظيمٌ بشرف الصَّلاة ، وعظمتها»[(٩٥٥)] ، فعلى الدُّعاة أن يؤَكِّدوا على أهمِّية الصَّلاة ، والمحافظة عليها ، وأن يذكروا فيما يذكرون من أهمِّيتها ، ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج ، وأنَّها من اخر ما أوصى به رسولُ الله (ص) قبل موته[(٩٥٦)].

١٢ ـ سُئل رسولُ الله (ص) : إن كان قد رأى ربَّه ، فقال: «نورٌ أنَّى أراه» [مسلم (١٧٨) والترمذي (٣٢٧٨)] .

١٣ ـ تحدَّث الرَّسول (ص) عن مخاطر الأمراض الاجتماعيَّة ، وبيَّن عقوبتها ، كما شاهد ذلك
في ليلة الإسراء والمعراج ؛ ومن هذه الأمراض؛ وعقوبتها:

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين: رأى رسولُ الله (ص) أناساً يأكلون الجيف ، فأخبره جبريل: «هؤلاء الَّذين يأكلون لحوم النَّاس» [أحمد (٢٥٧/١)] .

* عقوبة أكلة أموال اليتامى: رأى رسول الله (ص) رجالاً لهم مشافر ـ شفاه كبيرةٌ ـ كمشافر الإبل في أيديهم قطعٌ من نار كالأفهار ـ أي: الحجارة ـ يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً. [ابن هشام في السيرة النبوية (٤٧/٢)].

* أكلة الرِّبا: أتى النَّبيُّ (ص) على قومٍ بطونهم كالبيوت ، فيها الحيَّات تُرى من خارج بطونهم ، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة الرِّبا [أحمد (٣٥٣/٢) وابن ماجه (٢٢٧٣)][(٩٥٧)] .

* وذكرت الرِّوايات[(٩٥٨)] عقوبة الزُّناة ، ومانعي الزَّكاة ، وخطباء الفتنة [أحمد (١٢٠/٣ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩) وعبد بن حميد (١٢٢٢)] والتَّهاون في الأمانة[(٩٥٩)].

* ثواب المجاهدين: في ليلة الإسراء والمعراج ، مرَّ رسولُ الله (ص) على قومٍ يزرعون في يومٍ ويحصدون في يومٍ ، كلَّما حصدوا؛ عاد كما كان ، فأخبر جبريل: «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنات بسبعمئة ضعفٍ ، وما أنفقوا من شيءٍ؛ فهو يُخْلَف». [البزار (٥٥) ومجمع الزوائد (٦٧/١ ـ ٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١١٢٩)] [(٩٦٠)].

١٤ . إدراك الصَّحابة لأهمِّية المسجد الأقصى: أدرك الصَّحابة رضي الله عنهم ، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، وهو يقع أسيراً تحت حكم الرُّومان ، فحرَّره في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وظلَّ ينعم بالأمن ، والأمان ، حتَّى عاث الصَّليبيُّون فساداً فيه بعد خمسة قرون ، من هجرة المصطفى (ص) ، ومكثوا ما يعادل قرناً يعيثون فساداً ، فحرَّره المسلمون بقيادة صلاح الدِّين الأيوبيِّ ، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهوديِّ ، فما الطَّريق إلى تخليصه ؟[(٩٦١)].
الطَّريق إلى تخليصه: الجهاد في سبيل الله؛ على المنهج الَّذي سار عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.
* * *

.[١]انظر: السِّيرة النبويَّة دراسة وتحليل ، د. محمد أبو فارس ، ص (٥٠).

.[٢]انظر: مدخل لدراسة السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، ص (١٤).
.[٣]انظر: البداية والنهاية (٢/٢٤٢).

.[٤]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص (٤٧٦).

.[٥]ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٣٧).
.[٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣١.

.[٧]المصدر السَّابق ، ص ٣١.
.[٨]انظر: السِّيرة النبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٢ ، ٣٣.

.[٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨.
.[١٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩.

.[١١]راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨.
.[١٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة ، ص ٥٧.
.[١٣]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٠.

.[١٤]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٠.
.[١٥]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢١.
.[١٦]المصدر السابق نفسه.
.[١٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٣.

.[١٨]دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، مقال التثليث (١٤/٣٩٥).
.[١٩]انظر: فتح العرب لمصر ، تعريب محمَّد أبو حديد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨.
.[٢٠]إيران في عهد السَّاسانيِّين ، ص ١٥٥ ، نقلاً عن السِّيرة النبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٧.
.[٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٧.
.[٢٢]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨.

.[٢٣]نحلته: أعطيته. (النِّهاية في غريب الحديث: ٥/٢٩).
.[٢٤]حنفاء: مائلين عن الشِّرك إلى التَّوحيد. (النِّهاية: ١/٤٥١).
.[٢٥]اجتالتهم: ذهبت بهم. (النِّهاية: ١/٣١٦).
.[٢٦]مسلمٌ ، كتاب الجنَّة ، باب الصِّفات الَّتي يعرف بها في الدُّنيا أهل الجنَّة وأهل النَّار ، رقم (٢٨٦٥).
.[٢٧]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٥٩.

.[٢٨]انظر: فقه السِّيرة النبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٥. وينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٣٨).
.[٢٩]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٦).
.[٣٠]فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٤٥.

.[٣١]مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩٨.
.[٣٢]السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (٤٧/١).

.[٣٣]مدخل لفهم السيرة ، ص ٩٨ ، ٩٩.
.[٣٤]انظر: الطريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، ص ٤٠.
.[٣٥]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٨/١).
.[٣٦]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٨/١).

.[٣٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٧.
.[٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٠/١).

.[٣٩]انظر السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٠/١).
.[٤٠]المصدر السابق نفسه ، (٥١/١).

.[٤١]ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٣٩).
.[٤٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٦٠.

.[٤٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١٦٣/١).
.[٤٤]السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة؛ لأبي شهبة (٨٠/١).

.[٤٥]المصدر السابق نفسه ، (٨١/١).
.[٤٦]ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٠).
.[٤٧]المصدر السابق نفسه ، (٦٠/١).
.[٤٨]انظر: مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول (ص) ، ص ٣١.

.[٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٦١/١).
.[٥٠]انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) . د. محمد قلعجي ، ص ٣١.

.[٥١]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥.
.[٥٢]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٣٥.
.[٥٣]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص ٦٠.

.[٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٨ إلى ١٠١).
.[٥٥]انظر: دراسةٌ تحليليةٌ لشخصيَّة الرسول (ص) ، ص ١٩.

.[٥٦]المصقَعُ: البليغ يتفنَّن في مذاهب القول.
.[٥٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/١٠٢).

.[٥٨]انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/٨٧).
.[٥٩]دراسة تحليلية لشخصيَّة الرسول (ص) ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤.
.[٦٠]تفسير القرطبي (٥/٤٥).
.[٦١]انظر: دراسة تحليليَّة لشخصية الرَّسول (ص) ، ص ٢٥ ، ٢٦.

.[٦٢]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٢).
.[٦٣]المصدر السابق نفسه (١/٨٨).
.[٦٤]الطَّمث: الحيض.
.[٦٥]استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.
.[٦٦]الرَّهط: الجماعة دون العشرة.
.[٦٧]يصيبها: يجامعها.

.[٦٨]جاءها: دخل عليها.
.[٦٩]القافة: جمع القائف ، وهو الذي يعرف شَبه الولد بالوالد.
.[٧٠]فالتاطته: استلحقته به ، وأصل اللوط بفتح اللام: اللصوق.
.[٧١]فتح الباري (٩/١٥٠).
.[٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٠).

.[٧٣]انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ٢٤ ، ٢٥.

.[٧٤]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/٨٨).

.[٧٥]دراسةٌ تحليليَّة لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ٢٥.

.[٧٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩١).

.[٧٧]الكامل في التاريخ ، لابن الأثير (١/٣١٢).

.[٧٨]المصدر السابق نفسه (١/٣٤٣).

.[٧٩]التَّاريخ الإسلاميُّ ، د. عبد العزيز الحميديُّ (١/٥٥).

.[٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٣).

.[٨١]المصدر السابق نفسه.

.[٨٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٤).

.[٨٣]المصدر السابق نفسه ، (١/٩٤).

.[٨٤]انظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ١٢.

.[٨٥]بلوغ الأرب (١/٣٩ ، ٤٠).

.[٨٦]انظر: مدخل لفقه السيرة ، ص ٧٩ ، ٨٠.

.[٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٥).

.[٨٨]ديوان عنترة ، ص ٢٥٢.

.[٨٩]ديوان عنترة ، د. فاروق الطباع ، ص ٨٢.

.[٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٥).

.[٩١]القَيل هو: الملك دون الملك الأعظم.

.[٩٢]القطين هم: الخدم والمماليك.

.[٩٣]تزدرينا: تحتقرنا.

.[٩٤]مقتوينا: خدمة الملوك.

.[٩٥]انظر: شرح المعلَّقات ، للحسين الزّوزني ، ص ١٩٦ ، ٢٠٤.

.[٩٦]بلوغ الأرب (١/١٥٠).
.[٩٧]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩٠.
.[٩٨]معناه: كن كفأ لشسع نعليه ، وباء الرجل بصاحبه: إذا قتل. انظر: لسان العرب لابن منظور.
.[٩٩]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩١.
.[١٠٠]تاريخ الطَّبريِّ عن يوم ذي قار (٢/٢٠٧).

.[١٠١]بلوغ الأرب (١/٣٧٧).
.[١٠٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٦ ، ٩٧).
.[١٠٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٧).

.[١٠٤]انظر: نظرات في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، ص ١٤.

.[١٠٥]انظر: هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٥١.
.[١٠٦]طيبة: مشتقة من الطِّيب ، وبه سمِّيت المدينة.
.[١٠٧]برَّة: مشتقة من البرِّ ، والبرُّ: هو الخير والطَّهارة.
.[١٠٨]المضنونة: الغالية النَّفيسة التي يضنُّ بمثلها؛ أي: يُبخل.

.[١٠٩]لا تنزف: أي: لا يفرغ ماؤها ، ولا يُلحق قعرُها.
.[١١٠]الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.
.[١١١]قرية النَّمل: المكان الذي يجتمع فيه النَّمل.
.[١١٢]المِعْوَل: الفأس.
.[١١٣]الطيُّ: حافة البئر.
.[١١٤]المفازة: الصَّحراء ، والجمع: مفاوز.
.[١١٥]بعث راحلته: أقامها من بروكها.

.[١١٦]طعام طعم: أي: تشبع شاربها.
.[١١٧]هزمة ، أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه ، أو جناحه.
.[١١٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٥٨).
.[١١٩]مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقيِّ ، ص ١٣.
.[١٢٠]ينظر الشكل (٥) في الصفحة (٧٤١).
.[١٢١]كلمةٌ تقال للنَّاقة إذا تركت السَّير. (فتح الباري: ٥/٣٣٥).
.[١٢٢]ألحّت: أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح. فتح الباري (٥/٣٣٥).

.[١٢٣]المغمَّس: مكانٌ قرب مكَّة في طريق الطَّائف مات فيه أبو رِغال.

.[١٢٤]البَلَسَانُ: نوعٌ من الطَّير (الزرازير).
.[١٢٥]السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستيِّ ، ص ٣٤ ـ ٣٩ ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/٣٠ ـ ٣٧).
.[١٢٦]لا هُمَّ: أصلها اللَّهُمَّ ، والعرب تحذف الألف واللام منها ، وتكتفي بما بقي.

.[١٢٧]شَعَف الجبال: أعالي الجبال ، أو رؤوس الجبال.
.[١٢٨]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام مع شرح أبي ذرٍّ الخُشني (١/٨٤ ـ ٩١).
.[١٢٩]انظر: تفسير الرَّازي (٣٢/٩٤).

.[١٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٢.
.[١٣١]انظر: محاسن التَّفسير ، للقاسمي (١٧/٢٦٢).
.[١٣٢]المصدر السابق نفسه.
.[١٣٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٢.

.[١٣٤]انظر: أعلام النُّبوَّة ، للماورديِّ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٩.
.[١٣٥]انظر: الجواب الصَّحيح (٤/١٢٢).
.[١٣٦]انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨ ، ٥٤٩).

.[١٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٣.
.[١٣٨]في ظلال القران (٣٩٨٠/٦).
.[١٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٣.

.[١٤٠]زاد المعاد (٧١/١).
.[١٤١]ابن سعد (٥٨/١).
.[١٤٢]المصدر السابق نفسه.

.[١٤٣]السِّيرة النَّبويَّة ، للذَّهبي ، ص ١.
.[١٤٤]انظر: دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ٩٦.
.[١٤٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٢.
.[١٤٦]انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٤٥.

.[١٤٧]انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة ، لأحمد فريد ، ص ٤٦.
.[١٤٨]المصدر السابق نفسه.

.[١٤٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي ، ص٤٧. وينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٧٤٢ و٧٤٣).
.[١٥٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢٠٣/١).
.[١٥١]انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٧.
.[١٥٢]بُشراء: جمع بشير.
.[١٥٣]انظر: ديوان شوقي (٣٤/١ ، ٣٥).

.[١٥٤]جريدة (الوطن) بنغازي ١٩٤٧ م.
.[١٥٥]سمعتُها مشافهةً من الشَّاعر.
.[١٥٦]انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبوية ، ص ٤٨.

.[١٥٧]ينظر الشكل (٨) في الصفحة (٧٤٤).
.[١٥٨]قمراء: القُمرة: بالضمِّ لونٌ يميل للخضرة ، أو بياضٌ فيه سمرةٌ ، أو كدرة.
.[١٥٩]أدمت: حدثت في ركبها جروحٌ داميةٌ؛ لاصطكاكها ، وذلك لطول مسافة السَّير.
.[١٦٠]الشَّارف: الناقة المسنَّة.
.[١٦١]لا تبضُّ بقطرة لبن: لا ترشح قطرة لبن.
.[١٦٢]شهباء: سنةٌ مجدبةٌ لا خضرة فيها ، ولا مطر.
.[١٦٣]حافل: كثير اللبن.
.[١٦٤]نسمة: نفس.

.[١٦٥]قطعت الرَّكْبَ: سبقت الركب.
.[١٦٦]بطاناً: الممتلئة البطون.
.[١٦٧]حفَّلاً: كثيرات اللَّبن.
.[١٦٨]الوباء: المرض.
.[١٦٩]البهم: صغار الضَّأن والماعز.
.[١٧٠]انتقع لونه: تغير.

.[١٧١]فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٤٤.
.[١٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٥.

.[١٧٣]انظر: فقه السِّيرة ، ص ٦٠ ، ٦١.
.[١٧٤]الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/١٨٨).
.[١٧٥]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٤٧.
.[١٧٦]أي: جمعه ، وضمَّ بعضه إلى بعضٍ. (شرح النَّوويِّ على مسلمٍ ٢/٢١٦).

.[١٧٧]زعم المستشرق نيكلسون: أنَّ حديث شقِّ الصَّدر أسطورةٌ نشأت عن تفسير الاية {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ *} وأنَّه كان لها أصل؛ فعلينا أن نخمِّن أنَّها تشير إلى نوع من الصَّرع ، وهذا الذي زعمه

نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتَّهموا رسول الله (ص) بالجنون ، فنفى الله عنه ذلك ، فقال: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ *} [التكوير: ٢٢].

.[١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٠٤).

.[١٧٩]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٧.

.[١٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٦ ، ١٠٧.

.[١٨١]ابن هشام في السِّيرة (١/١٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

.[١٨٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠١.

.[١٨٣]صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص ٥٦.

.[١٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠١.

.[١٨٥]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، لليحيى ، ص ١١٩.

.[١٨٦]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٤٦.

.[١٨٧]انظر: رسائل الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/٢٠).

.[١٨٨]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٨٤ ، ٨٥.

.[١٨٩]القيراط: جزءٌ من الدِّينار ، أو الدِّرهم.

.[١٩٠]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/١٧٧).

.[١٩١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٠٦).

.[١٩٢]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، لليحيى ، ص ١٢٤.

.[١٩٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٤ ، ١١٥.

.[١٩٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٩٥]المصدر السابق نفسه.

.[١٩٦]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ١٢٧.

.[١٩٧]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص (١٣٧).

.[١٩٨]المرجع السابق نفسه ، ص (١٢٨).

.[١٩٩]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص (٩٣).

.[٢٠٠]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٥٠.

.[٢٠١]المصدر السَّابق نفسه.

.[٢٠٢]المصدر السَّابق نفسه.

.[٢٠٣]انظر: وقفات تربويَّة ، لأحمد فريد ، ص ٥١.

.[٢٠٤]المصدر السابق نفسه.

.[٢٠٥]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٥١/١).

.[٢٠٦]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٠ ، ٥١.

.[٢٠٧]أشرفوا: اطلعوا من فوق.

.[٢٠٨]الرَّاهب: زاهد النَّصارى.

.[٢٠٩]حَلُّوا رحالهم: أي: أنزلوها ، وفتحوها.

.[٢١٠]يتخلَّلهم: يمشي بينهم.

.[٢١١]خرَّ: سقط.

.[٢١٢]الغضروف: رأس لوح الكتف.

.[٢١٣]رعية الإبل: رعايتها.

.[٢١٤]غمامة: السَّحابة.

.[٢١٥]مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.

.[٢١٦]يناشدهم: يقسم عليهم.

.[٢١٧]أيكم وليُّه: قريبه.

.[٢١٨]اللَّطيمة: الجمال التي تحمل الطِّيب والثِّياب والتِّجارة ، وما أشبه ذلك.

.[٢١٩]قريش فرع من كنانة.

.[٢٢٠]وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٣.

.[٢٢١]انظر: وقفات تربويَّة ، ص ٥٣.

.[٢٢٢]زبيد: بلد باليمن.

.[٢٢٣]انظر: الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/١٥٥ ، ١٥٦).

.[٢٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٢١٣).

.[٢٢٥]المعتر: الزَّائر من غير البلاد.

.[٢٢٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١/٢١٤).

.[٢٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١١٢).

.[٢٢٨]انظر: فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ١١٠.

.[٢٢٩]المصدر السابق نفسه.

.[٢٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢١.

.[٢٣١]انظر: الأساس في السُّنَّة (٤/١٧٢).

.[٢٣٢]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ١١٠ ، ١١١.

.[٢٣٣]تزوجها عتيق بن عائذ ، ثمَّ مات عنها ، فتزوَّجها أبو هالة ، ومات عنها أيضاً.

.[٢٣٤]انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/٢٧).

.[٢٣٥]انظر: مواقف تربويَّة ، ص ٥٦.

.[٢٣٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ١٢٢.

.[٢٣٧]انظر: رسالة الأنبياء (٣/٢٨).

.[٢٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٢.

.[٢٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/١٢٢ ، ١٢٣).

.[٢٤٠]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٧٥.

.[٢٤١]المصدر السابق نفسه ، ص ٧٨.

.[٢٤٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٣ ، ٥٤.

.[٢٤٣]الرَّضم: حجارةٌ منضودةٌ بعضها على بعضٍ من غير طين.

.[٢٤٤]الأسنمة: جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير.

.[٢٤٥]ففعل ذلك ، فوقع.

.[٢٤٦]انظر: وقفات تربويَّة ، ص ٥٧ ، وانظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٢٩/٣ ، ٣٠).

.[٢٤٧]السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٧ ، ٥٨.

.[٢٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥.

.[٢٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١١٦/١).

.[٢٥٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥ ، ١٢٦.

.[٢٥١]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة (١٧٥/١).

.[٢٥٢]انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرَّسول (ص) ، ص ١٠١ ، ١٠٢.

.[٢٥٣]انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة ، للعمري (١١٨/١).

.[٢٥٤]انظر: الجواب الصَّحيح ، لابن تيميَّة (٣٤٠/١).

.[٢٥٥]التنُّور: الفرن.

.[٢٥٦]يطبق عليه ، يغلق عليه.

.[٢٥٧]الجواب الصَّحيح (٣٤٠/١).

.[٢٥٨]حرزاً للأميّين: حفاظاً لهم.

.[٢٥٩]السَّخب: رفع الصَّوت بالخصام.

.[٢٦٠]الملَّة العوجاء: ملَّة إبراهيم التي غيَّرتها العرب عن استقامتها.

.[٢٦١]انظر: دراسة تحليليَّة ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٠٧.

.[٢٦٢]ابن هشامٍ بإسنادٍ حسن (٢٣١/١).

.[٢٦٣]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/١٨٠ ، ١٨١).

.[٢٦٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٠.

.[٢٦٥]انظر: صحيح السِّيرة ، للعلي ، ص ٦٧.

.[٢٦٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٢٥).

.[٢٦٧]تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف ، واليتيم ، والعيال ، والكلُّ أصله: الثِّقل ، والإعياء.

.[٢٦٨]وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.

.[٢٦٩]نوائب الحقِّ: الكوارث ، والحوادث.

.[٢٧٠]النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.

.[٢٧١]جَذعاً: شاباً قوياً.

.[٢٧٢]مؤزَّراً: قوياً بالغاً.

.[٢٧٣]فتر الوحي: تأخَّر نزوله.

.[٢٧٤]انظر: طريق النُّبوَّة والرِّسالة ، لحسين مؤنس ، ص ٢١.

.[٢٧٥]انظر: منامات الرَّسول (ص) ، لعبد القادر الشيخ إبراهيم ، ص ٥٧.

.[٢٧٦]انظر: طريق النَّبوة والرِّسالة ، ص ٢٢.

.[٢٧٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/٢٥٤).

.[٢٧٨]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/٢٥٤).

.[٢٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٢٥٦).

.[٢٨٠]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/٤٦٩).

.[٢٨١]انظر: الأساس في السنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/١٩٥).

.[٢٨٢]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان.

.[٢٨٣]انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمَّد العبده.

.[٢٨٤]المختار من كنوز السُّنَّة ، (ص ١٩) ، ط٢ ١٩٧٨ دار الأنصار ، القاهرة.

.[٢٨٥]انظر: تفسير ابن كثير (٥٢٨/٤).

.[٢٨٦]في ظلال القران (٣٩٣٦/٦).

.[٢٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة(١/ ٢٦٠).

.[٢٨٨]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص ٣٤.

.[٢٨٩]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص ٣٠ ، ٣١).

.[٢٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١٢٩/١).

.[٢٩١]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤.

.[٢٩٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤.

.[٢٩٣]انظر: الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعية ، لأسامة عبد القادر ، ص ١٠٨.

.[٢٩٤]انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٣٣/١ ـ ٣٤).

.[٢٩٥]انظر: التاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر ، للحميدي (٦٠/١).

.[٢٩٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميدي (٦١/١).

.[٢٩٧]المصدر السابق نفسه ، (٦٤/١).

.[٢٩٨]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣٠٧/١).

.[٢٩٩]النحائز: جمع النَّحيزة ، وهي الطبيعة ، يقال: هو كريم النَّحيزة.

.[٣٠٠]انظر: محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣٠٧/١ ، ٣٠٨).

.[٣٠١]انظر: محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (٢٣٢/١).

.[٣٠٢]بطن المكَّتين: جانبي مكَّة ، أو بطاحها ، وظواهرها.

.[٣٠٣]سيرة ابن هشام (١٩٤/١).

.[٣٠٤]بُطنان: البُطنان من الشَّيء: وسطُه.

.[٣٠٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦٩/١).

.[٣٠٦]انظر: وقفات تربوية من السِّيرة النبوية ، للبلالي ، ص ٤٠ .
.[٣٠٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميدي: (٦٨/١).
.[٣٠٨]يعنى من لؤلؤ ، أو ذهب.
.[٣٠٩]يعني: لتشابه صوتيهما.

.[٣١٠]يعني: لا أسنان لها من الكبر.
.[٣١١]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧١/١).
.[٣١٢]التَّشَوُّف: التطلُّع.
.[٣١٣]فتح الباري (٣٦/١).

.[٣١٤]انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ٧٩ ، ٨٠.

.[٣١٥]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٩٠.
.[٣١٦]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، د. كامل سلامة ، ص ١٨١.

.[٣١٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصادق عرجون (٥٨٩/١ . ٥٩١) بتصرفٍ كبير.
.[٣١٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٢.
.[٣١٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٣.
.[٣٢٠]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، ص ٣٦.

.[٣٢١]السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٨٤/١).
.[٣٢٢]ابن هشام (٢٤٦/١).
.[٣٢٣]عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (١١٥/١).
.[٣٢٤]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ. د. عصمة الدِّين ، ص ٤٢.
.[٣٢٥]يطلق المولى على السَّيد ، وعلى المملوك الذي أُعتق ، وهو المراد هنا.

.[٣٢٦]انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٩١.
.[٣٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٢٨٤).
.[٣٢٨]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدين ، ص ٤٣.
.[٣٢٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٥.

.[٣٣٠]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ٤٦.
.[٣٣١]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة ، ص ٢٠٨.
.[٣٣٢]المصدر السابق نفسه.
.[٣٣٣]انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة المسلمة ، لمحمود الجوهري ، ص ٧.

.[٣٣٤]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التَّمكين ، ص ٢٠٨.
.[٣٣٥]ما تلبَّث ، بل سارع.
.[٣٣٦]مألفاً لقومه أي: محبباً فيهم.
.[٣٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/٣٧١).

.[٣٣٨]انظر: التربية القياديَّة ، للغضبان (١/١١٥).
.[٣٣٩]انظر: التَّربية القياديَّة (١/١١٦).
.[٣٤٠]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لعرجون (١/٥٣٣).
.[٣٤١]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص ٦٢.

.[٣٤٢]انظر: خاتم النَّبيين ، لأبي زهرة ، ص ٣٩٨.
.[٣٤٣]انظر: دولة الرَّسول (ص) ، من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٢.

.[٣٤٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١/٢٨٧).
.[٣٤٥]انظر: سيرة ابن هشام (١/٢٤٥ إلى ٢٦٢).
.[٣٤٦]المصدر السابق نفسه ، (١/٢٦٢).
.[٣٤٧]فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٧٧.

.[٣٤٨]فقه السيرة للبوطي ، ص ٧٩.
.[٣٤٩]حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، لابن الرَّبيع (٣٠١/١).

.[٣٥٠]انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠.
.[٣٥١]المصدر السابق نفسه.
.[٣٥٢]انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠.

.[٣٥٣]انظر: الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة.
.[٣٥٤]انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، لعبد الله علي ، ص ١٠٥.

.[٣٥٥]انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ١١١ ، ١١٢.

.[٣٥٦]انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ٣١١.
.[٣٥٧]انظر: فقه التمكين في القران ، لعلي الصَّلابي ، ص ٣١١.
.[٣٥٨]انظر: الدَّعوة الإسلاميَّة ، د. عبد الغفار محمَّد عزيز ، ص ٩٦.

.[٣٥٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٨.
.[٣٦٠]اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللِّحية ، ومن الحيوان العظم الذي على الفخذ.
.[٣٦١]انظر: التربية القياديَّة (١٩٨/١).

.[٣٦٢]انظر: صفة الغرباء ، لسلمان العودة ، ص ٨٣.
.[٣٦٣]انظر: صفة الغرباء ، ص ٩٢ ـ ٩٣.
.[٣٦٤]المصدر السابق نفسه ، ص ٩٤.

.[٣٦٥]انظر: صفة الغرباء ، ص ٩٧.
.[٣٦٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٢.

.[٣٦٧]انظر: صفة الغرباء ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

.[٣٦٨]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٩.

.[٣٦٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٠.

.[٣٧٠]انظر: منهج التَّربيَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

.[٣٧١]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٥.

.[٣٧٢]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٣٣٥.

.[٣٧٣]انظر: المنهاج الحركي ، للغضبان (١/٤٩).

.[٣٧٤]انظر: دولة الرسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٣٧.

.[٣٧٥]انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين ، لحسين بن محسن ، ص ١٧٠.

.[٣٧٦]انظر: الظِّلال (٦/٣٩٦٨).

.[٣٧٧]انظر: فقه التمكين في القران الكريم ، ص٢٢١.

.[٣٧٨]انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين ، د. علي جريشة ، ص ٩١ ـ ٩٢.

.[٣٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٣٣).

.[٣٨٠]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦.

.[٣٨١]انظر: واقعنا المعاصر ، لمحمَّد قطب ، ص ٤١٤.

.[٣٨٢]انظر: في ظلال القران (١/٤٧٨).

.[٣٨٣]المصدر السابق نفسه.

.[٣٨٤]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السَّيد ، ص ٢٠٨.

.[٣٨٥]انظر: جيل النَّصر المنشود ، للقرضاوي ، ص ١٥.
.[٣٨٦]انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر البنا ، ص ٥٨.
.[٣٨٧]انظر: رسالة المؤتمر الخامس ، ص ١٢٧.

.[٣٨٨]انظر: المشروع الإسلاميُّ لنهضة الأمَّة ، ص ٥٨.
.[٣٨٩]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧.
.[٣٩٠]انظر: افات على الطَّريق (٥٧/١) وما بعدها.

.[٣٩١]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧.
.[٣٩٢]انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٦٦ وما بعدها.
.[٣٩٣]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، نقلاً عن المودودي ، ص ٢٢٩.
.[٣٩٤]انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، ص ١٦٨ بتصرف يسير.

.[٣٩٥]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص٢١٠.
.[٣٩٦]انظر: هذا الدِّين ، لسيد قطب ، ص ٥١ ، ٥٢.
.[٣٩٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥.

.[٣٩٨]انظر: نفوس ودروس في إطار التَّصوير القراني ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٣٦٧.
.[٣٩٩]انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، للزَّهراني (٢٥/١ ، ٢٦).

.[٤٠٠]انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، لعلي العلياني ، ص ٤٧.

.[٤٠١]انظر: منهج الرَّسول (ص) في غرس الرُّوح الجهاديَّة ، ص ١٠ ـ ١٦.
.[٤٠٢]انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٣.

.[٤٠٣]انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٤ ، ٥٥.
.[٤٠٤]انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٦.

.[٤٠٥]انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص ٢٣.

.[٤٠٦]انظر: تفسير ابن كثير (٦/٥١٤).

.[٤٠٧]انظر: الوسطية في القران الكريم ، ص ٤٣٣.

.[٤٠٨]انظر: دراسات قرانيَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٨١.

.[٤٠٩]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٤٠٢.

.[٤١٠]انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص ٨٨.
.[٤١١]يقظة أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار ، لصديق حسن ، ص ٨٦.

.[٤١٢]اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، ص ٩٠.

.[٤١٣]انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، ص ١٠٢.

.[٤١٤]انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة الإسلامية ، ص ٥٩.
.[٤١٥]انظر: منهج التَّربية الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب (٢/٥٤).

.[٤١٦]أساليب التشويق في القران ، د. الحسين جلو ، ص ١٣٤.
.[٤١٧]انظر: أصول التَّربية للنَّحلاوي ، ص ٣١.
.[٤١٨]انظر: أساليب التَّشويق والتَّعزير ، ص ١٣٤.

.[٤١٩]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (ص) (٤/١١٣٦ ، ١١٤٢).

.[٤٢٠]انظر: واقعنا المعاصر ، ص ٤٦.

.[٤٢١]انظر: دراسات قرانيَّة ، ص ١١٢.

.[٤٢٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١١٤.

.[٤٢٣]انظر: في ظلال القران (١٢٦٩/٣).

.[٤٢٤]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة ، د. عبد الكريم زيدان (٢٨/١).

.[٤٢٥]انظر: المستفاد من قصص القران (٧١/١).

.[٤٢٦]المصدر السابق نفسه ، (٣٠/١).

.[٤٢٧]المستفاد من قصص القران (٣٣/١).

.[٤٢٨]تفسير القرطبي (١٨٥/١٢).

.[٤٢٩]انظر: المستفاد من قصص القران (٥١/١).

.[٤٣٠]تفسير القاسمي (١٠٠/١٢).

.[٤٣١]انظر: المستفاد من قصص القران (٨٥/١).

.[٤٣٢]انظر: تفسير ابن كثير (١٠٠/٤ ، ١٠١).

.[٤٣٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٨٦/١).

.[٤٣٤]انظر: مباحث في إعجاز القران ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧.

.[٤٣٥]انظر: مباحث في إعجاز القران ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧ إلى ١٧٩.

.[٤٣٦]انظر: مباحث في إعجاز القران ، ص ٢١٤.

.[٤٣٧]انظر: مباحث في إعجاز القران ، ص ٢١٦.

.[٤٣٨]انظر: الإتقان ، للسيوطي (٧٠/٢).

.[٤٣٩]انظر: تفسير القاسمي (٤٩/١١).

.[٤٤٠]انظر: تفسير ابن كثير (٣١٢/٤ ـ ٣١٣).

.[٤٤١]انظر: منهج الرَّسول (ص) في غرس الروح الجهادية ، ص ١٩ إلى ٣٤.

.[٤٤٢]فقه الدَّعوة ، لعبد الحليم محمود (٤٧١/١ ، ٤٧٢).

.[٤٤٣]انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٦٩.

.[٤٤٤]انظر: سبل الهدى والرشاد ، للصالحي (٤٠٤/٢).

.[٤٤٥]انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ، ص ٧٠.

.[٤٤٦]انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة إلى الله ، ص ٧٢.

.[٤٤٧]انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (٢٢١/١).

.[٤٤٨]الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصَّلاة والقران ، لابن قيِّم الجوزيَّة ، ص ٣٥ ـ ٤٠.

.[٤٤٩]المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٣ ـ ٤٦) ، وانظر: الخشوع في الصَّلاة ، لابن رجب ، ص ٢٠ ـ ٢٢.

.[٤٥٠]مسلمٌ ، كتاب الصَّلاة ، باب ما يقال في الرُّكوع والسُّجود ، رقم (٤٨٢).

.[٤٥١]انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (٢٢٢/١).

.[٤٥٢]انظر منهج الإسلام في تزكية النفس (٢٢٧/١).

.[٤٥٣]انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (٢٣٣/١).

.[٤٥٤]أشار إلى هذا المعنى النَّوويُّ في شرحه على مسلم (١٠٠/٣) ، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، ص ١٩٠.

.[٤٥٥]تفسير ابن كثير (٨٦/٤).

.[٤٥٦]منهج الإسلام في تزكية النَّفس (٣٣١/١).

.[٤٥٧]انظر: فقه التَّمكين في القران الكريم ، للصلاَّبي ، (ص ٣٥٤).

.[٤٥٨]انظر: أهمية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٦٤ ، ٦٥.
.[٤٥٩]انظر: تهذيب مدارج السَّالكين (٢/٦٥٣).

.[٤٦٠]المصدر السابق نفسه ، (٢/٦٥٥).
.[٤٦١]المصدر السابق نفسه.
.[٤٦٢]تهذيب مدارج السَّالكين (٢/٦٥٧).

.[٤٦٣]انظر: دراساتٌ قرانيَّةٌ ، لمحمَّد قطب ، ص ١٣٠.

.[٤٦٤]انظر: العبادة في الإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٢٣.
.[٤٦٥]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٥٩١.

.[٤٦٦]انظر: الإيمان والحياة ، للقرضاوي ، ص ٢٥٦.
.[٤٦٧]انظر: الوسطية في القران ، ص ٥٩٢.
.[٤٦٨]انظر: دراساتٌ قرانية ، ص ١٣٩.

.[٤٦٩]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٥٩٤.
.[٤٧٠]الموافقات ، للشَّاطبي (٢/٨).
.[٤٧١]مقاصد الشَّريعة ، د. محمد اليوبي ، ص ١٨٨.
.[٤٧٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤.

.[٤٧٣]الموافقات (٤/٢٧).
.[٤٧٤]مقاصد الشَّريعة ، ص ٢١٢.
.[٤٧٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٧.
.[٤٧٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧.
.[٤٧٧]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٩.

.[٤٧٨]مقاصد الشريعة ، ص٢٣٦ .

.[٤٧٩]انظر: المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، لعبد الستار فتح الله سعيد ، (ص ٤٢٥ ـ ٤٣٣).

.[٤٨٠]انظر: المنهاج القرانيُّ للتَّشريع ، ص ٤٣٣ .

.[٤٨١]انظر: تفسير القاسمي (٩/٣١٠).

.[٤٨٢]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٦٠٣ .

.[٤٨٣]انظر: المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص ٤٢٥ .

.[٤٨٤]المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص ٤٣٣ .

.[٤٨٥]انظر: التَّربية القياديَّة ، للغضبان ، (١/٢٠١).

.[٤٨٦]المصدر السابق نفسه ، (١/٢٠٢ ، ٢٠٣).

.[٤٨٧]رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/٤٦).

.[٤٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، ص ١٣٨ .

.[٤٨٩]انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٢١ .

.[٤٩٠]انظر: دراسة في السيرة ، لعماد الدين خليل ، ص ٦٦ .

.[٤٩١]انظر: رسالة الأنبياء (٣/٤٨ ـ ٤٩).

.[٤٩٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٦٧ .

.[٤٩٣]زُلْفَى: قُرَبى.

.[٤٩٤]انظر: رسالة الأنبياء (٣/٥٢).

.[٤٩٥]احتجُّوا بما عليه النَّصارى من الشِّرك والتَّثليث.

.[٤٩٦]اختلقوا.

.[٤٩٧]وفي رواية عن ابن عباسٍ أنَّه العاص بن وائل.

.[٤٩٨]تفسير ابن كثير (٥٨١/٣).

.[٤٩٩]المصدر السابق نفسه ، (١٢٤/٢).

.[٥٠٠]انظر: الوسطية في القران الكريم ، ص ٤٠٢.

.[٥٠١]اختبرنا بعضكم ببعض.

.[٥٠٢]تفسير ابن كثير (١٢٦/٤ ـ ١٢٧).

.[٥٠٣]انظر: رسالة الأنبياء (٥٧/٣).

.[٥٠٤]انظر: رسالة الأنبياء (٥٨/٣).

.[٥٠٥]المصدر السابق نفسه (٥٩/٣).

.[٥٠٦]يعني: الضَّالُّون.

.[٥٠٧]انظر: رسالة الأنبياء (٥٩/٣).

.[٥٠٨]المصدر السابق نفسه ، (٥٩/٣).

.[٥٠٩]انظر: تهذيب السِّيرة (٧٤/١ ، ٩٠).

.[٥١٠]انظر: تفسير ابن كثير (٥٨٦/٢).

.[٥١١]انظر: رسالة الأنبياء (٦٦/٣).

.[٥١٢]مثل: سلمان العودة ، ومحمد العبدة ، وعبد الرحمن الملاَّحي.

.[٥١٣]انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن القيم (٢٢٥/٢).

.[٥١٤]انظر: الطريق إلى المدينة ، لمحمد العبدة ، ص ٤٣.

.[٥١٥]الطِّوَل: هو الحبل.

.[٥١٦]أي: سقط عنها ، فاندقَّت عنقه ، فمات.

.[٥١٧]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٨٣.
.[٥١٨]تفسير الطَّبريّ (١٢٦/٢٣) ، والدرُّ المنثور (١٤٦/٧).
.[٥١٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٨٦.

.[٥٢٠]المصدر السابق ، ص ٩٦ ـ ١٠٦.

.[٥٢١]الفوائد ، لابن القيِّم ، ص ٢٨٣.
.[٥٢٢]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السيد محمَّد يوسف ، ص ٢٣٥.

.[٥٢٣]في ظلال القران (١٨٠/٢).
.[٥٢٤]المصدر السابق نفسه ، (٣٨٧/٦).
.[٥٢٥]في ظلال القران (٣٨٩/٦).

.[٥٢٦]المصدر السابق نفسه ، (١٨١/٢).
.[٥٢٧]المصدر السابق نفسه ، (١٨٠/٢).
.[٥٢٨]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٩٢ ، ١٩٣.
.[٥٢٩]المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.

.[٥٣٠]انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٤ ، وانظر: فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص ٨ إلى ١١.
.[٥٣١]انظر: فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص ١٥ إلى ٢٨.

.[٥٣٢]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٧٨.
.[٥٣٣]فلك عَقْلُه: أي: ديته إذا قتل.

.[٥٣٤]تسومونني: تُبادِلُونني.
.[٥٣٥]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٨٤.

.[٥٣٦]السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢٦٩/١).

.[٥٣٧]حمراء: كناية عن الرُّمح.

.[٥٣٨]أبيض عضب: كناية عن السيف.

.[٥٣٩]السيرة النبوية ، لابن هشام (٢٧٣/١).

.[٥٤٠]ونسلمه حتى نصرع حوله: أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.

.[٥٤١]الحلائل: الزوجات.

.[٥٤٢]الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.

.[٥٤٣]الدغاول: الدواهي.

.[٥٤٤]قيْل: الرَّئيس الكبير في اليمن.

.[٥٤٥]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢١٢.

.[٥٤٦]بوائل: بناج.

.[٥٤٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢١٢.

.[٥٤٨]الزَّمزمة: كلام خفيٌّ لا يسمع.

.[٥٤٩]العذق: النَّخلة.

.[٥٥٠]الجناة: ما يجنى من الثَّمر.

.[٥٥١]السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص ١٥٠ ، ١٥١ ، وتهذيب السِّيرة (٦٤/١ ، ٦٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٠٠/٢) ، وابن هشام في السيرة النبوية (٢٨٨/١ ـ ٢٨٩).

.[٥٥٢]واسعاً.

.[٥٥٣]أي: سأصليه عذاباً شديداً.

.[٥٥٤]أي: تروَّى ماذا يقول في القران.

.[٥٥٥]أي: قبض بين عينيه ، وكلَّح ، وقطَّب.

.[٥٥٦]أي: هذا سحرٌ ينقله محمَّد عن غيره ممَّن قبله ، ويحكيه عنهم.

.[٥٥٧]انظر: الحرب النفسَّية ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٠٣.

.[٥٥٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١/١٢٣).

.[٥٥٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١/١٢٧ ـ ١٣٧).

.[٥٦٠]ناعُوسُ البحر: معناه: وسطه ، أو لجَّته ، أو قعره الأقصى.

.[٥٦١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/١٣٢ ، ١٣٣) ، وانظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص ١١١ ـ ١١٣).

.[٥٦٢]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/١٠٩).

.[٥٦٣]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٦ إلى ١٠٩.

.[٥٦٤]انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى ، (١/١٢٦).

.[٥٦٥]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٧٦) ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للدُّكتور العمري (١/١٤٦).

.[٥٦٦]حصينة: يعني عاقلاً متحصِّناً بدين ابائه وأجداده ، ومعتقداتهم. انظر: النهاية (١/٢٣٤).

.[٥٦٧]الإصابة في تمييز الصَّحابة ، لابن حجر ، (١/٣٣٧) وعنه نقل الشَّيخ محمد يوسف الكاندهلوي في: حياة الصحابة (١/٧٥ ، ٧٦) ، وبنحوه مختصراً رواه الترمذي (٣٤٨٣).

.[٥٦٨]انظر: فقه الدعوة الفردية ، د. السيد محمد نوح ، ص ١٠٤.

.[٥٦٩]مسلمٌ ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل أبي ذرٍّ ، رقم (٢٤٧٤) ، والبخاريُّ رقم (٣٨٦١) ، و(٣٥٢٢).

.[٥٧٠]ما شفيتني ممَّا أردت: ما بلغتني غرضي ، وأزلت عنِّي همَّ كشفِ هذا الأمر.

.[٥٧١]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٨٣.

.[٥٧٢]شَنِفُوا له أي: أبغضوه ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٤٥).

.[٥٧٣]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص ٩١ ـ ٩٣).

.[٥٧٤]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، د. إبراهيم علي ، ص ٥٨ ، ٥٩.

.[٥٧٥]انظر: دروس في الكتمان ، لمحمود شيت خطَّاب ، ص ٩.
.[٥٧٦]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ٩٥.
.[٥٧٧]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٦١).
.[٥٧٨]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة (ص ٩٤ ، ٩٥).

.[٥٧٩]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٠.
.[٥٨٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/٤٥).
.[٥٨١]التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/١٤٤).

.[٥٨٢]يعفِّر وجهه:أي يسجد ، ويلصق وجهه بالعفر ، وهو التراب.
.[٥٨٣]فجئَهم: بغتهم.
.[٥٨٤]عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.
.[٥٨٥]زبره: نهره.
.[٥٨٦]القَليب: البئر المفتوحة.

.[٥٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمريِّ (١/١٤٩) ، وانظر كذلك المصدر السَّابق.
.[٥٨٨]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي من طرقٍ أخرى ، ص ٩٦.
.[٥٨٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٢٩٣).
.[٥٩٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/١٥٣).

.[٥٩١]والد الرَّسول (ص) من الرَّضاعة.
.[٥٩٢]انظر: الرَّوض الأنف (٢/٣٣) وما بعدها.
.[٥٩٣]المصدر السابق نفسه ، (٢/٤٨).
.[٥٩٤]انظر: زاد اليقين ، لأبي شنب ، ص ١٣٧.
.[٥٩٥]انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٤٣.
.[٥٩٦]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، د. سليمان السُّويكت ، ص ١٩٧.

.[٥٩٧]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٤٣.

.[٥٩٨]انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٤٣٩/١ ـ ٤٤١) ، والبداية والنِّهاية (٣٠/٣).
.[٥٩٩]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٧٩.
.[٦٠٠]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠.

.[٦٠١]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة في جوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠.
.[٦٠٢]المصدر السابق نفسه ، ص ٥١.

.[٦٠٣]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدُّروس الأمنيَّة.
.[٦٠٤]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٧٩.
.[٦٠٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٧٥.

.[٦٠٦]انظر: التَّربية القياديَّة (١٣٦/١).
.[٦٠٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٤/١).
.[٦٠٨]انظر: التَّربية القيادية (١٤٠/١).
.[٦٠٩]انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، ص ٩٢.
.[٦١٠]انظر: الطبقات الكبرى ، لابن سعد (٢٣٢/٣) ، ورجاله ثقات.

.[٦١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٣/١).
.[٦١٢]حلٌّ: تحلَّلي من يمينك.
.[٦١٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٣/١).
.[٦١٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٤٦/١).
.[٦١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٣/١).
.[٦١٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٣٤٥/١).

.[٦١٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٤٢/١).
.[٦١٨]انظر: سيرة ابن هشام (٣١٩/١) ، وتفسير الالوسي (١٥٢/٣٠).
.[٦١٩]انظر: أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ (١٠٠/١ ، ١٥٧).
.[٦٢٠]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٦٨/٢).
.[٦٢١]بهجة المحافل ، للعامريِّ (٩٢/١).

.[٦٢٢]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٩٧ ، ٩٨.
.[٦٢٣]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٩٩.
.[٦٢٤]التَّربية القياديَّة (٢١٧/١).
.[٦٢٥]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٩٨.
.[٦٢٦]التَّربية القياديَّة (٢١٧/١ ، ٢١٨).
.[٦٢٧]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٠.
.[٦٢٨]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ١٠٣.

.[٦٢٩]المصدر السابق نفسه.
.[٦٣٠]تفسير ابن كثير (٤٤٦/٣).
.[٦٣١](شجروا فاها ثم أوجروها): أي فتحوا فمها ، وصبُّوا فيه الطَّعام.
.[٦٣٢]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٦.

.[٦٣٣]انظر: الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، (ص ١٧٤ ، ١٧٥).
.[٦٣٤]الطَّبقات الكبرى (١١٦/٣).
.[٦٣٥]القعب: القدح الغليظ ، والحيس: تمر ، وأقط ، وسمن تخلط ، وتعجن.
.[٦٣٦]الرَّوض الأنف (١٩٥/٢).
.[٦٣٧]سير أعلام النبلاء ، للذَّهبي (١٠/٣ ـ ١٢).
.[٦٣٨]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٧.

.[٦٣٩]السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص١٩٣ .

.[٦٤٠]الطَّبقات الكبرى (١١٦/٣).

.[٦٤١]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٨ .

.[٦٤٢]انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد ، لمحمد بريغش ، ص ١٠٥ .

.[٦٤٣]المصدر السَّابق نفسه ، (ص ١٠٥ ، ١٠٧).

.[٦٤٤]انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد ، ص ١٢٦ .

.[٦٤٥]قيناً: حداداً.

.[٦٤٦]سير أعلام النبلاء (٤٧٩/٢).

.[٦٤٧]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٩٥.

.[٦٤٨]انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، ص ٩٦.

.[٦٤٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

.[٦٥٠]القَيْنُ: الحداد ، والجمع: قُيُون.

.[٦٥١]الرَّوض الأنف (٩٨/٢).

.[٦٥٢]البداية والنِّهاية (٣٢/٣) ، وسير أعلام النُّبلاء (٤٦٥/١).

.[٦٥٣]انظر: عبد الله بن مسعود ، لعبد الستار الشَّيخ ، ص٤٣ .

.[٦٥٤]الإصابة (٢١٤/٦).

.[٦٥٥]انظر: عبد الله بن مسعود ، ص٤٥.

.[٦٥٦]انظر: ابن هشام (٣١٤/١ ـ ٣١٥) ، وأسد الغابة (٣٨٥/٣ ـ ٣٨٦).

.[٦٥٧]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّي ، ص ٨٨.

.[٦٥٨]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٦٠/١).

.[٦٥٩]السِّيرة النَّبوية ، للذَّهبِيِّ ، ص ١١٢ .

.[٦٦٠]السِّيرة النَّبوية لابن هشام (٢/١٢٠).
.[٦٦١]انظر: طبقات الشُّعراء ، لابن سلام ، (ص ٤٨ ، ٤٩).
.[٦٦٢]شَرِيَ: عظم.
.[٦٦٣]السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، (ص ١٧٨ ـ ١٨٠).

.[٦٦٤]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيّ ، (ص ١١٦ ، ١١٧).
.[٦٦٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٥٨).
.[٦٦٦]الظلال (٢/٧١٤).

.[٦٦٧]ابن الدُّغنَّة: رجلٌ جاهليٌّ أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه ، وأراد الهجرة إلى الحبشة ، انظر: الإصابة (٢/٣٤٤).

.[٦٦٨]الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، لخَّص نقاطاً من الظلال ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، وفي ظلال القران (٢/٧١٤ ، ٧١٥) ، وفي (معالم في الطَّريق) (ص ٦٩ ـ ٧١).
.[٦٦٩]انظر: التفسير المنير ، للزُّحَيلي (٧/٣٢٥).
.[٦٧٠]المصدر السَّابق نفسه ، (٧/٣٢٦).

.[٦٧١]انظر: الولاء والبراء ، ص ١٧١.

.[٦٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٦٠).
.[٦٧٣]انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٢٨.

.[٦٧٤]انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، (ص ١٢٥ ـ ١٤٠).

.[٦٧٥]انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص ٢٦٩.
.[٦٧٦]المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١.
.[٦٧٧]انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١.

.[٦٧٨]الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص ٢٧١ .
.[٦٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٦٧) مع تصرُّف في العدد بدل مئة: بلايين.
.[٦٨٠]تفسير ابن عطيَّة (١٥/٣١٦) ، والقاسمي (١٧/٥٤).
.[٦٨١]انظر: المستفاد من قصص القران ، لعبد الكريم زيدان (٢/٨٩).

.[٦٨٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٤).

.[٦٨٣]البداية والنِّهاية ، لابن كثير (٣/٦٨ ـ ٦٩).

.[٦٨٤]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/٢٩٤).
.[٦٨٥]انظر: التَّحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص ٣٣.
.[٦٨٦]انظر: معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٧٥.

.[٦٨٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ١٦٩ .
.[٦٨٨]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٧.
.[٦٨٩]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٣٠٤).
.[٦٩٠]انظر: الوفود في العهد المكي ، لعلي الأسطل ، ص ٣٧.

.[٦٩١]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/١٩٧) ، والتَّربيَّة القياديَّة (١/٣٠٥).
.[٦٩٢]تاريخ صدر الإسلام ، لعبد الرحمن الشُّجاع ، ص ٣٩.
.[٦٩٣]ابن هشام (١/٣٦٢).

.[٦٩٤]التِّبْرُ: فُتَاتُ الذَّهب أو الفضَّة قبل أن يُصاغا.
.[٦٩٥]انظر: في ظلال القران (٦/٣٩٩١) بتصرفٍ كبير.
.[٦٩٦]أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص ٢٠٠ ، ونور اليقين ، للخضريِّ ، ص ٦١ بتصرف.

.[٦٩٧]في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩.
.[٦٩٨]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩.
.[٦٩٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٩١.

.[٧٠٠]تفسير ابن كثير (١٧٢/٢).
.[٧٠١]تفسير ابن كثير (٢٤٤/٤).

.[٧٠٢]في ظلال القران (٣٣٩٩/٦).
.[٧٠٣]تفسير السَّعدي (١٩٥/٧ ، ١٩٦).
.[٧٠٤]الصَّلفَ: التَّكبُّر والتَّفاخر.
.[٧٠٥]انظر: مقومات الدَّاعية النَّاجح ، د. علي بادحدح ، ص ٥٩ إلى ٦٩ ، والأساليب السَّابقة من هذا الكتاب.

.[٧٠٦]انظر: المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة ، د. سميرة محمد ، ص ١٧١ ، ١٧٢.
.[٧٠٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٣١١/١).
.[٧٠٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤٥٩/١).
.[٧٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣١٧/١).

.[٧١٠]يعني لو أنَّ هناك قراناً بهذه الصِّفات أو هذه الشُّروط؛ لكان هذا القران الكريم ، فهو ليس له مثيلٌ ، لا من قبل ، ولا من بعد ، فجواب (لو) محذوفٌ ، دلَّ عليه المقام.
.[٧١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٢٠/١ ، ٣٢١).

.[٧١٢]صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٩٠.
.[٧١٣]انظر: الوفود في العهد المكي ، ص ٤٠ ـ ٥١.
.[٧١٤]معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، لمصطفى مسلم ، ص ٣٠ ، ٣١.
.[٧١٥]المصدر السابق نفسه.

.[٧١٦]انظر: معالم قرانية في الصراع مع اليهود ، ص ٣١٦.

.[٧١٧]انظر: معالم قرانيَّة في الصراع مع اليهود ، ص ٣٩ ، ٤٠.

.[٧١٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٤.

.[٧١٩]انظر: معالم قرانية في الصَّراع مع اليهود ، ص ٥٥ إلى ٦٠.
.[٧٢٠]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، د. عبد الله الشَّقاوي (١/١٨٨).

.[٧٢١]أي: لم يقل: (إن شاء الله).
.[٧٢٢]انظر: مباحث في التَّفسير الموضوعي ، لمصطفى مسلم ، ص ١٨٩.
.[٧٢٣]انظر: تأمُّلات في سورة الكهف ، للشَّيخ أبي الحسن النَّدوي ، ص ٤٦ ، وانظر: معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، ص ٦١.
.[٧٢٤]معركة الوجود بين القران والتلمود ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، نقلاً عن معالم قرانيَّة ، لمصطفى مسلم ، ص ٢٩.
.[٧٢٥]انظر: ظاهرة الإرجاء ، د. سفر الحوالي (١/٥٠).
.[٧٢٦]لمعرفة تفصيلات قصَّة الشِّعْب وما تخلَّلها من أحداث ، انظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقي (٢/٨٠ ـ ٨٥) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٤٣ ـ ٧٢) ، والرَّوض (٢/١٠١ ـ ١٢٩) ، والسيرة النبوية؛ لابن هشام (١/٣٧٥ ـ ٣٧٦).

.[٧٢٧]السيرة النبوية ، لابن هشام (١/٣٥٠) ، وزاد المعاد (٢/٤٦) ، والكامل في التاريخ (٢/٨٧).
.[٧٢٨]انظر: ظاهرة الإرجاء (١/٥١).
.[٧٢٩]انظر: فقه السيرة النبوية ، للغضبان ، ص ١٨٠.
.[٧٣٠]انظر: الغرباء الأولون ، ص ١٤٨ ، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم (٧).

.[٧٣١]انظر: السيرة النبوية ، لابن كثير (٢/٤٣ ـ ٥٠ ، ٦٧ ـ ٦٩).
.[٧٣٢]السيرة النبوية (١/٣٧٧).

.[٧٣٣]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٧٧/١) ، والرَّحيق المختوم ، ص ١٢٩ .
.[٧٣٤]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٧٧/١) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ١٢٠ .
.[٧٣٥]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة . قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٦.

.[٧٣٦]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة . لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٦ ، ٩٧.
.[٧٣٧]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ، السِّيرة النَّبوية ، لسعيد حوى (٢٦٤/١).
.[٧٣٨]المصدر السابق نفسه.

.[٧٣٩]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٨٨.
.[٧٤٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٤٥/١).
.[٧٤١]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، للغضبان ، ص ٣٥ إلى ٣٧.
.[٧٤٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ١٨٥.
.[٧٤٣]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦.

.[٧٤٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٧١/١).
.[٧٤٥]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٨٤/١ ، ٣٨٥).
.[٧٤٦]السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ١٦٧ .

.[٧٤٧]انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٠١ .
.[٧٤٨]تفسير ابن كثير (٣١٢/٢).
.[٧٤٩]انظر: الغرباء الأولون ، ص ١٤٩ .

.[٧٥٠]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٨.

.[٧٥١]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، (ص ٢٤٨ . ٢٥٠).
.[٧٥٢]انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح ، لمحمَّد قطب ، ص ٢٦٢ ، وما بعدها بتصرف.

.[٧٥٣]انظر: لقاء المؤمنين ، (١٢٤/٢) ، وما بعدها بتصرُّف.
.[٧٥٤]في ظلال القران (١٤٧٦/٣).

.[٧٥٥]انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٥٤.
.[٧٥٦]انظر: الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، ص ٦٤.

.[٧٥٧]ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٤٥).
.[٧٥٨]الجامع لأحكام القران (١٠٧/١٠).
.[٧٥٩]المصدر السابق نفسه (٢٤٠/١٥).
.[٧٦٠]تفسير ابن كثير للاية رقم (٥٦) من سورة العنكبوت (٣٣٥/٥).

.[٧٦١]الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص ٢٩٠.
.[٧٦٢]المغازي النبَّويَّة ، للزُّهري ، تحقيق: سهيل زكَّار ، ص ٩٦.
.[٧٦٣]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٨/١).

.[٧٦٤]في ظلال القران (٢٩/١).
.[٧٦٥]المنهج الحركي للسِّيرة (٦٧/١ ، ٦٨).
.[٧٦٦]سيرة الرَّسول (ص) (٢٦٥/١) عن الشَّامي ، ص ١١١.

.[٧٦٧]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، ص ٣٤.
.[٧٦٨]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، تحقيق: همام أبو صعليك (٤١٣/١).
.[٧٦٩]المصدر السابق نفسه ، (٣٩٧/١).

.[٧٧٠]رَفَاغاً: الرَّفْغ والرَّفاغة: سعة العيش ، والخصب.
.[٧٧١]مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، ص ١٠٤.
.[٧٧٢]انظر: الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ، ص ٢٧.

.[٧٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء ، ص ٧٢.
.[٧٧٤]السِّير والمغازي ، تحقيق سهيل زكَّار ، ص ٢٣٢.
.[٧٧٥]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وأصحابه في القران والسُّنَّة ، ص ٩٧.
.[٧٧٦]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٧/١).
.[٧٧٧]الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٦.
.[٧٧٨]مغازي الزُّهري ، ص ٩٦.

.[٧٧٩]صحيح السِّيرة النَّبويَّة (١٥٢/٢).
.[٧٨٠]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٨ ، ويعتبر مبحث الحبشة جلُّه قد أخذ من هذا الكتاب والذي بعده.
.[٧٨١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١.
.[٧٨٢]طبقات ابن سعد (٢٠٤/١).
.[٧٨٣]تاريخ الطَّبري (٣٢٩/٢).
.[٧٨٤]عيون الأثر (١١٦/١).
.[٧٨٥]زاد المعاد (٢٣/٣).
.[٧٨٦]شرح المواهب (٢٧١/١).

. البداية والنِّهاية (٩٦/٣ ، ٩٧)، وسيرة ابن هشام (٣٤٤/١ . ٤٥٢) والهجرة في القرآن الكريم ص ٢٩٢ إلى ٢٩٤.

.[٧٨٧]البداية والنِّهاية (٦٧/٣) ، نقلاً عن (الهجرة في القران الكريم) ، ص ٢٩٤. وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٧٢).
.[٧٨٨]أنساب الأشراف للبلاذري (١٥٦/١ . ١٩٨) ، وابن هشام (٣٩٢/١ . ٣٩٦).
.[٧٨٩]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٣٧.
.[٧٩٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٥.

.[٧٩١]انظر: مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٨٤.
.[٧٩٢]فتح القدير (٤١٦/٣) ، وفتح الباري (٣٥٥/٨) ، وأسباب النزول للسُّيوطي على هامش الجلالين (١٦/٢) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٦.

.[٧٩٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٨.
.[٧٩٤]انظر: الشِّفا (١١٧/٢).
.[٧٩٥]فتح الباري ، عند شرح حديث رقم (٤٨٦٢).
.[٧٩٦]تفسير ابن كثير والبغوي (٦٠٠/٦ وما بعدها) ، نقلاً عن الهجرة في القران ، ص ٢٩٨.
.[٧٩٧]القاموس المحيط (٢٨١/٣) مادَّة (الغرنوق).

.[٧٩٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.
.[٧٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة ، لأبي شهبة (٣٧٢/١).
.[٨٠٠]مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٩٠.
.[٨٠١]السِّيرة النَّبويَّة (٢٩٤/١) ، وعازُّوا قريشاً: أي: غلبوهم.
.[٨٠٢]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٦٥/١).

.[٨٠٣]صبأ: خرج من دين إلى دينٍ اخر ، القاموس المحيط ، باب الهمزة (٢٠/١).
.[٨٠٤]سبل الهدى والرَّشاد للصالحي (٤٩٨/٢ ، ٤٩٩).
.[٨٠٥]تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيد الوكيل ، ص ٥٩ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٢.
.[٨٠٦]انظر: القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين (ص) ، د. محمد النَّجار ، ص ١١١ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٢.
.[٨٠٧]طبقات ابن سعد (٢٠٧/١) (ط. بيروت) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٣.
.[٨٠٨]انظر: الرَّوض الأنف ، للسهيلي (٢٢٨/٣).
.[٨٠٩]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٣.
.[٨١٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٤.

.[٨١١]الجلد: القوَّة والشدَّة.

.[٨١٢]الأدم: جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ.
.[٨١٣]جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم.
.[٨١٤]أعلى بهم عيناً: قال السُّهيلي: أي: أبصر بهم ، أي: أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم ، وانظر: الرَّوض الأنف (٩٢/١).
.[٨١٥]والمعنى: لا والله!
.[٨١٦]لا أكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد ، وفي سيرة ابن هشام: ولا يُكادُ قوم جاوروني.
.[٨١٧]أخرجه أحمد (٥/٢٩٠) وقال: إسناده صحيح ، ورقمه (٢٢٤٩٨).

.[٨١٨]أساقفته: جمع الأسقف ، وهو العالم والرَّئيس من علماء النَّصارى.
.[٨١٩]أي: أناجيلهم ، وكانوا يسمُّونها مصاحف.
.[٨٢٠]مسند الإمام أحمد (٢٠٢/١ ، ٢٠٣).
.[٨٢١]ابتلت بالدُّموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندي ، النهاية (٤٣/٣).

.[٨٢٢]مسند الإمام أحمد (٢٠٢/١ ، ٢٠٣) ، ولا يُكادون: لعل المعنَّى: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم ، ويعذِّبوهم.
.[٨٢٣]أستأصل به خضراءهم: أي بما أجتثُّ به شجرة حياتهم.
.[٨٢٤]العذارء: الجارية التي لم يمسَّها رجلٌ ، وهي البكر.
.[٨٢٥]يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرِّجال ، لا شهوة لها فيهم.
.[٨٢٦]فتناخرت: أي: تكلَّمت ، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٌ.

.[٨٢٧]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٩.
.[٨٢٨]أسد الغابة (٩٩/١) ، والإصابة (١٠٩/١).
.[٨٢٩]السِّيرة النَّبوية ، للدُّكتور مصطفى السِّباعي ، ص ٥٧.
.[٨٣٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٢.

.[٨٣١]انظر: التَّربية القياديَّة ، للغضبان (١/٣٣٣).
.[٨٣٢]أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٤٢٧ .
.[٨٣٣]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٣٣٣).
.[٨٣٤]تفسير الطَّبري (٦/١١) ، وتفسير ابن كثير (٢/٣٣١).
.[٨٣٥]الرَّوض الأنف ، للسُّهيليِّ (٢/٩٢) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٢.

.[٨٣٦]الهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٦.
.[٨٣٧]فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٢٦ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٧.
.[٨٣٨]انظر: في السِّيرة النَّبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠١ .
.[٨٣٩]المصدر السَّابق نفسه.

.[٨٤٠]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٣١٧).
.[٨٤١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢/٩٢).
.[٨٤٢]الذُّؤابة من كلِّ شيء: أعلاه.
.[٨٤٣]التَّربية القياديَّة (١/٣٣٥).

.[٨٤٤]انظر: سفراء النَّبيِّ (ص) لمحمود شيت خطاب (٢/٢٥٢ إلى ٣١٧).
.[٨٤٥]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٣١٩ ، ٣٤٠).
.[٨٤٦]الاسن: المتغيِّر الفاسد.

.[٨٤٧]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠٦ .
.[٨٤٨]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٣٣٧).
.[٨٤٩]المصدر السابق نفسه (١/٣٤٢).

.[٨٥٠]انظر: التربية القياديَّة (١/٣٤٢).
.[٨٥١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢/١٠٥).
.[٨٥٢]المصدر السابق نفسه (٢/١٠٦).

.[٨٥٣]الفتاوى (٤٣/٢٢).

.[٨٥٤]الكبائر ، ص ١٢.
.[٨٥٥]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٢٠٥.
.[٨٥٦]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ١٦٧.
.[٨٥٧]انظر: شرح المواهب (٢٧١/١).

.[٨٥٨]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ١٨٨.
.[٨٥٩]الطَّبقات (٣/٨).
.[٨٦٠]السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٧.
.[٨٦١]انظر: شرح المواهب (٢٧١/١).

.[٨٦٢]هَجرَ: هي الأحساء.
.[٨٦٣]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٦٩ ، ١٧٠.
.[٨٦٤]انظر: أضواء على الهجرة ، ص ١٥٦ إلى ١٦١ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٢٠.
.[٨٦٥]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٧٠ ، ١٧١.

.[٨٦٦]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٨٣).
.[٨٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١٨٤/١).
.[٨٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١٨٥/١).
.[٨٦٩]المصدر السابق نفسه.

.[٨٧٠]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٣٤.
.[٨٧١]المصدر السابق نفسه (ص ٣٦ ـ ٤٥).
.[٨٧٢]ينظر الشكل (١٠) في الصفحة (٧٤٦).

.[٨٧٣]انظر: تفسير الالوسي (٨٩/١٠).

.[٨٧٤]انظر: مقوِّمات الدَّعوة والدَّاعية ، بادحدح ، ص ١٢٣.
.[٨٧٥]طبقات ابن سعد (٢٢١/١) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١٨٥/١).
.[٨٧٦]انظر: فتح الباري ، كتاب الكفالة ، شرح حديث رقم (٢٢٩٤).
.[٨٧٧]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٧٣.

.[٨٧٨]المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٧٤.
.[٨٧٩]انظر: أصول الفكر السياسي في القران ، ص ١٧٤.
.[٨٨٠]المصدر السابق نفسه ، ص (١٧٥).

.[٨٨١]سيرة ابن هشام (٧٨/٢).
.[٨٨٢]المصدر السابق نفسه.
.[٨٨٣]فيُذْئرهم: يجرِّئهم ويثيرهم.
.[٨٨٤]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكي.
.[٨٨٥]في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءةٌ لجوانب الحيطة والحماية ، ص ١٠٩ ، ١١٠.

.[٨٨٦]تجهمه: استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحِّب به ، ولا راغبٍ فيه.
.[٨٨٧]العتبى: الاسترضاء والرِّضا.
.[٨٨٨]ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبوية الصحيحة (١٨٦/١) ، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته ، وبيَّن أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه ، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبويَّة) ص ١٣٦ ، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقيه قويٌّ مقبول ، وخرَّج طرقه في كتابه الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٣٨.
.[٨٨٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢٠/٣).

.[٨٩٠]انظر: في السِّيرة النَّبوية ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٢ ، ١١٣.
.[٨٩١]انظر: مقوِّمات الدَّاعية النَّاجح ، ص ٧٦.

.[٨٩٢]هو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، ويسمَّى الان السيل الكبير.
.[٨٩٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/٢٦ ، ٢٧).

.[٨٩٤]انظر: زاد المعاد (٢/٤٦).
.[٨٩٥]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكِّيِّ ، ص ١٧٦.

.[٨٩٦]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكِّيِّ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨.
.[٨٩٧]زاد المعاد (٢/٤٧).
.[٨٩٨]محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لصادق عرجون (٢/٣٢٤).

.[٨٩٩]أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ ، تحقيق: محمَّد حميد الله (١/٧١).
.[٩٠٠]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكي ، ص ١٨٠.

.[٩٠١]انظر: التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٣٦.
.[٩٠٢]انظر: التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٤٤.
.[٩٠٣]البداية والنِّهاية (٣/١٣٦).
.[٩٠٤]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/٣٢).

.[٩٠٥]انظر: أصول الفكر السياسيُّ ، ص ١٨١.
.[٩٠٦]انظر: الرَّسول المبلِّغ ، للخالديِّ ، ص ٣٩ ، ٤٠.
.[٩٠٧]صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧.

.[٩٠٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٣/٢٢).
.[٩٠٩]انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٢/٥٧٨).
.[٩١٠]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٤٣٧).

.[٩١١]انظر: التربية القيادية (١/٤٤٣).

.[٩١٢]المصدر السابق نفسه ، (١/٤٤٥).

.[٩١٣]المصدر السابق نفسه.

.[٩١٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٠٥ ، ١٠٦.

.[٩١٥]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٤٤٦).

.[٩١٦]انظر: دراسةٌ تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ١٢٨.

.[٩١٧]انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (١/٢٩١ ، ٢٩٢).

.[٩١٨]انظر: الأساس في السُّنَّة (١/٢٩٢).

.[٩١٩]الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

.[٩٢٠]الفطرة: الإسلام ، والاستقامة.

.[٩٢١]الحطيم: هو ما بين الرُّكن والمقام.

.[٩٢٢]ات: هو جبريل عليه السلام.

.[٩٢٣]ثغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرَّقبة من الأمام.

.[٩٢٤]شعرته: شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة.

.[٩٢٥]القص: رأس عظام الصَّدر.

.[٩٢٦]يضع خَطْوَهُ عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.

.[٩٢٧]استفتح: طلب فتح باب السَّماء الدُّنيا.

.[٩٢٨]مرحباً به: أصاب رحباً ، وسعةً.

.[٩٢٩]أبكي؛ لأن غلاماً ...: ليس هذا على سبيل النَّقص ، بل على سبيل التَّنويه بقدرة الله وعظيم كرمه.

.[٩٣٠]رُفعت لي: قُرِّبت لي.

.[٩٣١]النَّبق: هو ثمر السِّدر.

.[٩٣٢]قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها ، وهجر: قرية في البحرين ، والقلَّة: الجرة الكبيرة.

.[٩٣٣]الفطرة: دين الإسلام.
.[٩٣٤]عالجتهم أشدَّ المعالجة: مارست بني إسرائيل أشدَّ الممارسة.

.[٩٣٥]انظر: الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (١/١٠٨).
.[٩٣٦]صهبة: بياض بحمرة.
.[٩٣٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٣/٣٧).
.[٩٣٨]الجُوالق: هو العِدْل الذي يوضع فيه المتاع.

.[٩٣٩]أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد.
.[٩٤٠]الثَّنيَّة: الطَّريق الجبلي.
.[٩٤١]انظر: التربية القياديَّة (١/٤٤٧).

.[٩٤٢]المصدر السابق نفسه (١/٤٥١).
.[٩٤٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي ، (٣/٤١ ، ٤٢).

.[٩٤٤]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي ، (٣/٤٣).
.[٩٤٥]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/١٨٩).
.[٩٤٦]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٩١).
.[٩٤٧]تفسير ابن كثير (٣/٢٣) ، وتفسير القاسمي (١٠/١٨٩).

.[٩٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٣.
.[٩٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ص ٣١٤.

.[٩٥٠]جريدة الدُّستور الأردنيَّة ، العدد (٤٦١٣) بقلم أميل الغوري ، نقلاً عن السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ٣١٤.
.[٩٥١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٥.
.[٩٥٢]انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ١٢٠ ، بتصرف.

.[٩٥٣]انظر: أصول الفكر السِّياسي في القران المكيِّ ، ص ١٤٩.

.[٩٥٤]يرى الدُّكتور فرست مرعي أستاذ التاريخ في جامعة صنعاء: أن بختنصَّر كلداني ، وليس فارسيّاً ، والأمر من الملك الكلداني.
.[٩٥٥]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥١.
.[٩٥٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٢.
.[٩٥٧]ابن خلدون ، (٢٠٦/٢).
.[٩٥٨]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥٢.
.[٩٥٩]أصول الفكر السِّياسيِّ ص ١٥٣.

.[٩٦٠]انظر: تفسير الطَّبري (١٢/٢١).
.[٩٦١]تفسير ابن عطيَّة (٤٢٥/١١).
.[٩٦٢]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥٨. .[٩٦٣]تفسير ابن كثير (٢٣/٣).
.[٩٦٤]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٩٣/٣).

.[٩٦٥]تفسير ابن كثير (٢٧٤/٤).
.[٩٦٦]وكلُّ ما ورد من روايات في هذه العقوبات الَّتي راها النَّبي (ص) في رحلة المعراج ، هو حديث مروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو موجودٌ في بعض كتب التفاسير ، وفي سيرة ابن هشام في قصَّة المعراج ، غير أنَّه لم يرد في هذا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله (ص) ، ولم يُخرج هذا الحديث في البخاريِّ أو في مسلم ، والله أعلم.
.[٩٦٧]تفسير الطَّبري (٧/١٥) ، والفتح الرباني (٢٥٧/٢٠).
.[٩٦٨]انظر: الخصائص الكبرى (١٧١/١) والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠.
.[٩٦٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠.